وَقفٌ للهِ تعَالى..

الأنوارُ السَّاطِعاتُ لآياتٍ جامعات

(أوِ البُرْهانُ المُحْكَم في أنَّ القُرآن يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أقْوَمُ)

تأليف
الفقير الى عفو ربه
عبد العزيز المحمد السلمان

الجزء الأول

طُبِعَ عَلى نَفَقَةِ مَن يَبْتَغِي بذلك وَجهَ اللهِ والدار الآخرة فَجَزاه اللهُ عن الإسلام والمسلمينَ خيراً وَغفرَ له ولوالديه ولمن يُعيدُ طِبَاعَتَه أو يُعِيْنُ عليها أو يَتَسَبَب لها أو يُشيرُ على مَنْ يُؤمِلُ فيه الخيرَ أن يَطبَعَه وقفاً للهِ تعالى يُوزَّع على إخوانِهِ المسلمين

اللهم صلى على محمد وعلى آله وسلم

الطبعة الرابعة
١٤١١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

الحمد لله الذى تفرد بالجلال والعظمة ، والعز والكبرياء والجمال ، وأشكره شكر عبد معترف بالتقصير عن شكر بعض ماأوليه من الإنعام والأفضال ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم تسليما كثيراً •

وبعد ، فبما أنى منذ زمن طويل وأنا ألتمس كتاباً تتناسب قراءته مع عموم الناس فيما بين العشاءين ، خصوصاً في شهر رمضان المبارك ، وحيث أن الناس يقبلون على تلاوة كتاب الله في شهر رمضان المبارك ، رأيت أن أكتب آيات من القرآن الكريم،وأجمع لها شرحاً وافياً بالمقصود من كتب المفسرين كابن جرير ، وابن كثير ، والشيخ عبد الرحمن الناصر السعدي ، والشيخ المراغي ونحوهم ، وسميته :

[] الأنوار الساطعات ، لآيات جامعات []

والله المسئول أن يجعل عملنا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن ينفع به من قرأه ومن سمعه ، إنه سميع قريب مجيب ، اللهم صل على محمد وآله وسلم •

عبد العزيز بن محمد
بن سلمان المدرس
في معهد إمام الدعوة
بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

[الحمد لله رب العالمين • الرحمن الرحيم • مالك يوم الدين • إياك نعبد وإياك نستعين • اهدنا الصراط المستقيم • صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين] •

الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله تعالى ، والاعتصام والالتصاق بجنابه من شر كل ذى شر ، والعياذة تكون لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب الخير ، ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أي أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أن يضرنى في دينى أو دنياى ، أو يصدنى عن فعل ماأمرت به ، أو يحثنى على فعل مانهيت عنه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرده طبعه عما هو فيه من الأذى ، وأمر بالاستعاذة به من شيطان الجن ، لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل ، لأنه شرير بالطبع ، ولا يكفه عنك إلا الذى خلقه •

وهذا المعنى في ثلاث آيات من القرآن في سورة الأعراف : «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداءمن البشر ، ثم قال : « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع عليم » ، وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون•وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » وقال في سورة حمٓ السجدة : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم • وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم • وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » •

والشيطان في لغة العرب مشتق من شطن إذا بعد ، فهو بعيد بطبعه

عن طباع البشر ، وبعيد عن كل خير ، ويقولون : تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين · فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ، ولهذا يسمون كل من تمرد من جنى وإنسي وحيوان شيطاناً ، قال الله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » ·

وفي مسند الإمام أحمد عن أبى ذر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا أبا ذر ، تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن ، فقلت : أو للإنس شياطين ؟ قال : نعم » ·

والرجيم فَعِيل بمعنى مَفْعول ، أى إنه مرجوم مطرود عن الخير كله·

السورة : طائفة من القرآن تشمل ثلاث آيات فأكثر، لها اسم يعرف بطريق الرواية ·

واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة ؟ فقيل : من الإبانة والارتفاع ، فكأن القارىء ينتقل بها من منزلة إلى منزلة ، وقيل : لشرفها وارتفاعها كسور البلدان ، وقيل : سميت سورة لكونها قطعة من القرآن ، وجزء منه مأخوذ من أسآر الإناء وهي البقية ، وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً ، وإنما خففت الهمزة فأبدلت الهمزة واواً لانضمام ماقبلها ، وقيل : لتمامها وكمالها ، لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة ، ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لآياتها ، كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره ·

وقد روى لهذه السورة عدة أسماء اشتهر منها : أم الكتاب ، وأم القرآن ، لاشتمالها على مقاصد القرآن من الثناء على الله، والتعبد بأمره، ونهيه، وبيان وعده ووعيده ، وتسمى السبع المثانى ، لأنها تثنى في الصلاة، ويقال لها الحمد ، ويقال لها الصلاة ، لقوله صلى الله عليه وسلم عن ربه: « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » ، ويقال لها الشفاء ، لما رواه الدارمى عن أبى سعيد مرفوعاً «فاتحة الكتاب شفاء من كل سُم» ، ويقال

لها الرقية،لحديث أبى سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أنها رقية » ٠

وروى عن ابن عباس أنه سماها أساس القرآن ، قيل : لأنها أصل القرآن وأول سورة فيه ، وسماها سفيان بن عيينة بالواقية ، وسماها يحي بن كثير الكافية لأنها تكفى عما عداها ، ولا يكفى ما سواها عنها ، وسميت الفاتحة لأنها أول القرآن في هذا الترتيب ، وبها تفتتح القراءة في الصلاة ٠

وأخرج البيهقى في كتابه الدلائل عن أبى ميسرة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة رضي الله عنها : إنى إذا خلوت وحدى سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً ، فقالت : معاذ الله ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أخبر ورقة بذلك ، وأن ورقة أشار عليه بأن يثبت ويسمع النداء ، وأنه صلى الله عليه وسلم لما خلا ناداه الملك : يا محمد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين » ٠

وقد رجح هذا بأنها مشتملة على مقاصد القرآن على سبيل الإجمال ، ثم فصل ما أجملته بعد ٠

بيان هذا أن القرآن الكريم اشتمل على التوحيد ، وعلى وعد من أخذ به بحسن المثوبة ، ووعيد من تجافى عنه وتركه ، بسيء العقوبة ، وعلى العبادة الخالصة للمعبود التى تحيي القلوب ، وتثبت النفوس ، ويزداد بها التوحيد والإيمان ، وعلى بيان سبيل السعادة الموصل إلى النعيم في الدارين ، وعلى القصص الحاوى أخبار المهتدين الذين وقفوا عند الحدود التى سنها الله لعباده ، وفيها سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، والضالين الذين تعدوا الحدود ونبذوا الأحكام الشرعية وراءهم ظهرياً ٠

وقد حوت هذه المعانى جملة فالتوحيد يرشد إليه قوله « الحمد لله رب العالمين » لأنه يدل على أن كل ثناء وحمد يصدر عن نعمة فهو له ،

(١) السليم : اي اللديغ ٠

وأهمها نعمة الإيجاد والتربية العامة والخاصة ، وذلك صريح قوله تعالى « رب العالمين » وقد استكمله بقوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وبذلك اجتث جذور الشرك التى كانت فاشية في جميع الأمم ، وهي اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحاجات، ويتقرب بهم إلى الله زلفى، والوعد والوعيد يتضمنهما قوله تعالى : « مالك يوم الدين » إذ الدين هو الجزاء ، وهو إما ثواب للمحسن ، وإما عقاب للمسيء .

والعبادة تؤخذ من قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » .

وطريق السعادة يدل عليه قوله « اهدنا الصراط المستقيم » إذ معناه أنه لا تتم السعادة إلا بالسير على ذلك الصراط القويم ، فمن خالفه وانحرف عنه كان في شقاء مقيم .

والقصص والأخبار يهدى إليها قوله « صراط الذين أنعمت عليهم »

فهو يرشد إلى أن هناك أمماً قد مضت، وشرع الله شرائع لهديها فاتبعتها وسارت على نهجها ، فعلينا أن نحذو حذوها ونسير على سننها .

وقوله : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » يدل على أن غير المنعم عليهم صنفان : صنف خرج عن الحق بعد علمه به وأعرض عنه بعد أن استبان له ورضي بما ورثه عن الآباء والأجداد وهؤلاء هم المغضوب عليهم ، وصنف لم يعرف الحق أبداً أو عرفه على وجه مضطرب فهو في عماية تلبس الحق بالباطل وتبعد عن الجادة الموصلة إلى الصراط المستقيم ، وهؤلاء هم الضالون .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

يرى بعض الصحابة كأبى هريرة ، وعلى ، وابن عباس ، وابن عمر، وبعض التابعين كسعيد بن جبير وعطاء والزهرى وابن المبارك وبعض فقهاء مكة وقرائها ومنهم ابن كثير وبعض قراء الكوفة وفقهائها ومنهم عاصم والكسائى والشافعى وأحمد أن البسملة آية من كل سورة من سور القرآن الكريم سوى سورة براءة .

ومن أدلتهم :

١ ـ ماورد في ذلك من الأحاديث ، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنزلت علي آنفا سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » وروى أبو داود عن ابن عباس : أن رسول الله صلى الله عليه كان لايعرف انقضاء السورة حتى ينزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم ، وروى الدارقطنى عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا قرأتم الحمد لله فاقرءوا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أم القرآن والسبع المثانى وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها » ٠

٢ ـ إجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أول كل سورة عدا سورة براءة مع الأمر بتجريد القرآن من كل ماليس منه ، ومن ثم لم يكتبوا آمين في آخر الفاتحة ٠

٣ ـ إجماع المسلمين على أن مابين الدفتين كلام الله تعالى والبسملة منه ٠

ثم اعلم وفقنا الله وإياك لما يحبه ويرضاه أن الفاتحة الركن الثالث من أركان الصلاة التى هى ثانى أركان الإسلام وقد قال صلى الله عليه وسلم : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » رواه الجماعة ، وفي لفظ : « لا تجزى صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » رواه الدارقطنى ٠

وفي حديث عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهى خداج » رواه أحمد وابن ماجه ٠ وفي حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج، يقولها ثلاثا » الحديث رواه الجماعة إلا البخارى وابن ماجه وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمره أن يخرج فينادى : لا صلاة إلا بقراءة فاتحة الكتاب فما زاد، رواه أحمد وأبو داود ٠ إذا فهمت ذلك

فكيف يليق بالمسلم أن يرضي لنفسه أن يناجي ربه بكلام لا يفهمه ولا يدرك معناه وقد أمر الله بتدبر القرآن ومدح الذين هم في صلاتهم خاشعون ولن يخشع ويخضع لله إذا كان لا يفهم ما يقول والله جل وعلا كرم بني آدم بالعلم والعقل على سائر الحيوانات والعاقل من يفهم مايقول ٠

قال ابن الجوزى : ومن تلبيس إبليس ـ لعنه الله ـ على القراء أنه شغلهم بتحسين القراءة والاشتغال بالشاذ طول عمرهم حتى شغلهم ذلك عن معرفة الفرائض والواجبات ولو تفكر هؤلاء لعلموا أن المراد حفظ القرآن وتقويم ألفاظه ثم فهمه ثم العمل به ثم الإقبال على مايصلح النفس ويظهر أخلاقها ثم التشاغل بالمهم من علوم الشرع ٠

وقال الحسن البصرى رحمه الله : أنزل القرآن ليعمل به ، فاتخذ الناس تلاوته عملا ، يعني أنهم اقتصروا على التلاوة وتركوا العمل به الخ

وقال ابن كثير رحمه الله على قول الله تعالى « وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » : فمن هجرانه ترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه وترك تدبره وتفهمه من هجرانه ، وترك العمل به وترك امتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه ٠ فتبين بذلك أنه على كل واحد من الناس أن يتدبر آيات الكتاب بقدر طاقته لا فرق بين عالم وجاهل لأنه أنزله جل وعلا لهداية الخلق وقال جل وعلا «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» فعليكم أيها الأخوان أن تلقوا أسماعكم إلى تفسيرها واليكم أول آية منها

بسم الله الرحمن الرحيم » : المشروع ذكر اسم الله تبركاً واستعانة وتيمناً والمتعلق بالياء في قوله (بسم الله) مقدر إما بفعل وإما باسم فأما من قدره باسم تقديره باسم الله ابتدائى فلقوله تعالى « وقال اركبو فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم » ومن قدره بالفعل أمراً أو خبرا نحو أبدأ بسم الله أو ابتدأت باسم الله فلقوله « اقرأ باسم

ربك الذى خلق » (الله) هو المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية وهي صفات الكمال (الرحمن الرحيم) اسمان دالان على أنه ذو الرحمة الواسعة العظيمة التى وسعت كل شيء وعمت كل حى ، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين كتبها للمتقين المتبعين لأنبياء ورسله قال تعالى « ورحمتى وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة » الآيتين ، وقال تعالى « وكان بالمؤمنين رحيما » ٠

قال ابن جرير : معنى الحمد لله الشكر لله خالصاً دون سائر مايعبد من دونه ودون كل مابرأ من خلقه بما أنعم على عباده من النعم التى لا يحصيها العد ولا يحيط بعددها غيره أحد في تصحيح الآلات لطاعته وتمكين أجسام المكلفين لأداء فرائضه مع مابسط لهم في دنياهم من الرزق وغذاهم به من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع مانبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخراً ٠

وقال رحمه الله : ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه فكأنه قال : قولوا الحمد لله ٠ قال : وقد قيل : إن قول القائل الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، اهـ ٠

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله » وقال الترمذى : حسن غريب ٠ وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماأنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ » وقال القرطبى في تفسيره وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لو أن الدنيا بحذافيرها في يد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكان الحمد لله أفضل من ذلك » قال القرطبي وغيره أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لا يفنى ونعيم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك

ثواباً وخير أملا » وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثهم : أن عبداً من عباد الله قال يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك فعضلت على الملكين فلم يدريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله وقالا ياربنا إن عبداً قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها قال وهو أعلم بما قال عبده : ماذا قال عبدى ؟ قالا يارب إنه قال لك الحمد يارب كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فقال الله لهما: أكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها • وقال شيخ الإسلام رحمه الله : والحمد نوعان حمد على إحسانه إلى عباده وهو من الشكر ، وحمد لما يستحقه هو بنفسه من نعوت كماله وهذا الحمد لا يكون إلا على ماهو في نفسه مستحق للحمد وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهى أمور وجودية فإن الأمور العدمية المحضة لا مدح فيها ولا خير ولا كمال ، ومعلوم أن كل مايحمد فإنما يحمد على ماله من صفات الكمال فكل مايحمد به الخلق فهو من الخالق والذى منه مايحمد عليه هو أحق بالحمد فثبت أنه المستحق للمحامد الكاملة وهو أحق من كل محمود •

وقال رحمه الله تعالى : وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن ما في قلوبهم من محبة الله لا يماثله فيها غيرها ، ولهذا كان الرب محموداً حمداً مطلقاً على كل مافعله،وحمداً خاصاً على إحسانه إلى الحامد فهذا حمد الشكر والأول حمده على مافعله ، وكما قال : « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » الآية ، وقال : « الحمد لله فاطر السموات والأرض » •

والحمد ضد الذم ، والحمد خبر بمحاسن المحمود ، مقرون بمحبته ، ولا يكون حمد المحمود إلا مع محبته ولا ذم المذموم إلا مع بغضه ، وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود ولا يكون حمد إلا بحب المحمود ، وهو سبحانه المعبود المحمود ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الاصلين تحميده وتوحيده ، وأفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله •

وقوله تعالى : « رب العالمين » الرب هو المعبود الخالق الرازق المتصرف المربى جميع العالمين بأصناف النعم بخلقه لهم وإعداده لهم الآلات وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة التى لو فقدوها لم يكن لهم البقاء فالنعم التى فيهم من الله قال تعالى « وما بكم من نعمة فمن الله » وتربيته تعالى لعباده نوعان عامة وخاصة فالعامة خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التى فيها بقاؤهم في الدنيا وأما الخاصة تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان ويوفقهم له ويكملهم ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير والعصمة من كل شر · والعالمين جمع عالم وهو كل موجود سوى الله عز وجل ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر وكل قرن وجيل منها يسمى عالماً أيضاً ·

« الرحمن الرحيم » تقدم الكلام عليهما بما أغنى عن إعادته ·

« مالك يوم الدين » قال ابن كثير : مالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون » ، « قل أعوذ برب الناس ملك الناس » وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » وقال « قوله الحق وله الملك » وقال « الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيراً » وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك عام في الدنيا والآخرة وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لايدعى أحد هنالك شيئا ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » وقال « وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همساً » وقال : « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد » اهـ ·

« يوم الدين » هو يوم الجزاء والحساب على الأعمال ، والتصديق الجازم بيوم الدين كلية من كليات العقيدة الإسلامية ، والإنكار لذلك

اليوم كفر ، قال تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لا يظلمون » وقال تعالى : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين » وقال تعالى : « وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والأمر يومئذ لله » ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » إنه اليوم الذى ترى فيه السماء قد انفطرت والكواكب منتثرة والنجوم منكدرة والشمس مكورة والجبال مسيرة والعشار معطلة ··· الخ ، يوم لا يفيد المنكر الكاذب احتياله وجحوده ، قال تعالى : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » في ذلك اليوم يجازى الله فيه الإنسان على ماقدم من خير أو شر ، فينتقم الله فيه من الظالمين ، ويكافيء العادلين ، وفي ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه تعالى وعدله ، وحكمته ، وانقطاع أملاك الخلائق حتى أنه يستوى في ذلك اليوم الملوك والرعايا ، والأحرار والعبيد كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته ، قال تعالى : « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » وكلهم منتظرون المجازاة ، فلهذا خص بالذكر وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام ·

وقوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » العبادة اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، وقيل : إن العبادة غاية الذل مع غاية الخضوع ، والاستعانة : الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به في تحصيل ذلك ، والمعنى نخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة ، فلا نعبد غيرك ، عهد بين العبد وربه أن لا يعبد إلا إياه ، وإياك نستعين عهد بين العبد وبين ربه أن لا يستعين بأحد غير الله ·

فالأولّ : تبرؤ من الشرك ·

والثاني : تبرؤ من الحول والقوة وتفويض إلى الله عز وجل ·

وهذا المعنى في غير آية من القرآن ، كما قال تعالى : « فاعبده وتوكل

عليه وما ربك بغافل عما تعملون » وقال تعالى : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا » وقال تعالى : « رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا » وكذا هذه الآية الكريمة ٠

وقال ابن كثير : وتحـول الكلام من الغيبـة إلى المواجهـة بكاف الخطاب ، وهو مناسب لأنه لما أثنى على الله فكأنه اقترب وحضر بين يدى الله تعالى ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع ، وأكثر إيقـاظاً له كما تقرر في علم المعـانى ، والمجيء بالنون في الفعلين لقصد الإخبار من الداعىعن نفسه وعن جنسه من العباد ، وقيل : إن المقـام لمـا كان عظيما لم يسـتقل به الواحـد استقصارا لنفسه واستصغاراً لها ، فالمجيء بالنون لقصد التواضع ، لا لتعظيم النفس ، وقدمت العبادة على الاستعانة لكون الأولى وسيلة إلى الثانية ، وتقديم الوسـائل سبب لتحصيل المطالب ، واطـلاق الاستعانة لقصد التعميم ٠

وعن ابن عباس في قوله « إياك نعبد » : يعنى إياك نوحد ونخاف يا ربنا لا غيرك « وإياك نستعين » على طاعتك وعلى أمورنا كلها ، والقيام بعبادة الله ، والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية ، والنجاة من جميع الشرور ، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما ، وإنمـا تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخـوذة عن رسول الله صلى الله عليه وسـلم مقصود بها وجه الله ، فبهذين الأمرين تكون عبادة ٠

« اهدنا الصراط المستقيم » والهـداية هنا الإرشـاد والتوفيق ، والمعنى دلنا وارشدنا وثبتنا ، وقد تعـدى الهداية بنفسـها كما هنـا فتضمن معنى الهمنا أو وفقنا أو ارزقنا أو أعطنا « وهديناه النجدين » اى بينا له الخير والشر ، وقد تعدى بإلى ، كقوله تعالى : « اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » ، « فاهـدوهم إلى صراط الجحيم » وذلك بمعنى الدلالة والإرشاد ، وكذلك قوله تعـالى : « وإنك لتهـدى إلى صراط

مستقيم » وقد تعدى باللام ، كقول أهل الجنة : « الحمد لله الذى هـدانا لهذا » أى وفقنا لهذا وجعلنا له أهلا ٠

وفرق بعض المتاخرين بين معنى المتعدى بنفسه وغير المتعدى ، فقالوا : معنى الأول الدلالة ، والثانى الإيصال، وطلب الهداية من المهتدين معناه طلب الزيادة ، كقوله تعالى: «والذين اهتدوا زادهم هدى» وقوله: « وزدناهم هدى » وقال : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » ٠

وقال ابن كثير : فإن قيل : كيف يسأل المؤمن الهداية في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصف بذلك؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟

فالجواب : أن لا ، ولولا احتياجه ليلا ونهاراً إلى سؤال الهداية لما أرشده الله تعالى إلى ذلك فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهداية ورسوخه فيها وتبصره وازدياده منها واستمراره عليها ، فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ماشاء الله فارشده إلى أن يسأله في كل وقت أن يمده بالمعرفة والثبات والتوفيق ، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله ، فإنه تعالى قد تكفل بإجابة الداعى إذا دعاه ، ولا سيما المضطر المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار ٠

والصراط لغة : الطريق ، قال ابن جرير : أجمعت الأمة من أهـل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطـريق الواضح الذى لا اعوجاج فيه ٠

وقال ابن القيم رحمه الله : ولا يكون الطريق صراطاً حتى يتضمن خمسة أمور : الاستقامة والإيصال إلى المقصود ، والقـرب ، وسعته للمارين عليه ، وتعيينه طريقاً للمقصود تضمن إيصاله إلى المقصود ، ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سعته ، وإضافته إلى المنعم عليهم ، ووصفه بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال يستلزم تعيينه طريقاً ٠

وقيل : إن الصراط المستقيم المذكور هنا القرآن الكريم ·

وقيل : إنه الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده ·

وقيل : الإسلام ·

قال ابن القيم رحمه الله : والقول الجامع في تفسير الصراط المستقيم أنه الطريق الذى نصبه الله لعباده على ألسنة رسله وجعله موصلا لعباده إليه ولا طريق لهم سواه وهو افراده بالعبودية وإفراد رسله بالطاعة وهو مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ونكتة ذلك وعقده أن تحبه بقلبك كله وترضيه بجهدك فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه ولا تكون إرادة إلا متعلقة بمرضاته وهذا هو الحق ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل به وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به فقل ماشئت من العبارات التى هذا أحسنها ·

ويضاف الصراط تارة إلى الله سبحانه وتعالى لأنه شرعه ونصبه، ويضاف تارة إلى العباد لأنهم أهل سلوكه ، وهو المنسوب لهم ، وهم المارون عليه ، فالأول وهو إضافته إلى الله كقوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما » · وقوله : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم صراط الله » والثانى كما في الفاتحة ، فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد واستقامته على هذا الصراط الذى نصبه الله لعباده في هذه الدار يكون ثبوت قدمه على الصراط الحسي الجسر المنصوب على متن جهنم ، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط فمنهم من يمر كلمح البصر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ومنهم من يمر كركاب الإبل ، ومنهم من يعدو عدواً ، ومنهم من يمشي مشياً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، ومنهم من يخطف خطفا ويلقى في جهنم · فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا حذو القذة

بالقذة جزاء وفاقاً هل تجـزون إلا ماكنتم تعملون ، ومماربك بظـلام للعبيد .

وقوله تعـالى : « صراط الذين أنعمت عليهـم » مفسراً للصراط المستقيم وانتصب على أنه بدل من الأول وفائدة التوكيد لمـا فيـه من التثنية والتكرير ، ويجوز أن يكون عطف بيان وفائدته الإيضـاح ، والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال الله تعالى : « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » .

وقال الضحاك عن ابن عباس : صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتك وعبادتك من ملائكتك وأنبيائك والصديقين والشهداء والصالحين، وذلك نظيرقوله تعالى : «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم» الآية وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام .

وقوله تعالى : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

قال ابن كثير رحمه الله : والمعنى إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصـفهم ونعتهم وهم أهـل الهـداية والاستقامة والطاعة لله ورسله وامتثال أوامره وترك نواهيه وزواجره غير صراط المغضوب عليهم وهم الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحق وعدلوا عنه ولا صراط الضالين وهم الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلال لا يهتدون إلى الحق وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثمَّ مسلكين فاسدين وهما طريقة اليهود والنصارى ولهـذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى لأن من علم وترك استحق الغضب بخلاف من لم يعلم ، والنصارى لمـا كانوا قاصدين شيئاً لكن لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه وهو اتباع الحق ضلوا وكل من اليهـود والنصارى ضال مغضوب عليه ، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم « من لعنه الله وغضب عليه » ، وأخص أوصاف

النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم « قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل » وبهذا جاءت الأحاديث والآثار فعن عدى بن حاتم قال : جاءت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذوا عمتي وناسا فلما أتوا بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوا له ، فقالت : يارسول الله نأى الوافد وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بى من خدمة فمن عليَّ من الله عليك. قال : من وافدك قالت : عدى بن حاتم، قال : الذى فر من الله ورسوله ؟ قالت : فمن علي فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه علي قال سليه حملانا فسألته فأمر لها ، قال فأتتنى فقالت : لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها فإنه قد أتاه فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه ، فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان وذكر قربهم من النبى صلى الله عليه وسلم . قال فعرفت أنه ليس بملك ككسرى ولا قيصر . فقال ياعَدِيُّ : ماأفرك ؟ أفرك أن يقال لا إله إلا الله، فهل من إله إلا الله ؟ أفرك أن يقال الله أكبر فهل شيء أكبر من الله عز وجل ؟ قال : فاسلمت فرأيت وجهه استبشر ، وقال : إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى، وذكر الحديث . وفي خطابه مع بنى إسرائيل في سورة البقرة : «فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين » . وقال في سورة المائدة : « قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل » .

وفي السيرة عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف ، قال له اليهود : إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله ، فقال : أنا من غضب الله أفر . وقالت له النصارى إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله ، فقال لا أستطيعه فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوثان ودين المشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية لأنهم وجدوه أقرب من دين اليهود إذ ذاك وكان منهم ورقة بن نوفل حتى

هداه الله بنبيه لمـا بعثه آمن به بما وجد من الوحى رضي الله عنه ا هـ ٠ بتصرف واختصار ٠

ومن الحكم التى تدل على اختيار هذه السورة للتكرار في كل صلاة والتى لا تصح الصلاة بدونها لقادر على الإتيان بها ماورد في صحيح مسلم من حديث العلاء بن عبد الرحمن مولى الحرقة ، عن أبيه ، عن أبى هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى قسمت الصلاة بينى وبين عبدىنصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل ٠٠ إذا قال العبد : الحمد لله رب العالمين قال الله : حمدني عبدي، وإذا قال : الرحمن الرحيم قال الله : أثنى على عبدي ، وإذا قال : مالك يوم الدين قال الله : مجدني عبدي ، وإذا قال : إياك نعبد وإياكنستعين قال : هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ماسأل ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، قال : هذا لعبدي ولعبدي ماسأل » ٠

من ما يؤخذ من سورة الفاتحة من الاحكام

(١) إثبات الألوهية

(٢) إثبات الأسماء لله

(٣) إثبات صفة الرحمة لله

(٤) إثبات صفة الكلام لله

(٥) الرد على الجهمية والمعتزلة ونحوهم ممن ينكر صفة الرحمة أويؤولها بتأويل باطل

(٦) أنها اشتملت على حمد الله

(٧) أنها اشتملت علىتمجيد الله والثناء عليه بذكرأسماء الحسنى

المستلزمة لصفاته (٨) إثبات الربوبية (٩) أن الله هو الذى خلق المخلوقات كلها

(١٠) أنه هو الذى يرزقهم (١١) أنه هو الذى يهديهم لما فيه مصالحهم التى فيها بقاؤهم (١٢) الابتداء بالبسملة

(١٣) إثبات غنى الله (١٤) انفراد الله بالتدبير

(١٥) فقر الخلائق إلى الله (١٦) إثبات أولية الله

(١٧) إثبات صفة الملك لله

(١٨) إثبات الرسالة وهو من جهات عديدة ، أحدها : كونه رب العالمين فلا يليق به أن يترك عباده سدى لا يعرفهم ماينفعهم في معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما • المأخذ الثانى لإثبات الرسالة من اسم الله وهو المألوه المعبود ولا سبيل إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله • والمأخذ الثالث لإثبات الرسالة من اسمه الرحمن فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ماينالون به غاية كما لهم ، المأخذ الرابع لإثبات الرسالة من ذكر يوم الدين فإنه اليوم الذى يدين الله به الخلائق بأعمالهم فيثيبهم على الخيرات ويعاقبهم على المعاصي والسيآت وما كان الله ليعذب أحدا قبل إقامة الحجة عليه والحجة إنما قامت برسل الله وكتبه وبهم استحق الثواب والعقاب وبهم قام سوق يوم الدين وسيق الأبرار إلى النعيم والفجار إلى الجحيم •

(١٩) إثبات البعث (٢٠) إثبات الحشر

(٢١) إثبات الحساب والجزاء على الأعمال

(٢٢) أن للدين يوماً معينا عند الله يلقى فيه كل عامل جزاء عمله

(٢٣) أن القرآن فيه ترغيب وترهيب حيث جاء قوله تعالى «مالك

يوم الدين » إثر قوله « الرحمن الرحيم »

(٢٤) أن المصالح كلها إنما تهيأت للخلق برحمة الله وفضله وإحسانه

(٢٥) أن قوله تعالى مالك يوم الدين حث على الأعمال والاستعداد لذلك اليوم

(٢٦) وجوب الإيمان بالجن والبعث (٢٧) إن في ذلك اليوم لا يدعى أحد شيئا ولا يتكلم أحد إلا بإذن الله كما قال تعالى « يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه »

(٢٨) وجوب إفراد الله بالعبادة (٢٩) التبرؤ من الشرك

(٣٠) وجوب الاستعانة بالله (٣١) التبرؤ من الحول والقوة

(٣٢) العدول عن الغَيبة إلى الخطاب لأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى آخر كان أحسن تطرية لنشاط السامع وأكثر إيقاظا له

(٣٣) أن تقديم المعمول يفيد الحصر وهو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عما عداه

(٣٤) الاهتمام بتقديم حقه تعالى على حق عباده (٣٥) إثبات علم الله لأنه الخالق الرازق لهم الذى خلق الإنسان في أحسن تقويم ويستحيل ذلك مع الجهل

(٣٦) إثبات حكمة الله لما في تربيته لهم تعالى من الحكمة جل وعلا

(٣٧) رد على القدرية المنكرين لعلم الله

(٣٨) رد على الجبرية الذى سلبوا العبد قدرته وجعلوا فعله مجازاً

(٣٩) الحث على طلب الهداية (٤٠) أنه لا يؤمن على الإنسان المؤمن الفتنة فلذا أمر بتكرير طلب الهداية (٤١) أن الهداية بيد الله تعالى

(٤٢) أن الإنسان مفتقر في كل لحظة إلى معونة الله

(٤٣) القضاء على جذور الشرك التى كانت فاشية في جميع الأمم وهى اتخاذ أولياء من دون الله يستعان بهم على قضاء الحاجات ويتقرب بهم إلى الله زلفى كما أخبر الله عن المشركين بقولهم « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »

(٤٤) أن لله صراطا مستقيما

(٤٥) أن السعادة لا تحصل إلا بالسير على ذلك الصراط القويم

(٤٦) أن من خالف هذا الصراط وانحرف عنه فهو في ضلال مقيم

(٤٧) أنه قد مضي أمم شرع الله لهم شرائع لهدايتها فاتبعها الموفقون وساروا على نهجها فعلينا أن نتبع ما جاء عن الله على ألسنة رسله

(٤٨) أن غير المنعم عليهم صنفان صنف خرج عن الحق بعد علمه به وأعرض عنه بعد أن استبان له وهؤلاء المغضوب عليهم ، وصنف لم يعرفوا الحق أبدا أو عرفوه على وجه مضطرب مشوش فهم في عماية تلبس الحق بالباطل وهؤلاء هم الضالون

(٤٩) أن الأعمال يتوقف نجاحها على أسباب ربطتها حكمة الله بمسبباتها وجعلتها موصلة إليها وعلى انتفاء موانع من شأنها أن تحول دونها وقد أوتى الإنسان بما فطره الله عليه من العلم والمعرفة كسب بعض الأسباب ودفع بعض الموانع بقدر استعداده الذى آتاه الله فعليه أن يعمل ويطلب من الله الإعانة والقبول وقد وعد سبحانه بإجابة الداعى .

(٥٠) إن في ذكر الاستعانة بالله إرشاد للانسان إلى أنه يجب عليه أن يطلب المعونة من الله على عمل له فيه كسب فمن ترك الكسب فقد جانب الفطرة وأصبح مذموماً لا متوكلا محمودا

(٥١) فيها إيماء إلى أن الإنسان مهما أوتى من حصافة الرأى

وحسن التدبير وتقليب الأمور على وجـوهها لا يستغنى عن العـون الإلهى ولطف الله جل وعلا

(٥٢) أن دين الله واحد في جميع الأزمان

(٥٣) الحث على التخلق بفاضل الأخلاق وعمل الخير وترك الشر

(٥٤) النهى عن طريق الضالين والمغضوب عليهم

(٥٥) الحث على حسن الأسوة فيما تكون به السعادة

(٥٦) اجتناب مايكون طريقا إلى الشقاء والدمار

(٥٧) إن في ذكر المنعـم عليهم ، وهـم من عرف الحق واتبعـه ، والمغضوب عليهم وهم من عرفه واتبع هواه ، والضالين وهم من جهله : مايستلزم ثبوت الرسالة والنبوة لأن انقسام الناس إلى ذلك هوالواقع المشهود ، وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة ٠

(٥٨) إن في تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هى الموجبة للفلاح الدائم وأما مطلق النعمة فعلى المؤمن والكافر فكل الخلق في نعمة ، وهذا فصل النزاع في مسألة : هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ فالنعمة المطلقة لأهل الإيمـان ومطلق النعمة يكون للكافر والمؤمن كما قال « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » والنعمة من جنس الإحسان بل هى الإحسان ، والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر ، والمؤمن والكافر ٠ وأمـا الإحسان المطلق فللذين اتقوا والذين هم محسنون ٠

(٥٩) التنبيه على الرفيق في الطريق المذكور وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه وبنى جنسه ٠

(٦٠) عظم شأن يوم الدين حيث خصه بالذكر مع أن الله له الملك في الأولى والآخرة ٠

(٦١) إرشاد العباد إلى إخلاص العبادة لله وتوحيده بالألوهية ٠

(٦٢) إرشاد العباد إلى تنزيه الله عن الشريك والنظير أو المماثل ٠

(٦٣) أن الله أثنى على نفسه وافتتح كتابه بحمده ولم يأذن في ذلك لغيره بل نهاهم عن ذلك في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فقال « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » وقال عليه الصلاة والسلام « احثوا في وجوه المداحين التراب » رواه المقداد ٠

(٦٤) أن فيها اسم الله الأعظم ، قيل الجلالة ، وقيل الرب لكثرة الدعاء بهما ٠

(٦٥) رد على القدرية لأن الإنسان عندهم هو الذى يخلق أفعاله فهو غير محتاج في صدورها عنه إلى ربه وقد أكذبهم الله في هذه الآية حيث سألوه الهداية إلى الصراط المستقيم فلو كان الأمر إليهم والاختيار بيدهم دون الله لما سألوه الهداية ولا كرروا السؤال في كل صلاة ٠

(٦٦) أن سورة الفاتحة مشتملة على مقاصد القرآن على سبيل الإجمال كما تقدم بيانه في ص ٨

(٦٧) أن هذه السور تضمنت إثبات أنواع التوحيد الثلاثة فتوحيد الألوهية يؤخذ من لفظ الله ومن قوله « إياك نعبد وإياك نستعين » وتوحيد الربوبية يؤخذ من قوله « رب العالمين » وتوحيد الأسماء والصفات يؤخذ من لفظ الحمد ٠

(٦٨) تعليم العباد كيفية سؤاله وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمده والثناء عليه وتمجيده ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم فهاتان وسيلتان إلى المطلوب توسل إليه بأسمائه وصفاته ٠

(٦٩) دليل على رحمة الله الخاصة والمأخذ من قوله تعالى «الرحيم» ٠

(٧٠) إن في بناء أنعمت للفاعل استعطاف فكأن الداعي يقول : أطلب منك يارب الهداية إذ سبق إنعامك فاجعل من إنعامك إجابة دعائنا

وإعطاء سؤلنا وسبحانه ما أكرمه كيف يعلمنا الطلب ليجود علينا بما طلبنا ·

(٧١) الحث على التوكل على الله ·

(٧٢) أن الله لا يهمل أمر المظلومين بل يستوفي حقوقهم من الظالمين في يوم الدين ·

(٧٣) إن في تكرير « الرحمن الرحيم » بعد الذكر في البسملة مايدل على أن العناية بالرحمة أكثر من غيرها من الأمور وأن الحاجة إليها أكثر فنبه سبحانه بتكرير ذكر الرحمة على كثرتها وأنه هو المتفضل بها على خلقه ·

(٧٤) أن تارك العمل بالحق بعد معرفته أولى بوصف الغضب وأحق به ومن ههنا كان اليهود أحق به ·

(٧٥) أن الجاهل بالحق أحق باسم الضلال ومن هنا وصفت النصارى به ·

(٧٦) أن هذه الأوصاف المذكورة في سورة الفاتحة من كونه ربا للعالمين موجداً لهم ومنعما بالنعم كلها ومالكا للأمر كله يوم الجزاء بعد الدلالة على اختصاص الحمد به في قوله « الحمد لله » دليل على أن من كانت هذه صفاته لم يكن أحد أحق منه للحمد والثناء عليه ، بل لايستحقه على الحقيقة سواه ، فإن ترتب الحكم على هذا الوصف مشعر بعليته له

(٧٧) أن الألطاف والهدايات من الله لا تتناهى

(٧٨) أن قوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » بدل كل من كل من المتقدم وفائدته التوكيد والتنصيص على أن صراط المسلمين هو المشهود عليه بالاستقامة والاستواء على آكد وجه وأبلغه

(٧٩) أن العبد إذا قال « إياك نعبد » حصل له الفخر وذلك منزلة

عظيمة فربما حصل بسبب ذلك العجب فأردف ذلك بقوله « وإياك نستعين » ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة

(٨٠)إن في قوله تعالى « رب العالمين » حث على اتجاه جميع الخلق إليه جل وعلا والإقرار له بالسيادة المطلقة لأنه المربى لهم التربية العامة وهو المربى لأوليائه التربية الخاصة

(٨١) إن في الإقرار بذلك والاعتراف به الاطمئنان إلى رعاية الله الدائمة وربوبيته القائمة التى لا تنقطع ولا تفتر

ويستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين ومعناها اللهم استجب ، والدليل على استحباب التأمين مارواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم قرأ « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » فقال آمين مد بها صوته ، ولأبى داود رفع بها صوته • وقال الترمذى هذا حديث حسن وروى عن على وابن مسعود وغيرهم وعن أبى هريرة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تلا « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال آمين حتى يسمع من يليه من الصف الأول رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه : فيرتج المسجد ، وعن بلال أنه قال : يارسول الله لا تسبقنى بآمين ، رواه أبو داود ، وفي الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا أمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه » ولمسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه »وقيل : من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان وقيل في الإجابة وقيل في صفة الإخلاص• وفي صحيح مسلم عن أبى موسي مرفوعا « إذا قال ـ يعنى الإمام ـ ولا الضالين فقولوا آمين يجبكم الله » •

اللهم ارزقنا التفكر والتدبر لما تتلوه ألسنتنا من كتابك والفهم

له والمعرفة بمعانيه والنظر في عجائبه والعمل بذلك ما بقينا إنك على كل شيء قدير ، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والميتين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

بسم الله الرحمن الرحيم

من الأدلة على التوحيد في العبادة وإثبات الرسالة

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم ، والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشاً ، والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون . وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

قد بلغت نداآت القرآن مايقرب من مائة وسبعين نداءاً ، تكفى لسعادة الإنسانية ، وهذه النداآت الإلهية تدل على كمال العناية من الله تعالى بالناس وبعباده المؤمنين ، وتدل أيضاً على عظيم الاهتمام بالمطلوب وبالمنادى ، وما تركت باباً من أبواب الخير إلا ودعت إليه ، وما تركت باباً من أبواب الشر إلا وحذرت عنه ، وإن نداء الله القوي العزيز القاهر الكبير المتعالى لعباده المؤمنين جدير بأن يهز القلوب ، ويصفى النفوس ، ويشرح الصدور ، وأن يجذب قلوبهم ووعيهم وانتباههم إلى الاستماع إليه ، وتدبر مافيه وما يلقيه ، إذا فهمت هذا فاعلم أن الله تعالى بعد أن ذكر أصناف الخلق ، وبين أن منهم المهتدين والكافرين الذين جحدوا ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والمنافقين المذبذبين بين ذلك دعا الناس وأمرهم أمراً عاماً لجميعهم بأمر

عام ، وهو عبادته وحده لا شريك له قال ابن عباس : « كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد » ·

وقد بدأ صلى الله عليه وسلم دعوته بعبادة الله وحده ، وقد كان هذا صنيع كل رسول كما قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ، ثم استدل سبحانه على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم الذى رباكم وربى جميع العالمين بأصناف نعمه، ثم عدد جل وعلا بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة لعبادته والشكر له ، فجعل منها خلقهم بعد العدم أحياء قادرين على العمل والكسب ، فقال « الذى خلقكم والذين من قبلكم » أي إن هذا الرب العظيم القدير المتصف بتلك الصفات التى تعلمونها هو الذى خلقكم ، وخلق من قبلكم ، ورباكم وربى أسلافكم،ودبر شئونكم ووهبكم من طرق الهداية ووسائل المعرفة ، مثل ما وهبهم ، فاعبدوه وحده ، ولا تشركوا بعبادته أحداً من خلقه ·

وقوله : «لعلكم تتقون» ، أى خلقكم لتتقوه وحده ، والتقوى التحرز بطاعة الله عن معصيته ، فهى كلمة جامعة لفعل المأمورات،وترك المنهيات ولتعبدوه كقوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ، وقيل معناه اعبدوه لتتقوا ·

ثم ذكر خصائص الربوبية التى تقتضي الاختصاص به تعالى فقال: « الذى جعل لكم الأرض فراشاً » ، وإنما سميت الأرض أرضاً لسعتها من قولهم : أرضت القرحة : إذا اتسعت ، وقيل لانحطاطها عن السماء ، وكل ما سفل أرض ، وقيل لأن الناس يرضونها بالأقدام ، وقوله : « فراشاً » ، أى بساطاً يمكنكم أن تستقروا عليها وتفترشوها وتتصرفوا فيها ، وتنتفعون بالأبنية والزراعة والحراثة والسلوك من محل إلى محل ، ثم أتبع نعمة خلق الأرض التي هي مسكنهم بنعمة جعل السماء بناء وهو السقف كما قال في الآية الأخرى : « وجعلنا السماء سقفاً محفوظا وهم عن آياتها معرضون » ·

وإذا تأمل الإنسان المتفكر في العالم وجده كالبيت المعمور فيه كل ما يحتاج إليه،فالسماء مرفوعة كالسقف،والأرض مفروشة كالبساط والنجوم كالمصابيح ، والإنسان كمالك البيت ، وفيه المـاء وضروب النبات المهيآت لمنافعه ، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه ٠

فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر لله تعالى عليها ، والتفكر فيها والاستدلال بها علىحكمة لله وقدرته وعظمته ووحدانيته، وأن الله لم يخلقها عبثاً بل لغرض صحيح ومصلحة ، ثم امتن تعالى عليهم بإنزال المـاء من السماء ، وإخراج الثمرات به رزقاً لهم ، وذكر إنزال المـاء ، وإخراج الثمرات به ما يفتأ يتردد في مواضيع شتى من القرآن في معرض التعريض بقدرة الله ، والتذكير بنعمته كذلك ، والماء النازل من السماء هو مادة الحياة الرئيسية للأحياء في الأرض جميعا ، فمنه تنشأ الحياة بكل أشكالها ودرجاتها قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حى أفلا يؤمنون » ، وقال : « والله خلق كل دابة من ماء » ٠ والثمرات : جمع ثمرة ، والمعنى أخرجنا به ألواناً من الثمرات ، وأنواعا من النبات ليكون ذلك متاعاً لكم إلى حين،فنبههم على قدرته وسلطانه، وذكرهم به لآلائه لديهم ، وأنه هو الذى خلقهم ورزقهم دون من جعلوه نداً وعدلا من الأوثان والآلهة ومضمونه أنه الخالق الرازق ، مالك الدار وساكنيها ورازقهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ، ولهذا زجرهم عن أن يجعلوا له أنداداً ، أي أشباهاً ونظراء من المخلوقين فتعبدونهم كما تعبدون الله ، وتحبونهم كما تحبون الله ، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون ، لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، لا ينفعون ولا يضرون ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ٠

وقوله : « وأنتم تعلمون » المعنى والله أعلم أنكم تعلمون أن الأصنام التى تعبدونها لم تنعم عليكم بهذه النعم التى عددناها ولا بأمثالها ، وأنها لا تضر ولا تنفع ، وأن الله ليس له شريك ولا نظير ، لا في الرزق والتدبير ، ولا في الألوهية والكمال ، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع

علمكم بذلك ؟ فهذا من أعجب العجب وأسفه السفه · فهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده والنهى عن عبادة ما سواه ، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادة الله سبحانه وبطلان عبادة ماسواه وهو ذكر توحيد الربوبية المتضمن انفراده بالخلق والرزق والتدبير ، فإذا كان كل مقر بأنه ليس له شريك بذلك ، فكذلك فليكن الإقرار بأن الله ليس له شريك في عبادته ·

أشار الله سبحانه وتعالى في هذه الآية إلى ثلاثة براهين من براهين البعث بعد الموت :

البرهان الأول : خلق الناس أولا المشار إليه بقوله تعالى : «اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم » ، لأن الإيجاد الأول أعظم برهان على الإيجاد الثانى ، وقد أوضح ذلك في آيات أخر كقوله : « كما بدأنا أول خلق نعيده » وقوله : « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » ، وقوله: « فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » ·

البرهان الثانى : خلق السموات والأرض المشار إليه بقوله تعالى: « الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء » لأنهما من أعظم المخلوقات ومن قدر على خلق الأعظم ، فهو على غيره قادر من باب أولى وأحرى ، وأوضح تعالى هذا البرهان في آيات أخرى كقوله سبحانه تعالى : «لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون »، وكقوله : « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم » ، وقوله : « أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ، ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير » ·

البرهان الثالث : إحياء الأرض بعد موتها ، فإنه من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت المشار إليه في قوله : « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم » ، وقد ذكره في آيات أخر كقوله : « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات

كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » ، وقوله : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها المـاء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير » وقال : « ويحي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون » ، وقال : « وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » وقال : « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها المـاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » إلى قوله : « وأن الله يبعث من في القبور » ، وقوله : « فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ، هذا نهى معطوف على اعبدوا مرتب عليه ، فكأنه قيل : إذا وجب عليكم عبادة ربكم فلا تجعلوا لله نداً ، وأفردوه بالعبادة ، إذ لا رب لكم سواه ، وإيقاع الاسم الجليل موقع الضمير لتعيين المعبود بالذات بعد تعيينه بالصفات ، وتعليل الحكم بوصف الألوهية التى عليها يدور أمر الوحدانية ، واستحالة الشركة ، والاستيذان باستتباعها لسائر الصفات ، والأنداد جمع ند ، وهو المثيل والنظير والكفؤ ٠

قال حسان :

أتجهوه ولَسْتَ لـه بِنِـــدٍ فَشرُّكُما لِخَـيرِكُما الفِـــداءُ

وقال الآخر :

ولم أكُ نِـداًّ لِلْـكُلابي أبتغي مِنَ السُؤرِ مافيه لذي شنب غمس

عن ابن عباس في قوله عز وجل : « فلا تجعلوا لله أنداداً » قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتى ، ويقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص البارحة ، ولولا البط في الدار لأتى اللصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لو الله وفلان ، لا تجعل فيها فلاناً ، هذا كله به شرك ٠

وفي الحديث أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ماشاء الله وشئت ، قال : « أجعلتنى لله نداً ؟ » وفي الحديث الآخر : « نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون ، تقولون ماشاء الله وشاء فلان » ٠

فالقرآن والسنة يشددان في النهى عن الشرك لتخلص العقيدة نقية ٠

قال سيد قطب : وقد لا تكون آلهة تعبد مع الله على النحو الساذج الذى يزاوله المشركون ، فقد تكون الأنداد في صور أخرى خفية قد تكون في تعليق الرجاء بغير الله في أى صورة ، وفي الخوف من غير الله في أى صورة ، وفي الاعتقاد بنفع أو ضر في غير الله في أى صورة اهـ ٠

وقوله : « وأنتم تعلمون » أى أنه ليس له شريك ولا نظير لا في الخلق والرزق والتدبير ، ولا في الألوهية والكمال ، كما أخبر جل ثناؤه عنهم بقوله : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » وقال : « قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون وقوله « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون » وقوله : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة » ٠

وبعد أن قرر أنه لا إله إلا هو ، وبعد أن ذكر أن الناس بالنظر إلى القرآن أقسام ثلاثة : متقون يهتدون بهديه ، وجاحدون معاندون معرضون عن سماع حججه وبراهينه ، ومذبذبون بين ذلك ، طلب هنا إلى الجاحدين أنهم إن كانوا في ريب مما أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم أن يأتوا بسورة من مثل ماجاء به إن استطاعوا ، وهم فرسان البلاغة ، وعصرهم أرقى عصور الفصاحة ، والكلام ديدنهم ، وبه تفاخرهم ، ويستعينوا على ذلك بمن شاءوا من دون الله ، فإنهم لم يستطيعوا ذلك ، وإن تظاهر أنصارهم وكثرأشياعهم ٠ قال ابن عباس: شهداءكم أعوانكم ، وقال السدى عن أبى مالك : شركاءكم ، أى قوماً آخرين ، يساعدونكم على ذلك ، وقال مجاهد : وادعوا شهداءكم ، قال: ناس يشهدون به يعنى حكام الفصاحة ٠

وقد تحداهم الله تعالى بهذا في غير موضع من القرآن ، فقال في سورة القصص : « قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعه إن

كنتم صادقين » ، وقال في سورة سبحان : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » ، وقال في سورة هود : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » وفي سورة يونس : « أم يقولون افتراه فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » وكل هذه الآيات مكية ·

ثم تحداهم بذلك أيضاً في المدينة ، فقال في هذه الآية : « وإن كنتم في ريب » أى شك « مما نزلنا على عبدنا » يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم « فأتوا بسورة من مثله » يعنى من مثل القرآن ·

قال مجاهد وقتادة : واختاره ابن جرير الطبري ، ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصرى ، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلهم متفرقين ومجتمعين سواء في ذلك أميهم وكتابيهم ، وذلك أكمل في التحدى وأشمل من أن يتحد آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعانى شيئاً من العلوم ، وبدليل قوله : « فأتوا بعشر سور مثله » وقوله : « لا يأتون بمثله » ، وقال بعضهم : من مثل محمد صلى الله عليه وسلم ، يعنى من رجل أمى مثله ، والصحيح الأول لأن التحدى عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم ، وقد تحداهم بهذا في مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له ، وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك ، ولهذا قال : « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا » لن لنفي التأبيد في المستقبل ، أى ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدماً غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا ولا يمكن ، وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ؟

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية ،

من حيث اللفظ ، ومن جهة المعنى ، قال الله تعالى : « الرۤ ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لايحادى ولايدانى، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى : « وتمت كلمـة ربك صدقا وعدلا » أى صدقاً في الأخبار وعدلا في الأحكام ٠

فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كما قيل في الشعر : إن أعذبه أكذبه ، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح ثم نجد له فيها بيتاً أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيدة وسائرها هذر لا طائل تحته ، وأما القرآن فجميعه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكررت حلا وعلا لا يخلق عن كثرة الرد ولا يمل منه العلماء ٠

وإن أخذ في الوعد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات ، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ، وقال : « وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيهـا خالدون » ٠ وقال في الترهيب : « أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر »، « أم أمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور ، أم أمنتم

من السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير » ٠ وقال في الزجر : « فكلاأخذنا بذنبه » ٠ وقال في الوعظ : « أفرأيت إن متعناهم سنين ، ثم جاءهم ماكانوا يُوعدون ، ما أغنى عنهم ماكانوا يمتعون » إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة التي أعجزت جميع الفصحاء والبلغاء ٠

وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهى ، اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنى ، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف : إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن : « يا أيها الذين آمنوا » فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه ، ولهذا قال تعالى : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » الآية ٠

وإن جاءت الآيات في وصف المعاد وما فيه من الأهوال ، وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم ، بشرت به وأنذرت ، ودعت إلى فعل الخير واجتناب المنكرات ، وزهدت في الدنيا ورغبت في الأخرى ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم ، اهـ ٠

وقوله تعالى : « فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » ٠

المعنى :

فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، وعجزتم غاية العجز ، فهذا آية كبيرة ودليل واضح جَلِيٌّ على صدقه ، وصدق ما جاء به ، فيتعين عليكم اتباعه واتقاء النار التى حطبها الناس والحجارة ، قيل : إنها حجارة الكبريت ، لأنها أحر شيء إذا أحميت وأكثر التهاباً ، وقيل : جميع الحجارة وهو دليل على عظم تلك النار ٠

وقال ابن مسعود : وخصت بذلك لأنها تزيد على جميع الحجارة بخمسة أنواع من العذاب : سرعة الإيقاد ، ونتن الرائحة ، وكثرة الدخان ، وشدة الالتصاق بالأبدان ، وقوة حرها ٠

وقيل : أرادبها الأصنام أكثر أصنامهم كانتمنحوتة من الحجارة كما قال : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون، لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون » ٠

عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار ، وحتى يخاض البحار الخيل في سبيل الله تبارك وتعالى ، ثم يأتى أقوام يقرؤن القرآن فإذا قرؤه قالوا : من أقرؤ منا ، من أعلم منا ، ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل ترون في أولئك من خير ؟ قالوا : لا ، قال : أولئك منكم وأولئك من هذه الأمة وأولئك هم وقود النار » أخرجه ابن المبارك ٠

وقوله : « أعدت للكافرين » معناه خلقت وهيئت للكافرين أى لمن كان مثل ماأنتم عليه من الكفر وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن ، لقوله تعالى : « أعدت » أي أرصدت وهيئت ٠

وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك ، منها : « تحاجت الجنة والنار »٠

ومنها : « استأذنت النار ربها فقالت : رب أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف » ٠

وحديث ابن مسعود : سمعنا وجبة ، فقلنا : ما هذه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة ، الآن وصل إلى قعرها » ٠

وفي حديث صلاة الخسوف،فقالوا : يارسولاللهرأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت ، فقال : « إنى رأيت الجنة

فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا،ورأيت النار فلم أر كاليوم منظراً قط أفظع ، ورأيت أكثر أهلها النساء ، قالوا : بم يا رسول الله ؟ قال : بكفرهن ، قيل : يكفرن بالله ؟ قال يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئا قالت : مارأيت منك خيراً قط » متفق عليه ·

وفي صحيح مسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « لو رأيتم مارأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً ، قالوا: وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : رأيت الجنة والنار » ·

وفي مسند الإمام أحمد ، وصحيح مسلم ، والسنن من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها ، فذهب فنظر إليها وإلى ماأعد الله لأهلها فيها فرجع، وقال : بعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بالجنة فحفت بالمكاره ، فقال : فارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فنظر إليها ثم رجع فقال : وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، ثم أرسله إلى النار فنظر إليها يركب بعضها بعضا فقال : لا يدخلها أحد ، فلما حفت بالشهوات قال وعزتك لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها » قال الترمذى حديث حسن صحيح ·

وحديث « أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة » رواه الترمذى ·

وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « رأيت عمرو ابن لحى بن قمعة يجر أمعاءه في النار لأنه أول من سيب السوائب وحمل قريشا على عبادة الأوثان » ·

مما يفهم من الآيتين أى قوله تعالى : « يا أيها الناس أُعبدوا ربكم

الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » الآية :

(١) لطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى عبادته وحده لا شريك له .

(٢) الأمر بعبادته سبحانه

(٣) إثبات صفة الربوبية

(٤) إثبات صفة الكلام لله

(٥) إثبات صفة الخلق

(٦) إثبات صفة القدرة

(٧) إثبات صفة الحياة

(٨) إثبات صفة العلم

(٩) إثبات حكمة الله الذى خلق الإنسان في أحسن تقويم .

(١٠) الحث على التقوى

(١١) أن الأرض مفروشة

(١٢) لطف الله بخلقه إذ فرش لهم الأرض وثبتها

(١٣) نعمة الله على خلقه الذى جعل لهم السماء سقفا محفوظاً

(١٤) إثبات علو الله على خلقه

(١٥) الرد على من أنكر صفة العلو كالجهمية

(١٦) عظيم نعم الله على خلقه بإنزال المـاء

(١٧) في الآية دليل على كرم الله وجوده المتنوع

(١٨) أمر العباد بالاعتراف بنعمة الله

(١٩) تعداد النعم للاستدلال بها على وجوب عبادة الله

(٢٠) النهى عن عبادة غير الله

(٢١) النهى عن جعل الأنداد لله

(٢٢) إثبات الألوهية لله

(٢٣) أن العباد مفطورون على الاعتراف بوجود الله

(٢٤) الاعتراف بأن الله هو الخالق لهم ومن قبلهم

(٢٥) إثبات أولية الله
(٢٦) أن المخرج للأرزاق هو الله جل وعلا
(٢٧) أنه أخرجها رزقاً للعباد
(٢٨) أن العباد فقراء إلى الله
(٢٩) دليل على غنى الله
(٣٠) حلم الله على الكفار والعصاة الآكلين لنعمة العاصين له
(٣١) في الآية دليل على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق
(٣٢) في الآية دليل على الأمر باستعمال حجج العقول وإبطال ماليس معه دليل
(٣٣) في الآية مايدعو النفوس الكريمة إلى محبة الله وتعظيمه وإجلاله إذ النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها .

قال أبو الطيب :

وأحسن وجه في الورى وجه محسن
وأيمن كف فيهموا كف منعم

مما يفهم من قوله تعالى « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » :

(١) أن القرآن منزل غير مخلوق كما هو اعتقاد أهل السنة والجماعة .
(٢) رد على من قال إنه مخلوق كالمعتزلة والجهمية .
(٣) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٤) الرد على من أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٥) الرد على من رفعه فوق منزلته كالبوصيرى وأضرابه .
(٦) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل .
(٧) دليل عقلى على صدق النبى صلى الله عليه وسلم ، وصحة

ما جاء به حيث تحدى المعاندين له ، الرادين دعوته،الزاعمين كذبه ، فلم يقدروا على الإتيان بسورة من مثله ٠

(٨) إثبات الألوهية ٠

(٩) إثبات النار ، وأنها حق ٠

(١٠) أنها الآن موجودة لقوله : « أعدت » ٠

(١١) أن وقودها الناس والحجارة ٠

(١٢) أنه أخبر جل وعلا أنهم لن يفعلوا ، وكان كذلك،فهذه معجزة وقعت ٠

(١٣) التحذير من النار ٠

(١٤) أن الذى يرجى له الهداية من الضلالة هو الشاك الحائر الذى لم يعرف الحقَ من الضلالة فهو الحرى باتباع النبى صلى الله عليه وسلم إذا بيِنَ له أنه كان صادقاً ٠

(١٥) دليل على علو الله على خلقه ٠

(١٦) رد على الجهمية المنكرين لعلو الله ٠

(١٧) إثبات صفة الكلام لله ٠

(١٨) أنهم بعجزهم عن الإتيان بمثله ظهر كذبهم ، لقولهم لو نشاء لقلنا مثل هذا ٠

(١٩) إثبات علم الله ، فإنه أخبر جل وعلا أنهم لن يفعلوا وكان كذلك ٠

(٢٠) في الآية مايدل على أن القرآن ينزل بالتدريج شيئاً فشيئاً ٠

(٢١) أن الله يؤيد رسله بالمعجزات ٠

(٢٢) أن النبى صلى الله عليه وسلم صادق في دعواه ٠

(٢٣) أن المشركين المرتابين في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم

معاندين ومكابرين ، وإلا كان عندما استبان عجزهم ولزمتهم الحجة أن يرجعوا إلى الحق .

(٢٤) أن النار جزاء المعاند الكافر .

(٢٥) دليلٌ على عدل الله ، وأنه ماظلمهم ولكن كانوا هم الظالمين .

(٢٦) في الآية رد على نفاة صفة العلم ، فالله أخبر أنهم لن يفعلوا ، وكان كما قال جل وعلا وتقدس ، عما يقوله الجهمية والقدرية ونحوهم .

(٢٧) دليل على حلم الله ، إذ لم يعاجلهم بالعقوبة حينما كذبوا واسترابوا وقالوا : ليس هذا من عند الله .

(٢٨) في الآية دليل على شرف النبي صلى الله عليه وسلم باضافة عبوديته لله .

(٢٩) دليل على أن مقام العبودية أسمى المقامات .

(٣٠) في الآية تهديد مخيف لمن يعجزون عن هذا التحدى ، ثم لا يؤمنون بالحق الأبلج الواضح .

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

فيما أعد الله لعباده المؤمنين

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى : (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأوتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) ٠

البشارة أول خبر يرد على الإنسان ، وسمى بشارة لأنه يؤثر في بشرته ، وهى ظاهرة جلده ، فإن كان خيراً أثر المسرة والانبساط ، وإن كان شرا أثر الغم والانكماش ، والأغلب في عرف الاستعمال أن تكون البشارة في الخير والسرور مقيداً بالخير المبشر به وغير مقيد ، ولا يستعمل في الغم والشر إلا مقيداً منصوصاً على الشر المبشر به ، قال الله تعالى : « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً » وقال : « فبشرهم بعذاب أليم » ، ويقال : بشرته وبشرته ـ مخفف ومشدد ٠

لما ذكر سبحانه وتعالى فيما تقدم ما أعد لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال ، وكان في ذلك أبلغ التخويف والإنذار عقب بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة جرياً على السنة الإلهية ، من شفع الترغيب بالترهيب ، والوعدِ بالوعيد ، لأن مِن الناس مَن لا يجذبه التخويف ولا يجديه ، وينفعه اللطف ، ومنهم العكس،ومنهم مَن لا يفيد فيه إلا اجتماع الأمرين ، فكان وما بعده معطوف على سابقه عطف القصة على القصة ، والتناسب بينهما باعتبار أنه بيان لحال الفريقين المتباينين ، وكشف عن الوصفين المتقابلين ٠ وهذا معنى تسمية القرآن مثانى على أصح قولى العلماء ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر

أو عكسه ، أو حال السعداء ثم حال الأشقياء ، أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله ، وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه ٠

المعنى :

أخبر أيها الرسول ، ومن قام مقامك ، الذى آمنوا بقلوبهم وصدقوا المرسلين وعملوا الصالحات بجوارحهم فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، أن لهم جنات ٠٠ الخ ، ووصفت أعمال الخير بالصالحات لأن بها تصلح أحوال أمور الدين والدنيا ، ويزول عن العامل بالصالحات فساد الأحوال ويكون من الصالحين الذى يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته ٠

وقد بين الكتاب العزيز الأعمال الصالحة في آيات كثيرة ، كقوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأمانتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ٠

فقوله : « وعملوا الصالحات » يشمل كل عمل صالح ، فأما الجنات فجمع جنة ، وسميت الجنة جنة لاستتار أرضها بأشجارها ، وسمى الجن جنا لاستتارهم ، والجنين لاستتاره في بطن أمه ، والدرع جنة ، وجن الليل إذا استتر ، أى بشرهم أن لهم جنات ، أى بساتين جامعة للأشجار العجيبة ، والثمار الأنيقة ، والظل المديد ، والأغصان والأفنان ، وبذلك صارت جنة يجتن بها داخلها ٠

وقوله : «تجرى من تحتها الأنهار» أىمن تحتأشجارها ومساكنها وغرفها ، لا من تحت أرضها ، وقد جاء في الحديث : « إن أنهارها تجرى

في غير أخدود » . روى ابن أبى الدنيا عن أنس بن مالك قال : « إنكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود في الأرض ، لا والله ! إنها السائحة على وجه الأرض إحدى حافتيها اللؤلؤ ، والآخر الياقوت ، وطينه المسك الأذفر » ولم يبين هنا أنواع الأنهار ولكن بين ذلك في سورة محمد في قوله : « فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى » .

قال ابن القيم رحمه الله في أنهار الجنة :

أنهارها من غير أخدود جرت	سبحان ممسكها عن الفيضان
عسل مصفى ثم ماء ثم خمر	ثم أنهار من الألبان
من تحتهم تجرى كما شاءوا مفجرة	وما للنهر من نقصان
والله ما تلك المواد كهذه	لكن هما في اللفظ مجتمعان
هذا وبينهما يسير تشابه	وهو اشتراك قام بالأذهان

وقوله : « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل » أى كلما رزقوا من الجنة رزقاً من بعض ثمارها ، وفي قوله : « هذا الذى رزقنا من قبل » وجوه :

أحدها : أن معناه هذا الذى رزقنا من قبل في الدنيا ، قاله مجاهد وابن زيد .

والثانى : أن معناه هذا الذى طعمنا من قبل ، يعنى في الجنة لأنهم يرزقون ثم يرزقون ، روى عن ابن عباس والضحاك ومقاتل ، فإذا أتوا بطعام وثمار في أول النهار فأكلوا منها ، ثم أتوا منها بآخر النهار قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، يعنى أطعمنا في أول النهار ، لأن لونه يشبه ذلك ، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غير طعم الأول .

وقيل : إن ثمر الجنة إذا جنى خلفه مثله ، فإذا رأوا ما خلف الجنى اشتبه عليهم ، فقالوا : هذا الذى رزقنا من قبل ، قاله يحي بن أبى كثير وأبو عبيدة .

وقوله : « وأتوا به متشابها » فيه وجوه :

أحدها : أنه متشابه في الألوان مختلف في الطعوم ، قاله مجاهد وأبو العالية والضحاك والسدى ومقاتل ·

الثاني : أنه يشبه بعضه بعضاً في الجودة ، أى كلها خيار لا ردىء فيه ، قاله الحسن وابن جريج ·

وقيل : يشبه ثمر الدنيا في الخلقة والاسم ، غير أنه أحسن في المنظر والطعم ، قاله قتادة وابن زيد ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ليس في الجنة إلا الأسامى ·

قال ابن القيم رحمه الله :

وأتوا به متشابهاً في اللون مختلف الطعوم فذاك ذو الوان
أو أنه متشابه في الاسم مختلف الطعوم فذاك ذو الوان
أو أنه وسط خيار كله ... فالفحل منه ليس ذا ثنيان
أو أنه لثمارنا ذى مشبه ... في اسم ولون ليس يختلفان
لكن لبهجتها ولذة طعمها ... أمر سوى هذا الذى تجدان
فيلذها في الأكل عند منالها ... وتلذها من قبله العينان
قال ابن عباس وما بالجنة العليا سوى أسماء ما تريان
يعنى الحقائق لا تماثل هذه ... وكلاهما في الاسم متفقان
ياطيب هاتيك الثمار وغرسها ... في المسك ذاك الترب للبستان
وكذلك الماء الذى يسقى به ... ياطيب ذاك الورد للظمآن
وإذا تناولت الثمار أتت نظيرتها فحلت دونها بمكان
لم تنقطع أبداً ولم تمنع ولم ... تحتج إلى أن ترقى للقنوان
بل ذللت تلك القطوف فكيف ما ... شئت انتزعت بأسهل الإمكان
ولقد أتى أثر بأن الساق من ... ذهب رواه الترمذى ببيان
قال ابن عباس وهاتيك الجذو ... ع زمرد من أحسن الألوان

ثم لما ذكر مسكنهم وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم ذكر

أزواجهم فوصفهن بأكمل وصف وأوجزه وأوضحه ، فقال « ولهم فيها أزواج مطهرة » ولم يبين هنا صفات تلك الأزواج ولكن بين صفاتهن الجميلة في آيات أخر كقوله : « وعندهم قاصرات عين كأنهن بيض مكنون» وقال: «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون» وقال : « وعندهم قاصرات الطرف أتراب » وقال « وكواعب أترابا » وقال « كأنهن الياقوت والمرجان » وقال كذلك «وزوجناهم بحور عين» .

وقوله : « مطهرة » لم يقل مطهرة من العيب الفلانى ليشمل جميع أنواع التطهير ، فهن مطهرات الأخلاق ، مطهرات الخلق ، مطهرات اللسان ، مطهرات الأبصار ، وأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن ،وحسن التبعل ، والأدب القولي والفعلي ، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والبول والمنى والغائط والمخاط والبصاق والرائحة الكريهة .

وعن ابن عباس : مطهرة من القذر والأذى ، وقال مجاهد : من الحيض والغائط والبول والنخامة والبزاق ، وهذا حديث غريب .

وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت مابينهما ولملأت مابينهما ريحا ، ولنصفيها على رأسها خير من الدنيا وما فيها » رواه البخارى .

وروى عن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم رضي عنها أنها قالت : قلت يا رسول الله أخبرنى عن قوله عز وجل : « حور عين » قال : العين الضخام العيون ، شفر الحوراء بمنزلة جناح النسر ، قالت : قلت يا رسول الله أخبرنى عن قوله عز وجل : « كأنهن الياقوت والمرجان » . قال : صفاؤهن كصفاء الدر الذى في الأصداف الذى لا تمسه الأيدى ، قلت : يا رسول الله فأخبرنى عن قول الله عز وجل : « فيهن خيرات حسان » ، قال : خيرات الأخلاق حسان الوجوه قلت :

يارسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل « كأنهن بيض مكنون » قال: رقتهن كرقة الجلد الذي في داخل البيضة مما يلي القشرة ، قلت يارسول الله فأخبرني عن قول الله عز وجل « عرباً أتراباً » قال : هن اللواتي قبضن في دار الدنيا عجائز رمصا شمطا ، خلقهن الله بعد الكبر فجعلهن عذارى عرباً متعشقات متحببات أترابا على ميلاد واحد ، قلت : يا رسول الله أنساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال نساء الدنيا أفضل من الحور العين كفضل الظهارة على البطانة ، قلت : يارسول الله وبم ذلك ؟ قال : بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل وجوههن النور وأجسادهن الحرير ، بيض الألوان خضر الثياب ، صفر الحلي ، مجامرهن الدر أمشاطهن الذهب ، يقلن ألا ونحن الخالدات فلا نموت أبدا ، ألا ونحن الناعمات فلا نبأس أبدا ، ألا ونحن المقيمات فلا نظعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنا له وكان لنا ، قلت : يارسول الله المرأة منا تتزوج الزوجين والثلاثة والأربعة في الدنيا ، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها . من يكون زوجها منهم ؟ قال : يا أم سلمة تخير فتختار أحسنهم خلقا ، فتقول أي رب إن هذا كان أحسنهم معي خلقا في دار الدنيا فزوجينه ، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » رواه الطبراني في الكبير والأوسط وهذا لفظه .

قال ابن القيم رحمه الله :

فاسمع صفات عرائس الجنات ثم	اختر لنفسك يا أخا العرفان
حور حسان قد كملن خلائقا	ومحاسنا من أجمل النسوان
حتى يحار الطرف في الحسن الذي	قد ألبست فالطرف كالحيران
ويقول لما أن يشاهد حسنها	سبحان معطي الحسن والإحسان
والطرف يشرب من كؤس جمالها	فتراه مثل الشارب النشوان
كملت خلائقها وأكمل حسنها	كالبدر ليل الست بعد ثمان
والشمس تجري في محاسن وجهها	والليل تحت ذوائب الأغصان

فتراه يعجب وهو موضع ذاك من ... ليل وشمس كيف يجتمعان

ويقول سبحان الذى ذا صنعه ... سبحان متقن صنعة الإنسان

وكلاهما مرآة صاحبه إذا ... ما شاء يبصر وجهه يريان

فيرى محاسن وجهه في وجهها ... وترى محاسنها به بعيان

حمر الخدود ثغورهن لآلىء ... سود العيون فواتر الأجفان

والبرق يبدو حين يبسم ثغرها ... فيضيء سقف القصر والجدران

لله لا ثم ذلك الثغر الذى ... في لثمه إدراك كل أمان

ريانة الأعطاف من ماء الشبا ... ب فغصنها بالماء ذو جريان

لما جرى ماء النعيم بغصنها ... حمل الثمار كثيرة الألوان

فالورد والتفاح والرمان في ... غصن تعالى غارس البستان

والقد منها كالقضيب اللدن في ... حسن القوام كأوسط القضبان

في مغرس كالعاج تحسب أنه ... عالى النقا أو واحد الكثبان

لا الظهر يلحقها وليس ثديها ... بلواحق للبطن أو بدوان

لكنهن كواعب ونواهد ... فثديهن كالطف الرمان

والجيد ذو طول وحسن في بيا ... ض واعتدال ليس ذا نكران

يشكو الحلى بعاده فله مدى الـ ... أيام وسواس من الهجران

والمعصمان فإن تشأ شبههما ... بسبيكتين عليهما كفان

كالزبد ليناً في نعومة ملمس ... أصداف در دورت بوزان

وهى العروب بشكلها وبدرها ... وتحبب للزوج كل أوان

وهي التى عند الجماع تزيد في ... حركاتها للعين والأذنان

لطفاً وحسن تبعل وتغنج ... وتحبب تفسير ذى العرفان

تلك الحلاوة والملاحة أوجبا ... إطلاق هذا اللفظ وضع لسان

فملاحة التصوير قبل غناجها ... هي أول وهو المحل الثانى

فإذا هما اجتمعا لصب وامق ... بلغت به اللذات كل مكان

وقوله تعالى : « وهم فيها خالدون » أى دائمون لا يموتون فيها ولا يخرجون منها ، وهذا هو تمام السعادة فإنهم مع هذا النعيم المقيم آمنين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء .

وعن أبى هريرة وأبى سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

قال : « ينادى مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » رواه مسلم ٠

وعن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ، قالوا : فما بال الطعام ؟ قال : جشاء ورشح كرشح المسك ، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس » رواه مسلم ٠

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أهل الجنة جرد مرد كحلى ، لا يفنى شبابهم ولا تبلى ثيابهم » ٠ رواه الترمذى والدارمى ٠

وعن جابر قال قيل يا رسول الله صلى الله عليه وسلم: أينام أهل الجنة؟

قال : « النوم أخو الموت ، ولا يموت أهل الجنة » رواه البيهقى في شعب الإيمان ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يارسول الله حدثنا عن الجنة مابناؤها ؟ قال : « لبنة ذهب ولبنة فضة ، وملاطها المسك وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يبأس ويخلد لا يموت ولا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه » الحديث رواه أحمد واللفظ له ، والترمذى ، والبزار ، والطبرانى في الأوسط ، وابن حبان في صحيحه ٠

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، واقرؤا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين) » متفق عليه ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب درى في السماء إضاءة ، قلوبهم على قلب رجل واحد لااختلاف بينهم ولا تباغض ، لكل امرىء منهم زوجتان من الحور العين يرى مخ سوقهن من وراء العظم واللحم من الحسن، يسبحون الله بكرة وعشيا ، لا يسقمون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يمتخطون ، آنيتهم الذهب ، ووقود مجامرهم الألوة ، ورشحهم المسبلك ، على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء » متفق عليه ٠

وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر له سدرة المنتهى ، قال : « يسير الراكب في ظل الفنن منها مائة سنة ـ أو يستظل بظلها مائة راكب شك الراوى ـ فيها فراش الذهب ، كأن ثمرها القلال » رواه الترمذى وقال : هذا حديث غريب ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا ومافيها » متفق عليه ٠

مما يفهم من الآية الكريمة ، وهى قوله تعالى : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » الآية :

(١) البشارة من العزيز الحكيم لمن آمن وعمل صالحات بالجنات وما فيها مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ٠

(٢) أن أنهار الجنة جارية ٠

(٣) أنهم يرزقون فيها من الثمار ٠

(٤) أنه يتكرر الرزق ٠

(٥) أنه متشابه ٠

(٦) أن لهم فيها أزواج ٠

(٧) أنهن مطهرات الأخلاق والخلق واللسان ٠

(٨) أنهم في الجنة خالدون .
(٩) أن البشارة إنما تحصل لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح.
(١٠) دليل على كرم الله وجوده حيث وفقهم لذلك وجازاهم أحسن الجزاء .
(١١) دليل على إثبات صفة الكلام لله .
(١٢) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم، ووجه ذلك أنه هو المبشر .
(١٣) أن الإيمان والعمل الصالح سبب للحصول على هذه البشارة العظيمة .
(١٤) إثبات الجنة .
(١٥) إثبات البعث والحشر .
(١٦) إثبات الجزاء على الأعمال .
(١٧) لطف الله بخلقه حيث أرشدهم إلى ما فيه صلاحهم .
(١٨) أن نعيم الجنة لا ينقطع .
(١٩) إثبات صفة العلم لله ، وأن الله جل وعلا ، كما أنه يعلم الماضي فهو يعلم المستقبل ، فأخبر سبحانه عما سيكون من الأرزاق .
(٢٠) الحث على إقامة الصلاة لأنها في مقدمة الأعمال الصالحة .
(٢١) الحث على إيتاء الزكاة لأنها تلي الصلاة .
(٢٢) الحث على الصيام لأنه يلي الزكاة .
(٢٣) الحث على الحج لأنه يلي الصيام ، فهذه في طليعة الأعمال الصالحة .
(٢٤) بر الوالدين لأنه من الأعمال الصالحة .
(٢٥) الجهاد في سبيل الله لأنه منها .
(٢٦) صلة الأرحام لأنه كذلك .
(٢٧) الإحسان إلى اليتامى لأنه من الأعمال الصالحات .
(٢٨) الإحسان إلى المساكين . (٢٩) الإحسان إلى الجيران
(٣٠) الإحسان إلى ابن السبيل .

(٣١) الحث على العدل لأنه من الأعـ‍‍‍‍‍‍ال الصالحة ·
(٣٢) إكرام الضيف لأنه من الأعمال الصالحه ·
(٣٣) الوفاء بالعهد · (٣٤) أداء الأمانة ·
(٣٥) الأمر بالمعروف · (٣٦) النهى عن المنكر ·
(٣٧) صدقة التطوع ·
(٣٨) النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، لأن هذه وما بعدها داخل في الأعمال الصالحة ·
(٣٩) الإكثار من تلاوة القرآن الكريم ·
(٤٠) ذكر الله لأنه من الأعمال الصالحات ·
(٤١) الحث على الاستغفار لأنه عمل صالح ·
(٤٢) العفو والصفح عمن أساء لأنه عمل صالح ·
(٤٣) الحث على الصدق في القول والفعل لأنه عمل صالح ·
(٤٤) المشاركة فى الأعمال الخيرية من بناء مساجد، ووقف مصاحف ، والكتب الدينية ووقف أرض مقبرة للمسلمين ، ومياه، ونحو ذلك لأنها من الأعمال الصالحة إذا أريد بها وجه الله والدار الآخرة ·

والأعمال الصالحة من ابتغاها وجدها ، وفيما ذكرنا كفاية ، والله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين · والله أعلم ·

وصلى الله على محمد وآله وسلم ·

بسم الله الرحمن الرحيم

في إثبات الوحدانية لله وأدلتها

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم • إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون•ومن الناس من يتخذون دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب • إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب • وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وماهم بخارجين من النار) •

قال ابن عباس في سبب نزول الآية الأولى : إن كفار قريش قالوا : يا محمد صف لنا ربك ، فنزلت هذه الآية وسورة الإخلاص •

المعنى :

هذا إخبار منه تعالى عن تفرده بالإلهية،وأنه لا شريك له ولا عديل، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذى لا إله إلا هو ، فلا يستحق العبادة إلا هو ، والشرك ضربان :

الأول : شرك في الألوهية والعبادة بأن يصرف نوعاً من أنواع العبادة لغير الله ، أو يعتقد أن في الخلق من يشارك الله ، أو يعينه في أفعاله ، أو يحمله على بعضها ، ويصده عن بعض آخر ، قال ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

والثانى : شرك في الربوبية بأن يسند الخلق والتدبير إلى غيره معه، أو أخذ أحكام الدين من عبادة وتحليل وتحريم من غير الكتاب والسنة .

وقوله : « الرحمن الرحيم » اسمان دالان على أنه تعالى ذو رحمة واسعة وسعت كل شيء وعمت كل حى ، وكتبها للمتقين المقيمين الصلاة المؤتون الزكاة ، المتبعين لأنبياء الله ورسله ، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة ، ومن عداهم فله نصيب منها .

وقوله : « إن في خلق السموات » الآية ، في سبب نزولها وجوه :

أحدها : أن المشركين قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : اجعل لنا الصفا ذهباً إن كنت صادقاً ، فنزلت هذه الآية ، حكاه السدى عن ابن مسعود وابن عباس .

والثانى : أنهم لما قالوا : انسب لنا ربك وصفه، فنزلت : « والهكم إله واحد » قالوا : فأرنا آية ذلك ، فنزلت : « إن في خلق السموات والأرض » إلى قوله « يعقلون » روى عن ابن عباس .

والثالث : أنه لما نزلت « وإلهكم إله واحد » قال كفار قريش : كيف يسمع الناس إله واحد ؟ فنزلت هذه الآية .

المعنى : إن إنشاء السموات والأرض وابتداعهما وارتفاع السماء وإمساكها بلا عمد ، ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ، ودوران فلكها ، ولا تفاوت ولا اختلاف ولا تنافر ولا نقص ولا عيب ولا خلل ولا خروق ، كما قال تعالى في الآية الأخرى في سورة تبارك : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » الآية ، فكل ذلك دليل على قدرة الله وانفراده بالخلق والتدبير .

وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها ، وما فيها من الآيات المشاهدة العظيمة من حيوان وأشجار ونبات وزروع وثمار ، ومافيها من معادن ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص ، قال الله تعالى : « وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها بعض في الأكل » فكل مافيها يدل على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير وبيان قدرته وعظمته التى بها خلقها وحكمته التى بها أتقنها وأحسنها ونظمها ، وعلمه ورحمته التى بها أودع ما أودع من منافع الخلق ومصالحهم وضروراتهم وحاجاتهم ، وفي ذلك أبلغ دليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة لانفراده بالخلق والتدبير ، والقيام بشئون عباده ٠

وفي اختلاف الليل والنهار وهو تعاقبهما على الدوام إذا ذهب هذا خلفه الآخر لا يتأخر عنه لحظة قال تعالى « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » وفي الطول والقصر فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعارضان ، كما قال تعالى : « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، أى يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا وما ينشأ عن ذلك من الفصول التى بها انتظام مصالح بنى آدم وحيواناتهم ، وجميع ماعلى وجه الأرض من أشجار ونوابت ، كل ذلك بانتظام وتدبير وتسخير تنبهر له العقول ، وذلك مما يدل على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفه الشامل ، وتصريفه وتدبيره الذى تفرد به ، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه ، ومما يوجب أن يؤله ويعبد ، وأن يبذل الجهد في محابه ومراضيه ، ويفرد بالمحبة والتعظيم والخوف والرجاء وجميع أنواع العبادة ٠

قال ابن القيم رحمه الله : فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته ، كيف جعل الليل سكناً

ولباسا ، يغشي العالم فتسكن فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها ، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كد السعى والتعب ، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها ، وتطلعت إلى معايشها وتصرفها ، جاء فالق الإصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل ممزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون ، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه ، وخرجت الطيور من أوكارها ، فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على الميعاد الأكبر ، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منعها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم،ولا ضعف في قدرة القادرالتام القدرة ولاقصور في حكمته ولا في علمه يوجبتخلف ذلك ولكن الله يهدى منيشاء ويضل من يشاء ، وهذا أيضاً من آيات الله الباهرة أن يعمى عن هــذه الآيات البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ولا يبصرها وبهذا يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل ، اهـ .

وقوله : « والفلك التى تجرى في البحر بما ينفع الناس » : هى السفن والمراكب ونحوها مما ألهم الله عباده صنعتها ، وخلق لهم من الآلات ماأقدرهم عليها وسخر لهم هذا البحــر العظيم والرياح التى تحملها بمــا فيها من الركاب والبضائع والأموال التى هى من منافع الناس ، وبما تقوم به مصالحهم وتنتظم به معايشهم .

وقائد السفن وسائقها الرياح التىسخرها الله لإجرائها فلو وقف الهواء عن السفن لظلت راكدة على وجه المــاء كما قال تعالى « ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام ، إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » وقال : « وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة على قدرة الله ورحمته وعنايته ولطفه بخلقه ، وذلك يوجب أن

تكون المحبة كلها له ، والخوف والرجاء وجميع أنواع العبادة والذل والخضوع .

وقوله : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها » أي وفيما أنزل الله من ماء وهو المطر وقد وصف الله سبحانه وتعالى في آية أخرى كيف ينزل ، فقال « الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله » .

قال ابن القيم رحمه الله : ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلولها وظرابها وآكامها ومخفضها ومرتفعها ، ولو كان ربها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر وفي ذلك فساد ، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها .

وقال رحمه الله : ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تتابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو ، فهما ـ أعنى الصحو والغيم ـ يتعاقبان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساده ، فلو توالت الأمطار لأهلكت جميع ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضروات ، وأرخت الأبدان وحشرات الهواء فأحدثت ضروباً من الأمراض وفسد أكثر المآكل وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان ، وغيض الماء ، وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية اهـ .

وكل أرض لا ينزل عليها الماء من السماء ولا يجرى فيها الماء من الأرضين المطورة تكون خالية من النبات ، فبنزول الماء على هذا النحو المشاهد وكونه سبباً في حياة الحيوان والنبات أعظم دلالة على وحدانية المخترع المبدع ورحمته ولطفه بعباده وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه .

وقوله : « وبث فيها من كل دابة » أي وفيما بث فيها : أي نشر وفرق في الأرض من الدواب المتنوعة المحكمة المتقنة خلقة ما هو دليل لمن تأمل ذلك على قدرة الله وعظمته ووحدانيته وعلمه وقوته وسلطانه العظيم وسخرها للناس ينتفعون بها ، فمنها ما يأكلون لحمه ويشربون من لبنه ومايركبونه ، ومنها ما هو كما ذكر الله جل وعلا : « فمنها ركوبهم ومنها يأكلون » ومنها ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها مايعتبر به ، وغير ذلك من المنافع ، وهو سبحانه يعلم ذلك كله وهو القائم بأرزاق الجميع المتكفل بأقواتهم ، قال تعالى : « وما من دابة على الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » .

وقوله : «وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض» تصريفها إرسالها عقيما تارة وملقحة أخرى ، وصرا ونصرا وهلاكا ، وحارة وباردة ، وعاصفة ولينة ، وقيل : تصريفها إرسالها جنوبا وشمالا ، ودبورا وصبا ونكباء ، وهي التي تأتي بين مهبي ريحين ، وسميت ريحا لأنها تريح النفوس ، قال شريح : ماهبت ريح إلا لشفاء سقيم أولسقم صحيح، والبشارة في ثلاث من الرياح : في الصبا والشمال والجنوب ، أما الدبور فهي الريح العقيم ، لا بشارة فيها ، وتأمل كم سخر للسحاب من ريح حتى أمطر ، فسخرت له المثيرة أو لا فتثيره بين السماء والأرض ، ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية ، ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يجتمع بعضه إلى بعض فيصير طبقا واحدا ، ثم سخرت الملقحة بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء ثم سخرت المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ ماءه هنالك ، ثم سخرت له بعد إعصاره المفرقة التي تبثه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعا، ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات ، بل تفرقه فتجعله قطرا ، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولا الله ثم لولاها لكانت عقيما .

ومن منافعها سوق السفن كما مر ، وتجفيف مايحتاج إلى جفاف وتبريد الماء ، وإضرام النار التي يراد إضرامها .

وبالجملة ، فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح ، فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ، ومات الحيوان ، وفسدت المطاعم ، وأنتن العالم وفسد ، ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذى لو دام لأتلف النفوس ، وأسقم الحيوان ، وأمرض الأصحاء ، وأنهك المرضي ، وأفسد الثمار وعفن الزرع ، وأحدث الوباء في الجو اهـ بتصرف .

إذا فهمت ذلك فاعلم أن الذى صرفها هذا التصريف وأودع فيها من منافع العباد مالا يستغنون عنه ، وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات وتصلح الأبدان والأشجار والحبوب والثمار والنوابت ، هو الله العزيز الحكيم الرؤوف الرحيم اللطيف بعباده ، المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، المستحق للمحبة والإنابة والخضوع لعظمته .

وقوله : « والسحاب المسخر بين السماء والأرض » أى وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض ، على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير فيسوقه الله إلى حيث شاء فيحيى به البلاد والعباد ، ويروى به التلول والوهاد وينزله على الخلائق وقت حاجتهم إليه ، فإذا كان يضربهم أمسكه عنهم ، فينزله رحمة ولطفا ويصرفه عناية ، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه وألطف امتنانه ، ومن تدبر هذه المخلوقات وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات ، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق ، وأنها آيات دالة على ما أخبر به عن نفسه ووحدانيته وما أخبر به الرسل من اليوم الآخر ، وأنها مسخرات ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومسخرها ومصرفها ، وعرف أن العالم العلوى والسفلى كلهم إليه مفتقرون ، وإليه صامدون ، وأنه الغنى بالذات عن جميع المخلوقات ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه جل وعلا وتقدس .

أخرج ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها : أن

النبى صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية قال : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها » ٠

وفيها تعريض بجهل المشركين الذين اقترحوا على النبى صلى الله عليه وسلم آية تصدقه ، وتسجل عليهم بسخافة العقول ، وإلا فمن تأمل في تلك الآيات العظيمات التى الواحدة منها تكفى دليلا على وجوده تعالى وو حدانيته وسائر صفات كماله الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى وجد كلا منها مشتملا على وجوه كثيرة من الدلالة على وحدانية الله وسائر صفاته ٠

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد كان فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقوله تعالى « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب » بعد أن ذكر سبحانه فيما تقدم من ظواهر الكون مايدل بعضه ـ فكيف كله ـ على توحيده جل وعلا ورحمته وحكمته وقوته وعلمه وقدرته ، أخبر أنه مع هذا الدليل الظاهر قد وجد من لا ينظر ولا يعقل تلك الآيات التى أقامها ، برهانا على وحدانيته فيحيد عن التوحيد الذى يوحى به كل مافي الوجود عند التأمل والتفكير ، فاتخذ مع الله ندا يعبده من الأصنام كعبادة الله ويساويه به في المحبة والتعظيم ، والمحبة المذكورة هى المحبة الشركية المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال والإيثار على مراد النفس ، وهذه صرفها لغير الله شرك أكبر ينافي التوحيد بالكلية ، لأنها من أعظم أنواع العبادة التى لا يجوز صرفها لغير الله ٠

وفي الآية قولان :

أحدهما : والذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التى يحبونها ويعظمونها من دون الله ٠

والثانى : والذين آمنوا أشد حبا لله من محبة أهل الأنداد لله لأن محبة المؤمنين خالصة لله ، ومحبة أصحاب الأنداد قـد ذهبت أندادهم بقسط منها والمحبة الخالصة أشد من المشتركة بلاشك ولا ريب ·

فمن قال بالقول الأول لم يثبت للكفار محبة الله تعـالى ومن قال بالقول الثانى أثبت للكفار محبة الله تعالى لكن جعلوا الأصنام شركاء له في الحب ·

وكان شيخ الإسلام يرجح القول الأول ، ويقول : إنما ذموا بأن أشركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له ، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النـار يقولون لآلهتهم وأندادهم وهى محضرة في العذاب « تالله إن كنا لفى ضلال مبين ، إذ نسويكم برب العالمين » (الشعراء : ٩٧ ، ٩٨) ومعلوم أنهم لم يسووهم برب العالمين في الخلق والربوبية وإنما سوروهم به في المحبـة والتعظيم وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » (الأنعام : ١) أى يعدلون به غيره في العبادة التى هى المحبة والتعظيم وهو أصح القولين ، اهـ ·

وقوله «ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب » ثم توعد الله تعالى المشركين به ، الظالمين لأنفسهم بتدنيسها بالشرك وظلم الناس وغشهم بحملهم على أن يحذوا حذوهم ، ويتخذوا الأنداد مثلهم أى لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله ، ولتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة ، فالحكم له وحده لا شريك له وجميـع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه وأن الله شديد العذاب كما قال تعالى « فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد » ·

والخلاصة : أنه يتبـين للمشركين في ذلك اليـوم ضعف أندادهم وعجزها لا كما اشتبه عليهم في الدنيا فظنوا أن لها من الأمر شيئا ، وأنها تقربهم إلى الله زلفى ، كمـا ذكر الله عنهم بقـوله « مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » فخاب ظنهم وبطل سعيهم ، وحق العذاب عليهم،

ولم تدفع عنهم آلهتهم شيئا ، ولم تغن عنهم مثقال ذرة كما أخبر جل وعلا في الآية الأخرى بقوله « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون » وقال « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » الآية

ثم بين جل وعلا حال التابعين والمتبوعين يوم القيامة يوم ينكشف الغطاء ويرى الناس العذاب بأعينهم فقال « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب » .

المعنى : لو يرون حين يتبرأ الرؤساء المضلون الذين اتبعوا من أتباعهم الذين أغووهم في الدنيا ويتنصلوا من إضلالهم فتتبرأ منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدونهم في الدار الدنيا،فتقول الملائكة : تبرأنا إليك ماكانوا إيانا يعبدون ، ويقولون : سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون،والجن أيضا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » وقال تعالى « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا » وقال ابراهيم خليل الرحمن « إنما اتخذتم من دون الله أو ثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا ، ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » .

وقال تعالى إخبارا عما سيقوله إبليس لعنه الله : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم » وفي سورة سبأ ذكر جل وعلا موقفاً من مواقف المشركين يناقش فيه بعضهم بعضا في حالهم التي وصلوا

إليها قال « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لـكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا اللذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لـما رأوا العذاب ، وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ماكانوا يعملون » وفي سورة غافر ذكر جل وعلا محاجتهم فقال « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهـل أنتم مغنون عنا نصيبا من النـار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين اعباد » .

وقوله « وتقطعت بهم الأسباب » : في الأسباب أربعة أقوال :

أحدها : أنها المودات ، وإلى نحوه ذهب ابن عباس ومجاهد .

والثانى : أنها الأعمال ، رواه السدى عن ابن مسعود وابن عباس وهو قول أبى صالح وابن زيد .

والثالث : أنها الأرحام ، رواه ابن جريج عن ابن عباس .

والرابع : أنها تشمل جميع ذلك .

فيدخل في ذلك الصلة التى كانت بين الأتباع والمتبوعين في الدنيا من الأنساب والقرابة والصداقة والمودة والصلات والأواصر والعلاقات، وسقطت الرياسات والقيادات التى كان المخدوعون يتبعونها وعجزت عن وقاية أنفسها ، فضلا عن غيرها ، وانشغل كل إنسان بنفسه تابعاً كان أو متبوعاً ، قال الله تعالى : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيـه وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » وقال : « يوم لا يغنى مولا عن مولى شيئا ولا هم ينصرون » وقال : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم » .

ثم أخبر تعالى عما يقوله الأتباع حينما عاينوا تبرى الرؤساء منهم وندموا على مافعلوا من اتباعهم لهم في الدنيا فقال : « وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة (١) فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا » وفي هذا الكلام يبدو الغيظ والحنق من التابعين المخدوعين في القيادات الضالة .

والمعنى : أن الأتباع يتمنون لو ردوا إلى الدنيا فيتبرؤا من تبعتهم لتلك القيادات العاجزة الضعيفة في حقيقتها التى خدعتهم ثم تبرأت منهم أمام العذاب ، إنه مشهد مؤثر ، مشهد التبرؤ والتعادى والتخاصم بين التابعين والمتبوعين ، وهم كاذبون في قولهم لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلا نلتفت إليهم ، بل نوحد الله وحده بالعبادة ، بل لو ردوا لكانوا كما ذكر الله جل وعلا : « ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

وقوله : « كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم » فيها أقوال :

أحدها : أن المراد المعاصي ، يتحسرون عليها لما عملوها ، قال الزجاج :أى كتبرؤ بعضهم من بعض ، يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم، لأن أعمال الكافر لا تنفعه .

وقال ابن الأنبارى : يريهم الله أعمالهم القبيحة حسرات عليهم إذا رأوا المجازاة للمؤمنين بأعمالهم .

وقيل : يريهم الله مقادير الثواب التى عرضهم لها لو فعلوا الطاعات فيتحسرون عليه لما فرطوا فيه .

والحسرة : التلهف على الشيء الفائت . وقيل : الحسرة شدة الندم والكمد وهى تألم القلب وانحساره عما يؤلمه ، بحيث يبقى النادم كالحسير من الدواب ، وهو الذى انقطعت قوته فصار بحيث لا ينتفع به ، وأصل الحسر الكشف .

وقوله : « وما هم بخارجين من النار » هذا إخبار منه جل وعلا أنهم

---

(١) الكرة : العودة والرجعة .

فيها دائمون لا يخرجون منها ، وهذا قول أهل السنة والجماعة ، ولقوله تعالى : « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » ٠

ومن الأدلة قوله تعالى : « إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ٠ لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ٠ ونادوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون » وقوله : «مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً» وقوله: « الذى يصلى النار الكبرى ٠ ثم لا يموت فيها ولا يحي » وقوله : « إنه من يات ربه مجرماً فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحي » وقوله : « من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ٠ يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ » وقوله : « ونذر الظالمين فيها جثيا » وقوله : « إن عذابها كان غراماً » وقوله : « فقد كذبتم فسوف يكون لزاماً » وقوله : « لا يخفف عنهم من عذابها » وقوله : « وما هم بخارجين من النار » وقوله : « ولهم عذاب مقيم » وقوله : « لا يقضي عليهم فيموتوا » وقوله : « خالدين فيها أبداً » وقوله : « أولئك يئسوا من رحمتى » وقوله : « فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً » وقوله : « أولئك أصحاب النار هم خالدون » وقوله : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها » وقوله : « كما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها » ٠

ومن السنة ماورد عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ويذبح ، ويقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » رواه البخارى ٠

وأخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، ثم يقوم مؤذن بينهم يا أهل النار لا موت ، ويا أهل الجنة لا موت ، كل خالد بما فيه » ٠

وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو قيل لأهل النار إنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا ،

ولو قيل لأهل الجنة إنكم ماكثون في الجنة عدد كل حصاة في الدنيا لحزنوا، ولكن جعل لهم الأبد » أخرجه الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه ٠

ومما يستفاد من الآيات السابقة :

(١) إثبات وحدانية الله ٠ (٢) نفى الشريك عن الله ٠
(٣) إثبات الأسماء لله ٠ (٤) إثبات صفة الرحمة ٠
(٥) أن في خلق السموات والأرض مايدل على انفراد الله بالخلق والتدبير ٠
(٦) إثبات قدرة الله ٠ (٧) دليل على عظمة الله ٠
(٨) دليل على علم الله ٠
(٩) دليل على لطف الله بعباده حيث دلهم على مايعود إلى مصالحهم من معرفته وتعظيمه ٠
(١٠) إن في هـذه المخلوقات مايدل على وجوب إفراد الله بالمحبة والخضوع ٠
(١١) دليل على علو الله على خلقه ٠ (١٢) إثبات الألوهية ٠
(١٣) دليل على حكمة الله ٠
(١٤) دليل على رحمة الله واعتنائه بخلقه ٠
(١٥) أن الله لم يهمل الخلق ولم يتركهم سدى ٠
(١٦) الحث على التدبر والتفكر ٠
(١٧) إقامة الحجج والبراهين على انفراد الله بالخلق والتدبير وبيان قدرة الله ٠
(١٨) دليل على افتقار الخلائق إلى الله وشدة حاجتهم إليـه وإلى لطفه بهم ورزقه لهم ٠
(١٩) دليل على كرم الله وجوده ٠
(٢٠) دليل على حلم الله على خلقه ٠
(٢١) أن الشيء إذا ألف فقد الإنسان جدته وغرابته كما في هـذه

المخلوقات التى لو لم نرها ورأيناها فجأة لاندهشنا ورأينا عجائب هذا الكون ·

(٢٢) أن الذى ينتفع بآيات الله العاقل ·

(٢٣) أن هناك من لا ينظر ولا يتعقل ويحيد عن التوحيد ·

(٢٤) أن المؤمنين لا يحبون شيئا حبهم لله ، لا أنفسهم ولا سواهم ·

(٢٥) أن الله خلق الأسباب والمسببات ·

(٢٦) إثبات الأفعال الاختيارية · (٢٧) دليل على البعث ·

(٢٨) دليل على الحشر والحساب · (٢٩) دليل على غنى الله ·

(٣٠) أن في تعاقب الليل والنهار على الدوام ، واختلافهما في الحر والبرد ، والتوسط والطول والقصر ، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التى بها انتظام مصالح العباد وحيواناتهم وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت مايدل على وحدانية البارى وألوهيته وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته التى وسعت كل شيء وعمت كل حى ·

(٣١) أن في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى ثقيلة كثيفة وموقرة بالأثقال والرجال ولا ترسب ، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة بالذى ينفع الناس ما يدل على قدرة الله وقوته وعلمه ورحمته وعنايته بخلقه ·

(٣٢) أن في ذلك مايوجب أن تكون المحبة كلها لله والخوف والرجاء وجميع الطاعة والذل والتعظيم ·

(٣٣) أن في إنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض به ما يدل على قدرة الله وحكمته ورحمته ·

(٣٤) أن فيما بث الله في الأرض من الدواب ومن جميع الخلق من الناس وغيرهم آية دالة على وحدانية الله وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات كماله ، والآية في الإنسان أن جنسه يرجع إلى أصل واحد وهو آدم ، ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطباع والاخلاق

والأوصاف ، إلى غير ذلك ، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان ·

(٣٥) أن في تصريف الرياح وتدبيرها وتوجيهها على حسب إرادة الله جل وعلا ، فمرة من الشمال ، وأخرى من الدبور ، وأخرى من الجنوب ، وفي كيفيتها تارة حارة ، وتارة باردة ، وفي أحوالها عاصفة ولينة ، وفي آثارها عقما ولواقح ، مايدل على وحدانية الله وقدرته وعلمه وحكمته ورحمته فسبحان الله الواحد الرحمن الرحيم لا إله إلا هو ·

(٣٦) أن في تذليل السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته وتكونه وتجمعه وحمله الماء الكثير ثم نزوله مطرا وتبدده في الجهات التى أرادها له خالقه مايدل على وحدانية الله ورحمته بالعباد وقدرته ·

(٣٧) أن في كل ظواهر هذا الكون عبر ومواعظ لمن يعقل ويتدبر وينظر ويفكر ليدرك الحكم والأسرار ، ويستدل بما فيها من الإتقان والإحكام على قدرة مبدعها وحكمته وعلمه وعظيم رحمته ، وأنه المستحق للعبادة دون غيره من خلقه ·

(٣٨) أن الظالمين لو عاينوا العذاب لعلموا أن القوة لله ولتبينوا ضرر اتخاذ الآلهة ·

(٣٩) أنه في ذلك اليوم يتبرأ التابع من المتبوع ·

(٤٠) أن الوصل والروابط التى كانت بين المشركين تنقطع وتنحل ويحل محلها عداوة كما يبدو ذلك من كلام الأتباع ·

(٤١) أنه في ذلك اليوم يتبين خداع المتبوعين للأتباع ·

(٤٢) أن في ذلك اليوم يحصل جدال وتخاصم ·

(٤٣) أن الله يرى الكفار أعمالهم ·

(٤٤) أن الكفار يحصل لهم تحسر وندامة .

(٤٥) أنهم دائمون في النار .

(٤٦) إثبات النار وأنها لمن كفر بالله .

(٤٧) دليل على بقاء النار .

(٤٨) الحث على خوف الله والخوف من أليم عقابه .

(٤٩) أن الله جل وعلا يمهل ولا يهمل .

(٥٠) في الآية دلالة على أنهم كانوا قادرين على الطاعة والمعصية وإلا لما تحسروا ، ففيها رد على الجبرية .

(٥١) فيها رد على الجهمية ونحوهم من نفاة الصفات .

(٥٢) دليل على إثبات صفة الكلام لله والرد على من أنكرها .

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

في معنى البر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله سبحانه وتعالى : (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) ٠

قال ابن كثير على هذه الآية : فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس . ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين ، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك ، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل ، وامتثال أوامره ، والتوجه حيثما وجه ، واتباع ما شرع ، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل ، وليس في لزوم التوجه إلى جهة المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ، ولهذا قال : « ليس البرأن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر » الآية ، كما قال في الأضاحي والهدايا : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ٠

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا ، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ، ونزلت الفرائض والحدود ، فأمر الله بالفرائض والعمل بها ٠

وروى الضحاك ومقاتل نحو ذلك ٠

وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب والنصارى تقبل

قبل المشرق فقال الله تعالى « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب » يقول هذا كلام الإيمان وحقيقة العمل ·

وروى عن الحسن والربيع عن أنس مثله

وقال مجاهد : ولكن البر ماثبت في القلوب من طاعة الله عز وجل

وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها ·

وقال الثورى : « ولكن البر من آمن بالله » الآية قال : هذه الأنواع كلها ، ـ وصدق رحمه الله ـ فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الإسلام كلها ، وأخذ بمجامع الخير كله ، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو وأنه رب كل شيء ومليكه ، وأنه الخالق الرازق ، المحي المميت ، المدبر لجميع الأمور وأنه المستحق لأن يفرد بالعبودية والذل والخضوع وجميع أنواع العبادة ، وأنه المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن كل عيب ونقص ·

وقوله : « والملائكة » أى ومن البر الإيمان بملائكة الله ، وهو التصديق الجازم بأن لله ملائكة موجودون مخلوقون من نور ، وأنهم كما وصفهم الله عباده مكرمون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون وأنهم قائمون بوظايفهم التى أمرهم الله بالقيام بها أتم القيام ، ويجب الإيمان على التفصيل بمن ورد تعيينه باسمه المخصوص كجبريل وميكائيل وإسرافيل ورضوان ومالك فجبريل هو الموكل بأداء الوحى ، وهو الروح الأمين ، وميكائيل هو الموكل بالقطر وإسرافيل الموكل بالصور ، ومنهم الموكل بأعمال العباد وهم الكرام الكاتبون ، ومنهم الموكل بحفظ العبد من بين يديه ومن خلفه وهم المعقبات ، ومنهم الموكل بالجنة ونعيمها وهم رضوان رمن معه ، ومنهم الموكل بالنار وعذابها وهم مالك ومن معه ، ومنهم الموكل بفتنة القبر ، وهم منكر ونكير ، ومنهم حملة العرش ، ومنهم الموكل بالنطف في الأرحام وكتابة مايراد بها ، ومنهم ملائكة يدخلون

البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألفا ثم لا يعودون ، ومنهم ملائكة سياحون يتبعون مجالس الذكر ، وغير ذلك ٠

ويجب التصديق بمن لم يرد تعيينه باسمه المخصوص ولا تعيين نوعه المخصوص إجمالا ، والله أعلم بعدد الملائكة ، قال الله تعالى « كل آمن بالله وملائكته» الآية وكما في هذه الآية فجعل الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله « ومن يكفر بالله وملائكته » الآية ، وفي حديث جبريل : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه الخ ٠

وقوله : « واليوم الآخر » أى ومن البر الإيمان باليوم الآخر ، وهو الإيمان بكل ما أخبر به الله في كتابه أو أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت ، ويدخل في ذلك التصديق بعذاب القبر ونعيمه ، والبعث بعد الموت والحشر والحساب والميزان ، والصراط والحوض والجنة والنار ، وما أعد الله لأهلهما إجمالا وتفصيلا ٠

وقوله : « والكتاب » أى ومن البر الإيمان بالكتاب وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن ، المهيمن على ماقبله من الكتب ، الذى انتهى إليه كل خير ، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ، ونسخ به كل ماسواه من الكتب قبله ، والإيمان بكتب الله هو التصديق الجازم بأن لله كتبا أنزلها على أنبيائه ورسله ، وهي من كلامه حقيقة ، وأنها نور وبرهان وهدى، وأن ماتضمنته حق وصدق ، ولا يعلم عددها إلا الله ، وأنه يجب الإيمان بها جملة إلا ما سمى منها وهى التوراة والإنجيل والزبور والقرآن وصحف إبراهيم وموسي ، فيجب الإيمان بهذه على التفصيل والبقية إجمالا ٠

ويجب مع الإيمان بالقرآن وأنه منزل من عند الله الإيمان بأن الله تكلم به حقيقة كما تكلم بالكتب المنزلة على أنبيائه ورسله ، وأنه المخصوص بمزية الحفظ من التغيير والتبديل والتحريف ، قال الله تعالى

« إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقال : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » ٠

ومنزلة القرآن من الكتب المتقدمة كما ذكر الله فيه قال الله تعالى « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » وقال « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » ٠

وقوله : « والنبيين » أى ومن البر الإيمان بأنبياء الله والإيمان بهم هو التصديق الجازم بأن لله رسلا أرسلهم لإرشاد الخلق في معاشهم ومعادهم اقتضت حكمت اللطيف الخبير أن لايهمل خلقه بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، فيجب الإيمان بمن سمى الله منهم على التفصيل وهم المذكورون في القرآن وعددهم خمس وعشرون ، وهم : آدم ، نوح ، إدريس ، صالح ، إبراهيم ، هود ، لوط ، يونس ، إسماعيل إسحاق ، يعقوب ، يوسف ، أيوب ، شعيب ، موسي ، هارون ، اليسع ذو الكفل ، داود ، زكريا ، سليمان ، الياس ، يحي ، عيسي ، محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين ٠

ويجب الاعتقاد أنهم أكمل الخلق علما وعملا ، وأصدقهم وأبرهم وأكملهم أخلاقا وأن الله تعالى خصهم بفضائل لا يلحقهم فيها أحد ، وبرأهم من كل خلق رذيل ، وتجب محبتهم وتعظيمهم ، ويحرم الغلو فيهم ورفعهم فوق منزلتهم ، ويجوز في حقهم شرعا وعقلا ، النوم والأكل والشرب والجلوس والمشي والضحك والعجب وسائر الأعراض البشرية التى لا تؤدى إلى نقص في مراتبهم العلية فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام وتمتد إليهم أيدى الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتل الأنبياء بغير حق ٠

وقوله تعالى : « وآتى المال على حبه » أى أخرجه وهو محب له راغب فيه ، نص على ذلك ابن مسعود ، وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت في الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا

« أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشي الفقر » وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة والثورى عن منصور عن زبيدة عن مرة عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « وآتى المال على حبه : أن تعطيه وأنت صحيح تأمل العيش وتخشي الفقر » ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ·

وقال تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » وقال « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » وقال « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » نمط آخر وهو أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه ، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له ·

وفي موطأ مالك : أنه بلغه عن عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن مسكيناً سألها وهى صائمة وليس في بيتها إلا رغيف ، فقالت لمولاة لها : أعطيه إياه ، فقالت : ليس لك ماتفطرين عليه ، فقالت : أعطيه إياه ، قالت : ففعلت ، قالت : فلما أمسينا أهدى لنا أهل بيت ـ أو إنسان ـ ماكان يهدى لنا ، شاة وكتفها ، فدعتنى عائشة ، فقالت : كلى من هذا فهذا خير من قرصك ·

قال علماؤنا : هذا من المال الرابح ، والفعل الزكى عند الله تعالى ، يعجل منه مايشاء ، ولا ينقص ذلك مما يدخر عنده ، ومن ترك شيئاً لله لم يجد فقده ، وعائشة في فعلها هذا ممن أثنى الله عليهم بأنهم يؤثرون على أنفسهم مع ما هم فيه من الخصاصة ·

وقوله تعالى : « ذوى القربى » وهم قرابات الرجل ، وهم أولى من أعطى من الصدقة ، كما ثبت في الحديث « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذوى الرحم اثنتان : صدقة ، وصلة » فهم أولى الناس ببرك وعطائك ·

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت » متفق عليه ·

وعنه رضي الله عنه أن رجلا قال : يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ويقطعونى ، وأحسن إليهم ويسيئون إلى ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال : « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك » رواه مسلم ·

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه » متفق عليه ·

وعنه رضي الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل ، وكان أحب أمواله إليه « بيرحاء » وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، فلما نزلت هذه الآية « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول : لن تنال البر حتى تنفقوا مما تحبون ، وإن أحب أموالى بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى،فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بخ بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح ، وقد سمعت ماقلت وإنى أرى أن تجعلها في الأقربين ، فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه متفق عليه · وعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ليس الواصل بالمكافي ولكن اله اصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » رواه البخارى ·

وقوله « واليتامى » اليتيم من مات أبوه ولم يبلغ ، فاليتامى هم

الذين في الغالب لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب ، وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن علي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا يتم بعد حلم » ومن رحمته تعالى بالعباد أن أوصاهم بالإحسان إلى اليتامى ليصيروا كمن لم يفقد والديه قال الله تعالى « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير » وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما » رواه البخارى ، وعن بى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة » وأشار الراوى ـ مالك بن أنس ـ بالسبابة والوسطى ، رواه مسلم ·

وقوله « والمساكين » وهـــم الذين أسكنتهم الحاجة فلا يجـــدون مايكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما يدفع مسكنتهم أو يخففها وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف » متفق عليه ، وفي رواية في الصحيحين « ليس المسكين الذى يطـوف على الناس ترده اللقمـة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجـد غنى يغنيـه ، ولا يفطن به فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » · وعنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الساعى على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله ، وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر وكالصائم لا يفطر » متفق عليه ·

وقوله : « وابن السبيل » هو المسافر المنقطع به في غير بلده فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذلك الذى يريد السفر في طاعة فيعطى مايكفيه في ذهابه وإيابه ويدخل في ذلك الضيف ، كما قال على بن طلحة عن ابن عباس أنه قال : ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان ·

وقوله : « والسائلين » هـم الذين يتعرضون للطلب لحاجـة من الحوائج التي توجب السؤال كمن ابتلي بنكبة أرش جناية أو ضريبة عليه من ولاة الأمور ، أو فوات نفوس بانقلاب سيارة أو يسأل الناس لتعمير المساجد أو لإنشائها أو لإنشاء مدارس أو معاهد لطلاب العلم الشرعي أو ما هو وسيلة إليه ، أو لتحفيظ كلام الله وكلام رسوله أو لإصلاح القناطر أو الطرق للمسلمين ، فهذا له حق وإن كان غنيا .

أخرج الإمام أحمد وأبو داود وابن أبي حاتم عن الحسين بن علي رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « للسائل حق وإن جاء على فرس » .

وقوله : « وفي الرقاب » وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم ، وقيل : عتق النسمة وفك الرقبة ، وقيل : فداء الأسرى . وقوله : « وأقام الصلاة » أي أداها على أقوم وجه ولا يتحقق ذلك إلا بالإتيان بأداء أركانها وواجباتها وخشوعها وبوجود سرالصلاة وروحها ومن آثاره تحلي مقيم الصلاة بالأخلاق الفاضلة وتباعده عن الرذائل فلا يفعل فاحشة ولا منكرا ، كما قال تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ولا يكون هلوعا جزوعا إذا مسه الضر ، بخيلا منوعا إذا ناله الخير كما قال جل وعلا « إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا ، وإذا مسه الخيرمنوعا إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون» كما لا يخشي في الله لومة لائم ولا يبالي في سبيل الله مايلقى من الشدائد بما ينفق من فضله ابتغاء وجه الله .

وقوله تعالى « وآتى الزكاة » يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله تعالى : « قد أفلح من زكاها،وقد خاب من دساها» وقول موسي لفرعون : «هل لك إلىأن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشي » وقوله تعالى « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال كما قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان ، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف

المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس : « إن في المال حقاً سوى الزكاة » والله أعلم اهـ .

وقوله : « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » أى والذين إذا عاهدوا أوفوا به ، يعنى العهود والعهد هو الالتزام بإلزام الله أو إلزام العبد لنفسه ، فدخل في ذلك حقوق الله كلها لكون الله ألزم بها عباده والتزموها ودخلوا تحت عهدتها ووجب عليهم أداؤها وحقوق العباد التى أوجبها الله عليهم ، والحقوق التى التزمها العبد كالإيمان والنذور ونحو ذلك .

وقوله : « والصابرين في البأساء والضراء » يريد بالبأساء البؤس والفقر لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة ، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة مالا يحصل لغيره فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم ، وإن جاع أو جاع عياله تألم ، وإن نظر إلى مابين يديه وما يتوهمه في المستقبل الذى يستعد له تألم ، وإن أصابه البرد الذى لا يقدر على دفعه تألم ، فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب ورجاء الثواب من الله عليها ، والمراد بالضراء الوجع والمرض على اختلاف أنواعه من حمى وقروح ووجع عضو حتى الضرس والأصبع فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك لأن النفس تضعف والبدن يألم وذلك في غاية المشقة على النفوس فإنه يؤمر بالصبر احتسابا لثواب الله تعالى .

وقوله : « وحين البأس » أى وقت القتال وجهاد العدو لأن الجلاد يشق غاية المشقة على النفوس ويجزع من القتل أو الجرح أو الأسر ، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتسابا ورجاء لثواب الله ، وهذا من باب الترقى في الصبر من الشديد إلى الأشد لأن الصبر على المرض فوق الصبر على الفقر والصبر على القتال فوق الصبر على المرض .

وقوله : « أولئك الذين صدقوا » أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى

بالأقوال والأفعال فهؤلاء هم الذين صدقوا وأولئك هم المتقون لأنهم اتقوا بفعل هذه الخصال نار جهنم لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضمنا ولزوما لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات ومن قام بها كان بما سواها أقوم والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم .

مما يستفاد من الآية الكريمة :

(١) أن المقصود الأعظم هو طاعة الله وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه واتباع ما شرع .
(٢) أنه ليس في التوجه إلى المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه .
(٣) أن الركن الأول هو الإيمان بالله .
(٤) إثبات الألوهية لله .
(٥) وجوب الإيمان باليوم الآخر .
(٦) إثبات البعث .
(٧) إثبات الحشر والجزاء على الأعمال والجنة والنار .
(٨) إثبات صفة الكلام لله والرد على من أنكرها .
(٩) أن من البر الإيمان بالملائكة .
(١٠) الرد على من أنكر وجودهم من الملاحدة ونحوهم .
(١١) أن من البر الإيمان بكتب الله .
(١٢) أن من البر الإيمان بالنبيين .
(١٣) الرد على من كذب الأنبياء .
(١٤) الحث على إقامة الصلاة .
(١٥) الحث على إيتاء المال مع محبة الإنسان له .
(١٦) الحث على صلة الأرحام .
(١٧) الحث على التصدق على اليتيم .

(١٨) الحث على الإحسان إلى المساكين ·
(١٩) الحث على الإحسان إلى ابن السبيل ·
(٢٠) أن السائل يعطى وإن كان غنياً ·
(٢١) الحث على إعانة المكاتب ·
(٢٢) الحث على الوفاء بالعهد ·
(٢٣) الحث على الصبر في الباساء ·
(٢٤) الحث على الصبر في الضراء ·
(٢٥) الحث على الصبر وقت القتال ·
(٢٦) إن الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا ·
(٢٧) الحث على الصدق · (٢٨) الحث على التقوى ·
(٢٩) عناية الله ولطفه بخلقه حيث بين لهم ماينفعهم مما ذكر في هذه الآية ·
(٣٠) الحث على إيتاء الزكاة المفروضة ·
(٣١) تكرير الإشارة لزيادة التنويه بشأنهم ·
(٣٢) أن هذه الآية جامعة للكمالات الإنسانية بأسرها دالة عليها صريحاً أو ضمنا ، فإنها بكثرتها وتشعبها منحصرة في ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد ، وحسن المعاشرة ، وتهذيب النفس، وقد أشير إلى الأول بقوله (من آمن) إلى (والنبيين) وإلى الثاني بقوله (وآتى المال) إلى (وفي الرقاب) وإلى الثالث بقوله (وأقام الصلاة) إلى آخرها ، ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظراً إلى إيمانه واعتقاده وبالتقوى اعتباراً بمعاشرته للخلق ومعاملته للحق جل وعلا ·
(٣٣) الرد على الجهمية المنكرين لصفات الله ·
(٣٤) في الآية رد على الجبرية القائلين إن العبد مجبور على أفعاله ·
(٣٥) إن هذه الأشياء التى حث الكتاب عليها وهى من محاسن الإسلام لو أن الناس أدوها لكانوا في معايشهم من خير الأمم ولدخل

كثير من الناس في الإسلام لما يرون فيه من جميل العناية بالفقراء والأيتام وأبناء السبيل فتوثق الصلة بين الطوائف المختلفة من المسلمين ٠

(٣٦) قرن الزكاة بالصلاة ذاك أن الصلاة تهذيب الروح والمال قرين الروح ، فبذله ركن عظيم من أركان البر ، ومن ثم أجمع الصحابة رضي الله عنهم على محاربة مانعى الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن مانعها يهد ركنا من أركان الإسلام ٠

(٣٧) الحكمة في تخصيص المواطن الثلاثة بالصبر مع أن الصبر محمود في جميع الأحوال ، لأن من صبر فيها كان في غيرها أصبر ، فالفقر إذا اشتدت وطأته ضاق به الصدر وكاد يفضي إلى الكفر والضر إذا برح بالبدن أضعف الأخلاق والهمم وفي الحرب التعرض للهلاك بخوض غمرات المنية والظفر مقرون بالصبر ، وبالصبر يحفظ الحق الذى يناضل صاحبه دونه ، وقد ورد أن الفرار من الزحف من الكبائر ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

في الصوم وفضل شهر رمضان

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ٠ أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ٠ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ، ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم ولعلكم تشكرون) ٠

يخبر تعالى بما من به على عباده بأنه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة لأنه من الشرائع والأوامر التى هى مصلحة للخلق في كل زمان ففى هذا تأكيد له وترغيب فيه وتطييب لأنفس المخاطبين فإنه عبادة شاقة والأمور الشاقة إذا عمت كثيراً من الناس سهل تحملها ورغب كل أحد في عملها ٠

ثم ذكر تعالى فائدة الصوم وحكمته فقال « لعلكم تتقون » أى أنه فرضه عليكم لتتقوه بترك الشهوات لأن في الصيام امتثالا لأمر الله واحتسابا للأجر عنده فتتربى بذلك العزيمة والإرادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر عنها ، لأن الصيام من أكبر أسباب التقوى وحقيقة التقوى اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه وإعداد الصوم لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة ، منها أنه يعودالانسان الخشية من ربه في السر والعلن إذ أن الصائم لا رقيب عليه إلا ربه فإذا ترك الشهوات التى تعرض له من أكل نفيس وشراب

عذب وفاكهة يانعة وزوجة جميلة امتثالا لأمر ربه شهرا كاملا ولولا ذاك لما صبر عنها وهو في أشد الشوق إليها ، فحري بمن يتكرر منه ذلك أن يتعود الحياء من ربه والمراقبة له في أمره ونهيه وفي ذلك تكميل له وضبط للنفس عن شهواتها وشدة مراقبتها لبارئها فمما اشتمل عليه الصيام من التقوى : أن الصائم يترك ماحرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها التى تميل إليها نفسه متقربا بذلك إلى الله راجيا بتركها ثوابه ٠

ومنها أن الصيام يضيق مجارى الشيطان فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم ولهذا ثبت في الصحيحين « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » ٠

ومنها : أن الصائم في الغالب تكثر طاعاته والطاعات من خصال التقوى ٠

ومنها : أن الغنى إذا ذاق الجوع فربما أوجب له ذلك مواساة الفقراء وهذه من خصال التقوى ٠

ومنها : أن من اعتاد الحياء من ربه والمراقبة له في أمره ونهيه في السر والعلن لا يقدم غالبا على غش الناس ومخادعتهم ولا على أكل أموالهم بالباطل ولا على اقتراف المنكرات واجتراح السيئات ، وإذ ألم بشيء منها يكون سريع التذكر قريب الرجوع بالتوبة النصوح ، كما قال تعالى : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون» ولما للصوم من جليل الأثر في تهذيب النفس جاء في الحديث « من صام رمضان إيمانا واحتساباً غفر له ماتقدم من ذنبه » ، وجاء في الحديث القدسي « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به » ٠

ومنها : أن الصيام يفنى المواد الراسبة في البدن ولاسيما في أجسام المترفين أولى النعم قليل العمل ٠

ومنها : أنه علاج لاضطراب المعدة ٠ ومنها : أنه علاج للبول السكرى

غير الحاد ، وأنه علاج للتهاب الكلى ، وأنه علاج للتهاب المفاصل ، وأنه علاج لأمراض القلب المصحوبة بتورم ، وأنه علاج لضغط الدم الذاتى ، وأنه سبب لراحة المعدة وأنه يجفف الرطوبات الضارة ويطهر الأمعاء من السموم التى تحدثها البطنة ويذيب الشحم الذى هو شديد الخطر على القلب ، وقد أثر عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صوموا تصحوا » ٠

والصوم شرعا : إمساك عن أشياء مخصوصة في زمن مخصوص من شخص مخصوص ٠ فأما الأشياء المخصوصة فهى مفسداته ، وأماالزمن المخصوص فهو من طلوع الفجر الثانى إلى غروب الشمس ، وأما الشخص المخصوص فهو المسلم البالغ العاقل القادر غير الحائض والنفساء ٠

ثم لما ذكر جل وعلا أنه فرض علينا الصيام بين أن الأمر بالصوم ليس في جميع الأوقات بل أياماً معدودات أى مقدرات معلومات وهى مدة شهر رمضان ، ففى قوله « معدودات » إشارة إلى أنها قليلة في غاية السهولة ، ثم سهل تسهيلا آخر فقال : « فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » أى فمن كان على إحدى الحالين فالواجب عليه إذا أفطر ـ القضاء بقدر عدد الأيام التى لم يصمها لأن كلتيهما عرضة لاحتمال المشقة بالصوم ، ومن صام رمضان وهو مريض أو مسافر فقد أدى الفريضة ، ومن أفطر وجب عليه القضاء ، وبذلك كان عمل الصحابة ، فقد ورد عن حمزة بن عمرو الأسلمى أنه قال : يارسول الله أجد منى قوة على الصوم في السفر فهل على جناح ؟ فقال « هى رخصة من الله فمن أخذ بها فحسن ، ومن أحب أن يصوم فلا جناح عليه » ٠

وعن أبى سعيد قال : سافرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، قال فنزلنا منزلا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم » فكانت رخصة فمنا من صام ومنا من أفطر ، ثم نزلنا منزلا آخر ، فقال : « إنكم تصبحوا عدوكم وفطركم أقوى لكم فأفطروا » فكانت عزمة فأفطرنا ثم لقد رأيتنا نصوم

مع رسول الله صلى الله عليـه وسلم في السفر ، رواه أحمـد ومسلم وأبو داود ٠

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا نسافر مع النبي صلى الله عليه وسلم فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم ، رواه البخارى ٠

وقوله « وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين » أى ويجب فدية على الذين يتكلفون ويشق عليهم مشقة غـير محتمـلة وهم الشيوخ والعجائز لقول ابن عباس ليست بمنسوخة ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكيناً ، وقيل: كان هذا في ابتداء فرض الصيام لما كانوا غير معتادين للصيام ، وكان فرضه حتما فيه مشقة عليهم درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم ، ولهذا قال : « وأن تصوموا خير لكم » ثم بعد ذلك جعل الصيام حتما على المطيق وغـير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر ، والقول الأول هـو الراجح عنـدى والله أعلم ٠

وروى أن أنس بن مالك ضعف عن الصوم فصنع جفنه من ثريد فدعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم ، ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو على ولديهما فيفطران ويقضيان ، كالمريض الخائف على نفسه ، فإن كان الفطر خوفا على الولد فيلزم ولى الولد إطعام مسكين لكل يوم ، وعليها القضاء ٠

وقوله « شهر رمضان الذى أنزل فيه القـرآن » يمـدح سبحانه وتعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم ٠

وقوله « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » هـذا مـدح للقرآن الذى أنزل الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه ،

وبينات أى ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ودالة على صحة ماجاء به من الهدى المنافي للضلال والرشد المخالف للغي ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام ، وقال تعالى « ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » ونحو هذه الآية « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء » ٠

وقوله « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » الآية ، وقوله « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهد به الله من اتبع رضوانه سبل السلام» الآية ٠

وقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » هذا إيجاب للصوم على من شهد استهلال الشهر إذا كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه بالغ عاقل قادر أن يصوم لا محالة ، ويثبت شهر رمضان بأحد أمرين : إما برؤية الهلال أو بإكمال شعبان ثلاثين يوماً للآية ، وقوله صلى الله عليه وسلم « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » متفق عليه ٠ وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته ، فإن غم عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين » ٠ وعن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من شعبان ما لا يتحفظ من غيره ثم يصوم لرؤية رمضان ، فإن غم عليه عد ثلاثين يوماً ثم صام ، رواه أبو داود ٠

وتثبت رؤية هلال رمضان بخبر مسلم مكلف عدل لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن أعرابيا جاء إلى النبى صلى لله عليه وسلم فقال إنى رأيت الهلال ، فقال « أتشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : نعم ، قال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم قال : فأذن في الناس يا بلال أن يصوموا غداً » رواه الخمسة وصححه ابن خزيمة ، وابن حبان ، ورجح النسائى إرساله ٠

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : ترا آى الناس الهلال فاخبرت

النبى صلى الله عليه وسلم أنى رأيته فصام وأمر الناس بصيامه ، رواه أبو داود وصححه الحاكم ٠

ويستحب إذا رأى الهلال أن يقول ماورد ، ومنه حديث طلحة بن عبد الله رضي الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام ، ربى وربك الله ، هلال رشد وخير » رواه الترمذى وقال حديث حسن ٠

وقوله تعالى « ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » معناه ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر فله أن يفطر فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من أيام ٠

وقوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » أى يريد أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ويسهلها أبلغ تسهيل ، ومثله قوله تعالى « وما جعل عليكم في الدين من حرج » وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يرشد إلى التيسير وينهى عن التعسير كقوله صلى الله عليه وسلم « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا » وهو في الصحيح ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشيء من الدلجة » متفق عليه٠

وقوله « ولتكملوا العدة » أى ولتتمموا عدة أيام الشهر وعدة أيام القضاء ٠

وقوله « ولتكبروا الله على ماهداكم » أى ولتعظموا الله على ماأرشدكم إلى مارضي به من صوم رمضان وخصكم به دون سائر الملل، وقال ابن عباس هو تكبير ليلة الفطر ٠ وروى الشافعى عن ابن المسيب وعروة وأبى سلمة أنهم كانوا يكبرون ليلة الفطر يجهرون بالتكبير ، وعن على رضي الله عنه : أنه كان يكبر حتى يسمع أهل الطريق ، وقال

الإمام أحمد : كان ابن عمر يكبر في العيدين جميعاً ، وروى الدارقطنى أن ابن عمر كان إذا غدا يوم الفطر ويوم الأضحى يجهر بالتكبير حتى يأتى المصلى ثم يكبر حتى يأتى الإمام ٠

وقوله «ولعلكم تشكرون» أى إذا قمتم بما أمركم الله به من طاعاته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك المستدركين لما فات بالتوبة النصوح والإنابة إلى الله ٠ قال بعضهم :

قطعت شهور العام سهوا وغفلة
ولم تحترم فيما أتيت المحرما
فلا رجب وفيت فيه بحقه
ولا صمت شهر الصوم صوماً متمما
ولا في ليالى عشر ذى الحجة الذى
مضي كنت قواماً ولا كنت محرما
فهل لك أن تمحو الذنوب بعبرة
وتبكى عليها حسرة وتندما
وتستقبل العام الجديد بتوبة
لعلك أن تمحو بها ما تقدما

ومما يستفاد من الآية الكريمة :

(١) فرضية الصيام على المؤمنين ٠
(٢) أن الصيام مفروض على من قبلنا ٠
(٣) حكمة الصوم ليتقوا الله ، فالتقوى هى التى تستيقظ في القلوب ، وهى تؤدى هذه الفريضة طاعة لله وإيثاراً لرضاه ٠
(٤) في الآية ترغيب في الفعل وتطييب للنفس ٠
(٥) أن الصوم عبادة قديمة ٠
(٦) أن الصيام أيامه معدودة معينات بعدد معلوم ٠

(٧) أن في قوله تعالى معدودات إشارة إلى قلة مدته وأنها سهلة •
(٨) أن من كان مريضاً فله الفطر • (٩) أنه عليه القضاء •
(١٠) أنها بعدد الأيام التى أفطرها •
(١١) سماحة الدين الإسلامى •
(١٢) إباحة الفطر للمسافر • (١٣) وجوب القضاء •
(١٤) أن عليه قضاء عدد الأيام التى لم يصمها •
(١٥) أن من القواعد أن المشقة تجلب التيسير لأن كليهما عرضة لاحتمال المشقة بالصوم •
(١٦) وجوب الفدية على الذين يتكلفون الصيام ويشق عليهم مشقة غير محتملة •
(١٧) بيان مقدار الفدية •
(١٨) أنها طعام مسكين مكان كل يوم •
(١٩) مزية شهر رمضان على غيره من الشهور لاختياره لإنزال القرآن •
(٢٠) أن القرآن هدى للناس •
(٢١) أن آيات القرآن دلائل وحجج واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها ودالة على صحة ماجاء به من الهدى والنور •
(٢٢) إيجاب الصوم على من شهد استهلال الشهر إذا كان مقيما في البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح في بدنه قادر على الصيام بالغ عاقل غير حائض ونفساء •
(٢٣) عناية الله بخلقه ولطفه بهم •
(٢٤) أن القرآن مفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام •
(٢٥) أن الله جل وعلا يريد بعباده اليسر •
(٢٦) أن الله لا يريد بهم العسر ولا الحرج •
(٢٧) الأمر باتمام العدة •

(٢٨) الحث على تعظيم الله وتكبيره .

(٢٩) الحث على شكر الله .

(٣٠) فيها دليل على علو الله على خلقه والمأخذ من قوله أنزل فيه القرآن .

(٣١) أنه يجوز سرد قضاء رمضان ويجوز أن يفرقه فلا يتعين التتابع .

(٣٢) تحريم الفطر في نهار رمضان على من لا عذر له ممن يجب عليه الصيام .

(٣٣) أن ابتداء إنزال القرآن في رمضان .

(٣٤) إطلاق اسم الكل على الجزء حيث أطلق الشهر وهو اسم للكل وأراد جزءاً منه .

(٣٥) إن من زاد في الإطعام فهو خير له .

(٣٦) دليل على فضل العلم لأن الجاهل مايعرف ما في الصوم من من المعانى المورثة للخير والتقوى كما يفهم من قوله إن كنتم تعلمون .

(٣٧) فائدة التكرير أن الله جل ذكره ذكر في الآية الأولى التخبير للمريض والمسافر والمقيم الصحيح ، ثم نسخ تخيير المقيم الصحيح بقوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » فلو اقتصر على هذا لا احتمل أن يشمل النسخ الجميع فأعاد بعد ذكر الناسخ الرخصة للمريض والمسافر ليعلم أن الحكم باق على ما كان عليه .

(٣٨) الحث على اتقاء المعاصي .

(٣٩) أن الصيام سبب لاتقاء المعاصي لأنه يضعف الشهوة كما قال عليه السلام الصيام جنة ووجاء .

(٤٠) في الآية دليل على إثبات صفة الكلام لله ٠

(٤١) إثبات صفة الإرادة لله ٠

(٤٢) إثبات الألوهية لله ٠

(٤٣) فضل الله على خلقه حيث هداهم وأرشدهم إلى طاعته وإلى مايرضي به عنهم ٠

(٤٤) يفهم من قـوله « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » الإيماء إلى أن الأفضل الصيام إذا لم يلحق الصائم مشقة أو عسر لانتفاء علة الرخصة حينئذ ٠

وإليك نبذة من محاسن الصوم :

إنه بجوع بطنه يندفع جوع كثير من حواسه ، فإذا شبع بطنه جاع عينه ولسانه ويده ، فكأن في تشبيع النفس تجويعها ، وفي تجويعها تشبيعها ، فكان هذا التجويع أولى وتقدم بعض محاسنه في ص ٨٣ ، ٨٤ ، ومن محاسنه الموافقة مع الفقراء في مقاساة الجوع إذ في الفقراء الجوع أكثر ولا يمكن إطعام كلهم ليشبعهم فيطعم بقدر مايقدر ويصوم ويوافق جميع الفقراء في تحمل شدائد الجوع فينال ثواباً كثيراً مع النية الصالحة ، ومن جملة محاسنه أنه مهما خـلا البطن عن اللقـم امتلأ من الحكم ، قال عليه السلام « ما ملىء وعاء شرا من بطن » فالمؤمن إذا خـلا بطنه صفا سره ، ومن محاسنه اكتساب مكارم الأخلاق لأن قلة الأكل من محاسن الأخلاق لم يحمد أحد بكثرة الأكل بل بقلته يحمده كل ذى دين في كل حين ولم يروى عن أحد من الأنبياء والرسل كثرة الأكل ، ومن محاسن الصوم أن الله تعالى أوجبه في حال الصحة وأباح الفطر في المرض والسفر ، فإذا فات الزمان لم يفت الثواب ، ومن محاسنه أنه لم يشترط في القضاء أن يكون طول اليوم باليوم ولا حرارته ولا برودته ، ومن محاسنه أنه لم يشترط قران النية عند الشروع كما في سـائر العبادات لأن هذا الوقت وقت نوم وغفلة قلما يقف عليه العبد فلو شرط هذا لضاق الأمر على الناس فيسر الأمر على عباده ، ومن جمـلة

محاسن الشرع في باب الصوم إن أعقب الصوم بصدقة الفطر وجعـل صدقة الفطر جبراً لكل نقصان قال صلى الله عليه وسلم « صدقة الفطر طهرة للصائم » والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

في فضل آية الكرسي

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالى :

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم) ·

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم فعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل شيء سنام ، وإن سنام القرآن البقرة ، وفيها آية هي سيدة آي القرآن اية الكرسي » أخرجه الترمذى،وقوله : «إن لكل شيء سناما» سنام كل شيء أعلاه تشبيها بسنام البعير ، والمراد تعظيم السورة ، فقوله « هي سيدة آى القرآن » أى أفضله ، وقدصح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل اية في كتاب الله ·

وعن أبى ـ هو ابن كعب ـ أن النبى صلى الله عليه وسلم سأله أيّ آية في كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ثم قال أبي : آية الكرسي ، قال : « ليهنك العلم أبا المنذر ، والذى نفسي بيده إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » ·

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام ، فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال دعنى فإنى محتاج وعلي عيال ولى حاجة شديدة ، قال فخليت عنه ، فأصبحت فقال

النبى صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال قلت : يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله ، قال : أما إنه قدكذبك وسيعود،فعرفتأنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سيعود فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال دعنى فإنى محتاج وعلي عيال لاأعود فرحمته وخليت سبيلهفأصبحت فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياأبا هريرة مافعل أسيرك البارحة؟ قلت يارسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله ، قال : أما إنه كذبك وسيعود ، فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود ، فقال دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها قلت وما هى ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » حتى تختم الآية ، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله ، فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : مافعل أسيرك البارحة ؟ قلت : يارسول الله زعم أنه يعلمنى كلمات ينفعنى الله بها فخليت سبيله ، قال ما هى ؟ قلت : قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، وكانوا أحرص شيء على الخير ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم أما إنه صدقك ، وهو كذوب ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة ؟ قلت : لا ، قال : ذاك شيطان . كذا رواه البخارى معلقا .

فهذا الحديث من جملة الأدلة التى يرد بها على منكرى الجن ، ومستندهم في إنكارهم أن طريق معرفة وجود الجن هى النظر أوالسمع، وأنهم لم يروا جناً ولم يسمعوا كلامهم ولا حركاتهم ، ولم يمسوهم بأيديهم ولا غيرها لكن عدم السمع وعدم النظر وعدم المس أو عدم

وصول غيرها من الحواس الإنسانية لا يقوم دليلا على عدم وجود الجن لا نقــلا ولا عقــلا ٠

أما العقل فإنه يجوز وجود كائن حي غير مرئى بالعين بدون واسطة بالمجهر المكتشف أخيراً ، فإن المكروب كائن حي خلقه الله جل وعلا وهو كثير في طبقات الجو لا يمكن رؤيته ، ويصدقون به هم وغيرهم ٠

ومن لم يقر ويعتقد وجود ماغاب عن نظره وبصره لزمه إنكار الروح أيضاً لأنها ليست مرئية ولا مسموعة ولا ملموسة ، وهى حقيقة موجودة بها حياة الإنسان ومع ذلك لم يرها أحد قال تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، وكذلك أيضاً يلزمه إنكار العقل مع أنه حقيقى موجود كل يؤمن به ٠

وأما الدليل النقلى فمع الحـديث المتقدم آيات قرآنيــة وأحاديث أخرى منها قوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » وقال تعالى آمراً رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه أن الجن استمعوا لقراءته صلى الله عليه وسلم القرآن فآمنوا به وصدقوا لمـا قال وتلى ، وانقادوا له كما في قوله تعالى : « قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً » الآيات وقال تعالى : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين » وقال تعالى : « ولقدذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » الآية ، وقال تعالى : « ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنــا الذى أجلت لنا » الآية وقال « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى » وقال تعالى : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » وهذا من حكمة الله ولطفه بعباده فلو كشف لنا عن حقيقتهم وسلط نظرنا المحدود على ذواتهم لمـا أمكن ــ والله أعلم ــ أن نعيش معهــم ٠

ومن الأدلة على وجودهم قوله تعالى : « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون » وقوله تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » وقال فيمن سخر لسليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه » الآية ، إلى غير ذلك من الآيات .

وأما السنة فورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن عفريتاً تفلت على البارحة ليقطع على صلاتى فأمكننى الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجدحتى تصبحوا وتنظروا إليه فذكرت قول أخي سليمان (ربى اغفر لى وهب ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى) » .

وورد أن صفية زوج النبى صلى الله عليه وسلم جاءت تزوره،وهو معتكف فقام معها مودعا حتى بلغت باب المسجد فرآه رجلان من الأنصار فسلما عليه فقال : على رسلكما إنها صفية بنت حيي ، فقالا : سبحان الله يارسول الله ! وكبر عليهما فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم وإنى خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً » وهذا صريح واضح في أن الشيطان يخترق الجسم البشرى ويسرى فيه كما يسرى الدم ، ومع خفائه فقد التزم الشيطان لعنه الله في عداوته سبعة : ثلاثة في قوله تعالى : « ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » وأربعة في قوله تعالى : «لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » وهذا الالتزام يبين أنه عدو متظاهر بالعداوة ، ولذلك فصل الله عداوته باشتمالها على ثلاثة أشياء : السوء وهو متناول جميع المعاصي من القلب والجوارح ، والفحشاء وهى ماعظم جرمه وذنبه وقبحه كالكبائر التى بلغت الغاية في الفحش وذلك كاللواط والزنا .

ومن الأدلة على وجود الجن ما روى مسلم أن فتى من الأنصار قتل حية في بيته فمات في الحال ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن في المدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام ، فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان » .

وروى مسلم في صحيحه عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان إلا ابن مريم وأمه » ·

وروى مسلم قول النبى صلى الله عليه وسلم « ما منكم من أحد إلا وقد وكل الله به قرينه من الجن » فرأى الصحابة أن قوله صلى الله عليه وسلم عام فقالوا : يارسول الله وإياك ـ أى حتى أنت ـ ؟ فقال صلى الله عليه وسلم « وإياى ، لكن الله قد أعاننى عليه فأسلم ، فلا يامرنى إلا بخير » ·

ومن الأدلة أيضا ما ورد عن السائب بن يزيد أنه دخل على أبى سعيد الخدرى في بيته قال فوجدته يصلى فجلست أنتظره حتى يقضي صلاته فسمعت تحريكا في عراجين في ناحية البيت ، فالتفت فإذا حية فوثبت لأقتلها ، فأشار إلى أن أجلس فجلست ، فلما انصرف أشار إلى بيت في الدار فقال : أترى هذا البيت ؟ فقلت : نعم ، فقال : كان فيه فتى منا حديث عهد بعرس قال فخرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنصاف النهار فيرجع إلى أهله ، فاستأذنه يوماً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذ عليك سلاحك فإنى أخشي عليك قريظة » فأخذ الرجل سلاحه ثم رجع ، وإذا امرأته بين البابين قائمة فاهوى إليها بالرمح ليطعنها به فأصابته فقالت اكفف عليك رمحك وأدخل البيت حتى تنظر ما الذى أخرجنى ، فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه فما ندرى أيهما كان أسرع موتاً الحية أم الفتى ، قال فجئنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرنا ذلك له وقلنا ادع الله يحييه لنا ، فقال : « استغفروا لصاحبكم » ثم قال : « إن بالمدينة جنا قد أسلموا فإذا رأيتم منهم شيئاً فآذنوه ثلاثة أيام فإن بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه فإنما هو شيطان » وفي رواية عنه : فقال رسول الله صلى الله

عليه وسلم « إن لهذه البيوت عوامر فإذا رأيتم شيئاً منها فحرجوا عليها ثلاثاً فإن ذهب وإلا فاقتلوه فإنه كافر ، وقال لهم : إذهبوا فادفنوا صاحبكم » .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا نودى بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضي النداء أقبل ، حتى إذا ثوب بالصلاة أدبر ، حتى إذا قضي التثويب أقبل ، حتى يخطر بين المرء ونفسه يقول اذكر كذا » .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم رجل نام ليلة حتى أصبح قال « ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه ، أو قال أذنه » متفق عليه .

وعن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقده كلها » الحديث متفق عليه .

وروى مسلم عن ابن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تستنجوا بالروث ولا بالعظام فإنه زاد إخوانكم من الجن » وورد في السنة الصحيحة أكل الشيطان وشربه ، فقد ورد « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه وليعط بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ويعطى بشماله ويأخذ بشماله » وفي هذا كفاية وختاماً فإنه لا ينكر الجن إلا إنسان لا عقل له منسلخ عن الدين الإسلامى بالكلية لأنه مكذب لله ولرسوله ، ولما أجمع عليه المسلمون والله أعلم وصلى الله على محمد .

« الله » أى المألوه المعبود المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الكمال ولفظ الجلالة الذى هو الله علم على ذاته سبحانه وهو

أعرف المعارف على الإطلاق وكونه سبحانه مستحق للألوهية مستلزم لصفات الكمال فلا يستحق أن يكون معبوداً محبوباً لذاته إلا هو وكل عمل لا يراد به وجهه فهو باطل وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد كما قال تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » .

« القيوم » القائم بنفسه المقيم لما سواه ، وورد أن اسم الحى القيوم الاسم الأعظم فإنهما متضامنان لصفات الكمال أعظم تضمن ، فالصفات الذاتية ترجع إلى اسمه الحى والصفات الفعلية ترجع إلى اسمه القيوم . عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في هاتين الآيتين « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » ، « والم الله لا إله إلا هو » إن فيهما اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب في ثلاث سور : البقرة وآل عمران وطه قال هشام بن عماد الخطيب أما البقرة « فاللهلاإلهإلاهو الحىالقيوم » وفي آل عمران « الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وفي طه « وعنت الوجوه للحى القيوم » قال ابن القيم رحمه الله :

وله الحياة كمالها فلأجل ذا ... ما للممات عليه من سلطان
وكذلك القيوم من أوصافه ... ما للمنام عليه من غشيان
وكذاك أوصاف الكمال جميعها ... ثبتت له ومدارها الوصفان
فمصحح الأوصاف والأفعال وال ... أسماء حقا ذانك الوصفان
ولأجل ذا جاء الحديث بأنه ... في آية الكرسي وذى عمران
اسم الإله الأعظم اشتملا على ... اسم الحى والقيوم مقترنان
فالكل مرجعها إلى الاسمين يد ... رى ذاك ذو بصر بهذا الشأن

وقوله « لا تأخذه سنة ولا نوم » السنة النعاس وهو الذى يتقدم من الفتور وانطباق العينين ويكون في الرأس من غير نوم ومنه الوسنان فإذا وصل إلى القلب صار نوما والنوم غشية ثقيلة تقع على القلب تمنعه معرفة الأشياء فلا يحس ولا يشعر بها والمعنى أنه سبحانه لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ولا يخفى عليه خافية ومن تمام القيومية

أنه لا يعتريه سنة ولا نوم كما أنه جل وعلا لا يتعب ولا يظلم ولا يجهل ولا يعيا وهذه الأشياء يجب تنزيه الله عنها كما يجب تنزيهه عن الشريك والزوجة والولد والظهير والولى من الذل والشفيع بدون إذنه · عن أبى موسي الأشعرى قال قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً بخمس كلمات فقال إن الله عزوجل لا ينام،ولا ينبغي له أن ينام،يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل الليل حجابه النور ـ وفي رواية النار ـ ولو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه · فقوله «لاتأخذه سنة ولا نوم» جملة مؤكدة لما قبلها مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أتم وجه إذ من تأخذه السـنة والنوم يكون ضعيف الحياة ضعيف القيام بشئون نفسه وبشئون غـيره ·

وقوله « له ما في السموات وما في الأرض » هذا إخبار منه جل وعلا أن الجميع عبيده وتحت قهره وسلطانه كقوله تعالى « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » · «لقد أحصاهم وعدهم عداً · وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » فجملة له ما في السموات وما في الأرض تأكيد ثانى لقيوميته واحتجاج على تفرده بالألوهية لأنه تعالى خالقهما بما فيهما فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه لا خالق غيره ولا رب سواه ·

وقوله « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » كقوله تعالى « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضي » وكقوله « ولا يشفعون إلا لمن ارتضي » ·

بحث ، المقصود منه الكلام على الشفاعة بوضوح

الشفاعة لغة الوسيلة والطلب · وعرفها بعضهم بأنها سؤال الخير للغير وقيل هى السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم ، والشفاعة تنقسم إلى قسمين مثبتة وهى التى أثبتها الله تعالى لأهل الإخلاص ولها

شرطان مذكوران في آية سورة النجم قال تعالى « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضي » والشرطان هما إذن الله للشافع أن يشفع ، والثاني أن يرضي الله قوله قال في سورة طه « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا » وقال في سورة عم « يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » وأما المنفية فهى التى تطلب من غير الله أو بغير إذنه أو لأهل الشرك قال تعالى « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » وقال « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » وانقسم الناس في الشفاعة إلى ثلاثة أقسام طرفان ووسط فالمشركون ومن وافقهم من مبتدعة أهل الكتاب كالنصارى ، ومبتدعة هذه الأمة أثبتوا الشفاعة التى نفاها الله بالقرآن كما ذكر عن المشركين في كتابه بقوله « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ٠

والقسم الثانى : الخوارج والمعتزلة أنكروا ونفوا شفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في أهل الكبائر من أمته بل أنكر طائفة من أهل البدع انتفاع الإنسان بشفاعة غيره ودعائه كما أنكروا انتفاعه بصدقة غيره وصيامه فأنكروا الشفاعة بقوله تعالى « من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة » وبقوله « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » ٠

القسم الثالث : توسطوا وهم أهل السنة والجماعة فأثبتوا الشفاعة بشرطين : إذن الله للشافع أن يشفع والثانى لمن رضي الله قوله وعمله ، والله لا يرضي إلا التوحيد ٠ إذا تبين هذا فشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم ستة أنواع الأول الشفاعة العظمى التى يتأخر عنها أولو العزم حتى تنتهى إليه للاراحة من الموقف وهى المقام المحمود قال تعالى « عسي أن يبعثك ربك مقاماً محمودا » الثانى شفاعته لأهل الجنة في دخولها ٠ الثالث شفاعته لقوم من العصاة من أمته أن لا يدخلوا النار ٠ الرابع شفاعته في إخراج العصاة من أهل التوحيد من النار ٠ الخامس شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفع درجاتهم ٠ السادس شفاعته في تخفيف العذاب عن عمه أبى طالب ٠

وقوله : « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم » : يخبر تعالى عن علمه الواسع المحيط بكل شيء ، فهو سبحانه يعلم ما بين أيدى الخلائق من الأمور المستقبلة التى لا حد لها كقوله إخباراً عن الملائكة « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا» وحتى أنه سبحانه يعلم ويرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الأرض الغبراء ، وحركة الذر والبعوض والطيور في الهواء والسمك في الماء ، وما هو أدق من ذلك بكثير ، مما أرى الله خلقه وأطلعهم عليه من الميكروبات والكريات ومما استأثر بعلمه لا إله إلا هو اللطيف الخبير المحيط علمه بالسابق واللاحق والحالى والواجب والمستحيل والممكن ٠

وقوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » أى لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمهم الله عز وجل وأطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية وهو جزء يسير جداً مضمحل في علوم البارىء ومعلوماته كما قال أعلم الخلق بربهم الرسل والملائكة « سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » وفي قصة موسي والخضر أنه جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما نقص علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ٠

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو العليم أحاط علماً بالذى ... في الكون من سر ومن إعلان
وبكل شيء علمه سبحانه ... فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذلك يعلم ما يكون غداً وما ... قد كان والموجود في ذا الآن

وقوله : « وسع كرسيه السموات والأرض » ثم أخبر سبحانه عن عظمته وجلاله وأن كرسيه الذى هو موضع القدمين لله وسع السموات والأرض وما فيهما أى ملأ وأحاط بهما ٠ وقال الضحاك عن ابن عباس : لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى

بعض ما كن في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة ، وعن أبى ذر الغفارى أنه سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الكرسي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسي بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بارض فلاة وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلقة » وعن عمر رضي الله عنه قال أتت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت ادع الله ان يدخلنى الجنة ، قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطا كأطيط الرحل الجديد من ثقله ٠

وقوله : « ولا يؤوده حفظهما » أى لايثقله ولا يكرثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، والأشياء كلها صغيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة إليه ، وهو الغنى الحميد الفعال لما يريد ، الذى لا يسأل عما يفعل وهم يسئلون ، وهو القاهر لكل شيء الحسيب على كل شيء ٠

وقوله : « وهو العلى العظيم » ٠ ختم سبحانه هذه الآية بهذين الاسمين الجليلين ، فهو سبحانه الذى له العلو المطلق من جميع الوجوه ، علو الذات بكونه فوق جميع الخلق على العرش استوى ، وعلو القدر إذ أن له كل صفة كمال وله من تلك الصفة أعلاها وغايتها ، وعلو الشأن وصفة العلو مما تواطأ عليها العقل والنقل وفطر الله الخلق على ذلك ٠

قال ابن القيم رحمه الله :

وله العلو من الوجوه جميعها	ذاتا وقدراً مع علو الشان
كل إذا ما نابه شيء يرى	متوجها بضرورة الإنسان
نحو العلو فليس يطلب خلفه	وأمامه أو جانب الإنسان

العظيم الذى له جميع أوصاف العظمة والكبرياء وله العظمة

والتعظيم الكامل في قلوب أنبيائه وأصفيائه وملائكته فلا أعظم منه ولا أكبر .

قال الشيخ تقى الدين رحمه الله : يجب أن يعلم أن العالم العلوى والسفلى بالنسبة إلى الخالق تعالى في غاية الصغر كما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة ، ولا نسبة لها إلى عظمة البارى بوجه من الوجوه ، وهى في قبضته أصغر من الخردلة في كف الإنسان والخليقة مفطورة على أنها تقصد ربها في جهة العلو لا تلتفت عن ذلك يمنة ولا يسرة ، وجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة بخلاف ما عليه أهل الضلال من المشركين والصابئين من المتفلسفة وغيرهم فإنهم غيروا الفطرة في العلم والإرادة جميعاً ، فحقيق بآية احتوت على هذه الأسماء والصفات والمعانى الجليلة أن تكون أعظم آية في كتاب الله ، ويحق لمن قرأها بتدبر وتفهم أن يمتلىء من اليقين والعرفان والإيمان ، وأن يكون محفوظا من الشيطان الرجيم .

ما يؤخذ من الآية الكريمة ، آية الكرسي :

(١) إثبات الألوهية لله ، وانفراده بذلك .
(٢) إثبات صفة الحياة وهى من الصفات الذاتية .
(٣) إثبات صفة القيوم .
(٤) تنزيه الله عن السنة والنوم والعجز ، لما في ذلك من المنافاه لكمال حياته وقيوميته وقدرته .
(٥) إثبات سعة ملكه ، وأنه تعالى له ما في السموات وما في الأرض ملكاً وخلقاً ، وليس له في ذلك شريك ولا منازع ، وأن الجميع عبيده ، وتحت قهره وسلطانه .
(٦) إثبات سعة علمه ، وأنه محيط بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وأنه لا ينسي ولا يغفل ، ولا يلهيه شأن عن شأن .

(٧) اختصاصه ـ سبحانه ـ بالتعليم ، وأن الخلق لا يعلمون إلا ماأعلمهم الله جل وعلا ٠

(٨) إثبات الشفاعة بإذنه لقوله : (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) ٠

(٩) أن عظمة الكرسي من جملة الأدلة على عظمة الله ٠

(١٠) إثبات صفة الكلام ٠

(١١) إثبات صفة العلم لله ٠

(١٢) إثبات عظمته واقتداره ، وأنه لا يعجزه شيء ٠

(١٣) إثبات علو الله على خلقه ٠

(١٤) الترقى في نفى النقص من الأضعف إلى نفى الأقوى ، لأن من لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوى ٠

(١٥) إثبات المشيئة ٠

(١٦) الحث على الاتجاه إلى الله وحده بالعبودية والعبادة فلا يكون عبداً إلا لله ، ولا يتجه بالعبادة إلا لله ، ولا يلتزم بطاعة إلا طاعة الله وما يأمر به من الطاعات ٠

(١٧) أن العبادة لا يملكون الأعيان ملكاً مطلقاً ، وإنما يملكون التصرف فيها على مقتضي الشرع ٠

(١٨) إن شعور الإنسان بأن ما في السموات وما في الأرض وكل شيء ملك لله سبب لقمع حدة الشره والطمع والحرص والتكالب على الدنيا ٠

(١٩) أن استحضار ذلك وأن ما في يده عارية إلى أمد محدود يكسب في النفس القناعة والرضا بما يحصل من الرزق والسماحة والجودة بالموجود والزهد في الدنيا والاقبال على الآخرة ٠

(٢٠) أن العباد لم يؤتو من العلم إلا قليلا ٠

(٢١) إثبات الرد على المشركين القائلين أن أصنامهم تشفع ٠

(٢٢) الرد على القدرية القـائلين بأن الله ـ سبحانه ـ لا يعـلم الأشياء إلا بعد وقوعها ٠

(٢٣) الرد على من زعم أن الكرسي علمه أو أنه قدرته أو ملكه ، أو نحو ذلك ٠

(٢٤) أن النوم والسنة صفة نقص ، ولهذا نزه جل وعلا نفسـه عنهما ٠

(٢٥) تنزيه الله عن الولد والزوجة ، والرد على من نسب ذلك إلى الله ٠

(٢٦) الرد على من قال أن ماهناك سماء ، وإنما هو فضاء ٠

(٢٧) أن في السموات خلق لله لا يعلمهم إلا هو جل وعلا ٠

(٢٨) أن الكرسي أوسع من السموات والأرض ٠

(٢٩) أن العباد لا يجرؤون على الشفاعة والتكلم إلا بإذنه ، وذلك لجلاله وعظمته ٠

(٣٠) الخلاصة أن هذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وجلاله وجماله حتى لا تدع موضـــعاً للغرور بالشـــفعاء الذين يعظمهم المغرورون ويتكلون على شفاعتهم ، فأوقعهم ذلك في ترك المبالاة في الدين ، فخويت قلوبهم من ذكر الله ، وخلت من خشيته جهلا منها بما يجب من معرفته ، وأفسدت فطرتهم الأهواء ، والله أعلم ٠ وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

في متاع الدنيا وأن ماعند الله خير وأبقى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ۰ قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد ۰ الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ۰ الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ۰ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) ۰

يخبر تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ ، وهى ستة فأولها النساء فبدأ بهن لأن الفتنة بهن أشد ، ولأنهن حبائل الشيطان ، وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ماتركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء » ۰

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت في النساء » رواه مسلم ۰

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن المرأة تقبل في صورة شيطان وتدبر في صورة شيطان إذا أحدكم أعجبته المرأة فوقعت في قلبه فليعمد إلى امرأته فليواقعها فإن ذلك يرد ما في نفسه » رواه مسلم ۰

وعن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا لايبيتن رجل عند امرأة ثيب إلا أن يكون ناكحاً أو ذا محرم » رواه مسلم ·

وعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إياكم والدخول على النساء » فقال رجل : يا رسول الله أرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » متفق عليه ·

وعن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان » رواه الترمذى ·

وعن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا تلجوا على المغيبات فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم » قلنا : ومنك يا رسول الله ؟ قال : « ومنى ولكن أعاننى الله عليه فأسلم» رواهالترمذى

وأما إذا كان القصد بالنساء الإعفاف وكثرة الأولاد ، فهذا مطلوب مرغوب فيه ومندوب إليه ، كما وردت بذلك الأحاديث بالترغيب بالتزوج والاستكثار منه ، وأن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء ·

وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا كلها متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » رواه مسلم ·

وعن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة » رواه أبو داود والنسائى ·

وعن أبى أمامه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ماستفاد المؤمن بعد تقوى الله خير له من زوجة صالحة إن أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرته وإن أقسم عليها أبرته ، وان غاب عنها نصحته في نفسها وماله » رواه ابن ماجه ·

وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقى » ·

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ،ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » متفق عليه .

وعن اسماعيل بن مجمد بن أبى وقاص عن أبيه عن جده رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سعادة ابن آدم ثلاث ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة ، من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح والمركب الصالح ، ومن شقاوة ابن آدم المرأة السوء ، والمسكن السوء، والمركب السوء » رواه أحمد بإسناد صحيح، والطبراني والبزار والحاكم وصححه إلا أنه قال : والمسكن الضيق ، وابن حبان في صحيحه إلا أنه قال أربع من الشقاء الجار السوء والمرأة السوء والمركب السوء والمسكن الضيق .

وقوله في الحديث الآخر « حبب إليّ النساء والطيب وجعلت قرة عينى في الصلاة » وقالت عائشة رضي الله عنها لم يكن شيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء إلا الخيل ، وفي رواية من الخيل إلا النساء .

وثانيهما البنون ، وحبهم تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له فهذا محمود ممدوح كما ثبت في الحديث « تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة » .

قال الناظم رحمه الله :

وخيرالنسا منسرت الزوجمنظراً	ومن حفظتـه في مغيب ومشـهد
قصـيرة ألفاظ قصـيرة بيتها	قصيرة طرف العين عن كل أبعد
عليـك بذات الدين تظفر بالمنى	الودود الولود الأصـل ذات التعبد

ثالثها : القناطير المقنطرة ، وحب المال تارة يكون للفخر والخيلاء

والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء فهذا مذموم ، وتارة يكون لنفقته في القرابات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعا ٠

وأما القناطير فجمع قنطار ، واختلف في مقداره على أقوال حاصلها أنه المال الجزيل كما قال الضحاك وغيره ، وقيل ألف دينار ، وقيل اثنا عشر ألفا ، وقيل أربعون ألفا ، وقيل ستون ألفا ، وقيل سبعون ألفا ، وقيل ثمانون ألفا وقيل غير ذلك ٠ والمقنطرة : قيل المنضد بعضها فوق بعض ، وقيل المضاعفة ، وقال السدى المضروبة المنقوشة حتى صارت دراهم ودنانير ٠

وقوله « من الذهب والفضة » وهذا التعبير يشعر بالكثرة التى تكون مظنة الافتتان والتى تشغل القلب للتمتع بها وتستغرق في تدبيرها الوقت الكثير حتى لا يبقى بعد ذلك منفذ للشعور بالحاجة إلى نصرة الحق والاستعداد لأعمال الآخرة ، ونجد أن الأغنياء في الأمم لدى بعثة الرسل أول الكافر بهم المستكبرين عن دعوتهم وإن أجابوا وآمنوا فهم أقل الناس عملا وأكثرهم بعداً عن هدى الدين ، أنظر إلى قول الله تعالى « سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا » ، وقال « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها » الآيتين ٠

وقال « وذرني والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » ٠

وحب المال مما أودع في الغرائز البشرية ، واختلط بلحم الناس ودمهم ، والسبب ـ والله أعلم ـ كونه وسيلة إلى جلب الرغائب وسبيل إلى نيل اللذات والشهوات ، ورغبات الإنسان غير محدودة ، ولذاته كثيرة ، وكلما حصل على لذة طلب المزيد منها ، وما وصل إلى غاية من جمع المال إلا تاقت نفسه إلى مافوقها حتى لقد يبلغ ببعضهم النهم في جمعه أن ينسي أن المال وسيلة لا مقصد فيتفنن في الوصول إليه الفنون المختلفة والطرق التى تعن له ولا يبالى أمن حلال كسب أو من حرام لاسيما في زمننا الذي اختلط فيه الحابل بالنابل ٠

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله صلى الله عليه وسلم : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالث ، ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب » ولقد عمت فتنة المال كثيرا من الناس فشغلتهم عن حقوق الله وحقوق خلقه وصارت أوقاتهم مستغرقة في جمعه ٠ وهذا هو الفقر كما قيل :

ومن ينفق الساعات في جمع ماله　　مخافة فقر فالذى فعل الفقر

رابعها : الخيل المسومة : قيل هى المرعية في المروج والمسارح ، وقيل هى المعدة للجهاد ، وقيل هى الحسان ، وقيل المعلمة من السومة ، وهى العلامة ٠

وحب الخيل على ثلاثة أقسام : تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله ، حتى إذا احتاجوا إليها غزوا عليها فهؤلاء يثابون ، وتارة تربط فخراً ونواء لأهل الإسلام فهذه على صاحبها وزر ٠ وتارة للتعفف واقتناء نسلها ولم ينس حق الله في رقابها فهذه لصاحبها ستر ٠

وخامسها الأنعام : وهى الإبل والبقرة والغنم وهى مال أهل البادية ومنها تكون ثروتها ومعايشهم ، ومرافقهم ، وبها تفاخرهم وتكاثرهم ، وقد امتن الله بها على عباده بقوله : « والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم » ، وقال « أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » ٠

وسادسها الحرث : والحرث الزرع والنبات وعليه قوام حياة الإنسان والحيوان في البدو والحضر ، والحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الأنواع السالفة والانتفاع به أتم منها لكنه أخر عنها لأنه لما عم الارتفاق به كانت زينته في القلوب أقل ، وقلما يكون الانتفاع به صادا عن الاستعداد لأعمال الآخرة أو مانعا من نصرة الحق ، وهناك ما هو عام

للانتفاع وعظم الفائدة في الحياة وهو الضوء والهواء فلا يستغنى عنهما الأخياء ومع ذلك قلما يلتفت الإنسان إليهما ولا يفكر في غبطتهما فيحمد الله ويشكره على ذلك وقديماً قيل :

إذا ألف الشيء استهان به الفتى فلم يره بؤساً يعد ولا نعما
كإنفاقه من عمره ومساغه من الريق عذباً لا يحس له طعما

وقوله تعالى : « ذلك متاع الحياة الدنيا » الإشارة إلى ماسبق ذكره من الأصناف الستة المتقدم ذكرها مما يتمتع به الناس قليلا في هذه الحياة الفانية ويجعلونه وسيلة في معايشهم وسبباً لقضاء شهواتهم ، وقد زين لهم حبها في عاجل دنياهم المنغص لذاتها بالأحزان والأكدار ٠

قال بعضهم في التحذير من الاغترار بالدنيا وزخرفها :

يا قوم دنياكم دار مزوقة لكن لها وضعت في الرمل أركان
لها سقوف بلا أس مزخرفة وكيف يبقى بغير الأس بنيان
كم فاتح عينه فيها تخطفه أيدى الردى قبل أن تنظم أجفان

« والله عنده حسن المآب » يعنى حسن المرجع في الحياة الآخرة التى تكون بعد موتهم وبعثهم ففيه تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة ولما صغر تعالى الدنيا وزهد فيها في الآية الأولى عظم الآخرة وشرفها ورغب فيها في هذه الآية فقال : « قل أؤنبئكم بخير من ذالكم » أى قل يا محمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها ومستلذاتها التى هى زائلة لا محالة ، وإبهام الخبر للتفخيم ثم أخبر عن ذلك فقال : « للذين اتقوا عند ربهم » وخص المتقين لأنهم المنتفعون بذلك « جنات تجرى من تحتها الأنهار » أى تسير بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر « خالدين فيها » أبد الآباد لا يبغون عنها حولا ٠

وقوله « أزواج مطهرة » أى من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس والأقذار والطبائع الذميمة والأخلاق اللئيمة ٠

« ورضوان من الله » أى ويحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً ، وجاء في معنى هذه الآية قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » ٠

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة ! فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضي يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : الا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً » متفق عليه ٠

وقوله : « والله بصير بالعباد » خبير بهم وبأحوالهم وأفعالهم فييسر كلا لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرهم للعمل لتلك الدار الباقية ويأخذون من هذه الحياة الدنيا مايعينهم على عبادة الله وطاعته ، وأما أهل الشقاوة والإعراض فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة ويرضون بالحياة الدنيا ويطمئنون بها ويتخذونها قراراً ٠

قال ابن القيم رحمه الله :

(فصل في كلام الرب جل جلاله مع أهل الجنة)

أو ما علمت بأنه سبحانه	حقاً يكلم حزبه بجنان
فيقول جل جلاله هل أنتم	راضون قالوا نحن ذو رضوان
أم كيف لا نرضي وقد أعطيتنا	مالم ينله قط من إنسان
هل ثم شيء غير ذا فيكون	أفضل منه نسأله من المنان
ويذكر الرحمن واحدهم بما	قد كان منه سالف الأزمان
منه إليه ليس ثم وساطة	ما ذاك توبيخاً من الرحمن
لكن يعرفه الذى قد ناله	من فضله والعفو والإحسان
ويسلم الرحمن جل جلاله	حقاً عليهم وهو في القرآن

وكذا يسمعهم لذيذ خطابه سبحانه بتلاوة الفرقان
فكانهم لم يسمعوه قبل ذا هذا رواه الحافظ الطبراني
هذا سماع مطلق وسماعنا ال قرآن في الدنيا فنوع ثان
والله يسمع قوله بوساطة وبدونها نوعان معروفان
فسماع موسي لم يكن بوساطة وسماعنا بتوسط الإنسان

ثم وصف الله تبارك وتعالى عباده المتقين الذين تتاثر قلوبهم بثمرات إيمانهم فتنفيض ألسنتهم بالاعتراف بهذا الإيمان حين الدعاء والابتهال فقال : « الذين يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار » أى إن الذين اتقوا معاصي الله وتضرعوا إليه خاشعين يقولون مبتهلين متبتلين ربنا إننا آمنا - أى بك - وبكتابك وبرسولك فاغفر لنا ذنوبنا وتقصيرنا،فهؤلاء يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم لمغفرة ذنوبهم ووقاية عذاب النار ، وهذا من الوسائل التى يحبها الله أن يتوسل العبد إلى ربه بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة إلى تكميل نعم الله عليه بحصول الثواب الكامل واندفاع العقاب ٠

ثم وصفهم بصفات امتازوا بها عن غيرهم،وهى من أجمل الصفات، أولها : الصبر الذى هو حبس النفس على ما تكره تقريباً إلى الله ، فيصبرون على طاعة الله ، ويصبرون على أقدار الله المؤلمة ، ويصبرون عن معاصي الله ٠

وقد أمر الله بالصبر ووعد الصابرين بالأجر الجزيل،فقال : « ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا » وقال : « وبشر الصابرين » وقال : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا » وقال : « ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون » فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب ، إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر قال الله تعالى « الصوم لى وأنا أجزى به » ٠

وفي الصحيحين من حديث أبى سعيد رضي الله عنه عن النبى صلى

الله عليه وسلم أنه قال « ماأعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » وفي حديث آخر « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد » .

الصفة الثانية : الصدق في الأقوال والأحوال وهو استواء الظاهر والباطن وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم ، وحسبك في بيان فضيلته قوله تعـالى « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون . لهم مايشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين » وقال « ياأيها الذين آمنو اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الصدق يهدى إلى البر وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا » .

الصفة الثالثة : القنوت ، وهوالمداومة علىالطاعة والإخباتإلىالله مع الخشوع والخضوع ، وهو لب العبادة وروحها ، وبدونه تكون العبادة بلا روح وشجرة بلا ثمر .

الصفة الرابعة : الإنفاق للمال في جميع السبل التى حث عليهـا الشارع سواء أكانت النفقة واجبة أم مستحبة ، فالإنفاق في أعمال البر جميعا مما حث الشارع عليه وندب إليه وقوله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم » .

قيل نزلت هذه الآية في نصارى نجران ، وقال الكلبى قدم حبران من أحبار الشام على النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أبصرا المدينـة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبي صلى الله عليه وسلم الذى يخرج في آخر الزمان ، فلما دخلا عليه عرفاه بالصفة ، فقالا له : أنت محمد ؟ قال : نعم ، قالا له : وأنت أحمد ؟ قال : أنا محمد وأحمد ، قالا له : فإنا نسألك عن شيء فإن أخبرتنا به آمنا بك وصدقناك فقال : نعم ، قالا : فأخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله عز وجل،فأنزل الله تعالى هذه الآية فاسلم الرجلان .

هذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم الكبير المتعالى ، ومن الملائكة الكرام وأهل العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيد الله وقيامه بالقسط ، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع وجميع أحكام الجزاء فإن الشرع والدين أصله وقاعدته توحيد الله وإفراده بالعبودية ، والاعتراف بانفراده بصفات العظمة والكبرياء والمجد والعز والقدرة والجلال ، ونعوت الجود والبر والرحمة والإحسان والجمال ، وبكماله المطلق الذى لا يحصي أحد من الخلق أن يحيط بشيء منه أو يبلغه أو يصل إلى الثناء عليه ·

والعبادات الشرعية والمعاملات وتوابعها والأمر والنهى كله عدل وقسط لا ظلم فيه ولا جور بوجه من الوجوه بل هو غاية الحكمة والإحكام والجزاء على الأعمال الصالحة والسيئة كله قسط وعدل قال تعالى « قل أى شيء أكبر شهادة قل الله » فتوحيد الله ودينه وجزاءه قد ثبت ثبوتا لا ريب فيه وهى أعظم الحقائق وأوضحها وقد أقام الله على ذلك من البراهين والأدلة مالا يمكن إحصاؤه وعده ·

وتضمنت الآية الإبانة عن فضل العلم والعلماء لأنه تعالى خصهم بالذكر من دون البشر وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته ، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيده ودينه وجزائه وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة ، وفي ضمن ذلك تعديلهم وأن الخلق تبع لهم وأنهم هم الأئمة المتبوعون ، ففى هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا مزيد عليه ·

ومما جاء في فضل العلم والعلماء ماورد عن أبى أمامة الباهلى قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخرعالم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير » رواه الترمذى ·

وعن كثير بن قيس قال : كنت جالسا مع أبى الدرداء في مسجد دمشق فجاء رجل فقال : يا أبا الدرداء إنى جئتك من مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ،ما جئت لحاجة ، قال فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقاً من طريق الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضي لطالب العلم ، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض ، والحيتان في جوف الماء ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » رواه أحمد والترمذى ، وأبو داود ، وابن ماجة ، والدارمى ، وسماه الترمذى قيس بن كثير ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » رواه مسلم وغيره ٠

وقال سفيان الثورى عن أبى حيان التيمى عن رجل قال : كان يقال العلماء ثلاثة : عالم بالله ، وعالم بامر الله وعالم بالله ليس بعالم بامر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله فالعالم بالله وبامر الله الذى يخشي الله تعالى ويعلم الحدود والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بامر الله الذى يخشي الله ولا يعلم الحدود والفرائض والعالم بامر الله ليس بعالم بالله الذى يعلم الحدود والفرائض ولا يخشي الله عز وجل ٠ والله أعلم وصلى الله على محمد ٠

مما يفهم من الآيات السابقة من سورة آل عمران الآيات ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ٠

(١) أن مما زين للناس حب النساء ٠
(٢) حب البنين ٠
(٣) حب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ٠

(٤) حب الخيل المسومة ٠
(٥) أن حب هذه لا ينافي الدين إن لم يتعد صاحبها الشرع ٠
(٦) أن ماذكر متاع الحياة الدنيا ٠
(٧) أن حسن المرجع في الحياة الآخرة ٠
(٨) التزهيد في الحياة الدنيا (٩) الترغيب في الآخرة ٠
(١٠) إيهام الخبر للتفخيم ٠
(١١) تخصيص المتقين لأنهم المنتفعون بذلك ٠
(١٢) إثبات الربوبية ٠ (١٣) الحث على التقوى ٠
(١٤) دليل على علو الله على خلقه ٠
(١٥) دليل أن الجنة في أعلى ٠ (١٦) إثبات الجنة ٠
(١٧) دليل على وجود الجنة الآن وأنها مخلوقة ٠
(١٨) أن فيها أنهار ٠ (١٩) أن أنهارها تجرى ٠
(٢٠) أن أهل الجنة ماكثين فيها أبداً ٠
(٢١) دليل على بقاء الجنة ٠ (٢٢) أن لأهل الجنة أزواج ٠
(٢٣) أن أزواجهم مطهرة من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وسائر الأقذار ٠
(٢٤) إثبات صفة الرضي ٠
(٢٥) حصول رضي الله لأهل الجنة جعلنا الله منهم وإخواننا المسلمين ومتعنا وإياهم بالنظر إلى وجهه الكريم اللهم صلى على محمد وآله ٠
(٢٦) أن رضي الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم كما قال تعالى : « ورضوان من الله أكبر » ٠
(٢٧) إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال ٠
(٢٨) إثبات علم الله ٠ (٢٩) الحث على مقام المراقبة ٠
(٣٠) إثبات الألوهية لله ٠ (٣١) الخوف من الله ٠
(٣٢) دليل على كرم الله وجوده فلهذا أعطى أهل الجنة فوق مرامهم

بل أعد لهم مالا عـين رأت ولا أذن سمعت ولا خطـر على قلب بشر ٠

(٣٣) دليل على قدرة الله وأنه لا يعجزه شيء ٠

(٣٤) أن المتقين المعد لهم النعيم تتأثر قـلوبهم بثمرات الإيمـان فتفيض ألسنتهم بالاعتراف بهـذا الإيمان حـين الدعـاء والابتهال ٠

(٣٥) أنهم مع أعمالهم يسألون الله مغفرة ذنوبهم ٠

(٣٦) أنهم مع ذلك يسألون الله جل وعلا أن يقيهم عذاب النار ٠

(٣٧) دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال ٠

(٣٨) دليل على جواز التوسل إلى الله بالإيمان والأعمال الصالحة لمغفرة الذنوب وقصة أصحاب الغار الثلاثة مشهورة نكتفى بالإرشاد إليها ٠

(٣٩) أن من الصفات التى امتازوا بها عن غيرهم الصبر ٠

(٤٠) أن من صفاتهم الصدق ٠

(٤١) أن من صفاتهم المداومة على الطاعة ٠

(٤٢) أن من صفاتهم الإنفاق فيما حث الشارع عليه ٠

(٤٣) أنهم مع ماتقـدم من الأعمـال الصـالحة يستغفرون الله في الأسحار ٠ ٠

(٤٤) الحث على الصبر لأن الله مدح من اتصف به ٠

(٤٥) الحث على الصدق لمـا تقدم ٠

(٤٦) الحث على القنوت لأن الله مدح من اتصف به ٠

(٤٧) الحث على الإنفاق في مراضي الله لمـا سبق ٠

(٤٨) الحث على الاستغفار لمـا تقدم ٠

(٤٩) تجنب الكذب ٠ (٥٠) الابتعاد عن البخل ٠

(٥١) الابتعاد عن الذنوب ٠ (٥٢) الخوف من النار ٠

(٥٣) تجنب التسخط والتضجر مما يقدره الله على العبد ٠

(٥٤) إثبات صفة الربوبية لله جل وعلا ٠

(٥٥) أن هذه أعظم شهادة ٠
(٥٦) إثبات شهادة الله على وحدانيته وقيامه بالقسط وألوهيته ٠
(٥٨) إثبات وحدانية الله ٠
(٥٩) إثبات الملائكة ٠ (٦٠) إثبات شهادتهم ٠
(٦١) الرد على من أنكرهم من الملاحدة والدهريين ومن سلك مذهبهم ٠
(٦٢) دليل على فضل العلم ٠
(٦٣) فضل العلماء لتخصيصهم دون غيرهم وقرن شهادتهم بشهادته ٠
(٦٤) وجوب قبول هذه الشهادة على المكلفين ٠
(٦٥) دليل على أن الخلق تبع للعلماء المحققين المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ٠
(٦٦) إثبات عدل الله وقيامه به ٠ (٦٧) إثبات صفة العزة لله ٠
(٦٨) إثبات الأسماء لله ٠ (٦٩) إثبات حكمة الله ٠
(٧٠) الرد على الجهمية ونحوهم من المنكرين لهذه الصفة ولغيرها ٠
(٧١) إثبات صفة الكلام لله ٠
(٧٢) أن من أسمائه تعالى العزيز ٠
(٧٣) أن من أسمائه تعالى الحكيم ٠
(٧٤) الحث على طلب العلم الشرعي ٠
(٧٥) الحث على العدل ٠ (٧٦) الحث على توحيد الله ٠
(٧٧) الرد على من أنكر صفة الكلام لله ٠
(٧٨) الرد على المشركين ٠
(٧٩) الرد على النصارى لقولهم إن الله ثالث ثلاثة وما من إله الا إله واحد ٠

بسم الله الرحمن الرجيم

في التحذير من الربا

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقــوا الله لعلكم تفلحون · واتقوا النارالتيأعدت للكافرينوأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » ·

وقوله تعالى «وسارعوا إلى مغفرة منربكم وجنةعرضها السموات والأرض أعدت للمتقين · الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين · والذين إذا فعــلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون · أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهــار خالدين فيها ونعــم أجر العاملين » ·

يقول الله تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطى الربا وأكله أضعافا مضاعفة كما كانوا في الجاهلية يفعلونه حيث كان الرجل منهم إذا كان له دين وحل أجله قال الدائن للمدين إما أن تقضي واما أن تربى ، فإن قضاه وإلا زاده في المدة وزاد في القدر ، وهكذا كل عام فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً ، وفي الغالب لا يفعل مثل ذلك إلا معدم محتاج فهو يبذل الزيادة ليفتدى من أسر المطالبة ولا يزال كذلك يعلوه الدين وربما استغرق جميع موجوده ، فيربو المال على المحتاج من غير نفع يحصل له ويزيد مال المرابى من غير نفع يحصل منه لأخيه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ويوقعه في المشقة والضرر فمن رحمته تعالىوإحسانه إلى خلقه أن حرم الربا وآذان من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم

يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره ، قال الله تعالى « يايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين • فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » الآية •

ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه : أن النبى صلى الله عليه وسلم لعن آكل الربا وموكله ، رواه مسلم ، زاد الترمذى وغيره وشاهديه وكاتبه ، وعن جابر رضي الله عنه قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه وقال هم سواء ، رواه مسلم •

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، وذكر منها أكل الربا » متفق عليه •

وعن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رأيت الليلة رجلين أتيانى أخرجانى إلى أرض مقدسة ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى شاطىء النهر رجل بين يديه حجارة فاقبل الرجل الذى في النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فرده حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر فيرجع كما كان ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : الذى رأيته في النهر آكل الربا» رواه البخارى في صحيحه •

ثم أكد سبحانه النهى فقال تعالى « واتقوا الله لعلكم تفلحون » أى واتقوا الله فيما نهيتم عنه من الأمور ومن جملتها الربا ، فإن المعاصي كلها وخصوصاً المعاصي الكبار تجر إلى الكفر فترك المعاصي ينجى من النار ويقي من سخط الجبار ، وأفعال الخير والطاعة توجب رضي الرحمن ودخول الجنات وحصول الرحمة •

ثم زاد سبحانه النهى تاكيداً فقال « واتقوا النار التى أعدت للكافرين » أى ابتعدوا عن متابعة المرابين وتعاطى ما يتعاطونه من أكل

الربا الذى يفضي بآكله إلى دخول النار التى أعدها الله للكافرين ، وفي هذا من شديد الزجر ما لا يخفى ، فإن المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء النار إذا علموا أنهم متى فارقوا التقوى أدخلوا هذه النار كان انزعاجهم عن المعاصي أتم ، ومن ثم روى عن أبى حنيفة رحمه الله أنه كان يقول : إن هذه أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ·

ثم بالغ في النهى فقال « وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون » أى أطيعوا الله والرسول بفعل الأوامر وامتثالها واجتناب النواهى لعلكم ترحمون فطاعة الله وطاعة رسوله من أسباب حصول الرحمة ·

وقوله تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » لما حذر الله تعالى عن الأفعال الموجبة للعقاب ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » أى بادروا وسابقوا إلى الأعمال الصالحة التى توجب المغفرة ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إلى الإسلام ، وروى إلى التوبة ، وبه قال عكرمة ، وقال على بن أبى طالب رضي عنه : إلى أداء الفرائض ، وقال أبو العالية : إلى الهجرة ، وقال الضحاك إلى الجهاد وقال مقاتل : إلى الأعمال الصالحة ، وروى عن أنس بن مالك أنها التكبيرة الأولى ·

وقد ورد في الحث على المبادرة إلى الخيرات آيات وأحاديث قال الله تعالى « فاستبقوا الخيرات » وقال تعالى « والسابقون السابقون أولئك المقربون في جنات النعيم » ·

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » ·

وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد أرأيت إن قتلت فأين أنا ؟ قال في الجنة ، فألقى تمرات كن في يده ثم قاتل حتى قتل ، متفق عليه •

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « بادروا بالأعمال سبعاً هل تنتظرون إلا فقراً منسيا أو غنى مطغياً أو مرضاً مفسداً أو هرما مفندا ، أو موتا مجهزاً ، أو الدجال ، فشرغائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر » رواه الترمذي وقال حديث حسن •

وقوله « وجنة عرضها السموات والأرض » أى وإلى جنة عرضها السموات والأرض ، أى عرضها كعرض السموات والأرض كما بينه قوله تعالى في سورة الحديد « سابقوا إلى مغفرة ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » • أى سعتها وإنما ذكر العرض على المبالغة لأن طول كل شيء في الأكثر والأغلب أكثر من عرضه يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها ؟ قال الزهرى : إنما وصف عرضها فاما طولها فلا يعلم إلا الله ، وقوله أعدت للمتقين أى هيئت للمطيعين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم : ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة وأعمالهم فقال الذين ينفقون في السراء والضراء » أى في الشدة والرخاء والمنشط والمكره والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال كما قال الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية والمعنى : إنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله والإنفاق في مراضيه والإحسان على خلقه من قراباتهم وغيرهم بانواع البر ، فأول ماذكر من أخلاقهم الموجبة للجنة ذكر السخاء •

وقد وردت أحاديث في الحث على الجود والإنفاق في وجوه الخير ، فمنها ماورد عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » متفق عليه ، وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قال الله تعالى : أنفق ياابن آدم ينفق عليك » متفق عليه •

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها » متفق عليه ، وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا : يارسول الله مامنا أحد إلا ماله أحب إليه ، قال : فإن ماله ماقدم ومال وارثه ماأخر » رواه البخارى ·

وعن أبى أمامة صدى بن عجلان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى » رواه مسلم ·

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مانقصت صدقة من مال ، ومازاد الله عبدا بعفو إلا عزاء، وماتواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل » رواه مسلم ·

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السخي قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل » ·

قال الشاعر :

يغطى بالسماحة كل عيب وكم عيب يغطيه السخاء

وقال الآخر :

ويظهر عيب المرء للناس بخله ويستره عنهم جميعاً سخاؤه

وقوله تعالى : « والكاظمين الغيظ » أى الجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه ، والكظم حبس الشيء عند امتلائه ، وكظم الغيظ أن يمتلىء

غيظاً فيرده في جوفه ولا يظهره ، ومنه قوله تعالى : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » .

وعن سهل بن معاذ بن أنس عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كظم غيظاً وهو يقدرعلى أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره من أى الحور شاء » .

وعن زيد بن أسلم عن رجل من أهل الشام يقال له الجليل عن عم له عن أبى هريرة رضي الله عنه في قوله « والكاظمين » أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً » .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » متفق عليه .

وفي بعض الآثار يقول الله تعالى : « يا ابن آدم اذكرنى إذا غضبت فلا أهلكك فيمن أهلك » رواه ابن أبى حاتم .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم : أوصنى ، قال : « لا تغضب » فردد مراراً قال : لا تغضب ، رواه البخارى .

وعن حميد بن عبد الرحمن عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : قال رجل : يارسول الله ، أوصنى ، قال : « لا تغضب » قال : ففكرت حين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، فإذا الغضب يجمع الشر كله ، رواه أحمد ، ورواته محتج بهم في الصحيح .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم : مايباعدنى من غضب الله عز وجل ؟ قال : « لا تغضب » رواه أحمد وابن حبان في صحيحه ، إلا أنه قال : ما يمنعنى .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مامن جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » ابن ماجه ، ورواته محتج بهم في الصحيح ·

وقوله تعالى : « والعافين عن الناس » العفو عن الناس التجاوز عن ذنوبهم وترك مؤاخذتهم مع القدرة على ذلك ، يعنى الصافحين عن الناس المتجاوزين عما يجوز العفو والتجاوز عنه مما لا يؤدى إلى الإخلال بحق الله تعالى ، فيدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعـل ·

ولله در القائل :

وإن أساء مسيء فليـكن لك في   عروض زلته صفح وغفران

وقال الآخر :

واحـلم عن خلي وأعـلم أنه   متى أجزه حلماً على الجهل يندم

وقال أيضاً :

وما قتل الأحـرار كالعفو عنهم   ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

فالعفو أرقى من الكظم لأنه ربما كظم غيظه على الحقد والضغينة ، وقيل : العافين عن المملوكين إذا أساءوا ، والعموم أولى ·

أخرج ابن جرير عن الحسن أن الله تعالى يقول يوم القيامة : « ليقم من كان له على الله تعالى أجر ، فلا يقوم إلا إنسان عفا » ·

وفي الحديث ثلاث أقسم عليهن : مانقص مال من صدقة ، ومازاد الله عبداً بعفو إلا عزا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه ·

وروى الحاكم في مستدركه من حديث موسي بن عقبة عن إسحق بن يحي بن أبى طلحة القرشي عن عبادة بن الصامت عن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يشرف له البنيان

وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ، ويعط من حرمه ، ويصل من قطعه » ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقد أورده ابن مردويه من حديث علي وكعب بن عجرة وأبي هريرة وأم سلمة رضي الله عنهم بنحو ذلك ·

وروى من طريق الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة نادى مناد يقول أين العافون عن الناس ؟ هلموا إلى ربكم وخذوا أجوركم ، وحق على كل امرىء مسلم إذا عفا أن يدخل الجنة » ·

وقوله « والله يحب المحسنين » هذا تذييل لمضمون ماقبله وأل إما للجنس والمذكورون داخلون فيه دخولا أولياً وإما للعهد وعبر عنهم بالمحسنين على ماقيل إيذانا بأن النعوت المعدومة من باب الإحسان الذى هو الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذى هو حسنها الوصفى المستلزم لحسنها الذاتى ، وقد فسره النبى صلى الله عليه وسلم « بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وعبر عنهم بذلك للإشارة إلى أنهم في جميع تلك النعوت محسنون إلى الغير لا في الإنفاق فقط ·

وأخرج البيهقى أن جارية لعلى بن الحسين رضي الله عنهما جعلت تسكب عليه الماء ليتهيا للصلاة ، فسقط الإبريق من يدها ، فشجه فرفع رأسه إليها فقالت : إن الله تعالى يقول « والكاظمين الغيظ » فقال لها : قد كظمت غيظى ، قالت : « والعافين عن الناس » قال : قد عفا الله عنك قالت « والله يحب المحسنين » قال : اذهبى فانت حرة لوجه الله تعالى ·

ورجح بعضهم العهد على الجنس بانه أدخل في المدح وانسب بذكره قبل قوله تعالى « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » انتهى ·

والإحسان نوعان : الإحسان في عبادة الخالق ، والإحسان إلى المخلوق ، فالإحسان في عبادة الخالق فسره النبى صلى الله عليه وسلم

بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » وأما الإحسان إلى المخلوق فهو إيصال النفع الديني والدنيوى إليهم ودفع الشر الديني والدنيوى عنهم فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وتعليم جاهلهم ووعظ غافلهم والنصيحة لعامتهم وخاصتهم والسعي في جمع كلمتهم وإيصال الصدقات والنفقات الواجبة والمستحبة إليهم على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم فيدخل في ذلك بذل الندى وكف الأذى واحتمال الأذى كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات فمن قام بهذه الأمور فقد قام بحق الله وحق عبيده انتهى ·

ثم ذكر اعتذارهم من جناياتهم وذنوبهم فقال : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » أى إذا صدر منهم أعمال سيئة كبيرة أو صغيرة ، بادروا إلى التوبة والاستغفار وذكروا ربهم ، وما توعد به العاصين ووعد به المتقين فسألوه المغفرة لذنوبهم والستر لعيوبهم ، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها وعزمهم أن لا يعودوا ·

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلا أذنب ذنباً فقال رب أذنبت ذنباً فاغفره لى فقال الله عز وجل: عبدى عمل ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إنى عملت ذنباً فاغفره ، فقال تبارك وتعالى: علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : ربى عملت ذنباً فاغفره لي فقال عز وجل : علم عبدى أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به ، قد غفرت لعبدى ، ثم عمل ذنباً آخر فقال : رب إنى عملت ذنباً فاغفره ، فقال الله عز وجل : عبدى علم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به أشهدكم أنى قد غفرت لعبدى ، فليعمل ماشاء » أخرجاه في الصحيحين·

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى فيغفر لهم » رواه مسلم ·

وقوله « ومن يغفر الذنوب إلا الله » جملة معترضة بين ماقبلها وما بعدها تصويبا لفعل التائبين وتطييباً لقلوبهم وبشارة لهم بسعة الرحمة وقرب المغفرة وإعلاء لقدرهم بأنهم علموا أن لا مفزع للمذنبين إلا فضله وكرمه وأن من كرمه أن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له ، وأن العبد إذا التجأ إليه وتنصل عن الذنب بأقصي ما يقدر عليه عفا عنه وتجاوز عن ذنوبه وإ جلت ، قال تعالى : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » وقال « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده » .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فاتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » رواه مسلم .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن العبد إذا اعترف ثم تاب ، تاب الله عليه » متفق عليه .

وعن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم اجعلنى من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أساءوا استغفروا » رواه ابن ماجه والبيهقي في الدعوات الكبير .

وقوله : « ولم يصروا على مافعلوا » أى ولم يقيموا على المعصية بل تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله من قريب، ولو تكرر منهم الذنب تابوا.

وعن أبي بكر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » .

وقوله : « وهم يعلمون » قال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبى يعلمون أنها معصية، وقيل وهم يعلمون أن الإصرار ضار ، وقال الضحاك :

وهم يعلمون أن الله يملك مغفرة الذنوب ، وقال الحسين بن الفضل : وهم يعلمون أن لهم ربا يغفر الذنوب ، وقيل : وهم يعلمون أنهم إن استغفروا غفر لهم ، وأن من تاب تاب الله عليه ، وهذا كقوله تعالى : « ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده » وكقوله تعالى : « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجدالله غفوراً رحيما » ونظائر هذا كثيرة جداً ٠

وقد ورد عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال وهو على المنبر : « ارحموا ترحموا ، واغفروا يغفر لكم ، ويل لأقماع القول ، ويل للمصرين الذين يصرون على مافعلوا وهم يعلمون » تفرد به أحمد ٠

وقوله : « أولئك جزاؤهم » إشارة إلى من تقدم وصفهم من المتقين الذين ينفقون في السراء والضراء إلى آخر الكلام ، أى هؤلاء جزاؤهم على أعمالهم ، وتوبتهم واستغفارهم مغفرة من ربهم ، أى ستر لذنوبهم وعفو من الله عن عقوبتهم على ما سلف من ذنوبهم ، ولهم على ماأطاعوا الله فيه من أعمالهم بالحسن منها جنات ، وهى البساتين الجامعة للأشجار العجيبة ، والثمار الأنيقة ، والظلال المديدة ، والأغصان والأفنان ، وبذلك صارت جنة يجتن بها داخلها ٠

وقوله : « تجرى من تحتها الأنهار » أى من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها ، وقد جاء في الحديث أن أنهارها تجرى في غير أخدود ، وقد بين سبحانه أنواع هذه الأنهار في قوله تعالى : « فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى » ٠

وقوله : « خالدين فيها » أى مقيمين لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلا ، ولا بغير ماهم فيه من النعيم ٠

وقوله : « ونعم أجر العاملين » المخصوص بالمدح محذوف ، أى ونعم أجر العاملين الجنة ، عملوا لله قليلا فأجروا كثيراً ، فعند الصباح

يحمد القوم السرى وعند الجزاء يجد العامل أجره كاملا موفراً « يوم تجد كل نفس ماعملت من خير محضرا » .

قال ابن القيم رحمه الله :

(فصل في صفة الجنة)

فاسمع إذاً أوصافها وصفات ها تيك المنـــازل ربة الأركان
هي جنـة طابت وطاب نعيمهـا فنعـيمها باق وليس بفان
دار السـلام وجنـة المأوى ومـنزل عسكر الإيمان والقـرآن
فـالدار دار سـلامة وخطا بهـم فيهـا سلام واسم ذى الغفران

وقال رحمه الله :

(فصل في أنهار الجنة)

أنهارها في غـير أخدود جـرت سبحان ممسكها عن الفيضان
من تحتهم تجرى كما شاءوا مفجــرة ومـا للنهـر من نقصـان
عسـل مصفى ثم مـاء ثم خمـر ثم أنهـار من الألبـان
والله ما تلك المـواد كهـذه لـكن همـا في اللفظ مجتمعان
هذا وبينهما يسـير تشـابه وهو اشـتراك قام بالأذهـان

مما يفهم من الآيات ١٣٠ ـ ١٣٦ :

(١) النهى عن أكل الربا . (٢) أنه محرم .
(٣) الأمر بالتقوى . (٤) إثبات الألوهية .
(٥) أن التقوى سبب للفلاح . (٦) الأمر باتقاء النار .
(٧) الدليل على أن أكل الربا من الكبائر .
(٨) إثبات وجود النار .
(٩) دليل على أنها الآن مخلوقة ومعدة للكفار .
(١٠) أنها معدة للكفار .
(١١) إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال .

(١٢) الخوف والحذر من النار ٠
(١٣) سماحة الدين الإسلامى حيث لم يبح الربا لما فيه من القسوة واستغلال ضرورة المعوز وحاجته ٠
(١٤) الحث على مايوجد المحبة في القلوب ٠
(١٥) الإبعاد عما يوجب البغضاء ٠
(١٦) زيادة التأكيد في النهى عن الربا ٠
(١٧) في هذه الآية من شديد الزجر عن الربا ما لا يخفى ، فإن المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء المعاصي إذا علموا أنهم متى فارقوا التقوى أدخلوا هذه النار كان انزعاجهم وقلقهم عن المعاصي أتم ، ومن ثم روى عن أبى حنيفة رحمه الله أنه كان يقول : إن هذه أخوف آية في القرآن حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكفار إن لم يتقوه في اجتناب محارمه ٠
(١٨) أن في قوله « أضعافاً مضاعفة » تنبيه على شدة شناعته بكثرة ٠
(١٩) التنبيه على حكمة تحريم الربا ، وأنها لما فيه من الظلم ، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر وبقاء مافي ذمته من غير زيادة ، فإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف ٠
(٢٠) الأمر بطاعة الله ٠
(٢١) الأمر بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم
(٢٢) في الآية معاقبة للذين عصوا الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أحد ٠
(٢٣) تعقيب الوعيد بالوعد ، ترهيباً عن المخالفة ، وترغيباً في الطاعة ٠
(٢٤) إثبات صفة الرحمة ٠
(٢٥) الحث على المسارعة إلى ماهو سبب لمغفرة الذنوب ٠

(٢٦) الحث على المسارعة إلى إدراك الجنة .
(٢٧) إثبات صفة المغفرة . (٢٨) إثبات الربوبية .
(٢٩) دليل على إثبات الجنة . (٣٠) دليل على سعتها .
(٣١) دليل على أن الجنة الآن مخلوقة .
(٣٢) حسن التعبير عن الجنة بعرض السموات والأرض ، لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده .
(٣٣) الحث على التقوى . (٣٤) أنها سبب لمرضات الله .
(٣٥) أن من صفاتهم أنهم ينفقون في السراء .
(٣٦) أنهم ينفقون في الشدة فنفقتهم مستمرة في المنشط والمكره وفي جميع الأحوال .
(٣٧) إن من صفاتهم كظم الغيظ .
(٣٨) إن من صفاتهم العفو عن الناس .
(٣٩) إثبات صفة المحبة لله .
(٤٠) الحث على الإنفاق فيما يرضي الله سبحانه .
(٤١) الحث على كظم الغيظ .
(٤٢) الحث على العفو عن الناس .
(٤٣) الحث على الإحسان . (٤٤) إثبات الألوهية .
(٤٥) الحث على التحلى بالأخلاق الفاضلة .
(٤٦) إثبات الأفعال الاختيارية لله .
(٤٧) أن من صفاتهم أنهم إذا صدر منهم أعمال سيئة بادروا إلى التوبة والاستغفار ، وذكروا ربهم وما توعد به العاصين .
(٤٨) الحث على ذكر الله .
(٤٩) النهى عن الفواحش ، لأنها من الذنوب العظام ، وقد نهى الله عن قربانها .
(٥٠) أن من صفات أولئك أنهم لم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون
(٥١) أنهم يعلمون أن من تاب تاب الله عليه .

(٥٢) الرد على الجبرية .　　　　(٥٣) إثبات البعث .
(٥٤) إثبات الحساب والجزاء على الأعمال .
(٥٥) أن الموصوفون بتلك الصفات جزاؤهم مغفرة من ربهم .
(٥٦) إثبات صفة المغفرة .　　　　(٥٧) إثبات الربوبية الخاصة .
(٥٨) إن الموصوفون بتلك الصفات لهم مع مغفرة الذنوب جنات .
(٥٩) إن فيها أنهار ، وهى موضحة في آية أخرى في قوله تعالى « فيها أنهار من ماء غير آسن . وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى » الآية .

(٦٠) أنهم مقيمين فيها أبدا .
(٦١) أن هذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة على أن الأعمال تدخل في الإيمان .

(٦٢) في الآية رد على المرجئة .
(٦٣) دليل على كرم الله وجوده ، يوفق العبد للعمل اليسير ، ويجزيه عليه الثواب العظيم .

(٦٤) أنه لا يتعاظمه شيء أعطاه .
(٦٥) لطف الله بخلقه إذ بين لهم طرق السعادة .
(٦٦) الحث على الاستغفار .
(٦٧) أنه لا أحد يغفر الذنوب إلا الله .
(٦٨) مدح هذا الجزاء العظيم يفيد تنشيط السامع .
(٦٩) دليل على علم الله .　　　　(٧٠) دليل على حكمة الله .
(٧١) الترغيب في الأعمال الصالحة للحصول على هذا الأجر العظيم
(٧٢) في الآيات مايدعو إلى محبة الله لأن النفوس مجبولة على من يحسن إليها ويبذل لها محض النصح ، فكيف بمن إحسانه شامل للخلق كلهم في كل زمان ومكان ، والله أعلم . وصلى الله على محمد وآله وسلم .

في الحث على التفكر فيما خلق الله سبحانه وتعالى

واستجابته ـ سبحانه ـ لدعاء عباده المؤمنين ، وأمره لهم بالصبر

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب • الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار • ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار • ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد • فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب • لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد • لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار • وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب • ياأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا لعلكم تفلحون) •

لما بين سبحانه وتعالى أن له ملك السموات والأرض عقبه ببيان الدلالة على ذلك فقال « إن في خلق السموات والأرض » في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من

الآيات المشاهدة العظيمة : من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار وجبال وقفار ، وأشجار ونبات وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم والروائح والخواص .

وقوله « واختلاف الليل والنهار » أى في تعاقبهما وتقارظهما في الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ، ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذى كان قصيرا ، ويقصر الذى كان طويلا ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم ولهذا قال « لآيات لأولى الألباب » أى دلالات لأولى العقول التامة الزكية التى تدرك الأشياء بحقائقها على جلياتها ، وليس كالصم البكم الذين لا يعقلون . الذين قال الله فيهم « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

ثم وصف تعالى أولى الألباب فقال « الذين يذكرون الله قياماً وقعودا وعلى جنوبهم » قال على بن أبى طالب وابن عباس رضي الله عنهم ، والنخعى وقتادة : هذا في الصلاة يصلى قائما فإن لم يستطع فعلى جنب . وثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « صل قائما فإن لم تستطعْ فقاعداً فإن لم تستطعْ فعلى جنبك » .

وقال سائر المفسرين أراد به المداومة على الذكر في عموم الأحوال لأن الإنسان قل مايخلو من إحدى هذه الحالات الثلاث ، نظيره في سورة النساء « فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياما وقعوداً وعلى جنوبكم » ولا تنافي بين التفسيرين . لأنه غير ممتنع وصفهم بالذكر في هذه الأحوال وهم في الصلاة ، والله أعلم .

وقد ورد في فضل ذكر الله عز وجل والحث عليه آيات وأحاديث كثيرة وليس بعد تلاوة القرآن الكريم عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله سبحانه وتعالى ورفع الحوائج بالأدعية الخالصة إليه ، ومما يدل على فضل الذكر مع الآية المتقدمة قوله تعالى «فاذكرونى أذكركم» وقوله « واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » وقوله «والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما » .

وعن أبى ذر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبرك بأحب الكلام إلى الله ؟ قلت : بلى يارسول الله أخبرنى بأحب الكلام إلى الله ، قال : « إن أحب الكلام إلى الله ، سبحان الله وبحمده » رواه مسلم ٠

وعن أبى موسي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكره مثل الحى والميت » رواه البخارى ، ورواه مسلم فقال « مثل البيت الذى يذكر الله فيه والذى لا يذكر الله فيه مثل الحى والميت » ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرنى في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم » متفق عليه ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبق المفردون ، قالوا : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات رواه مسلم ٠

وقوله « ويتفكرون في خلق السموات والأرض » أى ومن صفةأولى الألباب أن يتفكروا في خلق السموات والأرض ويتدبروا ويفهموا مافيهما من الحكم الدالة على وحدانية الله تعالى وعظمته ، وكمال قدرته وعلمه وحكمته ، واختياره ورحمته ، ويتبع ذلك صدق الرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام وأن الكتب التى أنزلت عليهم مفصلة لأحكام التشريع حاوية لكامل الآداب والأخلاق ولما يلزم نظم المجتمع في هذه الحياة وللحساب والجزاء على الأعمال بدخول الجنة والنار ٠

قال ابن عون : الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشية كما يحدث الماء للزرع النماء وما جليت القلوب بمثل الأحزان ، ولا استنارت بمثل الفكرة ٠ وقال الشيخ أبو سليمان الدارنى:إنى لأخرج من منزلى فمايقع بصرى على شيء إلا رأيت لله علي فيه نعمة ، ولى فيه عبرة

رواه ابن أبى الدنيا في كتاب التوكل والاعتبار . وعن الحسن البصرى أنه قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وقال الفضيل : قال الحسن : الفكرة مرآة تريك حسانك وسيئآتك . وقال سفيان ابن عيينة : الفكر نور يدخل قلبك وعن عيسي عليه السلام أنه قال : طوبى لمن كان قيله تذكرا وصمته تفكرا ونظره عبراً . وقال لقمان الحكيم : إن طول الوحدة ألهم للفكرة ، وطول الفكر دليل على طرق باب الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرىء قط إلا فهم ، ولا فهم امرؤ إلا علم ، ولا علم امرؤ قط إلا عمل وقال عمر بن عبد العزيز : الكلام بذكر الله عز وجل حسن ، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة . وقال مغيث الأسود : زوروا القبور كل يوم تفكركم وشاهدوا الموقف بقلوبكم ، وانظروا إلى المنصرف بالفريقين إلى الجنة أو النار وأشعروا قلوبكم وأبدانكم ذكر النار ومقامها وأطباقها . ومر رجل براهب عند مقبرة ومزبلة فناداه فقال : يا راهب إن عندك كنزين من كنوز الدنيا لك فيهما معتبر كنز الرجال وكنز الأموال وعن ابن عمر أنه كان إذا أراد أن يتعاهد قلبه أتى الخربة فيقف على بابها فينادى بصوت حزين فيقول : أين أهلك ؟ ثم يرجع إلى نفسه فيقول : « كل شيء هالك إلا وجهه » وقال بشر ابن الحارث الحافي : لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه . وقال الحسن عن عامر ابن عبد قيس قال : سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يقولون : إن ضياء الإيمان ـ أو نور الإيمان ـ التفكر وعن عيسي عليه السلام أنه قال : ياابن آدم الضعيف ، اتق الله حيثما كنت ، وكن في الدنيا ضيفا ، واتخذ المساجد بيتا ، وعلم عينيك البكاء، وجسدك الصبر وقلبك الفكر ولا تهتم برزق غد . وعن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه بكى يوما بين أصحابه فسئل عن ذلك ، فقال : فكرت في الدنيا ولذاتها وشهواتها فاعتبرت منها بها ، ماتكاد شهواتها تنقضي حتى تكدرها مرارتها ، ولئن لم يكن فيها عبرة إن فيها مواعظ لمن ادكر .

قال ابن القيم : الفكر هو إحضـار معرفتين في القلب ليثمر منهما معرفة ثالثة كاستحضار الدنيا وصفاتها ، والآخرة وصفاتها ، ليثمر من ذلك أيهما أحق بالإيثار ، واستحضار الاخلاق والأعمال الصالحة والفاسدة هل وجودها خير أو عدمها ، ثم يؤثر العاقل أنفع الآمرين ، وهكذا ، والتفكر في القـرآن نوعان تفكر فيه ليقـع على مراد الرب ، وتفكر في معانى مادعا عباده إلى التفكر فيه ، وإذا تأملت مادعا سبحانه عباده إلى التفكر فيه أوقعك على العلم به وبأسمائه وصفاته ، ورحمته وإحسانه ، وبره ورضاه ، وغضبه وثوابه وعقابه ، فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته ، ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها ، فمن ذلك خلق الانسان،وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غـير موضع من كتابه كقوله تعالى « فلينظـر الإنسان مم خـلق » وقـوله تعـالى « وفي أنفسـكم افلا تبصرون » وقال « يا أيهـا النـاس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » الآية ، وقال « أيحسب الإنسان أن يترك سدى » إلى آخر السورة ، وساق آيات أخرى ، ثم قال : وهذا كثير في القـران يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدىء خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقه من أعظم الدلائل على خالقه وفاطره وأقرب شيء إلى الإنسـان نفسه وفيها من العجائب الدالة على عظمـة الله ماتنقضي الأعمـار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكر فيه ولو فكر في نفسه لزجره مايعلم من عجائب خلقها ٠

ثم لمـا تفـكروا عرفـوا أن في كل من ذلك حكماً ومقاصد وفوائد لا تحيط بتفاصيلها الأفكار ، وأنها لم تخلق عبثا « قالوا ربنا ما خلقت هذا باطلا » أى ماخلقت هـذا الخلق عبثا بل لغـرض صحيح وحـكمة ومصلحة « ليجـزى الذين أساؤا بمـا عملوا ويجـزى الذين أحسنوا بالحسنى » ثم ينزهونه عن العبث وخلق الباطل وكل ما لا يليق بصفاته أو يلحق نقصاً بذاته ، فيقـولون « سبحانك » أى تنزيهـا لك عن كل ما لا يليق بجلالك بل كل خلقك حق مشتمل على حكم جليلة ومصالح

عظيمة والإنسان بعض خلقك لم يخلق عبثا ، فإن لحقه الفناء وتفرقت منه الأجزاء بعد مفارقة الأرواح للأبدان فبقدرتك التى لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء ستعيده في نشأة أخرى كما بدأته في النشأة الأولى فريق أطاعك واهتدى فافلح وأدخلته الجنة بما عمل وفريق حق عليه الضلالة فكب في النار بما اجترح من السيئات وماعمل من الموبقات جزاء وفاقاً وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون))

وقوله « فقنا عذاب النار » أى يا من خلق الخلق بالحق والعدل يامن هو منزه عن العيب والنقائص والعبث قنا من عذاب النار بحولك وقوتك وقيضنا لأعمال ترضي بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم وتجيرنا به من العذاب الأليم .

ثم قالوا « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » هذا تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه وبيان للسبب الذى لأجله دعاه عباده بأن يقيهم عذاب النار وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه ، وقيل في معنى أخزيته فضحته وأبعدته ، وقيل أهلكته ، وقيل أذللته وأهنته .

وقوله « وما للظالمين من أنصار » أى أن هؤلاء المتفكرين الذاكرين ينظرون إلى هيبة ذلك الرب العلى الذى خلق تلك الأكوان المملوءة بالأسرار والحكم فيعلمون أنه لا يمكن أحد أن ينتصر عليه وأنه ليس لمن خالف أمره فعصاه من ذى نصرة ينصره من الله فيدفع عنه عقابه أو ينقذه من عذابه ، وقد وصف من يدخل النار بالظلم للدلالة على أن سبب دخوله إياها هو ظلمه .

وقوله « ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا » المنادي محمد صلى الله عليه وسلم ، وذكره بوصف المنادى تعظيما لشأن هذا النداء ، أى إنهم بعد أن عرفوا الله حق معرفته بالذكر والفكر عبروا عن وصول دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم واستجابتهم له سراعا بدون تلبث ، بهذا القول وفي تقدمة الدعاء بالنداء

إشارة إلى كمال توجههم إلى مولاهم وعدم غفلتهم عنه مع اظهار كمال الضراعة والإبتهال إلى من عودهم الإحسان والأفضال ، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم وتبجح بنعمته وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم ، ولهذا قالوا « فاغفر لنا ذنوبنا » أى استرها علينا ولا تفضحنا بها يوم القيامة على رؤس الإشهاد « وكفر عنا سيئاتنا » أى امحها بفضلك ورحمتك إيانا .

وقوله « وتوفنا مع الأبرار » معناه واقبضنا إليك في عداد الأبرار واحشرنا معهم ، ففي هذا الدعاء طلبوا من الله ثلاثة أشياء غفران الذنوب، ثانيا : تكفير السيآت ، ثالثا : أن تكون وفاتهم مع الأبرار ، فيتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخيرات وترك الشر الذي بتركه يكون العبد من الأبرار ، والاستمرار عليه والثبات إلى الممات وفي هذا رمز إلى أنهم كانوا يحبون لقاء الله ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ولما ذكروا توفيق الله إياهم للايمان وتوسلهم به إلى تمام النعمة سألوه الثواب على ذلك فقالوا « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك » أى ربنا أعطنا ماوعدتنا به على ألسنة رسلك من حسن الجزاء كالنصر في الدنيا والظهور والنعيم في الآخرة من الفوز برضوان الله وجنته وفي هذا استشعار بتقصيرهم وعدم الثقة بنياتهم إلا بتوفيق الله ومزيد عنايته .

وقوله « ولا تخزنا يوم القيامة » أي ولا تفضحنا ولا تهتك سترنا يوم القيامة بادخالنا النار .

وقوله « إنك لا تخلف الميعاد » في هذا دليل على ثقتهم بوعد الله وصدور هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على ألسن رسله كائن لا محالة إما أن ذلك على وجه الانقطاع إلى الله والتضرع له والتعبد ، كما قال « وقل رب احكم بالحق » أو أن الكلام خرج مخرج المسألة والمراد الخير أى توفنا مع الأبرار لتؤتينا ما وعدتنا به على السنة رسلك ولا تخزنا يوم القيامة . لأنهم علموا أن ما وعد الله به حق ولابد أن ينجزه كما قال تعالى « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » وقال تعالى « وعد الله لا يخلف الله وعده » .

وقوله « فاستجاب لهم ربهم » ثم عقب سبحانه دعوة المؤمنين بذكر الإجابة ، أى فاستجاب لهم ربهم دعاءهم لصدقهم في إيمانهم وذكرهم وتفكيرهم وتنزيههم لربهم وتصديقهم للرسل وشعورهم بالضعف والتقصير في الشكر واحتياجهم إلى المغفرة وتكفير السيآت ٠

وقوله « إنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » : هذا تفسير الإجابة أى قال لهم مخبراً أنه لا يضيع عمل عامل لديه بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر وأنثى قال مجاهد قالت أم سلمة يارسول الله ، إنى أسمع الله يذكر الرجال في الهجرة ولا يذكر النساء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ٠

وقوله « بعضكم من بعض » قال الكلبى : في الدين والنصرة والموالاة ، وقيل كلكم من آدم وحواء ، وقال الضحاك رجالكم شكل نسائكم ونساؤكم شكل رجالكم في الطاعة ، كما قال « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ٠

وقوله « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم » الآية تتضمن تفصيل ما أجمل في قوله « أنى لا أضيع عمل عامل » أى فالذين هاجروا من أوطانهم وتركوا دار الشرك وأتوا إلى دار الإيمان وفارقوا الأحباب والإخوان والخلان والجيران وأخرجوا من ديارهم ، أى ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجؤهم إلى الخروج من بين أظهرهم ولهذا قال « وأوذوا في سبيلى » أى إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده ، كما قال تعالى « يخرجون الرسول وإياكم ، أن تؤمنوا بالله ربكم » ، وقال « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » ٠

وقوله « وقاتلوا » أى في سبيل الله أعداء الله « وقتلوا في سبيلى » وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه ، وقد ثبت في الصحيحين أن رجلا قال يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر ، أيكفر الله عنى خطاياى ؟ قال نعم ، ثم قال كيف قلت ؟ فاعاد عليه ماقاله ، فقال نعم ، إلا الذى قاله جبريل آنفا ولهذا قال « لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم

جنات تجرى من تحتها الأنهار » يعنى لأمحونها عنهم ولأتفضلن عليهم بعفوى ورحمتى ولأغفرنها لهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار يعنى جزاء لهم على ماعملوا وأبلوا في الله وفي سبيله ، وهـذه الجنات تجرى في خلالها الأنهار ، من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك ، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال تعالى « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ٠

وقوله « ثوابا من عند الله » الثواب والمثوبة الجزاء وأضافه إليـه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم لأن العظيم الكريم لا يعطى إلا جزيلا كثيرا قال أبو الطيب :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتي على قدر الكرام المـكارم
وتعظم في عين الصـغير صغارها ... وتصغر في عين العظيم العظائم

وقد وعد الله من فعل ذلك بأمور ثلاثة : محو السيئات ، وغفران الذنوب ، ودل على ذلك بقوله « لأكفرن عنهم سيئاتهم » وذلك ماطلبوه بقولهم « فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا » ٠

ثانيا : إعطاء الثواب العظيم وهو قوله « ولأدخلنهم جنـات تجرى من تحتها الأنهار » بعدما طلبوه بقولهم « وآتنا ما وعدتنـا على رسلك » ٠

ثالثا :أن يكون هذا الثواب مقرونا بالتعظيم والإجلال ، وهو قوله « عند الله » وهذا ماطلبوه بقـولهم « ولا تخـزنا يوم القيامة » والمعنى لأكفرن عنهم سيئآتهم ولأدخلنهم الجنات ، ولاثيبهم على ذلك ثوابا من عند الله والله عنده من حسن الجزاء على الأعمال مالايبلغه وصف واصف ولا يدركه نعت ناعت مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ٠

وقوله تعالى « لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد » بعد أن وعد الله المؤمنين بالثواب وكانوا في

الدنيا في فقر وشدة والكفار كانوا في رخاء ولين عيش ذكر في هذه الآية مايسليهم ويصبرهم على تلك الشدة فبين لهم حقارة ما أوتى هـؤلاء الكفار المترفين من النعمة والغبطـة والسرور ، فعما قليـل يزول كله عنهم ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، قال تعالى « والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون » .

وقوله « متاع قليل ثم مأواهـم جهنم وبئس المهاد » وهـذه الآية كقوله تعالى « مايجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد » وقال تعالى « إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العـذاب الشديد بمـا كانوا يكفرون » ، وقال « فنمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ » ، وبعد أن بين حال الكفار ومآل أمرهم ذكر عاقبة المؤمنين فقال « لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » أى لكن الذين اتقوا ربهم بفعل الطاعات وترك المنهيات لهم جنات النعيم خالدين فيها ، ونحو الآية قوله تعالى « فالذين آمنوا وعملوا الصـالحات في جنـات النعيم خالدين فيها » ونحو الآية قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا » والنزل : ما يهيأ للضيف النازل ، ففى الآية إيماء إلى أن النازلين فيها ضيوف عند ربهم يحفهم بلطفه ، ويخصهم بكرمه وجوده .

وقال الهروى : نزلا من عند الله أى ثواباً ، وقيل : رزقاً .

وقوله « وما عند الله خير للأبرار » أى وماعند الله من الحياة والكرامة وحسن المـآب خير للأبرار مما يتقلب فيـه الذين كفروا لأن ذلك عن قريب سيزول ، وهو قليل من المتاع خسيس ، وما عند الله من كرامته للأبرار ، وهم أهل طاعته باق غير زائل ، كما قال تعالى : « إن هـذا لرزقنا ماله من نفاد » وقال : « لهم أجر غير ممنون » .

وعن سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « جئت فإذا رسول الله صـلى الله عليه وسلم في مشربة وإنه لعلى حصير مابينه وبين جسده شيء ، وتحت رأسه

وسادة من أدم حشوها ليف ، وإن عند رجليه قرضاً مصبوراً ، وعند رأسه أهب معلقة ، فرأيت أثر الحصير في جنبه ، فبكيت ، فقال : مايبكيك ؟ فقلت : يارسول الله ، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه وأنت رسول الله ، فقال : أما ترضي أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة ؟ » .

وقوله : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا » بعد أن بين جل وعلا حال المؤمنين وما أعد لهم من الثواب ، وحال الكفار وما هيا لهم من العقاب ، أخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم مع ماهم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أى مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، ولايكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وذكر صفته ونعته ومبعثه ، وصفة أمته، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم كانوا هوداً أو نصارى ، وقد قال في سورة القصص : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا آنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » الآية ، وقال تعالى : « ومن قوم موسي أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » .

قال ابن عباس وجابر وأنس وقتادة : إن هذه الآية قوله تعالى « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » نزلت في النجاشي ملك الحبشة ، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذى مات فيه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم ، النجاشي » فصلى كما يصلى على الجنائز فكبر أربعاً ، فقال المنافقون : يصلى على علج مات بأرض الحبشة ! فانزل الله « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » الآية .

وقوله تعالى : « لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا » أى لا يكتمون مابأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة ، بل يبذلون ذلك مجاناً ، ولهذا قال « أولئك لهم أجرهم عند ربهم » أى هؤلاء المتصفون بحميد الصفات ، وجليل الأعمال ، لهم ثواب أعمالهم وأجر طاعتهم عند ربهم ، الذى رباهم بنعمه ، وهداهم إلى الحق وإلى طريق مستقيم،يعنى مدخور ذلك لهم لديه حتى يصيروا إليه في القيامة فيوفيهم ذلك إن الله سريع الحساب ، وسرعة حسابه تعالى ذكره أنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم قبل أن يعملوها وبعد ما عملوها فلا حاجة به إلى إحصاء عدد ذلك فيقع في الإحصاء إبطاء ، فلذلك قال : « إن الله سريع الحساب » .

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا » قال الحسن : اصبروا على دينكم ولا تدعوه لشدة ولا رخاء ، ولا سراء ولا ضراء ، وأمرهم أن يصابروا الكفار ، وأن يرابطوا المشركين . وعن قتادة اصبروا على طاعة الله ، وصابروا أهل الضلالة ، ورابطوا في سبيل الله . وعن ابن جريج : اصبروا على طاعة الله ، وصابروا أعداء الله ، ورابطوا في سبيل الله . وعن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقول في هذه الآية « اصبروا وصابروا ورابطوا » يقول : اصبروا على دينكم، وصابروا الوعد الذى وعدتكم ، ورابطوا عدوى وعدوكم حتى يترك دينه لدينكم . وعن زيد بن أسلم في قوله « اصبروا وصابروا ورابطوا » قال : اصبروا على الجهاد ، وصابروا عدوكم ، ورابطوا على عدوكم .

وقال آخرون : معنى « ورابطوا » أى رابطوا على الصلوات ، أى انتظروها واحدة بعد واحدة ، لأن المرابطة لم تكن لازمة علىعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

روى عن على رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أدلكم على مايكفر الله به الذنوب والخطايا : إسباغ الوضوء على المكاره ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذالكم الرباط » .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : « ألا أدلكم على مايمحو الله به الخطايا ويكفربه الذنوب؟ قالوا : بلى يا رسول الله ! قال : إسباغ الوضوء على المكروهات ، وكثرة الخطى إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط » رواه ابن حبان في صحيحه ، ورواه مالك ومسلم والترمذى والنسائي من حديث أبي هريرة ·

وعن داود بن صالح قال : قال لى أبو سلمة : يا ابن أخى تدرى في أى شيء نزلت « اصبروا وصابروا ورابطوا » ؟ قلت : لا ، قال : سمعت أبا هريرة يقول : « لم يكن في زمان النبى صلى الله عليه وسلم غزو يرابط فيه ، ولكن انتظار الصلاة بعد الصلاة » رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ·

وقوله « واتقوا الله لعلكم تفلحون » أى واتقوا أن تخالفوا الله فيما يأمركم به لكى تفلحوا بنعيم الأبد ، وقيل : اتقوا عذاب الله بلزوم أمره واجتناب نهيه لكى تظفروا وتفوزوا بنيل المنية ودرك البغية والوصول إلى النجح في الطلبة ، وذلك حقيقة الفلاح ، وهذه الآية تتضمن جميع مايتناوله المكلف ، لأن قوله « اصبروا » يتناول لزوم العبادات واجتناب المحرمات ، « وصابروا » يتناول مايتصل بالغير كمجاهدة الجن والإنس، وما هو أعظم منهما ، من جهاد النفس ، « ورابطوا » يدخل فيه الدفاع عن المسلمين ، والذب عن الدين ، وما لا يتم الاستعداد إلا به مما علمه الله العباد في هذا العصر من وسائل الدفاع من طائرات وقاذفات للقنابل ودبابات ومدافع ورشاشات وبنادق وأساطيل بحرية ، ونحو ذلك مما صار ضروريا من آلات الحروب الحديثة ، وصار من فقدها يشبه أن يكون أعزل من السلاح ، « واتقوا الله » يتناول الانتهاء عن جميع المناهى والزواجر والائتمار بجميع الأوامر، ثم يتبع جميع ذلك الفلاح والنجاح والله أعلم ·

وصلى الله على محمد وآله وسلم ·

مما يفهم من آيات الدرس من الآية ١٩٠ إلى الآية ٢٠٠ ·

(١) إن في خلق السموات دليل على وحدانية الله وعظمته ، وكمال علمه وقدرته .

(٢) إن في خلق الأرض دليل على وحدانية الله وقدرته وعظمته ، وكمال علمه وحكمته .

(٣) إن في اختلاف الليل والنهار دليل على وحدة الخالق ، وعلمه وقدرته وحكمته ... الخ .

(٤) أن هذه الدلائل لأولى العقول الصحيحة الخالصة عن شوائب النقص .

(٥) أن من صفاتهم أن لا يغفلون عن ذكر الله في عامة أوقاتهم لاطمئنان قلوبهم بذكره ، واستغرق سرائرهم بمراقبته .

(٦) أنهم مع ذكرهم لله يتفكرون في خلق السموات والأرض وما فيهما من الأسرار والمنافع الدالة على العلم الكامل

(٧) أنهم مع ذكرهم لله وتفكرهم ينزهون الله عن أن يخلق السموات عبثاً وباطلا .

(٨) أنهم مع ذلك يقدسون الله ويسبحونه .

(٩) أنهم مع ماتقدم يسألون الله أن يقيهم عذاب النار .

(١٠) أن سؤالهم هذا يتضمن سؤال الجنة ، قال تعالى : « إخباراً عما قالت الملائكة ومن تقى السيئات يومئذ فقدرحمته » ومن رحمه الله أدخله الجنة .

(١١) أن في تقديمهم سؤال وقاية النار على سؤالهم الجنة مايدل على خوفهم الشديد من عذاب الله وتصديقهم التام بما أوعد الله به العصاة .

(١٢) إثبات الربوبية .

(١٣) التاكيد لاستدعائهم الوقاية من النار لقوله : « ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته » .

(١٤) ان من أدخله الله النار فقد أخزاه وأذله وأهانه وأبعده ٠
(١٥) إثبات النار ، وأنها لمن عصي الله ٠
(١٦) الحث على ذكر الله ٠
(١٧) الحث على التفكر في خلق السموات والأرض ٠
(١٨) الحث على تنزيه الله عن العبث ٠
(١٩) الحث على سؤال الله وقاية عذاب النار ٠
(٢٠) دليل على أن الظالمين دخلوا النار بظلمهم ٠
(٢١) أنه ليس للظالمين من ينصرهم ويمنعهم من العذاب ٠
(٢٠) دليل على أن الظالمين دخلوا النار بظلمهم ٠
(٢٣) أنهم بعد أن عرفوا الله تعالى حق المعرفة بالذكر والتفكر عبروا عن وصول دعوة الرسول صلىاللهعليهوسلم إليهم ، واستجابتهم دعوته سراعاً بدون تلبث بهذا القول ٠

(٢٤) أن في تصدير مقدمة الدعاء إشارة إلى كمال توجههم إلى مولاهم وعدم غفلتهم عنه مع إظهار كمال الضراعة والابتهال إلى من عودهم الإحسان والإفضال ٠

(٢٥) أن في التأكيد إيذان بصدور ذلك عنهم بوفور الرغبة ومزيد العناية وكمال النشاط ٠

(٢٦) تبجحهم وسرورهم بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وسماعهم نداءه ٠

(٢٧) شهادة هؤلاء للرسول صلى الله عليه وسلم بندائه للإيمان ٠

(٢٨) الحث على النداء للإيمان والدعوة إلى الإسلام اقتداء بالمصطفى صلى الله عليه وسلم ٠

(٢٩) الحث على الإيمان بالله ٠
(٣٠) أنهم امتثلوا ما أمر به هذا المنادى من الإيمان ٠
(٣١) تكرير النداء لإظهار التضرع والخضوع ٠

(٣٢) أنهم مع ماسبق يسألون الله المغفرة لذنوبهم والتكفير لسيئاتهم .

(٣٣) أن في ذكرهما إفادة التأكيد لأن الإلحاح في الدعاء والمبالغة فيه مندوب إليه .

(٣٤) أنهم مع ماسبق يسألون الله أن يتوفاهم مع الأبرار .

(٣٥) أن هذا الدعاء يتضمن التوفيق لفعل الخير وترك الشر ، والتوفيق للاستقامة والاستمرارعليها والثبات إلى الممات.

(٣٦) أن في ذلك هضماً للنفس وحسن أدب حيثقالوا مع الأبرار.

(٣٧) أنهم مع ماسبق يسألون الله أن ينجز ماوعدهم على ألسنة رسله وسؤالهم ذلك مع أن الله لا يخلف الميعاد ، قيل : إنه من باب اللجوء إلى الله والتذلل له والخضوع والعبودية كما أن الأنبياء عليهم السلام .

(٣٨) دليل على أن الله استجاب دعاءهم .

(٣٩) دليل على عدل الله وأنه لا يضيع لديه عمل عامل من ذكر أو أنثى .

(٤٠) التفصيل لما أجمل والتعداد لبعض محاسن أفراده مع المدح والتعظيم .

(٤١) دليل على أن المهاجرة كانت عن قسر واضطرار .

(٤٢) الصبر على الأذى في سبيل الله اقتداء بالمهاجرين الذين هجروا أوطانهم وأهليهم وآذاهم المشركون بسبب إسلامهم ومتابعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤٣) الحث على الجهاد في سبيل الله .

(٤٤) طلب الشهادة للحصول على مايرضي الله .

(٤٥) التنبيه لنروض أنفسنا ونختبرها فإن رأيناها تحتمل الأذى في سبيل الله حتى القتل فلها الرضوان من ربها ، وإلا فلنروضها حتى تصل إلى هذه المنزلة .

(٤٦) وعد ممن لا يخلف وعده أن يدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ·

(٤٧) إضافته إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ·

(٤٨) في قوله « والله عنده حسن الثواب » تأكيد لكون ذلك الثواب الذى أعطاهم من فضله وكرمه لأنه جواد كريم ·

(٤٩) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى « لايغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد » ·

(٥٠) إثبات صفة الكلام ·

(٥١) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم·

(٥٢) التزهيد في الدنيا ومافيها ·

(٥٣) الترغيب في الآخرة ·

(٥٤) أن مصير الكفار جهنم ·

(٥٥) أنها بئس الفراش جهنم ·

(٥٦) الحث على تقوى الله ·

(٥٧) إن المتقين لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ·

(٥٨) أنهم خالدون فيها ·

(٥٩) أن ذلك النزل من عند الله ·

(٦٠) فيه إشارة إلى أن القوم ضيوف الله تعالى ، وفي ذلك كمال اللطف بهم لأن النزل ما يهيأ للضيف ·

(٦١) أن ماعند الله خير للأبرار ·

(٦٢) أن بعض أهل الكتاب جمعوا بين الإيمان بالله وبما أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزله على أنبيائهم ، لا كمن قال الله فيهم « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » ·

(٦٣) إن من صفاتهم التى تستحق المزية والشرف الخشوع ، وهو الثمرة للإيمان الصحيح ، فإن الخشوع أثر خشية الله في القلب ، ومنه تفيض على المشاعر والجوارح ·

(٦٤) أن من تمام خشيتهم لله أنهم لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا، فلا يقدمون الدنيا على الدين ، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ماأنزل الله ويشترون به ثمناً قليلا ٠

(٦٥) دليل على علو الله ٠

(٦٦) دليل على أن ماأنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل على أهل الكتاب غير مخلوق بل منزل ٠

(٦٧) الرد على من قال أنه مخلوق ٠

(٦٨) الإتيان بصيغة البعد في الإشارة للإيذان بعلو مرتبتهم وبعد منزلتهم في الشرف والفضيلة ٠

(٦٩) إن ثواب طاعتهم ربهم فيما أطاعوه فيه مدخر عند ربهم ، قال تعالى « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » الآية ٠

(٧٠) أن الله جل وعلا سريع الحساب ٠

(٧١) إثبات البعث ٠ (٧٢) إثبات الحساب ٠

(٧٣) إثبات الجنة ٠

(٧٤) إثبات الجزاء على الأعمال ٠

(٧٥) دليل على علم الله ٠

(٧٦) الترهيب من المجازفة في الأمور ٠

(٧٧) الحث على محاسبة النفس قبل حساب يوم القيامة ٠

(٧٨) دليل على قدرة الله ٠

(٧٩) الأمر بالصبر ٠

(٨٠) الحث على مصابرة الأعداء ومقاومتهم في سبيل الله ٠

(٨١) الأمر بالمرابطة وهو لزوم المحل الذى يخاف إتيان العدو منه٠

(٨٢) الأمر بتقوى الله ٠

(٨٣) أن الفلاح لا سبيل إليه إلا بالإتيان بما ذكر من الصبر والمصابرة والمرابطة واتقاء الله ، والله أعلم ٠

وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

في الحقوق العشرة

وذم البخل والآمرين به ، وذم الذين ينفقون أموالهم بطراً ورئاء الناس

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً • الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً • والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً • وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما • إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما • فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً • يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً) •

الآية الأولى هى التى تسمى آية الحقوق العشرة ، ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر أن الرجال قوامون على النساء بتفضيل الله إياهم عليهن ، وبإنفاق أموالهم أوضح أنه مع كونه قواماً على النساء فهو أيضاً مأمور بالإحسان إلى الوالدين وإلى من عطفه على الوالدين ، فجاءت حثا على الإحسان ، واستطراداً لمكارم الأخلاق وأن المؤمن لا يكتفى من التكاليف الإحسانية بما يتعلق بزوجته فقط بل عليه غيرها من بر الوالدين وغيرهم ، وافتتح التوصل إلى ذلك بالأمر بإفراد الله بالعبادة إذ هى مبدأ الخير الذى تترتب عليه الأعمال الصالحة، ونظهيره « وإذا أخذنا ميثاق بنىإسرائيل أنلا تعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانا » •

المفردات : العبادة لغة : الذل ، وعرفها شيخ الإسلام بأنها اسم جامع لكل مايحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة اهـ • ذى القربى : صاحب القرابة من أخ ، وعم ، وخال ، وأولاد • الجار ذى القربى : هو الجار القريب الجوار ، والجانب الجنب : هو الذى ليس له قرابة • والصاحب بالجنب : قيل الرفيق في السفر ، وقيل الزوجة ، وقيل الصاحب مطلقا،وابن السبيل : هوالغريب الذى احتاج في بلد الغربة ، وقيل هو الضيف وما ملكت أيمانكم : عبيدكم وإماؤكم•

المعنى : يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له،فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الساعات والحالات فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : «أتدرى ما حق الله على العباد؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » الحديث والشرك نوعان : أكبر وأصغر ، فالأكبر : اتخاذ الند لله بان يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو يحبه كمحبة الله ، أو يذبح له أو ينذر ، أو نحو ذلك من أنواع العبادة ، وأما الأصغر فقيل إنه كل وسيلة وذريعة يتطرق بها إلى الأكبر ، وقيل إنه كل ماورد بالنص تسميته شركا ، ولم يصل إلى حد الأكبر ، وذلك كقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت ، وكالحلف بغير الله •

قال ابن القيم رحمه الله : وأما الشرك الأصغر فكثير ، منه : الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وقول الرجل للرجل ماشاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بلله وبك ، وأنا متوكل على الله وعليك ولولا الله وأنت لم يكن كذا ، وقد يكون شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده اهـ •

ثم بعد ما أمر بعبادته وحده لا شريك له والقيام بحقه أعقبه بالأمر بالقيام بحقوق العباد الأقرب فالأقرب فبدأ بالوالدين فقال جل وعلا « وبالوالدين إحسانا » أى أحسنوا إليهم بالقول الكريم والخطاب اللطيف

والفعل الجميل بطاعة أمرهما في غير معصية وبالإنفاق عليهما ، وإكرام من له تعلق بهما وصلة الرحم التى لا رحم لك إلا بهما لأن الله جعلهما السبب الظاهر في وجودكم وتربيتكم بالرحمة والإخلاص ، وقد فصلت هذه الوصية في سورة الإسراء يقول تعالى « وقضي ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما · واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » وكثيرا ما يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما في سورة لقمان : «أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير » وقال « وإذا أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا » · وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله ، أى العمل أفضل ؟ قال الصلاة على وقتها ، قلت ثم أى ؟ قال بر الوالدين ، قلت ثم أى ؟ قال الجهاد في سبيل الله » ·

ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلا قال : يا رسول الله من أبر ؟ قال أمك ، قال ثم من؟ قال أمك ، قال ثم من؟ قال أباك ، ثم أدناك أدناك» · وجاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال له هل بقى من أبر أبوى شيء أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم، الصلاة عليهما ـ أى الدعاء لهما والاستغفار لهما ـ وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما ، وإكرام صديقهما » رواه أبو داود وابن ماجه ، واللفظ لأبى داود ·

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أقبل رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ، أبتغى الأجر من الله تعالى ، فقال : هل لك من والديك أحد حي ؟ قال : نعم بل كلاهما ، قال : فتبتغى الأجر من الله تعالى ، قال نعم قال : فارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما ، متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم · وفي رواية لهما : جاء رجل فاستأذنه في الجهاد قال : أحي والداك ؟ قال : نعم ، قال : ففيهما فجاهد ·

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال جئت أبايعك وتركت أبوى يبكيان ، فقال : «فارجع اليهما فاضحكهما كما ابكيتهما » رواه أ و داود •

وعن أبى سعيد رضي الله عنه أن رجلا من أهل اليمن هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال هل لك أحد باليمن ؟ قال أبواي، قال أذنا لك ، قال لا ، قال : فارجع إليهما فاستأذنهما ، فإن أذنا لك ، فجاهد وإلا فبرهما رواه أبو داود •

وعن جاهمة أن رجـلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقـال يارسول الله أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك فقال : هل من أم ؟ قال نعـم ، قال : « فالزمهـا فإن الجنـة عنـد رجليها » رواه ابن ماجـه والنسائى واللفظ له والحاكم ، وقال صحيح الإسناد ورواه الطبرانى بإسناد جيد ، ولفظه : قال أتيت النبى صلى الله عليه وسلم أستشيره في الجهاد ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ألك والدان ؟ قلت نعم ، قال الزمهما فإن الجنة تحت رجلهما •

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بروا آباءكم تبركم أبناؤكم ، وعفوا تعف نساؤكم » رواه الطبرانى بإسناد حسن •

وقوله « وبذى القربى » أى وأحسنوا معاملة أقرب الناس إليـكم بعد الوالدين ، ويشمل جميع الأقارب ، قربوا أو بعدوا ، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل ، فإذا أدى الإنسان حقوق الله فصحت عقيـدته وصلحت أعماله ، وإذا قام بحقوق الوالدين صلح البيت وحسن الحال الأسرة وإذا صلح البيت كان قوة كبيرة ، فإذا عاون أهله ذوى القربى الذين ينتسبون إليهم كان لكل منهم قوة أخرى تتعاون مع هذه الأسرة، وبذا تتعاون الأمة جمعاء ، وتمد يد المعونة لمن هو في حاجة إليها ممن ذكروا •

وقوله « واليتامى » اليتيم من مـات أبوه ولم يبلغ ، فاليتـامى هـ

الذين لا كاسب لهم غالبا وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب ، فلهم حق على المسلمين سواء كانوا أقارب أو غيرهم ويكون ذلك بكفالتهم وبرهم وجبر قلوبهم وتأديبهم وتربيتهم أحسن تربية في مصالح دينهم ودنياهم ، فمن رحمته تعالى بعباده أن أوصاهم بالإحسان إليهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه ، قال تعالى « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما ، رواه البخارى ·

وعن أبى أمامة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من مسح رأس يتيم لم يمسحه إلا لله كان له بكل شعرة تمر عليها يده حسنات » ·

وقوله «والمساكين» هم الذين أسكنتهم الحاجة فلا يجدون مايكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فأمر الله سبحانه بمساعدتهم بما تتم به كفايتهم وتزول به ضرورتهم ·

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال النبى صلى الله عليه وسلم « الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » رواه البخارى ومالك وغيرهما ·

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ، لكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » متفق عليه ·

وقوله : « والجار ذى القربى » أى الذى بينك وبينه قرابة فله ثلاثة جقوق : حق القرابة ، وحق الإسلام ، وحق الجوار · « والجار الجنب » الذى ليس له قرابة فله حق الجوار ، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب فيحسن التعاون بينهما ، وتكون الرحمة

والإحسان بينهما ، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس ، فينبغى للجار أن يتعاهد جاره بإهداء ماتيسر،والصدقة والدعوة واللطافة به وبأولاده ، والصفح عن زلته وبداءته بالسلام وإظهار البشر له وإعانته والتوسيع له في معاملته وإقراضه وعيادته ، وتعزيته عند المصيبة ، وتهنئته بما يفرحه ، ويستر ما انكشف له من عورة ، ويغض بصره عن محارمه ، ويمنع أولاده من أذى أولاد جاره ، ولا يرفع صوت المذياع أونحوه فيأوقات راحتهم لأنه ينشأ عنه سهرهم وقلقهم ، لاسيما إذا كان ممن لا يستعمل هذه الملاهى وقد عصمه الله منها وبغضها إليه شراء واقتناء وسماعا والخلاصة : أنه يعمل مع جاره ما استطاع من أعمال الخير وكف الأذى ، وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام ، وزاده الإسلام توكيداً بما جاء في الكتاب والسنة فمن ذلك ماورد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مازال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » رواه البخارى ومسلم .

وعن عبد الله بن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره » رواه الترمذى والدارمى،وقال الترمذى هذا حديثحسن غريب

وعن ابن مسعود قال : قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو إذا أسأت ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت » رواه بن ماجه ، ويالأسف إننا نرى ونسمع أن كثيرا من الجيران في وقتنا هذا قد أهملوا العمل بالآيات الكريمات والأحاديث التى فيها التوصية بالجار بالاحسان إليه فحصل منهم إساءة إلى جارهم إما بتعد على ملكه ، واما بوضع أذى في بيته أو طريقه ، وإما باشتباك معه في خصومة آلت إلى العداوة والبغضاء والسب والشتم ، وإما بنظر وتطلع على الجار من سطح أو نافذة أو نحو

ذلك ، أو برفع على آلة لهو نشأ عنها سهرهم وقلقهم حتى إن بعضهم ربما ارتحل من أجل الجار المسيء إليه وربما باع ملكه من أجل إساءة جاره إليه والعياذ بالله ، وفي ذلك يقول من ابتلى بجار سوء فاضطر أن يبيع ملكه من أجل جاره وقد عوتب على ذلك :

يلومونني أن بعت بالرخص منزلى
ولم يعلموا جاراً هناك يُنغص
فقلت لهم كفوا الملام فإنما
بجيرانها تغلوا الديار وترخص

وقوله تعالى « الصاحب بالجنب » قيل الرفيق في السفر ، وقيل الزوجة ، وقيل الصاحب مطلقا . فعلى الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه من مساعدة على الأمور التى تتعلق بالدين والدنيا والنصح له والوفاء معه في اليسر والعسر والمنشط والمكره وأن يحب له مايحب لنفسه ويكره له مايكره لنفسه ، وكلما زادت الصحبة ازداد تأكد الحق .

وقوله « وابن السبيل » ابن السبيل هو المسافر المنقطع به في غير بلده فله حق على المسلمين لشدة حاجته وكونه في غير وطنه ، ويكون الإحساس إليه بتبليغه إلى مقصوده أو بعض مقصوده وبإكرامه وتأنيسه ويشمل اللقيط والله أعلم لأنه يستحق العناية والإحسان به ويكون ذلك بتربيته وتعليمه .

وقول « وما ملكت أيمانكم » أى وأحسنوا إلى ما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم وبهائمكم ويدخل في ذلك تحريرهم من الرق بعتقهم وحسن معاملتهم في الخدمة والقيام بكفايتهم وعدم تكليفهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ماتحملوه وتأديبهم لما فيه مصلحتهم ولا يؤذون بقول ولا بفعل فمن قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه المتواضع لعباد الله المنقاد لأمر الله وشرعه الذى يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل .

وقد روى الشيخان قوله صلى الله عليه وسلم « هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم من العمل مايغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم عليه » ٠

وقد أكد النبى صلى الله عليه وسلم الوصية بهم في مرض موته وكان ذلك من آخر وصاياه فقد روى أحمد والبيهقى من حديث أنس قال كانت عامة وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حضره الموت « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقد أوصانا تعالى بهؤلاء حتى لا يظن أن استرقاقهم يجيز امتهانهم ويجعلهم كالحيوانات المسخرة ٠

ثم ذكر ماهو علة للأمر السابق فقال تعالى : « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا » المختال المتكبر الذى تظهر آثار الكبر في حركاته وأعماله والفخور المتكبر الذى تظهر آثار الكبر في أقواله فتجده يذكر مايرى أنه ممتاز به عن الناس زهواً بنفسه واحتقاراً لغيره ٠

والمختال الفخور مبغوض عند الله لأنه احتقر جميع الحقوق التى أوجبها الله للناس والتى أوجبها لنفسه من الشعور بعظمته وكبريائه فهو كالجاحد لصفات الألوهية التى لا تليق إلا لله ، فالمختال لا يقوم بعبادة ربه حق القيام لأن العبادة لا تكون إلا عن خشوع للقلب ، ومن خشع قلبه خشعت جوارحه ، ولا يقوم بحقوق الوالدين ولا ذوى القربى لأنه لا يشعر بحق لغيره عليه ، وبالأولى لا يشعر بحق لليتيم أوالمسكين أو الجار قريب أو بعيد فهو لا يرجى منه بر ولا إحسان وإنما يتوقع إساءة وكفران ٠

وقوله « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ماآتاهم من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » قال أكثر المفسرين نزلت في اليهود ، كتموا صفة النبى صلى الله عليه وسلم ولم يبينوها للناس ، وهم يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم ٠

وقال الكلبى : هم اليهود بخلوا أن يصدقوا ماأتاهم من صفة محمد

صلى الله عليه وسلم ونعته في كتبهم · وقال مجاهد : الآيات الثلاث إلى قوله « عليما » نزلت في جماعة من اليهود كانوا يأتون رجالا من الأنصار يخالطونهم وينصحونهم ويقولون لهم : لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشي عليكم الفقر ، فأنزل الله تعالى « الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل » والجماعة المشار إليهم هم كردم بن زيد ، وحيي بن أخطب ، ورفاعة بن زيد بن التابوت ، وأسامة بن حبيب ، ونافع بن أبي نافع ويحي بن عمر ·

وقيل : يحتمل أن يكون المراد بالبخل كتمان العلم ومنع المال ، لأن البخل في كلام العرب منع السائل من فضل مالديه وإمساك المقتنيات ، وفي الشرع : البخل عبارة عن إمساك الواجب ومنعه ، وإذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم ·

المعنى : لما أمر جل وعلا بالإحسان إلى الوالدين ومن ذكر معهما أعقب ذلك ببيان من لا يفعل ذلك وأنهما قسمان : أحدهما البخيل الذى لا يقدم على إنفاق المال البتة حتى أفرط في ذلك ، وأمر بالبخل · والثانى الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس لا لغرض أمر الله وطاعته ، وقد ذم الله تعالى القسمين بأن أعقب القسم الأول بقوله « وأعتدنا للكافرين » وأعقب الثاني بقوله « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » ·

والبخل أنواع : بخل بالمال ، وبخل بالعلم ، وبخل بالطعام ، وبخل بالسلام وبخل بالكلام ، وبخل على الأقارب دون الأجانب وبخل بالجاه ، وكلها نقائص ورذائل مذمومة عقلا وشرعا ، وقد جاءت أحاديث في ذم البخل ومدح السماحة · فمما ورد في ذم البخل عن أبى سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا » · وفي أفراد مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل » وروى

جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنى سلمه « من سيدكم ؟ » قالوا : جد بن قيس على أننا نبخله ، قال : « وأى داء أدوأ من البخل ؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور » وورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه » .

وقوله « ويكتمون ما آتاهم الله من فضله » أى مع بخلهم وأمرهم به يكتمون العلم الذى آتاهم الله ليهتدى به الضالون ويسترشد به الجاهلون فيكتمونه عنهم ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق .

وقال بعض المفسرين : الأولى أن تكون الآية عامة في كل من يبخل بأداء ما يجب عليه أداؤه ويأمر الناس به ، وعامة في كل من كتم فضلا آتاه الله تعالى من العلم وغيره من أنواع النعم التى يجب إظهارها ويحرم كتمانها ، وفي الحديث « إذا أنعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن يرى أثرها عليه » .

والخلاصة : أن هؤلاء جمعوا بين البخل بالمال والبخل بالعلم وبين السعى في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم ثم بين جل وعلا عاقبة أمرهم وعظيم نكالهم ، فكما تكبروا على عباد الله ومنعوا حقوقه وتسببوا في هلاك غيرهم بأمره بالبخل وعدم الاهتداء أهانهم بالعذاب الأليم والخزى الدائم .

وقوله « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » الرياء أصله من الرؤية كأنه يفعل ليرى غيره ، فالمرائى يظهر للناس خصال الخير من العبادة ونحوها لحمدهم وفرارا من ذمهم كى يستولى بذلك على قلوبهم ، فيكون له سلطان عليهم يصل به إلى لذاته ويستعين به على تحصيل شهواته .

وهناك أمور خمسة : مراء ، وهو العابد الذى يظهر خصال الخير ، ومراءى وهم الناس الذين يظهر لهم ذلك ، ومراء به ، وهو تلك الخصال،

ومراء لأجله ، وهو الجاه والسلطان والمال وحب الحمد وكراهة الذم ، ورياء وهو قصد إظهار العبادة لذلك الغرض .

والرياء مرض من الأمراض النفسية الخطرة والأوباء الأخلاقية الضارة التى تحتاج إلى علاج دائم ويقظة مستمرة فلا يصح للمرء أن يغفل أمره ويهمله حتى يستفحل شره ويتفاقم أمره وخطره ويصبح داء مستعصيا يحبط الأعمال ويعرض صاحبه للشرك بالله الواحد القهار .

وجاءت أحاديث في ذم الرياء منها ما ورد عن أبى هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول الناس يقضي يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمته فعرفها قال فما عملت فيها ؟ قال قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكنك قاتلت ليقال جرىء ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفعها قال فما عملت فيها ؟ قال تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن قال كذبت ولكنك تعلمت ليقال عالم وقرأت القرآن ليقال قارىء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار ، ورجل أوسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال فما عملت فيها قال ماتركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك قال كذبت ولكنك فعلت ليقال جواد فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار » رواه مسلم ، قال ابن رجب رحمه الله : واعلم أن العمل لغير الله أقسام : فتارة يكون رياء محضا بحيث لا يراد به سوى مرئيات المخلوقين لغرض دنيوى كحال المنافقين في صلاتهم قال الله عز وجل « وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس » وقال « فويل للمصلين » الآية وكذا وصف الله تعالى الكفار بالرياء المحض في قوله « ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطروا رئاء الناس » وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام وقد يصدر في الصدقة الواجبة والحج وغيرهما من الأعمال الظاهرة والتى

يتعدى نفعها فإن الإخلاص فيها عزيز وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضا وحبوطه . وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال يقول تبارك وتعالى « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك معى فيه غيرى تركته وشركه » وخرجه ابن ماجه ولفظه « فأنا منه برىء وهو للذين أشرك » وخرج الإمام أحمد عن شداد بن أوس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال «من صلى يرائى فقد أشرك ومن صام يرائى فقد أشرك ومن تصدق يرائى فقد أشرك فإن الله عز وجل يقول أنا خير قسيم لمن أشرك بى شيئا فإن حدة عمله قليله وكثيره لشريكه الذى أشرك به أنا عنه غنى » وخرج الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث أبى سعيد بن أبى فضالة وكان من الصحابة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد من كان أشرك في عمله لله فليطلب ثوابه من غير الله عز وجل فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك »

والخلاصة أن قوله تعالى « والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس » الآية . عطف على قوله « الذين يبخلون » ووجه ذلك أن الأولين قد فرطوا بالبخل وبأمر الناس به وبكتم ما آتاهم الله من فضله وهؤلاء أفرطوا ببذل أموالهم في غير مواضعها لمجرد الرياء والسمعة وليقال ما أسخاهم ، وما أجودهم ، وما أكرمهم ، كما يفعله من يريد الفخار والشهرة ، وأن يتسامع الناس بأنه سخى ويتطاول على غيره بذلك ويشمخ بأنفه عليه ، مع ضمه إلى هذا الإنفاق الذى يعود عليه بالضرر من عدم الإيمان بالله واليوم الآخر .

أما معنى الإيمان بالله فهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء ومليكه ، وأنه الخالق الرازق المحي المميت وأنه المستحق لأن يفرد بالعبادة والذل والخضوع والمحبة ، وجميع أنواع العبادة وأنه المتصف بصفات الكمال المنزه عن كل عيب ونقص . وأما الإيمان باليوم الآخر

فهو التصديق الجازم بكل ما أخبره به النبى صلى الله عليه وسلم مما يكون بعد الموت : من فتنة القبر وعذابه ونعيمه والبعث والحشر والنشر والصحف والميزان والحساب والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار وأحوالهما وما أعد الله لأهلهما إجمالا وتفصيلا ٠

ولما ذكر سبحانه وتعالى أن إنفاقهم ليس صادرا عن إخلاص وإيمان بالله ورجاء ثوابه بل إن هذا من خطوات الشيطان وأعماله التى يدعو حزبه إليها ليكونوا من أصحاب السعير ، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها كما قال تعالى : « ألم ترانا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا » قال « ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » القرين هنا فعيل بمعنى مفاعل، كالجليس والخليط ، أى المجالس والمخالط ٠ ومنه سميت الزوجة قرينة ومنه قيل لما يلز من الإبل والبقر قرينان وللحبل الذى يشد به قرن قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس

وقال الآخر :

ومدخل راسه لم يدنه أحد من القرينين حتى لز في القرن

والشيطان هنا جنس لا يراد به إبليس وحده وهو كقوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين » والمعنى : من يكن الشيطان قرينه وخليله فبئس الصاحب وبئس الخليل الشيطان ٠

وفي الآية إيماء إلى تأثير قرناء المرء في سيرته وأن الواجب اختيار القرين الصالح والابتعاد عن قرين السوء ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » ٠

وعن أبى موسي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » رواه البخاري ومسلم .

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ومثل الجليس الصالح كمثل صاحب المسك إن لم يصبك منه شيء أصابك من ريحه ، ومثل الجليس السوء كمثل صاحب الكير إن لم يصبك من سواده أصابك من دخانه » رواه أبو داود .

أما من هم الأخيار ، ومن هم الأشرار ، فالأخيار هم الذين طهرت قلوبهم وحسنت أخلاقهم وصلحت أعمالهم كالذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، وكالذين يتولون الله ورسوله باتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والائتساء به في أعماله وأخلاقه ، وأما الأشرار فهم بخلافهم كالذين يجادلون في آيات الله بالباطل ويحرفونها عن مواضعها ويحملونها على غير المراد منها إرواء للشهوة أو اتباعا للهوى ، وكالذين يظلمون الناس ويظلمون أنفسهم بإهمالهم تعليمها وعدم تعويدها وتمرينها على الأعمال الصالحة ومكارم الأخلاق، وكالذين غضب الله عليهم لخبث طويتهم أو فساد عقيدتهم كإلحادهم وإنكارهم البعث ، وكالذين ينكرون الملائكة والجن ، وكالذين غفلت قلوبهم عن ذكر الله وكالفساق الذي يعملون أنواع المعاصي وكالمستهزئين بالله وبكتابه وبرسوله صلى الله عليه وسلم وبالعلماء العاملين بالكتاب والسنة البعيدين عن الملاهي والمنكرات ، وكالمتشبهين باليهود والنصارى ونحوهم،وكمحكمي القوانين،والمراد بمقارنتهم معاشرتهم والسكنى معهم . أو مجاورتهم أو الجلوس في مجالسهم وأنديتهم والتروض معهم والسفر بصحبتهم ومشاركتهم في عمل من أعمال الحياة كتجارة أو صناعة أو زراعة أو نحو ذلك .

ولما كان الإنسان يحب التقليد صار يحاكي من يخالطه فإن كان من أصحاب العقول الراجحة والأفكار الصالحة والأخلاق العالية

والعقائد المستقيمة والأعمال المجيدة سرى كل ذلك في الغالب إليه بل إذا طالت الصحبة وكثرت المجالسة وحسنت العشرة وجدته قد طبع بطابعهم فلا يفترق عنهم في شيء ، وكذا من يخالط الأشرار ويقارنهم يدنسونه ويفسدون عقله ويسيئون أدبه ويعرفونه طرق الشر والفساد ، ويعرفونه بأشكالهم من أهل الفسق والفجور ، ويفتحون له الأبواب المغلقة مما كان جاهلا به ومما كان غافلا عنه من أبواب الشرور والفساد ، فالعاقل اللبيب الحازم من يبحث أولا عن النفوس الطيبة الزاكية الخيرة فيساكنها ويجاورهاويجالسها ويصاحبها ويلازمها ويبحث عنمجالسها وأنديتها فيغشي ماغشيت ويذهب أنى ذهبت لتتصل روحه بروحها ، فيستقى من معينها ويتأدب بآدابها ويتخلق بأخلاقها ويتاسي بأعمالها وقديما قيل في الحث على مقارنة الأخيار والابتعاد عن الأشرار :

واخترصديقك واصطفيه تفاخرا إن القرين إلى المقارن ينسب
واحذر مؤاخاة الدني لأنه يعدى كما يعدىالصحيحالأجرب

وقال الآخر :

ما عاتب الحر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقال الآخر :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقوله « وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليما » المعنى أى شيء يضرهم لو آمنوا بالله إيمانا صحيحا يظهر أثره في العمل وسلكوا الطريق الحميدة وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص والإيمان بالله رجاء موعوده في الدار الآخرة بحسن العمل، وأنفقوا في وجوه البر التى يحبها الله ويرضاها ، وفيهذا الأسلوب إثارة تعجيب الناس من حالهم إذ هم لو أخلصوا لله لما فاتهم منفعة الدنيا ولفازوا في الآخرة كما قال تعالى « من عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون»

فكثيراً ما يفوت المرائى مايرمي إليه من التقرب إلى الناس واحتلال قلوبهم ويظفر بذلك المخلص الذى لم يكن من همه أن أحدا يعرف ما عمل فيكون الأول قد رجع بخفي حنين بينما الثانى الذى هو المخلص لله فاز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة فجهله جدير بأن يتعجب منه لأنه جهل بالله وجهل بأحوال الناس ولو آمن وأخلص ووثق بوعد الله ووعيده لكان في سعادته فالإيمان سلوى وعوض من كل فائت وفقده عرضة لليأس من كل خير ، ومن ثم يكثر الانتحار من فاقد الإيمان ·

كل الذنوب فإن الله يغفرها   إن شَيَّعَ المرء إخلاص وإيمان
وكل كسر فإن الله يجبره   وما لكسر قناة الدين جبران

وأما المؤمن فأقل مايؤتاه في المصائب الصبر الذى يخفف وقعها على النفس وأكثره رحمة الله التى بها تتحول النقمة إلى نعمة بما يستفيد من الاختبار والتمحيص وكمال العبرة والتهذيب ، وقد يبتلى الله المؤمن ويمتحن صبره فيعطيه إيمانه من الرجاء ماتخالط حلاوته مرارة المصيبة حتى تغلبها ، وقد يأنس أحيانا بالمصيبة لعظم رجائه وصبره ، وهذا وإن كان نادرا فهو واقع حاصل ·

وقوله « وكان الله بهم عليما » المعنى : أن الله جل وعلا عليم بنياتهم الصالحة والفاسدة وعليم بمن يستحق التوفيق فيوفقه ويلهمه رشده ويقيضه للعمل الصالح الذى يرضي به عنه وبمن يستحق الخذلان والطرد عن جنابه الأعظم الإلهى الذى من طرد عن بابه فقد خاب وخسر في الدنيا والآخرة ، وقوله تعالى « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما » ، نظم الكلام : وماذا عليهم لو آمنوا وأنفقوا فإن الله لا يظلم ولا يبخس ولا ينقص أحدا من ثواب عمله ، والمعنى يخبر تعالى أنه لا يظلم أحدا من خلقه يوم القيامة مثقال ذرة كما قال تعالى في الآية الأخرى « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » وقال « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا

حاسبين » وقال « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا وليتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » وقال « يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

وفي الصحيحين من حديث زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل وفيه « فيقول الله عز وجل ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجوه من النار ـ وفي لفظ أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه من النار ـ فيخرجون خلقا كثيراً ثم يقول أبو سعيد اقرءوا إن شئتم « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » الآية .

وقال ابن مسعود : يؤتى بالعبد أو الأمة يوم القيامة ، فينادى على رءوس الأولين والآخرين : هذا فلان بن فلان من كان له حق فليأت إلى حقه ، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أمها أو أخيها أو زوجها ثم قرأ « فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » فيغفر الله من حقه مايشاء ، ولا يغفر من حقوق الناس شيئا، فينصب للناس فيقول : ائتوا إلى الناس حقوقهم فيقول : يارب فنيت الدنيا من أين أوتيهم حقوقهم فيقول خذوا من أعماله الصالحة فأعطوا كل ذى حق حقه بقدر مظلمته ، فإن كان وليا لله ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة ، ثم قرأ « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها » وإن كان عبدا شقيا قال الملك رب فنيت حسناته وبقى طالبون كثير ، فيقول خذوا من سيئاتهم فأضيفوها إلى سيئاته ثم صكوا له صكا إلى النار .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة » .

وقال أبو هريرة وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والضحاك

في قوله « ويؤت من لدنه أجرا عظيما » يعني الجنة ـ نسأل الله أن يسكننا وإخواننا المسلمين الجنة .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى يستخلص رجلا من أمتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل مثل مد البصر ثم يقول : أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمك كتبتى الحافظون ؟ فيقول لا يارب ، فيقول : فلك عذر ؟ فيقول : لا يارب ، فيقول تعالى : بلى إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : أحضر وزنك فيقول يارب ماهذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : فإنك لا تظلم فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء » أخرجه الترمذى .

وعن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثم يضرب الجسر على جهنم ، وتحل الشفاعة ، ويقولون اللهم سلم سلم ، قيل : يارسول الله وما الجسر ؟ قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة ـ تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان ـ فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق ، وكالريح ، وكالطير وكأجاود الخيل والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكردس في نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذى نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار ـ وفي رواية فما أنتم بأشد مناشدة في الحق قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجبار إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ، ويصلون ويحجون ـ فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ، ثم يقولون ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا به ، فيقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحد ممن أمرتنا به ،

ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيرا »، وكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » فيقول الله تبارك وتعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل الا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر مايكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض ؟ فقالوا : يا رسول الله كأنك ترعى بالبادية ، قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : أدخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا مالم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون : ربنا أى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا لفظ مسلم وهو بعض حديث .

وقوله تعالى « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » الاستفهام معناه التوبيخ والتقريع والتهويل ، أى إذا كان كل قليل وكثير يجازى عليه فكيف يكون حال هؤلاء المشركين والمنافقين يوم القيامة ، وهؤلاء الكافرون المختالون الفخورون الباخلون الآمرون بالبخل الذى يكتمون فضل الله ولا يبتغون وجه الله هؤلاء هم واقفون في الساحة والرسول عليهم شهيد ، هؤلاء هم في حضرة الخالق الذى كفروا به وفي مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى عصوه، إنه لموقف رهيب ينال الكافرين فيه من المهانة والخزى والحسرة ما الله

به عليم ، إنه لموقف اعترف لا يفيد فيه الإنكار ولا يمكن فيه الجحد والكتمان ·

والمراد بالشهيد الأنبياء قال تعالى «وأشرقت الأرض بنور ربها وجيء بالنبيين والشهداء » · وقال « ويوم نبعث من كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم ·

عن ابن مسعود قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرأ علي ، قلت : يا رسول الله أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد » الخ ، فقال : حسبك الآن ، فإذا عيناه تذرفان » ·

فإذا كان هذا الشاهد تفيض عيناه لهول هذه المقالة وعظم تلك الحالة ، فماذا يصنع المشهود عليه ؟ وماذا تكون حاله ؟ وكأنه بالقيامة وقد أناخت لديه ؟! اللهم سلمنا من شرور الدنيا والآخرة وجميع المسلمين ·

وقوله « يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » استئناف لبيان حالهم التى أشير إلى شدتها وفظاعتها ·

المعنى : أنه إذا جاء ذلك اليوم العظيم الذى يأتى فيه الله بشهيد على كل أمة يتمنى الذين كفروا وعصوا الرسول فلم يطيعوه فيما أمرهم به من التوحيد لله عز وجل أن يصيروا تراباً تسوى به الأرض ، فيكونوا وإياها سواء ، كما قال تعالى : « ويقول الكافر ياليتنى كنت تراباً » ، وقيل : إنهم ودوا أن لم يبعثوا ، لأنهم إنما كانوا في الأرض وهى مستوية عليهم ، وقيل : معناه ودوا لو تخرقت بهم الأرض فساخوا فيها ، وقيل: معناه لو تعدل بهم الأرض ، أى يؤخذ منهم ما عليها فدية ·

« ولا يكتمون الله حديثا » هذا إخبار عنهم أنهم يعترفون بجميع مافعلوه ولا يكتمون منه شيئاً ·

عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : سمعت الله عز وجل يقول إخباراً عن المشركين يوم القيامة أنهم قالوا « والله ربنا ما كنا مشركين » وقال في الآية الأخرى « ولا يكتمون الله حديثاً » فقال ابن عباس : أما قولهم « والله ربنا ما كنا مشركين » فإنهم لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الإسلام قالوا تعالوا فلنجحد ، فقالوا « والله ربنا ما كنا مشركين » فختم الله على أفواههم ، وتكلمت أيديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثا .

وعن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال أشياء تختلف علي في القرآن ، قال ما هو أشك في القرآن قال : ليس بالشك ، ولكن اختلاف ، قال : فهات ما اختلف عليك من ذلك ، قال : أسمع الله يقول : « ثم لم تكن فتنتهم إلا إن قالوا والله ربنا ماكنا مشركين » ، وقال : « ولا يكتمون الله حديثاً » فقد كتموا ، فقال ابن عباس : أما قوله « ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » فإنهم لما رأوا يوم القيامة أن الله لا يغفر إلا لأهل الإسلام ، ولا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا يغفر شركاً ، جحد المشركون فقالوا « والله ربنا ماكنا مشركين » رجاء أن يغفر لهم فختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، فعند ذلك « يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا » .

وقال الحسن : القيامة مواقف ، ففى موطن لا يتكلمون ولا تسمع إلا همساً ، وفي موطن يتكلمون ويكذبون ويقولون والله ربنا ماكنا مشركين ، ويقولون ما كنا نعمل من سوء ، وفي موطن يعترفون على أنفسهم وهو قوله تعالى « فاعترفوا بذنبهم » ، وفي موطن لا يتساءلون ، وفي موطن يسألون الرجعة ، وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم وتتكلم جوارحهم فهو قوله « ولا يكتمون الله حديثا » والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وسلم .

مما يفهم من آيات الدرس من الآية ٣٦ إلى الآية ٤٠ :

(١) الأمر بعبادة الله وحده ·
(٢) النهي عن الشرك · (٣) الحث على بر الوالدين ·
(٤) الحث على الإحسان بذوى القربى ·
(٥) الحثُ على الإحسان إلى اليتامى ·
(٦) الحث على الاحسان إلى المساكين ·
(٧) الحث على الإحسان إلى الجار ·
(٨) الحث على الإحسان إلى الصاحب بالجنب ·
(٩) الحث على الإحسان إلى ابن السبيل ·
(١٠) الحث على الإحسان إلى المماليك ·
(١١) إثبات الألوهية لله ·
(١٢) أن الله لا يحب كل مختال فخور ·
(١٣) ذم البخل والآمر به · (١٤) النهي عن كتمان العلم ·
(١٥) إثبات الأفعال الاختيارية ·
(١٦) أن الفضل بيد الله ·
(١٧) أن الله يؤتي فضله الصالح والطالح ·
(١٨) النهي عن الكبر ·
(١٩) أن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ·
(٢٠) النهي عن الرياء · (٢١) الحث على الإخلاص لله ·
(٢٢) ذم ترك الإيمان بالله · (٢٣) الحث على الإيمان بالله ·
(٢٤) الحث على الإيمان باليوم الآخر ·
(٢٥) ذم من لا يؤمن باليوم الآخر ·
(٢٦) الحث على الإيمان بالبعث لدخوله في اليوم الآخر ·
(٢٧) الحث على الإيمان بفتنة القبر لأنها داخلة في الإيمان باليوم الآخر ·
(٢٨) الحث على الإيمان بالحشر لدخوله في الإيمان باليوم الآخر ·
(٢٩) الحث على الإيمان بالحوض لدخوله في الإيمان باليوم الآخر ·
(٣٠) الحث على الإيمان بالميزان لدخولهما بالإيمان باليوم الآخر ·

(٣١) الحث على الإيمان بالحساب لدخوله بالإيمان باليوم الآخر ٠
(٣٢) الحث على الإيمان بالصراط لدخوله في الإيمان باليوم الآخر ٠
(٣٣) الحث على الإيمان بالجنة لدخولها بالإيمان باليوم الآخر ٠
(٣٤) الحث على الإيمان بالنار لدخولها في الإيمان باليوم الآخر ، ولقوله تعالى : « وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » ٠
(٣٥) التحذير من اتخاذ الشيطان قريناً ٠
(٣٦) أن الشيطان بئس القرين ٠
(٣٧) في الآية إيماء إلى أن قرناء السوء يؤثرون على الإنسان في سيرته وعقيدته ٠
(٣٨) الحث على اختيار القرين الصالح ٠
(٣٩) الابتعاد عن قرناء السوء ٠
(٤٠) الحث على الإنفاق مما رزق الله ٠
(٤١) إثبات صفة العلم ٠
(٤٢) أن الله هو الرزاق ٠
(٤٣) أن الله لا يظلم ٠
(٤٤) أنه يضاعف الحسنة ٠
(٤٥) أنه يزيد في الفضل ٠
(٤٦) التوبيخ على الجهل بمكان المنفعة ، والاعتقاد في الشيء على خلاف ما هو عليه ، وتحريضهم على صرف الفكر لتحصيل الجواب لعله يؤدى بهم إلى العلم بما في ذلك مما هو أجدى من تفاريق العصا وتنبيههم على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب احتياطيا ، فكيف إذا تدفقت منه المنافع
(٤٧) الرد على الجبرية إذ لا يقال مثل ذلك لمن لا اختيار له ولاتأثيراً أصلا في الفعل ٠
(٤٨) الرد على الجهمية منكرى الصفات ٠
(٤٩) التوبيخ والتقريع المستفاد من الاستفهام ٠
(٥٠) الاعتبار بذلك الحكم العظيم الذى جمع أن من حكم به كامل العلم كامل العدل كامل الحكمة بشهادة أزكى الخلق ، وهم الرسل على أممهم مع إقرار المحكوم عليه ٠

(٥١) الحث على الاستعداد لهول ذلك اليوم ٠
(٥٢) أن الله لم يهمل الخلق ولم يتركهم سدى ٠
(٥٣) إثبات صفة الكلام ٠
(٥٤) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد ٠
(٥٥) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠
(٥٦) الرد على من أنكر رسالته ٠
(٥٧) أن الكفار في ذلك ينالهم الذل والخزى والمهانة ويودون لو يندمجون بهذه الأرض وينطوون فراراً من الخزى الذى يغمرهم ٠
(٥٨) أن الكفار يعترفون في ذلك اليوم بما عملوا وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ٠
(٥٩) التحذير من معصية الله ورسوله ٠
(٦٠) الحث على الإكثار من الحسنات ٠
(٦١) وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ٠
(٦٢) دليل على قدرة الله ، والله أعلم ٠

وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

في فضل أداء الأمانة والعـدل

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعاً بصـيراً ٠ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) ٠

الآية الأولى : قال القرطبى · هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرع ، وقد اختلف من المخاطب بها ، فقال على بن أبى طالب ، وزيد ابن أسلم ، وشهر بن حوشب ، وابن زيد : هـذا خطاب لولاة المسلمين خاصة ، فهى للنبى صلى الله عليه وسلم وأمرائه ، ثم تتناول من بعدهم ٠

وقال ابن جريج وغيره : ذلك خطاب للنبى صـلى الله عليه وسلم خاصة في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن أبى طلحة الحجبى العبدرى ، من بنى عبد الدار ، ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبى طلحة ، وكانا كافرين وقت فتح مكة ، فطلبه العباس بن عبد المطلب لتنضاف له سدانة البيت إلى السقاية فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان وأخرج مقام إبراهيم ونزل عليه جبريل بهذه الآية قال عمر بن الخطاب : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية وما كنت سمعتها قبل منه فدعا عثمان وشيبة فقال خذاها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم ٠ وحكى مكى أن شيبة أراد أن لا يدفع المفتاح ثم دفعه وقال للنبى صلى الله عليه

وسلم خذه بأمانة الله ، وقال ابن عباس الآية خاصة في أن يعظوا النساء في النشوز ونحوه ويردوهن إلى الأزواج والأظهر في الآية انها عامة في جميع الناس فهى تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال ورد الظلامات والعدل في الحكومات وهذا اختيار الطبرى ، وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات وغير ذلك كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه ، والصلاة والزكاة وسائر العبادات أمانة الله تعالى ·

روى هذا المعنى مرفوعا من حديث ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها ـ أو قال كل شيء إلا الأمانة ـ والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم والامانة في الحديث وأشد ذلك الودائع » ذكره أبو نعيم الحافظ في الحلية ·

وممن قال إن الآية عامة في الجميع البراء بن عازب ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى بن كعب قالوا : الأمانة في كل شيء في الوضوء والصلاة والزكاة ، والجنابة ، والصوم ، والكيل ، والوزن ، والودائع ، وقال ابن عباس : لم يرخص لمعسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة ·

قلت : وهذا إجماع ، وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها الأبرار والفجار قاله ابن المنذر · ووجه النظم بما تقدم أنه تعالى أخبر عن كتمان أهل الكتاب صفة محمد صلى الله عليه وسلم وقولهم : إن المشركين أهدى سبيلا ، فكان ذلك خيانة منهم ، فاتجه الكلام إلى ذكر جميع الأمانات ، فالآية شاملة بنظمها لكل أمانة وهى أعداد كثيرة وأمهاتها في الأحكام : الوديعة واللقطة ، والرهن ، والعارية ، وروى عن أبى بن كعب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أد الأمانة إلى من أئتمنك ، ولا تخن من خانك » اهـ كلامه ·

وقد وردت أحاديث في تعظيم شأن الأمانة والأمر بحفظها وأدائها والتحذير من الخيانة فيها ، من ذلك ماورد عن عبد الله بن مسعود قال:

القتل في سبيل الله يكفر الذنوب كلها إلا الأمانة · قال : يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله فيقال أد أمانتك ، فيقول : أى رب كيف ، وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال : انطلقوا به إلى الهاوية ، وتمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه فيراها فيعرفها فيهوى في أثرها حتى يدركها فيحملها على منكبيه حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه ، فهو يهوى في أثرها أبد الآبدين ·

ثم قال : الصلاة أمانة ، والوضوء أمانة ، والكيل أمانة ، وأشياء عددها ، وأشد ذلك الودائع ، فقال راوى الحديث : فأتيت البراء بن عازب فقلت ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود ؟ قال كذا ، قال البراء صدق أما سمعت الله يقول « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ·

وعن أنس قال خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » وقد ثبت في الصحيح أن من خان إذا أؤتمن ففيه خصلة من خصال النفاق ·

وعن أبى ذر قال قلت : يا رسول الله ألا تستعملني ، قال فضرب بيده على منكبى ، ثم قال « يا أبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » ·

وعن أبى هريرة قال بينما النبى صلى الله عليه في مجلس يحدث القوم جاء أعرابى فقال : متى الساعة ؟ فمضي النبى صلى الله عليه وسلم يحدث ، فقال بعض القوم : سمع ما قال فكره ما قال ، وقال بعضهم : بل لم يسمع ، حتى إذا قضي حديثه قال : أين السائل عن الساعة ؟ قال ها أنا ذا يا رسول الله ، قال « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » قال : كيف إضاعتها ؟ قال « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » رواه البخارى ·

وفي حديث حذيفة في وصفه لتسرب الأمانة من القلوب التى تخلخل

فيها اليقين .. قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين ، رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا « أن الأمانة نزلت في جذرقلوب الرجال ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة ، وحدثنا عن رفعها قال ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر الوكت ، ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرا وليس فيه شيء،فيصبح الناس يتبايعون ، فلا يكاد أحدهم يؤدى الأمانة ، فيقال إن في بنى فلان رجلا أمينا ، ويقال للرجل : ما أعقله وما أظرفه وما أجلده وما في مثقال حبة خردل من إيمان » الحديث رواه البخارى .

وقوله تعالى « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » أى وأن الله يأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، والحكم بالعدل هو فصل الخصومات على ما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض ، القليل والكثير من ذلك ، على القريب والبعيد والبر والفاجر والولى والعدو ، والحكم بالعدل يحتاج إلى أمور منها :

أولا : فهم الدعوى من المدعى والجواب من المدعى عليه ليعرف موضع التنازع والتخاصم بأدلته من الخصمين .

ثانيا : خلو الحاكم من التحيز والميل إلى أحد الخصمين .

ثالثا : معرفة الحاكم الحكم الذى شرعه الله ليفصل بين الناس على ضوئه من الكتاب والسنة أو الإجماع .

رابعا : تولية القادرين على القيام بأعباء الأحكام .

وقد أمر المسلمون بالعدل في الأحكام والأقوال والأفعال والاخلاق قال الله تبارك وتعالى « اعدلوا هو أقرب للتقوى » وقال « كونوا قوامين بالقسط » وقال « وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » وقال « وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى » .

وقال صلى الله عليه وسلم « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في أهليهم وما ولوا » وقال صلى الله عليه وسلم « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهله وهو مسئول عنهم ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهى مسئولة عنه والعبد راع على مال سيده ، وهومسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ولما كانت هذه الأوامر حسنة عادلة بين سبحانه وتعالى حسن العدل وأداء الأمانة ، فقال « إن الله نعما يعظكم به أي نعم الشيء الذى يعظكم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل إذ لا يعظكم إلا ما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم . ومعنى الوعظ : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقيل : هو الأمر بالخير والنهي عن الشر .

وقوله « إن الله كان سميعا بصيرا » أى عليكم أن تعملوا بأمر الله ووعظه فإنه السميع لجميع الأصوات على اختلاف اللغات وتفنن الحاجات وكأنها لديه صوت واحد ، فإذا حكمتم فهو سميع لذلك الحكم البصير الذى أحاط بصره بجميع المبصرات فهو سبحانه يشاهد ويرى كل شيء وإن خفى قريباً أو بعيداً فلا تؤثر على رؤيته الأستار والحواجز فيرى دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ، ومناط عروق البعوض والذر ، وجريان القوت والماء في العروق والأغصان ، مهما دقت وغمضت ، وإن أديتم الأمانة فهو بصير بذلك .

ثم بعدما أمر سبحانه بأداء الأمانة والعدل في الحكومة أمر بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وأمر بطاعة أولى الأمر فقال : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » أى أطيعوا الله ربكم فيما أمركم به وفيما نهاكم عنه ، وأطيعوا رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم فإن في طاعتكم إياه طاعة لربكم وذلك أنكم تطيعونه لأمر الله إياكم بطاعته .

أقوال العلماء رحمهم الله تعالى في معنى قوله

« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول »

قال بعضهم : أمر من الله باتباع سننته،وعن عطاء في قوله : «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » قال : طاعة الرسول اتباع الكتاب والسنة ، وقال ابن جرير : والصواب من القول في ذلك أن يقال هو أمر من الله بطاعة رسوله في حياته فيما أمر ونهى ، وبعد وفاته باتباع سننته ، وذلك أن الله عم بالأمر بطاعته ولم يخصص بذلك في حال دون حال فهو على العموم حتى يخص ذلك مايجب التسليم له ٠

وقوله : « وأولى الأمر منكم » اختلف في أولى الأمر ، فللمفسرين فيه قولان قال ابن عباس وجابر رضي الله عنهم : هم الفقهاء والعلماء الذين يعلمون الناس معالم دينهم ، وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد ، ودليله قوله تعالى : « ولو ردوه إلى الرسول وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » ٠

وقال أبو هريرة : هم الأمراء والولاة ، قال بعض العلماء : وليس ببعيد على ما يعم الجميع لتناول الاسم لهم ، لأن للأمراء تدبير الجيش والقتال ، وللعلماء حفظ الشريعة وما يجوز مما لا يجوز فالله سبحانه أمر بطاعة أولى الأمر لأنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة لله ورغبة فيما عنده ، ولكن بشرط أن لا يأمروا بمعصية الله فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولعل هذا هوالسر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بطاعة الله ، ومن يطعه فقد أطاع الله ، وأما أولوا الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية ٠

وعن علي رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليهم رجلا من الأنصار فلما خرجوا وجد عليهم في شيء

فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تطيعوني؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا إلى حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه ، فقال لهم لو دخلتموها ماخرجتم منها أبداً إنما الطاعة بالمعروف » أخرجاه في الصحيحين ٠

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره،مالم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » ٠

وعن عبادة بن الصامت قال : بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا وأن لا ننازع الأمر أهله ، قال إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان ، أخرجاه ٠

وفي الحديث الآخر عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » رواه البخارى ، وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : أوصانى خليلى أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدوع الأطراف ، رواه مسلم ٠ وعن أم الحصين أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع يقول : « ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله اسمعوا له وأطيعوا » رواه مسلم وفي لفظ « عبداً حبشياً مجدوعاً » ، وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « سيليكم ولاة بعدى فيليكم البر ببره والفاجر بفجوره ، فاسمعوا لهم وأطيعوا في كل ماوافق الحق وصلوا وراءهم فإن أحسنوا فلكم ولهم وإن أساؤوا فلكم وعليهم ٠

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى ، وأنه لا نبى بعدى ، وسيكون خلفاء فيكثرون ، قال : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال

أوفوا بيعه الأول وأعطوهم حقهم ، فإن الله سائلهم عما استرعاهم » أخرجاه ·

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية » أخرجاه ·

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » رواه مسلم ·

وروى مسلم أيضاً عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه فقال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلا فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل ومنا من هو في جشره ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « إنه لم يكن نبي قبلى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم ، وإن هذه الأمة جعلت عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها ، وتجيء فتن يرقق بعضها بعضاً وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتى ثم تنكشف ، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه هذه ، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه ، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع ، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر » قال : فدنوت منه فقلت أنشدك الله ، أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيد وقال : سمعته أذناى ووعاه قلبى ، فقلت له هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا ، والله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم

ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » قال : فسكت ساعة ثم قال أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله ·

والأحاديث في هذا كثيرة ، قال العلماء : ولابد للأمراء من خوف الله وخشيته بإجراء الشرائع والأحكام واتباع كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يقع في القلوب لهم هيبة بإذن الله فحينئذ لايحتاجون إلى المحافظة كما يحتاج من ليس كذلك ، روى أن كلب الروم أرسل إلى عمر رضي الله عنه هدايا من الثياب والجبب فلما دخل الرسول إلى المدينة قال : أين دار الخليفة وبناؤه ؟ فقيل ليس له دار عظيمه كما توهمت إنما له بيت صغير فدلوه عليه فأتاه فوجده بيتاً صغيراً قد أسود بابه لطول الزمان ، فطلبه فلم يصادفه ، وقيل إنه خرج إلى السوق لحاجته وحوائج المسلمين فخرج الرسول لطلبه فوجده نائماً تحت ظل حائط قد توسد بالدرة فلما رآه قال : عدلت فأمنت فنمت حيث شئت، وأمراؤنا ظلمونا فاحتاجوا إلى الحصون والجيوش ·

واعلم أن الولاة إنما يكونوا على حسب أعمال الرعايا وأحوالهم صلاحا وفساداً يدل لذلك قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ، ويعفو عن كثير ، وقوله « وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » وحديث « كما تكونوا يولى عليكم أحدكم »·

وروى أنه قيل للحجاج بن يوسف الظالم المشهور لم لا تعدل مثل عمر ، وأنت قد أدركت خلافته ؟ أفلم تر عدله وصلاحه؟ فقال في جوابهم تباذروا أى كونوا كأبى ذر في الزهدوالتقوى ــ أتعمر لكم ــ أى أعاملكم معاملة عمر في العدل والإنصاف ·

وروى أن الله أوحى إلى موسي إذا استعملت على الناس خيارهم فهو علامة رضائى ، وإذا استعملت شرارهم فهو علامة سخطى » ·

وقوله « فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله ورسوله » هذا أمر من الله تعالى برد ما تنازع فيه الناس من أصول الدين وفروعه إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : « وما اختلفتم

فيه فحكمه إلى الله» فما حكم الكتاب والسنة به وشهدا له بالصحة فهو الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال: «إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر» أي ردوا الخصومات إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فتحاكموا إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، فدل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر.

وقوله « ذلك خير وأحسن تأويلا » أى التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع إليهما في فصل النزاع خير وأحسن تأويلا أى وأحسن عاقبة ومآلا فكل حكم سوى حكم الله فهو باطل مردود ، وكل حاكم بغير حكم الله وحكم رسوله فهو طاغوت كافر بالله ، قال الله تعالى « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وهذا عام شامل فما من قضية إلا ولله فيها حكم وقال الله تعالى « مافرطنا في الكتاب من شيء » أى ماتركنا في القرآن شيئاً من ضروب الهداية التى ترسل من أجلها الرسل إلا بيناه فيه وقال : « وكل شيء فصلناه تفصيلا » فقد ذكرت فيه أصول الدين وأحكامها وحكمها ، والإرشاد إلى استعمال القوى البدنية والعقلية التى سخرها الله للانسان ، وقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى » أى بتمام النصر وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة ، الأصول والفروع ، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه ، وقال تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم » المراد بالذكر القرآن ، الذى فيه ذكر مايحتاج إليه العباد من أمور دينهم وأمور دنياهم الظاهرة والباطنة ، أى لتعرفهم ماأنزل إليهم من الأحكام والشرائع وأحوال القرون المهلكة وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام وتفصل لهم ما أجمل بحسب مراتبهم في الاستعداد والفهم لأسرار الشرائع وقال تعالى : « وأنزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء » الآية .

قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن علم كل شيء ، وقال مجاهد : كل حلال وحرام ، وقال ابن كثير : وقول ابن مسعود أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ماسبق ، وعلم

ماسيأتى ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دينهم ودنياهم ومعاشهم ومعادهم ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : « تركتكم على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعد إلا هالك » وقال فيما صح عنه « مابعث من نبى إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير مايعلمه لهم وينهاهم عن شر مايعلمه لهم ٠

وقال أبو ذر : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما ٠

وقا عمر بن الخطاب : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه » رواه البخارى ٠

ولاشك أن من أعرض عن الكتاب والسنة، واعتاض عنهما بالقوانين الوضعية أنه كافر كفر ناقل عن الملة الاسلامية ، وكذلك من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسي ، أو زعم أن هدى غير محمد أفضل من هديه صلى الله عليه وسلم أو أحسن ، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن الشريعة المحمدية ، وأنها كانت كافية في الزمن الأول فقط ، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن ، ولابد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن ، فلاشك أن هذا الاعتقاد إذا صدر من إنسان فإنه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتنقصهما ولا شك في كفره وخروجه عن الدين ، وكذلك من زعم أنه محتاج للشريعة في علم الظاهر دون علم الباطن ، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة ، أو زعم أن الإنسان حر في التدين ، وفي أي دين يشاء من يهودية ، أو نصرانية ، أو غير ذلك ، أو أن هذه الشرائع غير منسوخة بدين محمد صلى الله عليه وسلم ، أو استهان بدين الإسلام أو تنقصه، أو هزل به ، أو بشيء من شرائعه ، أو بمن جاء به ، والله أعلم ٠

وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

مما يفهم من آيات الدرس ٥٨ ، ٨٩ :

(١) أن هذه الآية من أمهات الأحكام تضمنت جميع الدين والشرائع
(٢) وجوب أداء الودائع لأربابها ٠
(٣) أنها تتناول الولاة فيما وكل إليهم من الأمـانات ، وقسمة الأموال ، ورد المظالم ، والعدل في الحكومات ٠

(٤) أداء الصلاة لأنها أمانة ٠ (٥) أداء الزكاة لأنها أمانة ٠
(٦) أداء الصوم لأنه أمانة ٠ (٧) أداء الحج لأنه أمانة ٠
(٨) الأمانة في الحديث بأنه يحفظه إذا استودعه ٠
(٩) الوضوء وفق ما أمر به الشارع لأنه أمانة ٠
(١٠) الطهارة من الجنابة لأنها أمانة ٠
(١١) الوفاء بالكيل لأنه أمانة (١٢) الوفاء بالوزن لأنه أمانة
(١٣) حفظ الرهن وأداؤه لأنه أمانة ٠
(١٤) حفظ اللقطة لأنها أمانة ٠ (١٥) العارية لأنها أمانة ٠
(١٦) حفظ الأمانة لأنه لا يمكن تأديتها إلا بحفظها ٠
(١٧) في الآية وعد عظيم للمطيع (١٨) وعيد شديد للعاصي ٠
(١٩) الاهتمـام بأمر القضـاة والولاة لأنه فوض إليهـم النظر في مصالح العباد ٠

(٢٠) الأمر بالعدل وهذا يشمل الحكم بينهم في الدمـاء والأموال والأعراض القليل والـكثير على القريب والبعيـد والبر والفاجر والولي والعدو ٠

(٢١) وجوب العدل على الحكام والولاة حتى تصـل الحقوق إلى أربابها كاملة غير منقوصة ٠

(٢٢) فيها مدح من الله لأوامره ونواهيه ، لاشتمالها على مصالح الدارين ، ودفع مضارهما ٠

(٢٣) إثبات الألوهية ·　　　(٢٤) إثبات صفة السمع لله ·
(٢٥) إثبات صفة البصر ·
(٢٦) متمسك لمن فضل السمع على البصر ·
(٢٧) أن صفة السمع غير صفة البصر إذ العطف يقتضي المغايرة ·
(٢٨) دليل على الجزاء على الأعمال :
(٢٩) دليل على البعث والحساب ·
(٣٠) التنبيه على مقام الإحسان ·
(٣١) أن أداء الأمانة يشمل أساس الاعتقاد ·
(٣٢) أنه يشمل أساس العبادة ·
(٣٣) أنه يشمل أساس التعامل ·
(٣٤) أنه يشمل أساس العلاقات بين الناس ، وأول أمانة ترد إلى أهلها أمانة الإيمان ·
(٣٥) لطف الله بخلقه ورحمته ورأفته بهم حيث أمرهم بما فيه صلاحهم ·
(٣٦) التحذير من كتمان الأمانة ·
(٣٧) إثبات صفة الكلام لله ·
(٣٨) وجوب أداء الأمانة إلى البر والفاجر ·
(٣٩) وجوب طاعة الله ·
(٤٠) وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ·
(٤١) وجوب طاعة أولى الأمر في غير معصية ·
(٤٢) التحذير من معصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ·
(٤٣) أن الكتاب والسنة كافيان كل الكفاية في أحكام الدين أصوله وفروعه ·
(٤٤) تحريم الحكم بالقوانين ·　　　(٤٥) إثبات صفة الألوهية ·
(٤٦) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·
(٤٧) الرد على من أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·
(٤٨) أن الأصل الأول القرآن الكريم ·

(٤٩) أن الأصل الثانى سنة محمد صلى الله عليه وسلم ·
(٥٠) أن المؤمن لا يقدم شيئاً على حكم الله ·
(٥١) في الآية دليل على أن من لم يرد مسائل النزاع إلى الكتاب والسنة فليس بمؤمن حقيقة ·
(٥٢) أن الرد إلى الكتاب والسنة شرط في الإيمان ·
(٥٣) أن من لا يعتقد وجوب طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومتابعة السنة والحكم بالأحاديث الواردة عن النبى صلى الله عليه وسلم لا يكون مؤمناً بالله واليوم الآخر ·
(٥٤) إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال ·
(٥٥) أن طاعة الأمراء واجبة إذا وافقوا الحق وأما في المعصية فلا ·
(٥٦) التحذير عن معصية الله ·
(٥٧) التحذير من معصية الرسول صلى الله عليه وسلم ·
(٥٨) أن رد المتنازع فيه إلى الله والرسول خير لعباد الله ·
(٥٩) أن ذلك أحسن عاقبة ومآلا ·
(٦٠) مدح من الله للرد إلى كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ·
(٦١) التحذير من الإعراض عن الكتاب والسنة ·
(٦٢) أن الكتاب والسنة في كل زمان يرجع إليهما ·
(٦٣) الإرشاد إلى ما هو سبب للتواصل والتوادد من العدل وأداء الأمانات وطاعة ولاة الأمور في غير معصية ·
(٦٤) الابتعاد مما يسبب العداوة والبغضاء والغيبة ·
(٦٥) التحذير من الجور والظلم ·
(٦٦) التحذير من كتمان الأمانة ·
(٦٧) الرد على الجهمية المنكرين للصفات ·
(٦٨) إثبات صفة العلم لله ·
(٦٩) أنه إذا لم يوجد تنازع لا يجب الرد ·

(٧٠) أن في مدحه تعالى لأوامره ونواهيه في قوله نعما يعظكم به مزيد لطف بالمخاطبين واستدعائهم إلى الامتثـال لأوامره تعالى ٠

(٧١) أن الله جل وعلا يختم الآيات بما يناسبها من الأسماء ٠

(٧٢) إثبات الأسماء لله ، والله أعلم ٠

وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالى :

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً · ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما · يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً وإن منكم لمن ليبطئن فإن أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً · ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما · فليقاتل في سبيل الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة · ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أَوْ يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما) ·

سبب نزول هذه الآية الكريمة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قيل : نزلت في ثوبان ، وكان شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم قد تغير لونه يعرف الحزن في وجهه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ماغير لونك ؟ فقال: يا رسول الله ، ما بى مرض ولا وجع غير أنى إن لم أرك استوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك ثم ذكرت الآخرة ، فأخاف أن لا أراك لأنك ترفع مع النبيين ، وإنى إن دخلت الجنة كنت في منزلة أدنى من منزلتك وإن لم أدخل الجنة لا أراك أبداً فنزلت هذه الآية ·

وعن سعيد بن جبير قال : « جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محزون،فقال له النبى صلى الله عليه وسلم: « يا فلان مالى أراك محزونا » فقال يا نبى الله ، شيء فكرت فيه ، فقال : ما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ، ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً فأتاه جبريل بهذه الآية « ومن يطع الله والرسول فأولئك

مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين » الآية . فبعث النبى صلى الله عليه وسلم إليه فبشره .

وقد روى هذا مرسلا عن مسروق وعن عكرمة وعامر والشعبى وقتادة والربيع بن انس وهو من أحسنها سنداً قال : بن جرير : حدثنا المثنى حدثنا ابن أبى جعفر عن أبيه عن الربيع قوله « ومن يطع الله » الآية قال إن أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا قد علمنا أن النبى صلى الله عليه وسلم له فضل على من آمن به في درجات الجنة ممن اتبعه وصدقه . وكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنة أن يرى بعضهم بعضاً ؟ فأنزل الله في ذلك . يعنى هذه الآية . فقال ـ يعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الأعلين ينحدرون إلى من هو أسفل منهم فيجتمعون في رياض الجنة فيذكرون ما أنعم الله عليهم . ويثنون عليه وينزل لهم أهل الدرجات فيسعون عليهم بما يشتهون وما يدعون به فهم في روضة يحبرون ويتنعمون فيه » .

وقد روى مرفوعاً من وجه آخر عن الأسود عن عائشة قالت جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله إنك لأحب إلى من نفسي ، وأحب إلى من أهلى ، وأحب إلى من ولدى وانى لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلت الجنة خشيت أن لا أراك فلم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى نزلت عليه « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » .

وعن ربيعة بن مالك الأسلمى رضي الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : سل ، فقلت : أسألك مرافقتك في الجنة فقال: أو غير ذلك ، فقلت : هو ذاك قال : « فاعنى على نفسك بكثرة السجود » (رواه مسلم) .

وقال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن إسحاق أخبرنا ابن لهيعة عن

عبد الله ابن جعفر عن عيسي بن طلحة عن عمـرو بن مرة الجهنى قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله شهدت أن لا إله إلا الله ، وصـليت الخمس ، وأديت زكاة مـالى ، وصمت شـهر رمضان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات على ذلك كان مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة هكذا ـ ونصب أصبعيه ـ مالم يعق والديه » تفرد به أحمد ٠

وورد « من قرأ ألف آية في سبيل الله كتب يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » ٠

وعن أبى سـعيد قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : « التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء » ٠

وعن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله كيف تقول في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم ؟ قال « المرء مع من أحب ، متفق عليه ٠

وعن أنس أن رجلا قال يا رسول‌الله متى الساعة؟ قال: ويلك وما أعددت لها ؟ قال ماأعددت لها كثير عمل إلا أنى أحب الله ورسوله » قال : « أنت مع من أحببت » قال أنس فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بها متفق عليه ٠

وقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً » يأمر تعالى عبـاده المؤمنين بأخذ الحذر من عـدوهم ، وهذا يستلزم التأهب والاستعداد لاتقاء الشر ، وذلك بان يعرفوا حال العدو ومبلغ استعداده ، وإذا كان للمسلمين أعداء كثيرون فعليهم أن يعرفوا مابينهم من وفاق وخلاف ويعرفوا الوسائل لمقاومة الأعداء إذا هجموا ، ويعملوا بتلك الوسائل ، ويدخل في ذلك معرفة حال العـدو ومعرفة أرضه وما فيها من مكامن ومواقع استراتيجية ومخازن ذخائره ومعرفة نوع أسلحته واستعمالها ، ومعرفة طرق العـدو وما يتوقف على ذلك من معرفة الهندسة وجر الأثقال ٠

وعلى الجملة اتخاذ أهبة الحرب المستعملة المناسبة في كل عصر وحين من طيارات ودبابات وبوارج مدرعة ومدافع مضادة للطائرات ، ورشاشات وقنابل وبث العيون (قلم المرور والجواسيس) في جميع بلاد العدو ليكونوا على علم مما عسى أن يكيدوا للمسلمين من المكائد ٠

وكان النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة على علم بأرض عدوهم كما كان لهم عيون وجواسيس يأتونهم بالأخبار فقد أرسل عبد الله بن جحش سنة اثنتين من الهجرة في اثنى عشر مهاجراً بعد أن دفع إليه كتابا أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، فلما مضي اليومان نظر عبد الله في كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه « إذا نظرت إلى كتابى هذا فأمض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم » ٠

وعندما علم صلى الله عليه وسلم بعير أبى سفيان تحمل خيرات قريش كلها إلى الشام أمر نفراً من المسلمين أن يخرجوا إليها لعل الله أن يجعلها لهم . فلما اقتربوا من الصفراء بعثوا بسيس بن عمرو وعدى بن الزغباء إلى بدر يستطلعان أخبار العير وقد ذهب رجلان من المسلمين إلى بدر يستشفيان ويتطلعان الأخبار ، ولما علما أسرعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرانه بيوم قدوم العير ٠

وفي غزوة المريسيع عندما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن الحارث ابن أبي ضرار سيد بنى المصطلق خرج في قومه ليحارب المسلمين أرسل بريدة ابن الحصيب الأسلمي يتأكد له الأمر ، فلما لقى الحارث وعلم أخباره رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص عليه ماسمع فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ندب المسلمين للقاء بنى المصطلق ٠

وفي غزوة الخندق عندما علم الرسول صلى الله عليه وسلم أن قريظة نقضت عهدها وانضمت إلى حيي ابن أخطب عدو الله ورسوله أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبدالله بن رواحة وخوات بن جبير

ليعلموا أمر قريظة ويروا أن كانت على عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أم خرجت عليه ، فلما سأل هؤلاء كعب بن أسد وقال لهم : لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد انصرفوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبرونه ، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ·

والخلاصة : أنه لو فكر المسلمون في معنى هذه الآية ، وفي معنى آية الأنفال وهى قوله تعالى : وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة الآية ، لعرفوا كيف يكون لاستعداد لما يستطيعون من قوة ولكان الواجب عليهم أن يكونوا أول المفكرين في الأسلحة الحديثة الفتاكة كالذرة التى اخترعها أعداؤهم وباهوا بها الدول التى تطنطن اليوم بقوتها وسعتها في الإهلاك والدمار وخراب الأرض ويهددون بها الناس،وكثرة التفكير في الشيء وطول الإمعان والبحث والتنقيب وكثرة التجارب مع الصبر الطويل وعدم الكلل والضجر لابد أن تصل بإذن الله إلى نتيجة ·

والكفار الذين جعلهم الله يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا واصلوا البحث وأطالوا في التفكير حتى وصلوا إلى الاختراع لهذه الأسلحة الحديثة والمسلمون ليسوا أقل عقولا منهم بل هم أقوى وأصح ولكنهم ناموا فلم يستيقظوا وأعطوا صفحاً عن التفكير فيما جعله الله سبباً لمنع البلاء عنهم فخسروا ونهشتهم الذئاب من كل جانب وطمعت فيهم الأعداء وظهر مصداق وصفه صلى الله عليه وسلم في حديث ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن » قال قائل : يارسول الله ، وما الوهن ؟ قال « حب الدنيا وكراهية الموت » رواه أبو داود والبيهقى في دلائل النبوة·فتأمل ياأخي الحديث العظيم وفكر فيه بدقة وأنظر إلى ما فيه من معجزات باهرة تجدها مطابقة لما في مجتمعنا الحالي غاية الانطباق ·

وقوله « فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً » أى فانفروا جماعة إثر جماعة ، بأن تكونوا فصائل وفرقا ـ إذا كان الجيش كبيرا أو موقع العدو يستدعى ذلك ، أو تنفر الأمة كلها جميعا إذا اقتضت الحال ذلك، بحسب قوة العدو .

والخلاصة : إنكم إما أن تنفروا جماعات جماعات ، وإما أن ينفر جميع المؤمنين على الإطلاق بحسب حال العدو ، وامتثال هذا الأمر يقتضي أن تكون الأمة على استعداد دائم للجهاد بأن يتعلم كل فرد من أفراد الأمة فنون الحرب ويتمرن عليها وأن تقتنى السلاح الذى تحتاج إليه في النضال وتعلم كيفية استعماله في كل زمان بما يناسبه .

وقوله « وإن منكم لمن ليبطئن » : التبطئة التأخر عن الأمر أى ليتثاقلن ويتأخرن عن الجهاد ، اختلفوا فيمن نزلت على قولين، أحدهما أنها في المنافقين كعبد الله بن أبى وأصحابه ، كانوا يتثاقلون عن الجهاد، فإن لقيت السرية نكبة ، قال من أبطأ منهم : لقد أنعم الله علي ، وإن لقوا غنيمة ، قال : ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ، هذا قول ابن عباس وابن جريج .

والثانى أنها نزلت في المسلمين الذين قلت علومهم بأحكام الدين فثبطوا لقلة العلم لا لضعف الدين ، ذكره الماوردى وغيره .

فعلى الأول تكون إضافتهم إلى المؤمنين بقوله « منكم لموضع نطقهم بالإسلام وجريان أحكامه عليهم ، وعلى الثانى تكون الإضافة حقيقية.

وقال سيد قطب رحمه الله على هذه الآية : إنها الوصية الأولى للمحاربين أن يأخذوا حذرهم ، وأن لا يغفلوا لحظة فيؤخذوا خدعة أو بغتة ، وأن لا يخرجوا إلى الجهاد حين يخرجون أفراداً يسهل صيدهم ، أو فوضي يسهل أخذهم ، إنما يخرجون جماعات منظمة ، أو ينفرون جميعاً وقيادتهم واحدة ، ولا ينفر بعضهم ويتثاقل بعضهم ففى التثاقل تثبيط للعزائم وتوهين للخطة وإيقاع للاضطراب في النفوس

والصفوف ، وخذوا حذركم لا من العدو الخارجي وحده ، ولكن من هؤلاء المعوقين المبطئين المثبطين،سواء كانوا يبطئونأنفسهم أى يقعدون بها متثاقلين أو يبطئون غيرهم معهم ، وهى أشد وأنكى ٠

هؤلاء هم بكل بواعثهم وبكل طبيعتهم وبكل أعمالهم وأقوالهم ، هؤلاء هم مكشوفين للأعين كما لو كانوا قد وضعوا تحت مجهر يكشف النيات والسرائر ويكشف البواعث والخواطر هؤلاء كما كانوا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وكما يكونون في كل زمان وفي كل مكان ، هؤلاء هم الضعاف المنافقون الملتوون الذين لا يعرفون غاية أعلى من مصالحهم ولا أفقا أعلى من ذواتهم ، إنهم يبطئون ويتلكئون ولا يصارحون ليمسكوا العصي من الوسط كما يقولون ، فإن أصابت المجاهدين محنة وابتلوا ذلكالبلاء الذىيقدر الله أنيصادف المجاهدين في ثنايا الطريق فرح المتخلفون وحسبوا أن فرارهم من البلاء نعمة لا يخجلون أن ينسبوها إلى الله الذى يخالفون عن أمره ، ويقعدون عن نصرة شريعته ، وهى نعمة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها منقبله العذاب هى نعمة عند من لا يدركون لماذا خلقوا ولا يتطلعون إلى أفق أعلى من مواطىء الأقدام في هذه الأرض كالنمال ، هى نعمة عند من لا يحسون أن البلاء في طريق الجهاد لإعلاء كلمة الله فضل يختص الله به من يشاء من عباده ، اهـ بتصرف ٠

قوله « ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » أى ولئن من الله عليكم وكانت الأخرى فانتصر المجاهدون في سبيل الله الذين خرجوا مستعدين للبلاء ونالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة والرضوان ندم المتخلف أن لم يكن شريكا في معركة رابحة ، وقال ياليتنى كنت معهم فأفوز كما فازوا ، فهو قد نسي مايجب عليه من مديد المعونة إليكم وبذل ما يمكنه من نفس أو مال ولكن ضعف إيمانه أو جبنه منعه عن هذا إذ أن هذا التمنى بعد فوات الفرصة دليل على ضعف العقل ، وأنه ممن لا يهتم بأمر الآخرة ، وفي قوله « كأن لم تكن بينكم وبينه مودة » تقريع

وتوبيخ بالطف القول وأرق العبارة إذ أن قليلا من المودة كان ينبغي أن يمنع مثل هذا التمني وأن بعد هذا الإحجام نعمة ، فهذا يشعر بأن هذا لا يرى نعمة الله على المؤمنين نعمة وفضلا عليه ولا ما يصيبهم من جهد وبلاء كانه يصيبه هو مع أن القرآن يصرح بأن المؤمنين إخوة والحديث يمثلهم في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد وكالبنيان يشد بعضه بعضا ٠

وقوله : «فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة» يشرون مضارع شرى ويكون بمعنى باع واشترى من الأضداد فإن كان بمعنى يشترون فالمراد من الموصول المنافقون أمروا بترك النفاق وأمروا بالمجاهدة مع المؤمنين والفاء للتعقيب أى ينبغي بعد ماصدر منهم من التثبيط والنفاق تركه وتدارك مافات من الجهاد بعد وإن كان بمعنى يبيعون فالمراد منه المؤمنون الذين تركوا الدنيا واختاروا الآخرة أمروا بالثبات على القتال ، وعدم الإلتفات إلى تثبيط المثبطين المبطئين ، والفاء جواب شرط مقدر ، أى إن بطأ هؤلاء عن القتال فليقاتل المؤمنون المخلصون الذين يؤثرون الآجلة على العاجلة ويبذلون أنفسهم في طلبها ، فإن هؤلاء الذين يوجه إليهم الخطاب لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك ٠

وأما أولئك المتثاقلون المبطئون فلا يعبأ بهم خرجوا أو قعدوا ، ويكون نظير قوله تعالى « قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا» إلى آخر الآيات ، وقوله « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين » ٠ وقوله: « فان استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسامون » ٠

ثم وعد سبحانه وتعالى من قاتل في سبيله بالأجر العظيم سواء استشهد أو غلب ، واكتفي في الحالتين بالغاية ، لأن غاية المغلوب في القتال أن يقتل، وغاية الذى يقتل أن يغلب ويغنم ، فاشرف الحالتين ما بدىء به من ذكر الاستشهاد في سبيل الله ، ويليها أن يقتل أعداء الله

ودون ذلك الظفر بالغنيمة ، ودون ذلك أن يغزو فلا يصيب ولا يصاب.

ولفظ الجهاد في سبيل الله يشمل هذه الأحوال ، وفي تعقيب القتال بما ذكر تنبيه على أن المجاهد ينبغى أن يكون همه أحد الأمرين : إما إكرام نفسه بالقتل والشهادة ، أو إعزاز الدين وإعلاء كلمة الله تعالى بالنصر .

وقوله « فسوف نؤتيه أجراً عظيما » فسر الأجر العظيم ، فقيل إنه الجنة ، وقيل إنه مزيد ثواب من الله مثل كونهم « أحياء عند ربهم يرزقون قالو ا: لأن » الجنة موعود دخولها بالإيمان بالله ورسله ، والذى فسره بالجنة نظر إلى قوله تعالى : إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الآية ، قال الله تعالى عن ما أعد لأهل الجنة : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » ، وقال عز من قائل : « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلى ، وإيمان بى ، وتصديق برسلى فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى منزله الذى خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة » الحديث رواه مسلم .

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

مما يفهم من الآيات المتقدمة ٦٩ ـ ٧٤ :

الآية الأولى « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» إلى آخر الآيات .

(١) إثبات الألوهية . (٢) الحث على طاعة الله .

(٣) الحث على طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) بشارة لمن أطاع الله ورسوله .
(٥) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٦) الرد على من أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٧) محبة الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
(٨) أن منزلة من أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ... الخ عالية لا يدنو منها إلا من وفقه الله .
(٩) الحث على الصدق .
(١٠) الحث على طلب الشهادة في سبيل الله .
(١١) الحث على إصلاح الظاهر والباطن .
(١٢) ثناء الله على من اتصفوا بهذه الصفات .
(١٣) الأمر بأخذ الحذر .
(١٤) الأمر بالنهوض لقتال العدو .
(١٥) الرد على من قال إن الكفار لا يقاتلون إلا دفاعاً فقط .
(١٦) الحث على الجهاد .
(١٧) توبيخ وتقريع المبطئين .
(١٨) في الآية دلالة على ضعف إيمان هذا المبطىء وضعف عقله حيث رأى أن التقاعد عن الجهاد الذى فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هى التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التى بها يقوى الإيمان ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران. ويحصل له بها عظيم الثواب ورضي الكريم الوهاب .
(١٩) أن الله يبتلى عباده بالمصائب .
(٢٠) أن الفضل بيد الله .
(٢١) أن المفرط في طاعة الله يندم ويتحسر .
(٢٢) في الآيتين تنبيه على أنهم لا يعدون من المنح إلا الأغراض الدنيوية يفرحون بما ينالون منها ، ولا من المحن إلا مصائبها فيتألمون لما يصيبهم منها ، كقوله تعالى : « فأما الإنسان

إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن » الآية .

(٢٣) على المجاهدين أن لا يخرجوا إلا جماعات أو ينفرون جميعا ولا ينفى أن هناك أعمالا حربية تستدعى انتداب فرد أو فردين ، ولكن التحدث هنا عن النفرة للحرب ، والخروج العلنى للعمليات الحربية .

(٢٤) إثبات علم الله .

(٢٥) الرد على من أنكر صفة من صفات الله ، أو أولها بتاويل باطل

(٢٦) أن في هذه الآيات تبيين بعض الأحكام الحربية والسياسية .

(٢٧) الحث على تعرف حال العدو ، ومبلغ استعداده وقوته لأن معرفة ذلك مما به يحصل اتقاء العدو بإذن الله .

(٢٨) الحث على معرفة أرض العدو ، وبلاده وأسلحته ، لأن معرفة ذلك مما يحصل به اتقاء شره .

(٢٩) اتخاذ العيون والجواسيس ضد العدو لما سبق .

(٣٠) اتخاذ أهبة الحرب المستعملة فيها لما سبق .

(٣١) أن أخذ الحذر وفعل الأسباب لا ينافي التوكل على الله ، لأن الأمر بالحذر داخل في القدر ، فالأمر به لندفع عنا شر الأعداء لا لندفع ماقدره الله ، إذ القدر هو جريان الأمور بنظام تأتى فيه الأسباب بإذن الله على قدر المسببات التى أرادها الله ، والحذر من جملة الأسباب فهو عمل بمقتضي القدر لا بما يضاده .

(٣٢) إثبات صفة الكلام لله .

(٣٣) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

(٣٤) إثبات البعث .

(٣٥) إثبات الحساب والجزاء على الأعمال والجنة .

(٣٦) أن الجهاد الصحيح هو ما كان في سبيل الله .

(٣٧) الترغيب في القتال بعد الأمر به بذكر الثواب ٠

(٣٨) ذكر الشهادة والظفر للاشارة إلى أن حق المجاهد أن يوطن نفسه على أحدهما ولا يخطر بباله القسم الثالث وهو مجرد أخذ المـال ٠

(٣٩) جعل المبطىء من المؤمنين باعتبار الجنس أو النسب أو الانتهاء إلى الإيمان في الظاهر ٠

قيل : إن الآية نزلت في عبد الله بن أبى وأصحابه ، وكان ديدونه تثبيط الناس عن القتال وهو الذى ثبطهم يوم أحد ٠

(٤٠) أن الله يعلم أحوال العباد ومن يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحـة ومن يستحق العقاب الأليم بما اقترفه من الذنوب ٠

(٤١) أن من فوائد أسلوب قوله تعالى « ولئن أصابكم فضـل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيما » ، أنه يؤثر في نفس سامعه تأثيراً لا يدنو من مثله الطعن بهجر القول إذ يدعـو صاحبه إلى التأمل والتفكر في حقيقة حاله ومعاتبة نفسه ، والتوبة إلى ربه ، والرجوع إلى أوامر دينه ٠

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال تعـالى : (لا خـير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصـدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نوتيه أجراً عظيماً ٠ ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ٠ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً ٠ إن يدعون من دون إلا أناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ٠ ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ، ومن يتخـذ الشيطان وليا من دون الله فقـد خسر خسراناً مبيناً ٠ يعـد ويمينهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً أولئك ٠ مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً) ٠

بيـان سبب النزول :

قيل : إن من قوله تعالى « إنا أنزلنا عليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » الآية إلى قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيداً » سبب نزوله : أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر بن الحارث سرق درعاً من جار له يقال قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينتثر من خـرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر الدقيق ، ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له يزيد بن السمين ، فالتمست الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم : والله ماأخذها ، وماله بها من علم ، فقـال أصحاب الدرع : بلى والله ، قد أدلج علينا فأخذها ، وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق ، فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا

إلى منزل اليهودى فأخذوه ، فقال : دفعها إلى طعمة بن أبيرق ، وشهد له ناس من اليهود على ذلك ، فقالت بنو ظفروهم قوم طعمة انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم ، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل فأنزل الله « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » الآية .

المعنى : لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ، إلا مااستثنى وإذا لم يكن فيه خير فإما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح ، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه ، ثم استثنى الله تعالى من النجوى التى هى المسارة في الحديث ، أموراً ثلاثة . فقال « إلا من أمر بصدقة » أى من مال أو علم أو أى نفع كان ، وقيل المراد صدقة الفرض ، وقد ورد الأمر بالصدقة والحث عليها قال الله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول ربى لولا أخرتنى إلى أجل قريب فاصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » وقال « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له » .

وحث صلى الله عليه وسلم عليها فعن جابر قال : كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء قوم عراة مجتابى النمار أو العباء متقلدى السيوف ، عامتهم من مضر بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فأمر بلالا فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال «ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » إلى آخر الآية : « إن الله كان عليكم رقيبا » والآية في الحشر اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : « ولو بشق تمرة » قال فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كتفه تعجز عنها بل قد عجزت ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من الطعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلهل كأنه مذهبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سن في

الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » الحديث رواه مسلم ·

وعن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس ، يعدل بين اثنين صدقة ، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة ويميط الأذى عن الطريق » :

وعن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة وكل تحميدة صدقة وكل تهليلة صدقة وأمر بمعروف صدقة ونهى عن المنكر صدقة وفي بضع أحدكم صدقة قالوا : يا رسول الله ! أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : أريتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » رواه مسلم ·

وعن أبى موسي الأشعرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « على كل مسلم صدقة قال فإن لم يجد قال فليعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق قالوا فإن لم يستطع أو لم يفعل قال فيعين ذا الحاجة الملهوف قالوا فإن لم يفعل قال فيأمر بالخير قال فإن لم يفعل قال فيمسك عن الشر فإنه له صدقة » متفق عليه ·

وعن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تبسمك في وجه أخيك صدقة وأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وإرشادك الرجل في أرض الصلاة لك صدقة ونصرك الرديء البصر لك صدقة وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق صدقة وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة » رواه الترمذى وقال هذا حديث غريب ·

الثانى من الأمور الثلاثة قوله « أو أمر بمعروف » وهو الإحسان والطاعة وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنة ، وإذا أطلق الأمر

بالمعروف من غير أن يقرن بالنهى عن المنكر دخل فيه النهى عن المنكر ، ذلك لأن ترك المنهيات من المعروف ، وأيضا لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر ، وأما عند الاقتران فيفسر المعروف بفعل المأمورات،والمنكر بترك المنهى عنه ، وقال مقاتل : المعروف هنا الفرض ، والصحيح أنه لفظ عام يعم أعمال البر كلها ، فعن جابر قال قال رسول الله عليه وسلم « كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك » رواه أحمد والترمذى ·

وعن أبى ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » رواه مسلم ·

وقال صلى الله عليه وسلم «المعروف كاسمه وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « صنائع المعزوف تقى مصارع السوء » ·

وقال على كرم الله وجهه : لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر وقال الحطيئة :

من يفعل الخير لا يعـدم جوانزه   لا يذهب العرف بين الله والناس

قال الماوردى : فينبغى لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجـله حذار فواته ويبادر به خيفة عجزه ويتحرى الأخيار الكرام كما يتحرى لزرعه الرياض الطيبة وأما الأنذال اللئام فهم كالأرض السبخة تمرر المـاء وتفسد البذر ، وقديما قيل :

ولا تصطنع إلا الـكرام فإنهـم   يجازون بالنعماء من كان منعما
ومن يتخذ عند اللئام صـنيعة   يظـل على آثارهـا متندمـا

وليعلم أنه من فرص زمانه : وغنائم إمكانه ، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه ، فكم من واثق بالقدرة فاتت فأعقبت ندمـاً ومعـول على مكنة فأورثت خجلا ، كما قال الشاعر :

مازلت أسمع كم من واثق خجل
حتى ابتليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره وتحفظ من عواقب أمره لكانت مغانمه مدخورة ومغارمه مجبورة ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من فتح عليه باب من الخيرفلينتهزه فإنه لايدرى متى يغلق عنه» .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شيء ثمرة ، وثمرة المعروف السراح » أى التعجيل .

وقيل لأنو شروان : ما أعظم المصائب عندكم ؟ قال : أن تقدر على المعروف فلا تصطنعه حتى يفوت .

وقال عبد الحميد : من أخر الفرصة عن وقتها فليكن على ثقة من فوتها .

قال بعض الشعراء :

إذا هبت رياحك فاغتنمها   فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها   فما تدرى السكون متى يكون

وقال أبو الفتح البستى :

أحسن إذا كان إمكان ومقدرة   فلن يدوم على الإحسان إمكان

وقال العباس رضي الله عنه : لا يتم المعروف إلا بثلاث خصال : تعجيله وتصغيره وستره . فإذا عجلته هنأته ، وإذا صغرته عظمته ، وإذا سترته أتممته ، على أن ستره المعروف من أقوى أسباب ظهوره وأبلغ دواعى نشره لما جبلت عليه النفوس من إظهار ما خفى وإعلان ماكتم .

قال سهل بن هارون :

خِلٌ إذا جئتَه يوماً لِتسألَه   أعطاك ما ملكتْ كفاه واعتذرا
يُخفي صنائِعَه واللهُ يعلمها   إن الجميلَ إذا أخفيتَه ظهرا

ومن شرط المعروف مجانبة الامتنان به ، وترك الإعجاب بفعله

لما فيهما من إسقاط الشكر وإحباط الأجر ، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إياكم والامتنان بالمعروف فإنه يبطل الشكر ويمحق الأجر » ثم تلا صلى الله عليه وسلم آية البقرة « يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » . فالمان بالمال غير محمود ، كما أنه غير مأجور .

وفي ذلك يقول أبو الطيب :

إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى
فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً

وقوله تعالى : « أو إصلاح بين الناس » هذا عام في الدماء والأموال والأعراض والأديان ، وفي كل شيء يقع التداعى والاختلاف فيه ، وفي كل كلام يراد به وجه الله . وقال تعالى في الآية الأخرى : « والصلح خير » ، وقال تعالى : « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » ، وقال تعالى: « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » .

وفي الحديث الذى رواه ابن مردويه : حدثنا محمد بن زيد بن حنيش ، قال : دخلنا على سفيان الثورى نعوده ، فدخل علينا سعيد ابن حسان ، فقال له الثورى : الحديث الذى كنت حدثتنيه عن أم صالح ردده علي ، فقال : حدثتنى أم صالح عن صفية بنت شيبة عن أم حبيبة ، قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلام ابن آدم كله عليه لاَ لَهُ إلا ذكر الله عز وجل ، أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر » فقال سفيانُ : أو ما سمعت الله في كتابه يقول : « لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » فهو هذا بعينه ، أو ماسمعت الله يقول : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً » ، فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول في كتابه : « والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، فهو هذا بعينه .

وعن أبى الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أخبركم بافضل من درجة الصيام والقيام والصدقة والصلاة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : إصلاح ذات البين ، وإن فساد ذات البين هى الحالقة » .

وعن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأبى أيوب : « ألا أدلكم على تجارة ؟ قال : بلى يا رسول الله ، قال : تسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا ، وتقارب بينهم إذا تباعدوا » .

وقال الأوزاعى : ماخطوة أحب إلى الله عز وجل من خطوة في إصلاح ذات البين .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الإثنين صدقة » الحديث متفق عليه ، ومعنى تعدل بينهما تصلح بينهما بالعدل .

وعن أم كلثوم رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس،فينمى خيراً أو يقول خيراً » متفق عليه ، وفي رواية مسلم زيادة « قالت : ولم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : تعنى الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها » .

وعن أبى العباس سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغه أن بنى عمرو بن عوف كان بينهم شر ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلح بينهم في أناس معه، فحبس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحانت الصلاة ، الحديث متفق عليه . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث المتضمنة للأمر بالإصلاح بين الناس والحث عليه .

ويراعى المصلح في الصلح مايلي :

(١) أن يعدل بين المتخاصمين ٠
(٢) أن يكون الإخلاص باعث على الإصلاح ، وإن كان له مكانة فهو بإذن الله حرى بالنجاح ٠

والإصلاح بين الناس يثمر مايلى :

(١) إحلال الألفة مكان الفرقة بين المتنازعين ٠
(٢) استئصال داء النزاع قبل أن يستفحل فيصعب حله ٠
(٣) حقن الدماء التى تراق بين الطوائف المتنازعة ٠
(٤) توفير الأموال التى تنفق للوكلاء والمحامين بالحق وبالباطل ، وتوفير النفقات الأخرى ٠
(٥) تجنب إنكار الحقائق الذى تجر إليه الخصومات وترك شهادة الزور ٠
(٦) تجنب المشاجرات والاعتداء على الحقوق ، الذى قل ما يسلم منه متخاصمان ٠
(٧) تفرغ النفوس للمصالح بدل جدها وانهماكها في الكيد للخصوم ٠
(٨) رحمة الله لعباده المصلحين والمتصالحين ٠
(٩) صيانة الوقت عن ضياعه فيما يضر ، أو فيما لا نفع فيه ٠

وقوله تعالى : « ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما » لما ذكر جل وعلا أن الخير في المذكورات المتقدمة بين أن من فعل ذلك ابتغاء وجهه تعالى ومرضاته ، أى طلباً لرضاه ، لأن الإنسان إذا فعل ذلك خالصاً لوجه الله تعالى نفعه ، فصلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرفعان العمل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له وأقام الصلاة وآتى الزكاة فارقها والله عنه راض » ، قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» الآية ، وقال تعالى : « إلاابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضي » ، وقال تعالى : « إنما نطعمكم لوجه

الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً » ، وقال تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » ٠

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها،أو امرأة ينكحها فهجرته إلىماهاجر إليه» الحديث ، متفق عليه ٠

وقال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبى وقاص حينما عاده من وجع اشتد به : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة » الحديث ، متفق عليه ٠

ولما سئل صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أى ذلك في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو في سبيل الله » والحديث في الصحيح ٠

والحق أن المرء مادام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته لله ، فإن حركاته وسكناته ونوماته ويقظاته تحتسب خطوات إلى مرضاة الله ، وقد يعجز الإنسان عن عمل الخير الذى يميل إلى فعله لقلة ما في يده أو لضعف بدنه ، ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع الحريص على الإصلاح إلى مراتب المصلحين ، والراغب في الجهاد إلى مراتب المجاهدين ، فعن أبى موسي الأشعرى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحا مقيما » رواه البخارى ٠

وحدث في غزوة العسرة أن تقدم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجال يريدون أن يحملهم ليغزوا معه ، فلم يجد النبى صلى الله عليه وسلم مايحملهم عليه ، وهم سبعة نفر ، سموا البكائين : معقل بن يسار ، وصخر بن خنساء ، وعبد الله ابن كعب الأنصارى ، وعلية

ابن عميرة ، وثعلبة بن غنم ، وعبد الله بن مغفل المزني ، فعادوا وفي حلوقهم غصة لتخلفهم عن الميدان ، وفيهم نزل قوله عز وجل : « ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ماينفقون » .

ولهذا الإخلاص العميق الذى دل عليه الرغبة العظيمة في التضحية نوه صلى الله عليه وسلم بإيمانهم وإخلاصهم ، فقال للجيش السائر معه : « إن بالمدينة أقواماً ماقطعتم وادياً ولا سيرتم سيراً إلا وهم معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : نعم حبسهم العذر » .

وفي حديث جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد خلفتم بالمدينة رجالا ماقطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم في الأجر ، حبسهم المرض » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم » رواه مسلم .

وفي الحديث الآخر : « إذا كان يوم القيامة جيء بالدنيا فيميز منها ماكان لله ، وما كان لغير الله رمى به في نار جهنم » رواه البيهقى .

والخلاصة أن الفضل عند الله ، كما قال ابن القيم : ليس بظواهر الأعمال ، بل بما تقوم عليه من حقائق الإيمان ، فهى تتفاوت في الفضل بقدر مايكون في قلب صاحبها من الإخلاص واليقين والخوف والمحبة والتذلل والخضوع حتى أن الرجلين ليكونا في صلاة واحدة ، ركوعها واحد ، وسجودها واحد ، وأن بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، فإحداهما أداها صاحبها في خشوع وخشية وإخبات ووجل ، مجتهداً في إحضار قلبه لهذه العبادة ، وصلاة الآخر أداها صاحبها في سهو وغفلة عن صلاته ، إنما يؤدى حركات بالجوارح وأقوال باللسان ، وبين هاتين الدرجتين من المراتب ما لا حصر له ، فيكون بين ثواب هذه وتلك من الدرجات ما لا يحصيه إلا الله ، فهذا عطاء الله وفضله الذى قسمه

بين عباده ، قال تعالى : « ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » .

وقال ابن القيم رحمه الله :

سبحان قاسم فضله بين العبا ... د فذاك مولى الفضل والإحسان
فالفضل عند الله ليس بصورة الـ ... أعمال بل بحقائق الإيمان
وتفاضل الأعمال يتبع ما يقو ... م بقلب صاحبها من البرهان
حتى يكون العاملان كلاهما ... في رتبة تبدو لنا بعيان
هذا وبينهما كما بين السما ... والأرض في فضل وفي رجحان
ويكون بين ثواب ذا وثواب ذا ... رتب مضاعفة بلا حسبان
هذا عطاء الرب جل جلاله ... وبذاك تعرف حكمة الرحمن

وقوله : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً » .

قيل : نزلت في طعمة أيضاً ، وذلك أنه لما سرق وظهرت عليه السرقة خاف على نفسه القطع والفضيحة فهرب إلى مكة كافراً مرتداً عن الدين ، فأنزل الله عز وجل فيه « ومن يشاقق الرسول » (المشاقة: المعاداة والمحادة) أى ومن يشاقق الرسول فيسلك غير طريق الشريعة التى جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم . فصار في شق والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعد ماظهر له الحق وتبين له واتضح له ، وقامت عليه الحجة ، وقوله : « ويتبع غير سبيل المؤمنين » هذا ملازم للصفة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشرع ، وقد تكون لما أجمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيما لنبيهم .

وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك ، روى أن الشافعى رحمه الله سئل عن آية في كتاب الله تدل على أن الإجماع حجة ، فقرأ

القرآن ثلثمائة مرة حتى استخرج هذه الآية ، وهي قوله « ويتبع غير سبيل المؤمنين » وذلك لأن اتباع غير سبيل المؤمنين ، وهو مفارقة الجماعة حرام ، فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين ولزوم جماعتهم واجباً ، وذلك لأن الله تعالى ألحق الوعيد بمن يشاقق الرسول ويتبع غير سبيل المؤمنين ، فثبت بهذا أن إجماع الأمة حجة ، وقوله : « نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيراً أى نتركه وما اختاره لنفسه ونخذله ، فلا نوفقه للخير لكونه رأى الحق وعلمه وتركه ، فجزاؤه من الله عدلا أن يبقيه في ضلاله حائراً ، ويزداد ضلالا إلى ضلاله ، كما قال تعالى : « فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدى القوم الفاسقين » ، وقوله : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » ، وقوله «ونصله جهنم» أى نلزمه جهنم، وأصله من الصلى، وهو لزوم النار وقت الاستدفاء ، والمصير المرجع ، يعنى وبئس المرجع جهنم ، وساء كبئس للذم فاعلها مستتر وجوباً يعود على جهنم ، ومصيراً تمييز ، والمخصوص بالذم محذوف مقدر بقوله : هي ·

وقوله تعالى : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثما عظيما » ·

قال الكلبى : نزلت في وحشي بن حرب وأصحابه ، وذلك أنه لما قتل حمزة كان قد جعل له على نفسه أن يعتق فلم يوف له بذلك ، فلما قدم مكة ندم على صنيعه هو وأصحابه ، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا قد ندمنا على الذى صنعنا ، وأنه ليس يمنعنا عن الإسلام إلا أنا سمعناك تقول وأنت بمكة : « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر » الآيات ، وقد دعونا مع الله إلهاً آخر ، وقتلنا النفس التى حرم الله وزنينا ، فلولا هذه الآيات لاتبعناك، فنزلت « إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً » الآيتين ·

فبعث بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، فلما قرؤا كتبوا إليه : إن هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملا صالحاً ، فنزل « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » ·

فبعث إليهم ، فبعثوا إليه : إنانخاف أن لا نكون من أهل المشيئة، فنزلت « قل يا عبادى الذى أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً » ٠

فبعث إليهم ، فدخلوا في الإسلام ، ورجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقبل منهم ، ثم قال لوحشي : « أخبرنى كيف قتلت حمزة » فلما أخبره قال : « ويحك غيب وجهك عنى ، فلحق وحشي بالشام ، فكان بها إلى أن مات ٠

وقال أبو مجلز عن أبيه عن عمر رضي الله عنه : لما نزل قوله تعالى « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم » الآية ، قام رجل فقال : والشرك يا رسول الله ؟ فسكت ، ثم قام إليه مرتين أو ثلاثاً ، فنزلت « إن الله لا يغفر أن يشرك به » ٠

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : قال ابن عمر رضي الله عنهما : كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مات الرجل على كبيرة شهدنا أنه من أهل النار ، حتى نزلت هذه الآية « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فأمسكنا عن الشهادات ٠

وحكى عن علي أن أرجى آية في القرآن قوله تعالى « ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » ٠

وروى عن ابن عباس أن أرجى آية في القرآن قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزأ ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم » ٠

إذا فهمت ما سبق مما قيل إنه سبب نزول قوله تعالى « إن الله لا يغفرأن يشرك به،الآية٠فاعلم أن الشرك نوعان : أكبر ، وهو صرف نوع من أنواع العبادة لغير الله كاتخاذ ند يدعوه أو يرجوه أو يخافه أو

يحبه كمحبة الله ، أو يذبح له أو ينذر له ، قال ابن القيم رحمه الله :

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أياً كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الديان

والقسم الثانى شرك أصغر ، وحده بعضهم بأنه كل وسيلة وذريعة يتطرق بها إلى الأكبر ، وقيل : إنه كل ماورد بالنص تسميته شركا ، ولم يصل إلى حد الأكبر ، وذلك كقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، ولولا الله وأنت ، وكالحلف بغير الله ·

قال ابن القيم : وأما الشرك الأصغر فكثير ، منه الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله ، وقول الرجل : ماشاء الله وشئت ، وهذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالى إلا الله وأنت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا ، وقد يكون شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده ·

وعن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدواوين عند الله ثلاثة : ديوان لا يعبأ الله به شيئاً ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وديوان لا يغفره الله ، فأما الديوان الذى لا يغفره الله فالشرك بالله ، قال الله عز وجل : « إن الله لا يغفر أن يشرك به » الآية ، وقال : « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة » ، وأما الديوان الذى لا يعبأ الله به شيئاً فظلم العبد نفسه فيما بينه وبين الله من صوم يوم تركه أو صلاة ، فإن الله يغفر ذلك ، ويتجاوز إن شاء ، وأما الديوان الذى لا يترك الله منه شيئاً فظلم العباد بعضهم بعضاً ، القصاص لا محالة » تفرد به أحمد ·

وعن أنس رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الظلم ثلاثة : فظلم لا يغفره الله ، وظلم يغفره الله ، وظلم لا يترك الله منه شيئاً ، فأما الظلم الذى لا يغفره الله فالشرك ، وقال : إن الشرك

لظلم عظيم، وأما الظلم الذى يغفره الله فظلم العباد لأنفسهم فيما بينهم وبين ربهم ، وأما الظلم لذاى لا يتركه فظلم العباد بعضهم بعضاً حتى يدين لبعضهم من بعض » ٠

وقال معاوية : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل ذنب عسي الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافراً ، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً » ٠

وعن أبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله يقول : يا عبدى ماعبدتنى ورجوتنى فإنى غافر لك على ما كان منك ، ياعبدي إنك إن لقيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة » ٠

والخلاصة : أن مادون الشرك بالله من الصغائر والكبائر إنه تحت مشيئة الله ، إن شاء غفر لصاحبه ، وإن شاء عذبه ، وقد جعل الله للذنوب التى دون الشرك أسبابا كثيرة تمحوها ، منها الحسنات ، كما قال تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات » ٠

ثانيا : المصائب ، كما ورد عن أبى سعيد وأبى هريرة رضي الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما يصيب المؤمن من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » متفق عليه ٠

وفي حديث ابن مسعود : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفرالله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها» متفق عليه ٠

وفي حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مايزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ٠

ثالثا : عذاب القبر ٠

رابعا : عذاب يوم القيامة ٠

خامسا : دعاء المؤمنين بعضهم لبعض ٠

سادسا : شفاعة الشافعين يوم القيامة ٠ ورحمة الله التى أحق بها أهل التوحيد والإيمان ، وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة وأغلق أبواب الرحمة ، فلا تنفعه الطاعات إلا مع التوحيد ، ولا تفيده المصائب شيئاً ٠

وقوله : « فقد ضل ضلالا بعيداً » أى : ومن يشرك بالله شيئاً فقد ضل عن القصد وبعد عن سبيل الرشد ضلالا بعيداً في الغواية ، لأنه ضلال يفسد العقل ، ويكدر صفاء الروح ، فالشرك أعظم أنواع الضلالة وأبعدها عن الصواب والاستقامة والذهاب عن الجنة مراتب أبعدها الشرك بالله ، فالشرك أقبح الرذائل كما أن التوحيد أحسن الحسنات ، والسيئات تتفاوت كالسبع الموبقات وكأكل الحرام وشرب الخمر والنميمة والغيبة والكبر ، لكن أسوأ الكل وأقبحه الشرك بالله ، ولذلك لا يغفر كما هو مبين ، وإنما جعل الجزاء على ما قيل هنا ، فقد ضل ضلالا بعيداً ، وفيما تقدم فقد افترى إثما عظيما لما أن تلك كانت في أهل الكتاب وهم مطلعون من كتبهم على مالا يشكون في صحته من الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووجوب اتباع شريعته ، وما يدعو إليه من الإيمان بالله تعالى ، ومع ذلك أشركوا وكفروا ، فصار ذلك افتراء واختلافاً وجراءة عظيمة على الله تعالى ٠

وهذه الآية كانت في أناس لم يعلموا كتاباً ، ولا عرفوا من قبل وحياً ، ولم يأتهم سوى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ، فأشركوا بالله عز وجل ، وكفروا وضلوا مع وضوح الحجة وسطوع البرهان ، فكان ضلالهم بعيداً ، ولذلك جاء بعد تلك « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم » وقوله : « أنظر كيف يفترون على الله الكذب » وجاء بعد هذه قوله تعالى : « إن يدعون من دونه إلا أناثاً » ٠

وقوله : « إن يدعون من دونه إلا أناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً»
وفي معنى الإناث أربعة أقوال :

أحدها : أن الإناث المراد بها الأموات ، قاله ابن عباس والحسن في رواية ، وقتادة ، قال الحسن : كل شيء لا روح فيه كالحجر والخشبة فهو إناث ، قال الزجاج : والموتى كلها يخبر عنها كما يخبر عن المؤنث تقول من ذلك الأحجار تعجبني والدراهم تنفعني ٠

والثاني : أن الإناث الأوثان ، وهو قول عائشة ومجاهد ٠

والثالث : أن الإناث المراد بها اللات والعزى ومناة ، كلهن مؤنث وهذا قول أبي مالك وابن زيد والسدى ، وروى أبو رجاء عن الحسن قال : لم يكن حي من أحياء العرب إلا ولهم صنم يسمونه أنثى بني فلان ، فنزلت هذه الآية ، قال الزجاج : والمعنى مايدعون إلا مايسمونه باسم الإناث ٠

والرابع : الملائكة ، كانوا يزعمون أنها بنات الله ، قاله الضحاك ٠

وقوله : « وإن يدعون إلا شيطانا مريداً » المراد بدعائهم الشيطان عبادتهم له ونظيره قوله تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان » ، وقول الخليل : يا أبت لاتعبد الشيطان ، وقوله : «بل كانوا يعبدون الجن » ٠

وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا على عدي بن حاتم الطائي قول الله تعالى « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » فقال : يا رسول الله لسنا نعبدهم ، قال : « أليس يحلون لكم ماحرمه الله فتحلونه ويحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ » قال : بلى ٠ قال : النبي صلى الله عليه وسلم : فتلك عبادتهم ، فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله وبها اتخذوهم أربابا فمن اتبع تشريع الشيطان مؤثرا له على ماجاءت به الرسل فهو كافر بالله عابد للشيطان متخذ الشيطان ربا ، وإن سمى اتباعه للشيطان بما شاء من الأسماء ، لأن

الحقائق لا تتغير بإطلاق الألفاظ عليها والمريد والمارد والمتمرد العاتي الخارج عن الطاعة ، وأصل مادة (م ر د) للملامسة والتجرد ومنه صرح ممرد وشجرة مرداء للتي تناثر ورقها ووصف الشيطان بذلك : إما لتجرده للشر أو لشبيهه بالأملس الذي لا يعلق به شيء وقيل لظهور شره كظهور ذقن الأمرد وظهور عيدان الشجرة المرداء ٠

وقوله : « لعنه الله » أي طرده وأبعده من رحمته وأخرجه من جواره : قال : « لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » يخبر تعالى عما قاله إبليس لعنه الله مقسما على ذلك ليتخذن نصيباً معيناً معلوماً من عباد الله تحت غوايته ، وفي جانب إضلاله حتى يخرجهم من عبادة الله إلى الكفر ٠

قال قتادة : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد في الجنة ، ويعضده قوله تعالى لآدم يوم القيامة : « يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادى بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار ، فيقول يارب وما بعث النار ؟ فيقول الله تعالى : أخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فعند ذلك تشيب الأطفال من شدة الهول » أخرجه مسلم ٠ فنصيب الشيطان هو بعث النار وهم الذين يتبعون خطواته ويقبلون وساوسه ٠

وقوله : «ولأضلنهم » أي ولأصرفنهم عن طريق الهداية إلى طريق الغواية ولأمنينهم أي الأماني الباطلة وأقول لهم ليس وراءكم بعث ولا نشر ولا جنة ولا نار ولا ثواب ولا عقاب فافعلوا ماشئتم ، وقيل أمنيهم بطول البقاء في الدنيا فيسرعون العمل ، وقيل : أمنيهم بالأهواء الباطلة الداعية إلى المعصية وأزين لهم شهوات الدنيا وزهرتها وأدعو كلا منهم إلى ما يميل إليه طبعه فأصده بذلك عن الطاعة ، وقيل أمنيهم أن ينالوا ماناله المهتدون وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد الإضلال حتى زين لهم ما فيه من الضلال وهذا زيادة شر إلى شرهم حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة وحسبوا أنها موجبة للجنة قال الله

تعالى عن اليهود : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم » . وقال « وكذلك زينا لكل أمة عملهم » . وقال « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً » . وقال « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .

وقال تعالى عن المنافقين : « ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور » .

وقوله : « ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام » التبتيك في اللغة التقطيع ، ومنه قول زهير :

حتى إذا ما هوت كف الوليد لها   طارت وفي كفه من ريشها بتك

والمراد بتبتيك آذان الأنعام شق آذانها ، وكانت الجاهلية إذا ولدت الناقة خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً شقوا أذن الناقة وامتنعوا من الانتفاع بها ، ولم تطرد عن ماء ولا مرعى وإذ لقيها المعيي لم يركبها .

وقال قتادة والسدى وغيرهما : تبتيكما تشقيقها وجعلها سمة ، وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة ، فنبه ببعض ذلك على جميعه ، وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله ، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة ، ما هو من أكبر الإضلال .

وقوله : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » اختلف العلماء في هذا التغيير إلى ماذا يرجع على أقوال :

أحدهما : أن تغيير الخلق بالخصي . رواه عكرمة عن ابن عباس ، وكذا روي عن ابن عمر ، وأنس ، وسعيد بن المسيب ، وأبى عياض ، وقتادة ، وأبى صالح ، والثورى .

الثاني : أنه التغيير بالوشم ، وهو قول ابن مسعود والحسن في رواية ، وفي صحيح مسلم النهى عن الوشم ، وفي لفظ : لعن الله من فعل ذلك ، وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : لعن الله الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ثم قال : ألا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو في كتاب الله عز وجل ، يعنى قوله : « وما أتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا » .

الواشمة هي التي تشم ، والمستوشمة هي التي تطلب الوشم ، والوشم أن يغرز في العضو إبرة أو نحوها حتى يسيل الدم ثم يحشي بكحل أو نوؤر فيخضر ، والمتنمصة والنامصة : المتنمصة التي تأمر من يفعل لها ذلك والنامصة التي تأخذ من شعر حاجب غيرها وترققه ليصير حسنا وقيل التي تاخذ الشعر من وجهها بنتف أو نحوه .

قلت : وفي زمننا هذا يستعملونه لإزالته طريقة أخرى وهى طبخ سكر وضم أجزاء إليه ووضعه على الخد ونحوه فيقتلع معه الشعر :

والمتفلجة التي تصنع الفلج بأسنانها إذا كانت متلاصقة ، وذلك بأن تحك مابينهما حتى يتسع ما بين الأسنان .

الثالث : إن المراد دين الله عز وجل ، قاله ابن عباس في رواية عنه ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعى والحسن وقتادة والحكم والسدى والضحاك وعطاء الخرسانى في قوله تعالى : « ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » وهذا كقوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التي فطر الناس لا تبديل لخلق الله » على قول من جعل ذلك أمراً أي لاتبدلوا فطرة الله ودعوا الناس على فطرتهم ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال :: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود ولد على الفطرة فابوه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة ، جمعا هل تجدون فيها من جدعاء » .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى

الله عليه وسلم : قال الله عز وجل : « إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » ٠

وقال بعض المفسرين : فليغيرن خلق الله عن نهجه صورة أو صفة ويندرج فيه ما فعل من فقء عين فحل الإبل إذا طال مكثه حتى بلغ نتاج نتاجه ويقال له الحامى ويندرج فيه خصاء العبيد والوشم والوشر واللواطة والسحاق ونحو ذلك ، وعبادة الشمس والقمر والنار والحجارة مثلا ، وتغيير فطرة الله التى هى الإسلام واستعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على المغير كما لا يوجب لها من الله سبحانه زلفى٠

وقال ابن زيد هو التخنث وهو أن يتشبه الرجل بالنساء في حركاتهن وكلامهن ولباسهن ونحو ذلك ٠

قلت : ومما أرى أنه يندرج في ذلك تغيير الشيب بالسواد والوجه بحلق اللحية وكى الوجه وحلق رأس المرأة أو قصه ومن ذلك حلق الأبيض ووضع رأس صناعى أسود أو أحمر بدله أو نحو ذلك ، ومن ذلك نفى الأنساب واستلحاقها ٠

وقوله : « ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا » المعنى أن من اتخذ الشيطان وليا فيتبعه ويطيعه ويترك حظه من الله لحظ الشيطان فقد خسر الدنيا والآخرة وتلك خسارة لا جبر لها ولا استدراك وأى خسارة أعظم وأبين ممن خسر دينه ودنياه وأوبقته معاصيه وخطاياه فحصل له الشقاء الأبدى وفاته النعيم السرمدى ٠

وقوله : « من دون الله » قيد لازم لأنه لا يمكن أن يتخذ الشيطان ولياً إلا إذا لم يتخذ الله ولياً ٠ ولا يمكن أن يتخذ الشيطان ويتخذ الله وليا ، لأنهما طريقان متباينان لا يجتمعان هدى وضلال وهذه الجملة الشرطية محذرة من اتباع الشيطان ٠

أورد المفسرون على هذه الآية أسئلة وأجابوا عنها :

الأول : قال إبليس لعنه الله : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا ،

والنصيب المفروض هو الشيء المقدر القليل · وقال في موضع آخر : لأحتنكن ذريته إلا قليلا وقال : لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين وهذا استثناء القليل من الكثير فكيف وجه الجمع فالجواب أن الكفار الذين هم حزب الشيطان وإن كانوا أكثر من المسلمين في العدد لكنهم أقل من المؤمنين في الفضل والشرف والسؤود والغلبة في الدنيا وعلو الدرجة في الآخرة وانشدوا في هذا المعنى :

« وهم الأقل إذا تعد عشيرة والأكثرون إذا يعد السؤدد »

وقيل إن إبليس لما لم ينل من آدم ما أراد ، ورأى الجنة والنار وعلم أن لهذه أهلا ولهذه أهلا،قال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا، يعنى الذين هم أهل النار ·

السؤال الثانى : من أين لإبليس العلم بالعواقب حتى يقول لأضلنهم ولأمنينهم ولأغوينهم ولآمرنهم · وقال : ولا تجد أكثرهم شاكرين · وقال : لأحتنكن ذريته إلا قليلا ، فالجواب من ثلاثة أوجه :

أحدها : أن إبليس ظن أن تقع منهم هذه الأمور التى يريدها منهم فحصل له ماظنه ، ويدل لذلك قوله تعالى : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين » ·

الوجه الثانى : المعنى لأجتهدن ولأحرصن في ذلك ، وليس عنده شيء من علم الغيب ، لا هو ولا غيره ، كما قال تعالى : « وما يعلم الغيب إلا الله » وقال « قل لا يعلم الغيب إلا الله » ·

الوجه الثالث : أنه من الجائز أن يكون قد علم ذلك من الملائكة ، بخبر من الله تعالى ، أن أكثر الخلائق لا يؤمنون · والله أعلم ·

وقوله : « يعدهم ويمنيهم » المعنى أن الشيطان ، لعنه الله ، يعد حزبه المواعيد الباطلة ، والزخارف الكاذبة ، وأنه لا ثواب ولا عقاب ، ومن مواعيده لأوليائه الفقر إذا هم أنفقوا شيئا من أموالهم في سبيل

الله ويوسوس لهم أن أموالهم تنفد أو تقل ويصبحوا فقراء أذلاء ، كما أخبر تعالى بقوله : « الشيطان يعدكم الفقر » الآية · ويعدهم الغنى والثروة حين الإغراء بالرباء والقمار · ويعد من يغريه بالتعصب لرأيه وإيذاء مخالفيه فيه من أهل دينه للجاه والشهرة وبعد الصيت ·

ومن مواعيده وأمانيه مايوقع في قلب الإنسان من طول العمر والعافية ، ونيل مايريد من الدنيا ومن نعيمها ولذاتها من الجاه والمال ، وقضاء شهوات النفس ، وكل ذلك غرور ، فيجب على العاقل اللبيب أن لا يلتفت إلى شيء منها فربما لم يطل عمره ولم يحصل له ماأرادمنها، ولئن طال عمره وحصل له مقصوده فالموت ينغص عليه ما هو فيه ، ويدخل في وعد الشيطان وتمنيته مايكون من أوليائه من الإنس ، وهم قرناء السوء الذين يزينون للناس الضلال والمعاصي ، ويمدونهم في الطغيان ، وينشرون مذاهبهم الفاسدة وآراءهم الضالة التى يبتغون بها الرفعة والجاه والمال ، ويخوف أوليائه عند مرضاة الله بكل مايمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير ، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل ·

وقوله : « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » : الغرور لغة : الخداع ، والباطل ، وإظهار النفع فيما فيه الضرر ، قال ابن عرفة : الغرور مارأيت له ظاهراً تحبه وله باطن مكروه ، وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم هم الفائزون في الدنيا والآخرة، كما غر صاحب الجنتين ووسوس له ، فأغتر لما رأى فيها من الزرع والثمار والأشجار والأنهار ، وتوهم أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ، وقال : « ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رجعت إلى ربى لأجدن خيراً منها منقلباً » وأخبر تعالى عن عمله مع آدم وحواء فقال:«وقال مانهاكماربكما عنهذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أوتكونا من الخالدين ،وقاسمها إنى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور » · وفي سورة الحشر ذكر مثل الشيطان ، وأنه يسول للإنسان الكفر ، وإذا دخل فيه تبرأ منه وقال : « إنى أخاف الله رب العالمين » ·

ولما أجمعت قريش المسير إلى بدر ذكروا ما بينهم وبين كنانة من الحرب تبدى لهم إبليس لعنه الله في صورة سراقة بن مالك المدلجى، وكان من أشراف كنانة فغرهم وخدعهم، « وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم من أن تأتيكم كنانة، فخرجوا سراعا، فلما ترآءت الفئتان نكص على عقبيه، وقال: إنى أرى ما لا ترون » ٠

ويوم القيامة إذا استقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار يقوم إبليس رئيس الشياطين خطيبا في محفل الأشقياء من الثقلين ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغبنا إلى غبنهم وحسرة إلى حسرتهم، فيقول: « إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم » الآية ٠ كما قال تعالى: « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » فهذا ديدنه الخداع والمكر والغرور والكذب ٠ وقد حذرنا الله تعالى عنه وأخبرنا أنه غرور فقال: « يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ٠

وقوله: « أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا »: الإشارة إلى أولياء الشيطان، والمأوى: المرجع والمستقر، والمحيص: المفر والمعدل والمهرب والمخلص والمنجا ٠

والمعنى: أنه سبحانه بعد ما بين حال أولياء الشيطان، وما يعدهم به الشيطان ذكر عاقبتهم أى أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته أو بإغواء دعاة الباطل من أوليائه، مرجعهم ومستقرهم جهنم لا يجدون عنها مهربا ولا محيدا، إذ هم ينجذبون إليها ويتهافتون عليها تهافت الفراش على النار ٠

مما يفهم من الآية ١١٣:

(١) ذم الكثير من التجوى

(٢) مدح النجوى إذا كانت لفعل خير ٠

(٣) مدح النجوى للحث على الصدقة ·
(٤) مدحها إذا كانت للأمر بالمعروف ·
(٥) مدحها إذا كانت للإصلاح بين الناس ·
(٦) الحث على الصدقة ·
(٧) الحث على الإصلاح ·
(٨) الحث على الأمر بالمعروف ·
(٩) أن الله لا ينهى إلا عن الذى يعود على الخلق بالضرر ·
(١٠) إن الله لا يأمر إلا بما فيه الصلاح ·
(١١) إثبات صفة الكلام لله ·
(١٢) الرد على من أنكرها ·
(١٣) لطف الله بخلقه حيث حثهم وبين لهم ما فيه صلاحهم ·
(١٤) ينبغى ترك فضول الكلام ·
(١٥) النهى عما يورث العداوة والشقاق بين المسلمين ·
(١٦) الحث على صيانة الوقت ·
(١٧) الحث على حفظ المـال إلى فيما فيه النفع ، وهو ماينشأ عنه الإصلاح الذى حث الله عليه ·
(١٨) الحث على إخلاص العمل لله ·
(١٩) إثبات صفة الرضي لله ·
(٢٠) إن من لم يقصد بإصلاحه وجه الله ليس له أجر ·
(٢١) إن من لم يقصد بصدقته وجه الله فليس له أجر ·
(٢٢) إن من لم يقصد بأمره بالمعروف وجه الله فليس له أجر ·
(٢٣) إن صلاح النية وإخلاص العمل لله يرفعان العمل ·
(٢٤) إن فضل الأعمال ليس بظـواهرها بل بما تقـوم عليه من حقائق الإيمان ·
(٢٥) إن الله أجرى العادة في الناس على محبة إظهارالخير والتحدث به في الملأ ·
(٢٦) إن الغالب أنّ الشر والإثم هو الذى يذكر في السر والنجوى ·
(٢٧) النهى عن الرياء والسمعة ·
(٢٨) إثبات الألوهية ·
(٢٩) إن الله هو المعطى ·

(٣٠) دليل على جود الله وكرمه لإعطائه الأجر العظيم على العمل اليسير ·
(٣١) الحث على الإحسان إلى خلق الله ·
(٣٢) الرد على الجبرية ·
(٣٣) إثبات البعث والجزاء على الأعمال ·

ما يفهم من الآية الثانية ، وهي قوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى »

(١) تحريم مشاقة الرسول صلى الله عليه وسلم ·
(٢) الإنكار على المشاق لله ولرسوله ·
(٣) إن من فعل ذلك يتركه الله وما اختاره لنفسه ·
(٤) إن الله يلزمه جهنم ·
(٥) إثبات الألوهية ·
(٦) إن جهنم بئس المرجع ·
(٧) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·
(٨) الرد على من أنكر رسالته ·
(٩) إثبات صفة الكلام لله ·
(١٠) الرد على من أنكرها ، أو قال : إن القرآن كلام محمد ·
(١١) وجوب اتباع سبيل المؤمنين ·
(١٢) التحذير من اتباع غير سبيلهم ·
(١٣) إثبات جهنم وأنها بئس المصير ·
(١٤) إثبات البعث والجزاء على الأعمال ·
(١٥) إن الله لم يهمل خلقه ولم يتركهم سدى ·
(١٧) إن إجماع المؤمنين حجة ·
(١٨) الحث على لزوم جماعة المسلمين ·
(١٩) إثبات الأفعال الاختيارية لله جل وعلا ·
(٢٠) أن الوعيد على من فعل ذلك بعد ماظهر له الحق وتبين له ، وقامت عليه الحجة ·

(٢١) إثبات عدل الله وحكمته .

مايفهم من الآيات التى تلى آية ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ :

(١) إثبات الألوهية .   (٢) إثبات صفة المغفرة .

(٣) إثبات أن الشرك لا يغفر لصاحبه .

(٤) عظم ذنب الشرك وأنه أثقل الذنوب .

(٥) إن ماعدا الشرك فهو تحت المشيئة .

(٦) إن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة وأغلق دونه أبواب الرحمة .

(٧) إن الشرك لا تفيد معه الطاعات ولا المصائب .

(٨) إثبات مشيئة الله .

(٩) إن الجزاء في الآخرة يكون تابعاً لما تكون عليه النفس في الدنيا من سلامة العقيدة ، ومقدار درجة الفضيلة التى يلازمها فعل الخيرات بإذن الله ، أو فساد الفطرة وخطأ العقيدة ، والتدنس بالرذيلة التى يلازمها فعل السيئات .

(١٠) إن الناس متفاوتون فيما بين ذلك في الدرجات والدركات ، فأخس الدركات الشرك ، وأعلا الدرجات التوحيد ، ولكل منهم صفات تناسبه .

(١١) إن المشركين مايدعون من دون الله إلا إناثاً .

(١٢) أن طاعة الانسان لإبليس عبادة له .

(١٣) إن إبليس لعنه الله متمرد عاتي ، خارج عن طاعة الله .

(١٤) دليل على سخافة عقول عابدى الإناث والشياطين .

(١٥) إن إبليس مطرود عن رحمة أرحم الراحمين .

(١٦) إثبات صفة اللعن .

(١٧) دليل على خسة إبليس ونذالته حيث يتجاسر في هذا الكلام مع رب العالمين .

(١٨) دليل على أن إبليس جاد ومجتهد في السعى في إغواء بني آدم .

(١٩) لطف الله ، ورحمته،ورأفته بخلقه حيث وضح لهم ماأضمره إبليس لهم من الشر والعداوة ·

(٢٠) في الآية ما يوجب الحذر والتحرز من مداخل إبليس لئلا يوقع في الهلاك ·

(٢١) في الآية ما يوجب على العبد محبة الله الذى دعاه إلى كل خير وحذره من كل شر ، وقال عز من قائل « أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » ·

(٢٢) أقسم إبليس لعنه الله أن يستهوى فريقاً معيناً من عباد الله

(٢٣) إنه لم يقتصر على إضلالهم فقط ، بل يمنيهم الأماني الباطلة ، ويزين لهم الضلال ·

(٢٤) إن إبليس لا يألو جهداً في الأمر بتقطيع آذان الأنعام ·

(٢٥) إن إبليس ساع في أمر بنى آدم بتغيير خلق الله ·

(٢٦) أنه لا أحد أخسر ممن اتخذ الشيطان وليا من دون الله ·

(٢٧) إن ولاية الرحمن لا تجتمع وولاية إبليس ·

(٢٨) إثبات صفة الخلق لله ·

(٢٩) إثبات الألوهية ·

(٣٠) إن تغيير خلق الله طاعة للشيطان ، فلذلك يحرم ·

(٣١) إن إبليس يعد أولياءه المواعيد الباطلة من مواعيد الفقر لمن يريد الإنفاق في سبيل الله ، والموت لمن يريد الجهاد في سبيل الله ·

(٣٢) إن مواعيد إبليس مثل السراب ، يعدهم الباطل ويمنيهم بالوعد الكاذب ·

(٣٣) إن مرجع الكفار جهنم ·

(٣٤) إنهم ليس لهم مفر ولا مهرب عنها ·

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ·

بسم الله الرحمن الرحيم

الوضــوء والتيمم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا إذا أقمتم إلى الصلاة فأغسلوا وجوهـكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين وإن كنتم جنباً فاطهروا وإن كنتم مرضي أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامســتم النساء فلم تجـدوا مـاءا فتيمموا صـعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه مايريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) .

تقدم الأمر بالوفاء بالعهـود ، ومن جملتها إقامة الصـلاة ، ومن شرائطها الطهارة تنقسم قسمين : طهارة معنوية ، وهي الطهارة من الشرك والمعاصي ، وطهـارة حسية ، وهي المشـار إليها هنـا ، وهي تنقسم إلى قسمين : طهارة كبرى ، وهي ماتكون عن الحدث الأكبر ، وهو ما أوجب غسلا كخروج المنيدفقاً بلذة من غير نائم،ومن موجباته التقاء الختائين ، ومن موجباته إسلام الكافر ، ومن موجباته خـروج دم الحيض ، ومن موجباته خروج دم النفاس ، ومن موجباته مـوت غير شهيد معركة .

وأما الطهارة إلصغرى فهي ماتكون عن الحدث الأصغر ، وهـو ما أوجب وضوءاً كالخارج من السبيلين ، وأكل لحم الجزور ، والردة عن الإسلام ، ومس المرأة بشهوة ، أو تمسه بها ، ومس الفرج باليد من دون حائل ، وزوال العقل .

قوله تعالى : « إذا قمتم » قيل : المعنى إذا أردتم القيام إلىالصلاة كقوله : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله » النحل : ٩٨ ، قيل : وهذا كما تقول : إذا آخيت فآخ أهل الدين والحسب ، وإذا تزوجت فتزوج بذات الدين ، وإذا أتجرت فاتجـر بالبز ، قالوا : ويجـوز أن يكون

الكلام مقدماً ومؤخراً ، تقـديره : إذا غسلتم وجوهـكم واستوفيتم الطهور فقوموا إلى الصلاة . والقول الأول هو المختار في معنى الآية ، وجمهور المسلمين على أن الطهارة لا تجب على من قام إلى الصلاة إلا إذا كان محدثاً .

والمعنى إذا قمتم إلى الصلاة محدثين فاغسلوا وجوهكم ... الخ، وهذا الحكم مستفاد من السنة العملية في الصدر الأول ، فقد روى أحمد ومسلم وأصحاب السنن من حديث بريدة قال : « وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه ، وصلى الصلوات بوضوء واحد ، فقال له عمـر : يا رسول الله ، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله ، فقال : عمداً فعلته يا عمر » .

وروى البخارى وأصحاب السنن عن عمرو بن عامر الأنصـارى سمعت أنس ابن مالك يقول : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ عند كل صلاة ، قال : قلت : فأنتم كيف تصنعون ؟ قال : كنا نصلى الصلوات بوضوء واحد مالم نحدث .

وروى أحمد والشيخان من حديث أبى هريرة : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ » .

وفروض الوضوء المذكورة في هذه الآية أربعة : الأول غسل الوجه وهو قوله تعالى : « فاغسلوا وجوهكم » فهذا أمر منه سبحانه وتعالى بغسل الوجه ومن الوجه المضمضة والاستنشاق ، والغسل إمرار الماء على المحل حتى يسيل ، والمسح أن يبل المحل بالمـاء من غير أن يسيل ، وحد الوجه من منابت شعر الرأس المعتاد غالباً إلى النازل من اللحيين والذقن طولا ، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً ، ويجب غسل اللحية وما خرج عن حد الوجه منها من الشعر المسترسل لأن اللحية تشارك الوجه في معنى التوجه والمواجهة ، ويسن تخليل الساتر للبشرة منها ، لمـا ورد عن عمرو بن عبسة قال : قلت : يا رسول الله ، حدثنى عن الوضوء ، قال : « ما منكم من رجل يقرب وضوءه فيتمضمض ويستنشق فيستنثر إلا

خرت خطايا فيه وخياشيمه مع المـاء ، ثم إذا غسل وجهه كما أمر الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع المـاء ، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع المـاء ، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع المـاء ، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء » أخرجه مسلم ·

عن عثمان رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخلل لحيته »رواه ابن ماجه ، والترمذى وصححه ·

وعن أنس « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا توضأ أخذ كفا من ماء فأدخله تحت حنكه فخلل به لحيته وقال : هكذا أمرنى ربى عز وجل » رواه أبو داود ·

ويجب غسل ما في الوجه من شـعر إن كان خفيفاً والبشرة التى تحته لأنه خفيف تُرى من تحته ، وإن كان كثيفا فيجب غسل ظاهره ، ويسن تخليله لأن كلا من ظاهر الكثيف ، وما تحت الخفيف تحصـل به المواجهة ، فوجب غسله · وفي الحدث الأكبر يجب إيصال المـاء إلى الجلد بتبليغ ·

واستدل الشافعى رحمه الله على وجوب النية عند غسل الوجه بهذه الآية ، وحجته أن الوضوء مأمور به ، وكل مأمور به يجب أن يكون منويا ·

ولمـا روى في الصحيحين من حديث عمر بن الخطاب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء مانوى »·

والوضوء من الأعمـال فيجب أن يكون منوياً ، وإنما قالوا : إن الوضوء مأمور به ، وإنه من أعمال الدين ، لقوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » والإخلاص عبارة عن النية الخالصة ، ومتى كانت النية خالصة معتبرة كان أصل النية في جميع الأعمال التى يتقرب بها إلى الله تعالى معتبراً ، ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله على وضوئه ، لمـا ورد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه

وسلم قال : « لا صلاة لمن لا وضوء له ، ولا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه » رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه . ويسمى خارج محل الحاجة ثم يدخل ويتوضأ ومثله في الغسل .

ولأحمد وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد وأبى سعيد مثله .

ويستحب أن يغسل يديه قبل إدخالهما في الإناء ، ويتأكد عند القيام من الليل ، لما ورد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا استيقظ أحدكم من منامه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات فإنه لا يدرى أين باتت يده » رواه الجماعة ، إلا أن البخارى لم يذكر العدد .

وفي لفظ الترمذى وابن ماجه : « إذا استيقظ أحدكم من الليل » .

وعن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا استيقظ أحدكم من منامه فلا يدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات فإنه لايدرى أين باتت يده أو أين طافت يده» رواه الدارقطنيوقال : إسناده حسن .

وعن أوس بن أوس الثقفى قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ فاستوكف ثلاثاً ، أى غسل كفيه » رواه أحمد والنسائى .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه « أنه دعا بإناء فأفرغ على كفيه ثلاث مرات فغسلهما ثم أدخل يمينه في الإناء ، فمضمض واستنثر ، ثم غسل وجهه ثلاثا ويديه إلى المرفقين ثلاثا ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل رجليه ثلاث مرات إلى الكعبين ، ثم قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال : من توضأ نحو وضوئى هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه » متفق عليه .

وعن على رضي الله عنه أنه دعا بوضوء فمضمض واستنشق ونثر بيده اليسرى ففعل هذا ثلاثا ثم قال هذا طهور نبى الله صلى الله عليه وسلم . رواه أحمد والنسائي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم لينتثر » متفق عليه ·

وعن العباس بن يزيد ، عن سفيان بن عيينة ، عن عبد الله بن محمد ابن عقيل عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال : « أتيتها فأخرجت إلى إناء فقالت : في هذا كنت أخرج الوضوء لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيبدأ فيغسل يديه قبل أن يدخلهما ثلاثا ، ثم يتوضأ فيغسل وجهه ثلاثا ، ثم يمضمض ويستنشق ثلاثا ، ثم يغسل يديه ، ثم يمسح برأسه مقبلا ومدبراً ، ثم يغسل رجليه » ·

وقوله : « وأيديكم إلى المرافق » أى اغسلوا أيديكم إلى المرافق ، والمرفق من الإنسان : أعلى الذراع ، وأسفل العضد : موصل الذراع في العضد ، ولعل وجه تسميته بذلك أنه يرتفق به ، أى يتكأ عليه من اليد ·

ذهب جمهور العلماء على وجوب إدخال المرفقين في الغسل ·

واستدلوا لذلك أن كلمة إلى هنا بمعنى مع ، ومنه قوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » أى مع أموالكم ، وقوله : « ويزدكم قوة إلى قوتكم » أى مع قوتكم ، ونحوه قول امرى القيس :

لها كفل كالدعص بلله الندى إلى حارك مثل الرتاج المضبب

ويعضده من السنة ما صح من حديث أبى هريرة « أنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء، ثم غسل يده اليمنى حتى شرع في العضد، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ » ·

وعن جابر بن عبد الله قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ توضأ أدار الماء على مرفقيه » ولكن القاسم هذا متروك ، وجده ضعيف ·

وقيل : إنه لا يجب إدخال المرفقين وحجة أصحاب هذا القول أن كلمة إلى لانتهاء الغاية وما يجعل غاية للحكم يكون خارجاً عنه ، كما

في قوله : « ثم أتموا الصيام إلى الليل » ولأن الحد لا يدخل في المحدود ، فوجب أن لا يجب غسل المرفقين في الوضوء ، والقول الأول هو الذى تطمئن إليه النفس يؤيد إجماع الأمة على أن من غسل المرفقين صح وضوءه ، واختلفوا في من لم يغسلهما هل يصح وضوؤه أم لا ؟

والجواب عن الحجة المتقدمة أن الحد إذا كان من جنس المحدود دخل فيه كما في هذه الآية لأن المرفق من جنس اليد ، وإذا لم يكن من جنس المحدود لم يدخل فيه ، كما في قوله تعالى : «ثم أتموا الصيام إلى الليل» لأن النهار من غير جنس الليل ، فلا يدخل فيه الفرض .

والأولى أن يبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليسرى ، وبالمضمضة والاستنشاق قبل الوجه ، لما ورد عن عائشة قالت : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يعجبه التيامن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله » متفق عليه .

وعن أبى هريرة « إنه توضأ فغسل وجهه فأسبغ الوضوء ثم غسل يده اليمنى حتى أشرع في العضد ، ثم غسل يده اليسرى .

وقوله : « وامسحوا برؤسكم » الباء للالصاق ، أى إلصاق الفعل بالمفعول ، فكأنه قال : ألصقوا المسح برءوسكم ، أى المسح بالماء ، فيجب مسح جميع الرأس ، بدليل قوله في التيمم : « فامسحوا بوجوهكم » ، ولا يجزى مسح بعض الوجه اتفاقاً ، فكذا هنا إذ لا فرق، ولما ثبت في الصحيحين عن عمرو بن يحي المازنى ، عن أبيه « أن رجلا قال لعبد الله بن زيد بن عاصم ، وهو جد عمرو بن يحي ، وكان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تستطيع أن ترينى كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ فقال عبد الله بن زيد : نعم ، فدعا بوضوء فأفرغ على يديه فغسل يديه مرتين ، ثم مضمض واستنشق ثلاثا ، وغسل وجهه ثلاثا،ثم غسل يديه مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه فاقبل بهما وأدبر ، بدأ بمقدم رأسه ثم ذهب بهما إلى قفاه ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذى بدأ منه ، ثم غسل رجليه ،

ويجب مسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما لأنهما من الرأس ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « الأذنان من الرأس » رواه ابن ماجه • ولما روى عبد الله بن زيد « أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ فأخذلأذنيه ماء خلاف الذى لرأسه » رواه البيهقى وقال : إسناده صحيح •

وقوله : « وأرجلكم إلى الكعبين » الكعبان : هما العظمان الناتئان عند مفصل الساق من الجانبين ، أى واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ، يؤيده عمل النبى صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة وأكثر الأئمة ، فقد روى مسلم عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا لم يغسل عقبه ، فقال : ويل للأعقاب من النار » •

وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر قال : « تخلف عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرة ، فأدركنا وقد أرهقنا العصر فجعلنا نتوضأ ونمسح على أرجلنا قال : فنادى بأعلى صوته : « ويل للأعقاب من النار » مرتين •

ولابد من الترتيب بين الأعضاء الأربعة كما تفيده الآية الكريمة ، والأعضاء المشار إليها هي الوجه ، واليدين ، ومسح الرأس ، وغسل الرجلين •

ووجه الدلالة من الآية الكريمة أنه جل وعلا أدخل الممسوح بين مغسولين وقطع النظير عن نظيره ، والعرب لا تفعل ذلك إلا لفائدة وهى الترتيب •

ثانيا : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ابدؤا بما بدأ الله به »

ثالثا : ماورد عن عمرو بن عبسة وتقدم عندقوله تعالى : «فاغسلوا وجوهكم » •

والسادس : الموالاة وهى أن لا يؤخر غسل عضو حتى ينشف الذى قبله •والدليل ماورد عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه رأى رجلا في قدمه لمعة قدر الدرهم لم يصبها الماء ، فأمره بالإعادة » رواه أحمد وأبو داود •

وعن عمر بن الخطاب « أن رجلا توضأ فترك موضع ظفر على قدمه فأبصره النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ارجع فتوضأ ثم صل » رواه أحمد ومسلم ، ولم يذكر فتوضأ ٠

ويقوم المسح على الخفين عند لبسهما مقام غسل الرجلين ، وقد روى ذلك خلائق لا يحصون من الصحابة ٠

ومن الأدلة على جواز المسح على الخفين ماورد عن المغيرة بن شعبة قال : « كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة في مسير ، فأفرغت من الإداوة ، فغسل وجهه وغسل ذراعيه ومسح برأسه ، ثم أهويت لأنزع خفيه ، فقال : « دعهما فإنى أدخلتهما طاهرتين » فمسح عليهما » متفق عليه ٠

وحديث جرير : « أنه بال ثم توضأ ومسح على خفيه ، فقيل له : تفعل هكذا ؟ قال : نعم ٠ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بال ثم توضأ ومسح على خفيه » متفق عليه ٠

ومدة المسح للمقيم يوم وليلة ، وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها ، لما ورد عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال : « جعل النبى صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويوماً وليلة للمقيم ـ يعنى في المسح على الخفين » أخرجه مسلم ٠

وعن صفوان بن عسال قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمرنا إذا كنا سفراً أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن إلا من جنابة، ولكن من غائط وبول ونوم » أخرجه النسائى والترمذى واللفظ له ، وابن خزيمة وصححاه ٠

وعن خزيمة بن ثابت ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن المسح على الخفين ، فقال : « للمسافر ثلاثة أيام ولياليهن وللمقيم يوم وليلة » رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه ٠

ومقدار مايمسح من الخلف أكثر ظاهره ، أى القدم من أصابعه إلى ساقه دون أسفله وعقبه ، لما روى البيهقى في سننه « أن النبى صلى

الله عليه وسلم مسح على خفيه ، وضع يده اليمنى على خفه الأيمن ، ويده اليسرى على خفه الأيسر ، ثم مسح أعلاه مسحة واحدة ٠

وعن على رضي الله عنه قال : « لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخلف أولى بالمسح عن أعلاه ، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر خفيه » رواه أبو داود والدارقطني ٠

وابتداء مدة المسح من المسح لأن النبى صلى الله عليه وسلم جعل اليوم والليلة للمقيم ، والثلاثة للمسافر كلها مسحاً ، ولا يمكن ذلك إلا أن يجعل الابتداء من وقت المسح ٠

وقيل : الابتداء من حدث بعد لبس على طاهر ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يمسح المسافر ثلاثة أيام ولياليهن ، والمقيم يوماً وليلة » ٠ وقوله : يمسح المسافر ، يعنى يستبيح المسح ، وإنما يستبيحه من حين الحدث ، ولأنه عبادة مؤقتة فاعتبر أول وقتها منجواز فعلها كالصلاة ، وإذا لبس خفا على خف إن كان قبل الحدث فالحكم للفوقانى ، وإن كان بعد الحدث فالحكم للتحتانى ، وإن لبس خفا فلم يحدث حتى لبس آخر مسح على أيهما شاء ، فإن شاء مسح الفوقانى ، وإن شاء مسح التحتانى ، وإن أحدث ثم لبس الفوقانى قبل مسح التحتانى أو بعده لم يمسح الفوقانى بل تحته ٠

وإذا مسح في سفر ثم أقام ، أو أقام ثم سافر ، أو شك في ابتدائه فيمسح مسح مقيم ، لأنه اليقين وما زاد لم يتحقق شرطه ، والأصل عدمه ، وإن أحدث ثم سافر قبل مسحه فمسح مسافر ، ويصح المسح على الجبيرة والجرح في الحدثين إلى حلها ، لما روى جابر رضي الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه : هل تجدون لى رخصة في التيمم ؟ فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ، فاغتسل فمات ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك ، فقال : « قتلوه قتلهم الله ، ألا سألوا إذا لم يعلموا فإنما شفاء

العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعضد ، أو يعصب على جرحه خرقة ويمسح عليها ، ويغسل سائرجسمه» رواه أبوداود والدارقطني

وقوله تعالى : « وإن كنتم جنباً فأطهروا » الجنب لفظ يستعمل للمفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث · المعنى : وإن كنتم أصابتكم جنابة قبل أن تقوموا إلى صلاتكم فقمتم إليها فتطهروا منها بغسل البدن كله قبل دخولكم في صلاتكم التي قمتم إليها ·

وفي معنى الجماع : خروج المنى بالاحتلام فهو جنابة شرعاً ، لما ورد عن على رضي الله عنه قال : كنت رجلا مذاء ،فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « في المذى الوضوء وفي المنى الغسل » رواه أحمد وابن ماجه والترمذى وصححه ، ولأحمد : فقال : « إذا حذفت الماء فاغتسل فإن لم تكن حاذفاً فلا تغتسل » ·

وعن أم سلمة : « أن أم سليم قالت : يا رسول الله إن الله لا يستحى من الحق فهل على المرأة الغسل إذا احتلمت ؟ قال : نعم إذا رأت الماء ، فقالت أم سلمة : وتحتلم المرأة ؟ فقال : تربت يداك فيما يشبهها ولدها » متفق عليه ·

ومن موجبات الغسل : التقاء الختانين ، لما ورد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا جلس بين شعبيها الأربع ثم جهدها فقد وجب الغسل » متفق عليه ، ولمسلم وأحمد : «وإن لم ينزل»

وعن عائشة : أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجامع ثم يكسل ـ وعائشة جالسة ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((إنى لأفعل ذلك أنا وهذه ثم نغتسل » رواه مسلم ·

ويشترط للغسل شروط منها : النية لحديث : « إنما الأعمال بالنيات » · ثانيا : الإسلام · ثالثا : العقل · رابعا : التمييز · خامسا : الماء الطهور المباح · سادسا : إزالة ما يمنع وصوله البشرة ·

وواجبه التسمية ، وتسقط سهواً وجهلا ·

وفرضه تعميم البدن بالماء ·

وصفة الغسل الكامل أن ينوى ثم يسمى ويغسل يديه ثلاثا ، وما لوثه ويتوضأ وضوءاً كاملا ويروى رأسه ثلاثا ثم يغسل بقية جسده ، ويتيامن ويدلكه ويغسل قدميه مكاناً آخر ·

فهذا الغسل الكامل المشتمل على الواجبات والسنن ، وصفة الغسل المجزى أن ينوى ثم يسمى ويعم بدنه بالغسل مرة ·

عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اغتسل من الجنابة غسل يديه ثلاثا وتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يخلل شعره بيده حتى إذا ظن أنه قد أروى بشرته أفاض عليه الماء ثلاث مرات ، ثم غسل سائر جسده » متفق عليه ·

وعن ميمونة بنت الحارث زوج النبى صلى الله عليه وسلم أنها قالت : « وضعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وضوء الجنابة فأكفأ بيمينه على يساره مرتين أو ثلاثا ، ثم غسل فرجه ، ثم ضرب يده بالأرض أو الحائط مرتين أو ثلاثا ثم تمضمض واستنشق وغسل وجهه وذراعيه ، ثم أفاض على رأسه الماء ثم غسل جسده ، ثم تنحى فغسل رجليه ، فأتيته بخرقة فلم يردها ، فجعل ينفض الماء بيده » متفق عليه

وقوله تعالى : « وإن كنتم مرضى » المرضى جمع مريض ، والمراد الذي يضر معه استعمال الماء مثل الجدري والحصباء وحرق النار وعن بن مسعود قال المريض الذى قد أرخص له في التيمم هو الكسير والجريح فإذا أصابت الجنابة الكسير اغتسل والجريح لا يحل جراحته إلا جراحة لا يخشي عليها وعن سعيد بن جبير في قوله تعالى وان كنتم مَرْضَى قال إذا كان به جروح أو قروح يتيمم وعن جابر رضي الله عنه قال خرجنا في سفر فأصاب رجلا منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم فسأل أصحابه هل تجدون لى رخصة في التيمم فقالوا مانجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بذلك فقال قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذا لم يعلموا فان شفاء العي السؤال إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعضد أو

يعصب على جرحه ثم يمسح عليه ويغسل سائر جسده · رواه أبوداود والدرقطنى ·وقوله : « أو على سَفر » يعني أو ان كنتم مسافرين وأنتم أصحاء جنب فتيمموا صعيدا طيبا عند فقد المـاء أو جاء أحد منكم من الغائط : الغائط المكان المنخفض من الأرض ويراد به شرعا قضاء الحاجة من بول أو غائط أي إذا أحـدثتم الحـدث الموجب للوضوء عنـد ارادة الصلاة ونحوها كالطواف ويسمى الحـدث الأصغر فتيمموا صعيدا طيبا عند عدم المـاء : أولامستم النساء أي أو جامعتم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيدكم منـه ومن أدلة التيمم عند عدم المـاء مـاورد عن أبى ذر قال اجتويت المدينـة فامر لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بابل فكنت فيها فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : هلك أبو ذر ، قال : مالك ؟ قال : كنت أتعـرض للجنابة وليس قربى ماء · فقال : إن الصعيد طهور لمن بجد المـاء عشر سنين » رواه أحمد وأبو داود والأثرم وهذا لفظه ·

وعن عمران بن حصين قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فصلى بالناس ، فإذا هو برجل معتزل ، فقال : مامنعك أن تصلى ؟ قال : أصابتنى جنابة ولا ماء ، قال : عليك بالصعيد فإنه يكفيك » متفق عليه ·

ويتيمم لخوف تلف باستعمال المـاء أو زيادة وجع ، لمـا ورد عن عمرو بن العاص « أنه لمـا بعث في غزوة ذات السلاسل ، قال : احتلمت في ليلة باردة ، شديدة البرد ، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيممت ثم صليت بأصحابى صلاة الصبح ، فلما قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكروا ذلك له ، فقال : يا عمـرو ، وصليت بأصحابك وأنت جنب ؟ فقلت : ذكرت قول الله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » فتيممت ثم صليت ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئاً » رواه أحمد وأبو داود والدارقطني ·

وكذا المريض الذى لا يجد أحداً يأتيه بالمـاء ولا يقدر عليه وليس

له خادم ولا عون يعينه ، فإذا لم يستطع أن يتناول المـاء وليس عنده من يأتيه به ، ولا يحبوا إليه تيمم وصلى إذا حلت الصلاة ، لأنه اتقى الله ما استطاع ، قال الله تعالى : « فاتقوا الله ماستطعتم » ويستبيح بالتيمم كل ما يستباح بالوضوء والغسل عنـد عدم المـاء ، أو خوف الضرر باستعماله ، أو بالعجز عن استعماله لمـا تقدم ٠

وصفة التيمم أن ينـوى ، ثم يسمى ويضرب الصعيد بيـديه ، ثم يمسح بهما وجهه وكفيه ، لمـا ورد عن عمار بن ياسر « أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : في التيمم ضربة للوجه واليـدين » رواه أحمـد وأبو داود ٠ وفي لفظ : « أن النبى صلى الله عليه وسلم أمـره بالتيمم للوجه والكفين » رواه الترمذى وصححه ، وتقدم أدلة النية والتسمية في الوضوء والتيمم بدلٌ عنه ٠

ومن عـدم المـاء والتراب ، أو لم يتمكن من استعمالهما صلى ولم يعد ، لمـا روت عائشة رضي الله عنها « أنها استعارت من أسماء قلادة فهلكت فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا في طلبها فوجدوها، فادركتهم الصلاة وليس معهم ماء ، فصـلوا بغير وضوء ، فلمـا أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شكوا ذلك إليه ، فانزل الله آية التيمم» رواه الجماعة إلا الترمذى ٠

ولم ينكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، ولا أمرهم بالإعادة ، يدل على أنها غير واجبة ، ولأن الطهارة شرط فلم تؤخر الصلاة بعدمه كالسترة ، ولقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منـه ما استطعتم » ، ومن صلى بالتيمم أول الوقت ثم وجد المـاء بعد الفراغ من الصلاة والوقت باق ، فلا إعادة عليه وصلاته صحيحة ، لمـا ورد عن أبى سعيد الخدرى قال: « خرج رجلان في سفر فحضرت الصلاة وليس معهما ماء فتيمما صعيداً طيباً ، ثم وجدا المـاء في الوقت ، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة ، ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله صـلى الله عليه وسلم فذكرا ذلك له ،

فقال للذى لم يعد : أصبت السنة وأجزأتك صلاتك ، وقال للذى توضأ وأعاد : لك الأجر مرتين » رواه أبو داود والنسائى ، وقد روياه أيضاً عن عطاء بن يسار عن النبى صلى الله عليه وسلم ٠

ويبطل التيمم بمبطلات ماتيمم له من الطهارتين فيبطل عن وضوء بما يبطل الوضوء ، وعن غسل بما ينقضه من موجبات الغسل ، ويبطل بوجود الماء لعادمه قبل الصلاة ، وأما في الصلاة فقيل : يبطل تيممه وتبطل صلاته لبطلان طهارته ، فيتوضأ إن كان محدثاً ، ويغتسل إن كان جنباً ، ويستقبل الصلاة ، لما ورد عن أبى ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الصعيد الطيب طهور المسلم وإن لم يجد الماء عشر سنين ، فإذا وجد الماء فليمسه بشرته فإن ذلك خير » رواه أحمد والترمذى وصححه ٠

فدل بمفهومه على أنه لا يكون طهوراً عند وجود الماء ، ودل بمنطوقه على وجوب إمساسه جلده عند وجوده ، ولأنه قدر على استعمال الماء فبطل تيممه كالخارج من الصلاة ، وقيل : لا تبطل الصلاة ، واحتج القائلون بذلك بأنه وجد المبدل بعد تلبسه بمقصود البدل فلم يلزم الخروج كما لو وجد الرقبة بعد التلبس بالصيام ولأنه غير قادر على استعمال الماء لأن قدرته تتوقف على إبطال الصلاة ، وهو منهى عن إبطالها بقوله تعالى : « ولا تبطلوا أعمالكم » ، وقال أهل القول الأول : ولا يصح قياسهم فإن الصيام هو البدل نفسه ، فنظيره إذا قدر على الماء بعد تيممه ولا خلاف في بطلانه ، ثم الفرق بينهما أن مدة الصيام تطول فيشق الخروج منه لما فيه من الجمع بين فرضين شاقين بخلاف مسألتنا ، وقولهم : إنه غير قادر غير صحيح ، فإن الماء قريب وآلته صحيحة والموانع منتفية ٠ وقولهم : إنه منهى عن إبطال الصلاة ، قلنا : لا يحتاج إلى إبطال الصلاة بل هى تبطل بزوال الطهارة كما في نظائرها ، انتهى ٠

ومما يبطل التيمم زوال عذر صحيح للتيمم كما لو تيمم لمرض

فعوفي ، أو لبرد فزال ، أو جرح تيمم له ، لأنه ضرورة فيزول بزوالها ٠

تنبيــه :

وفي مسح يد يجب نزع خاتم ليصل التراب إلى محله من اليد ، ولا يكفي تحريكه بخلاف المــاء لقوة سريانه ، والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ٠

وقوله : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » أى مايريد ليجعل عليكم فيما شرع لكم في هذه الآية ، وفي غيرها حرجاً ، فلهذا سهل عليكم ويسر ، ولم يعسر ، فأباح لكم التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم ، وجعله في حق من شرع له ، يقوم مقام المــاء ٠

وقوله : « ولكن يريد ليطهركم » أى من الذنوب والأقذار والرذائل والعقائد الفاســدة فتــكونوا أنظف النــاس أبداناً وأزكاهم نفوساً ، وأصحهم أجساداً وأرقاهم أرواحاً ٠

وقوله : « وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » أى بالترخيص لكم في التيمم عند عدم المــاء ، أو ربما شرعه لكم من الشرائع التى شرعها لكم فيجمع لكم بين طهارة الأبدان وطهارة الأرواح ، والإنسان بروح وجسد ، والصلاة تطهر الروح وتزكى النفس ، فهى تنهى عن الفحشاء والمنكر وتعود المصلى مراقبة ربه في السر والعــلانية وخشيته حــين الإساءة والرجاء فيه لدى الإحسان ، والطهارة التى جعلهــا الله شرطاً للدخول في الصلاة ومقدمة لها تطهر البدن ، يستحسنها كل طبع سليم وعقل مستقيم ، فأحسن أفعال العبد المثول بين يدى خالقه الذى أوجده وأحسن أحواله الطهور من كل دنس ، فلو تركنا وعقولنا لغسلنا كل البدن ، إذ هذه عبادة تقوم بكل البدن ، لكن الله المعبود الرحيم الودود الرءوف بالعباد من علينا فأمرنا بغسل بعض البدن في الحدث الأصغر لتكرره وعفى عن الباقى ، وأقام الطهور بالأعضاء الأربعة مقام جميع البدن ، ثم أمر بغسل ما ظهر دون مابطن تيسيراً على العبــاد ، وأمر

بغسل الوجه واليدين والذراعين إلى المرفقين دون العضدين والرجلين إلى الكعبين دون الساقين لاستتارهما باللباس ، وأمر بمسح الرأس دون الغسل كي لا تبتل ثياب المتوضيء ، ثم الطهارة بالماء من حسن التيقظ والانتباه عن الغفلة أو النوم أو بنية النوم ما لا يخفى على عاقل ، وأمر بغسل الوجه لأن السجدة به ، وأمر بغسل اليدين لأن الاعتماد عليهما ومن الأعضاء السبعة ، وأمر بغسل الرجلين لأن القيام لله بهما ، وجعل للرأس من الطهور نصيباً إذ الوجه فيه ، وفيه مجمع المحاسن ، وهذا من محاسن الإسلام ، ثم إذا لم يقدر الإنسان على الماء أو على استعماله أمر بالتيمم ، فلما ضاق عليه الأمر بالماء اتسع عليه بوجود التراب ، وهذه سنة الله كلما ازداد أمر عبده حرجاً ازداد فرجاً ومخرجاً ، قال الله تعالى : « فإن مع العسر يسراً • إن مع العسر يسراً » وقال : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » ثم في الماء أمر بأربعة أعضاء، وفي التيمم اكتفى بعضوين وضربتين في الحدثين ، لأن الماء محبوب طبعاً ، فلا يتعسر على العبد استعماله ، والتراب مكروه طبعاً فيتعسر عليه استعماله فاكتفى بالضربتين ، ولهذا كان التيمم عبادة .

وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء ، فروى الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن عن عقبة بن عامر قال : « كانت علينا رعاية الإبل فجاءت نوبتي فروحتها بعشي فأدركت من قوله « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلي ركعتين مقبلا عليهما بقلبه ووجه إلا وجبت له الجنة » .

وعن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء » الحديث وتقدم .

وعن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام إلى الصلاة خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه » .

والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

مما يفهم من آية الدرس آية ٦ من سورة المائدة :

(١) أن المذكورات في الآية اعتناقها والعمل بها من لوازم الإيمان الذى لا يتم إلا به لأنه تعالى صدرها بقوله « يا أيها الذين آمنوا » أى يا أيها الذين آمنوا اعملوا بمقتضي إيمانكم .

(٢) الأمر بالقيام إلى الصلاة .

(٣) التعبير بالسبب عن المسبب .

(٤) الأمر بغسل الوجه ، ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسنة .

(٥) أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما التطهر عند الصلاة .

(٦) أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة في الفرض والنفل وفروض الكفاية وصلاة الجنازة تشترط له الطهارة .

(٧) الأمر بغسل اليدين .

(٨) أن غسل اليدين ينتهى إلى المرافق .

(٩) مسح الرأس .

(١٠) وجوب مسح جميعه لأن الباء للالصاق .

(١١) أنه يكفى المسح كيف كان ، بيديه أو بإحداهما أو خرقة أو نحوها ، لأن الله أطلق المسح ولم يقيده بصفة .

(١٢) أن الواجب المسح ، فلو غسل رأسه ولم يمد يده عليه لم يكف لأنه لم يات بما أمر الله به .

(١٣) الأمر بغسل الوجهين إلى الكعبين .

(١٤) أن حدها إلى الكعبين .

(١٥) الرد على الرافضة على قراءة الجمهور .

(١٦) الرد على الجبرية .

(١٧) الإشارة إلى مسح الخفين على قراءة الجر « وفي ارجلكم » وتكون كل من القراءتين محمولا على معنى ، فعلى قراءة

النصب فيها غسلها إن كانوا مكشوفتين ، وعلى قراءة الجر فيها مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف ·

(١٨) الترتيب بين الأعضاء الأربعة : أعضاء الوضوء ، لأن الله ذكرها مرتبة ، ولإدخال المسموح الذى هو الرأس بين مغسولين ، ولا يعلم لذلك فائدة إلا الترتيب ·

(١٩) أن الترتيب خاص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية·

(٢٠) الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة لتوجد صورة المأمور به

(٢١) الأمر بالغسل من الجنابة ·

(٢٢) أنه يجب تعميم البدن بالغسل لأن الله أضاف التطهر للبدن ولم يخصه بشيء دون شيء ·

(٢٣) الأمر بغسل ظاهر شعره وباطنه في الجنابة ·

(٢٤) أن من عليه حدثان يندرج الحدث الأصغر في الأكبر ويكفى من هما عليه أن ينوى ، ثم يعمم بدنه ، لأن الله لم يذكر إلا التطهر ، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء ·

(٢٥) أن الجنب يصدق على من أنزل المنى يقظة، أو مناماً ، أو جامع ولم ينزل ·

(٢٦) أن من ذكر أنه احتلم ولم يجد بللا فإنه لا غسل عليه لأنه لم يتحقق من الجنابة ·

(٢٧) الحث على النظافة ·

(٢٨) أن فيما أرشد الله إليه من غسل البدن كله أو غسل الأطراف ما يفيد صاحبه نشاطاً وهمة ، ويزيل ما يعوض للجسد من الفتور والاسترخاء بسبب الحدث أو غيره من الأعمال التى تؤثر تأثيره ، وبذا يقيم الصلاة على وجهها ، ويعطها حقها من الخشوع والخشية ومراقبة الله ، إذ بلغ الإنسان من هذه اللذة الجسمية غايتها بالوقاع أو الإنزال حصل له تهيج عصبى يعقبه فتور شديد ولا يعيد نشاطه إلا الوضوء أو

الغسل ويسن الوضوء لمعاودة الوطء ، لما ورد عن أبى سعيد ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا أتى أحدكم أهله ثم أراد أن يعود فليتوضأ » رواه الجماعة إلا البخارى، ورواه ابن حزيمة وابن حبان والحاكم . وزادوا : « فإنه أنشط للعود » .

(٢٩) إن في ترك ما أرشد الله إليه من الطهارة والنظافة التى هى ركن الصحة البدنية مجلبة للأمراض والأوبئة والأدواء الكثيرة ، ومن ثم نرى الأطباء يشددون في أيام الأوبئة والأمراض المتنقلة بإذن الله في المبالغة في النظافة ، وجدير بالمسلمين المتمسكين بإرشادات الكتاب والسنة أن يكونوا أصح الناس أجساماً وأقلها أمراضاً لأن دينهم يحث على الطهارة والنظافة ، قال تعالى : «رجال يحبون أن يتطهروا» ، وقال: « وثيابك فطهر » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « غسل الجمعة واجب على كل محتلم» ، وقال صلى الله عليه وسلم: « الطهور شطر الإيمان » إلى غير ذلك من الأدلة الدالة على نظافة الأبدان والثياب والأمكنة .

(٣٠) إن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذى يضره غسله بالماء .

(٣١) إن من جملة أسباب التيمم السفر إذا عدم الماء .

(٣٢) إن من جملة أسباب التيمم إتيان البول والغائط اذا عدم الماء ، فللمرض يجوز التيمم مع وجود الماء لحصول التضرر به ، والباقى لعدم الماء .

(٣٣) استحباب التكنية عما يستقذر التلفظ به لقوله : « أو جاء أحد منكم من الغائط » .

(٣٤) إن لمس المرأة بلذة وشهوة ناقض للوضوء .

(٣٥) اشتراط عدم الماء لصحة التيمم .

(٣٦) إن مع وجود المـاء ولو في الصلاة يبطل التيمم ، لأن الله إنما أباحه مع عدم المـاء ٠

(٣٧) إنه إذا دخل الوقت وليس معه ماء فإنه يلزمه طلبه في رحله وفيما قرب منه لأنه لا يقال : لم يجد لمن لم يطلب ٠

(٣٨) إن من وجد ماء لا يكفي إلا لبعض طهارته فإنه يستعمله ثم يتيمم ، لأنه اتقى الله مااستطاع ٠

(٣٩) إن المـاء المتغير بالطاهرات مقدم على التيمم ، لأن الماء المتغير بالطاهرات ماء فيدخل في قوله : « فلم تجدوا ماء » ٠

(٤٠) إنه لابد من نية التيمم لقوله : « فتيمموا » أى اقصدوا ٠

(٤١) لطف الله بخلقه حيث شرع لعباده التيمم عند العدم للمـاء أو التضرر باستعماله ٠

(٤٢) دليـل على سماحـة الدين الإسـلامى حيث اكتفى بالتيمم بمسح الوجه واليدين بضربة واحدة لهما ٠

(٤٣) إن من رحمه الله أنه لم يأمر إلا بغسل مابرز من الأعضاء في الحدث الأصغر تيسيراً منه تعالى ٠

(٤٤) إنه لا يصح التيمم بالنجس لأنه ليس بطهور بل من الخبيث ٠

(٤٥) إن اليدين تمسحان إلى الكوع ، لتقييد الله له بذلك ٠

(٤٦) إن الآية عامة في جواز التيمم لجميع الأحداث ٠

(٤٧) إن محل التيمم واحد في الحـدث الأكبر والأصغر ، وهـو الوجه واليدين ٠

(٤٨) إنه لو نوى من عليه حدثان (الأكبر والأصغر) التيمم عنهما لكفى أخذا من عموم الآية وإطلاقها ٠

(٤٩) إنه يجزى المسح باى شيء كان لأن الله تعالى قال : «فامسحوا» ولم يذكر الممسوح به ٠

(٥٠) اشتراط الترتيب في طهارة التيمم ، لأن الله بدأ بالوجه قبل اليدين وكما في الوضوء ٠

(٥١) دليل على أنه يجب مسح الوجه واليدين بالصعيد ٠

(٥٢) إثبات الإرادة لله ·
(٥٣) إن الله لم يجعل علينا في الدين حرج ·
(٥٤) إن الله يريد أن يطهر عباده من الأحداث والذنوب ·
(٥٥) إن الله يريد إتمام نعمته على عباده ·
(٥٦) تعليل الأحكام ·
(٥٧) الحث على شكر الله ·
(٥٨) الحث على العمل بطاعة الله ·
(٥٩) الرد على الجهمية ·
(٦٠) الحث على الأشياء التى تنشط البدن وتسهل العبادة على الإنسان ·
(٦١) الابتعاد عن الأقذار والأنجاس ·
(٦٢) أن نعم الله حسية ومعنوية نعمة قلوب كالتوفيق للأعمال الصالحة ، والطهارة من الذنوب الباطنة ، ونعمة للأبدان كالمأكولات والمشروبات والملبوسات والمساكن والمراكب ·
(٦٣) ان الله غنى عن الخلق فلا يشرع إلا مافيه الخير والمنفعة للخلق ·
(٦٤) دليل على كمال الشرائع والأحكام ومايحتاجون إليه من أمر دينهم ·
(٦٥) دليل على أن كثرة النعم وذكرها يوجب مزيد الشكر من المنعم عليه والاشتغال بطاعة المنعم بها والانقياد لأمره وهو الله جل وعلا ·
(٦٦) إثبات الألوهية لله ·
(٦٧) دليل على أن الله لم يهمل خلقه ولم يتركهم سدى ·
(٦٨) إن السفر يشمل القريب والبعيد للاطلاق ·
(٦٩) دليل على انتقاض وضوء اللامس للمرأة ·
(٧٠) إن الأقطع يغسل بقية المفروض ·
(٧١) إن الأصل في المضار أن لا تكون مشروعة ، لقوله : « ماجعل

عليكم في الدين من حرج » ، وقوله : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » ، ويدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : « لا ضرر ولا ضرار في الإسلام » ، وقوله صلى الله عليه وسلم : « مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » ، ويدل عليه أيضاً : أن دفع الضرر مستحسن في العقول السليمة ٠

(٧٢) في هذه الآية مايدعو إلى محبة الله لرأفته بهم وتخفيفه عليهم وتعليمهم مافيه صلاح دنياهم وأخراهم ٠

(٧٣) إثبات صفة الكلام لله ٠

ومن لطائف الآية الكريمة كما قال بعض المحققين : أنها مشتملة على سبعة أمور كلها مثنى طهارتان أصل وبدل ، والأصل اثنان مستوعب وغير مستوعب ، وغير المستوعب باعتبار الفعل غسل ومسح وباعتبار المحل محدود وغير محدود ، وأن آلتهما مائع وجامد ، وموجبهما حدث أصغر وأكبر ، وأن المبيح للعدول إلى البدل مرض أو سفر ، وأن الموعود عليهما التطهير وإتمام النعمة ، وزاد البعض مثنيات أخر ، فإن غير المحدود وجه ورأس ، والمحدود يد ورجل،والنهاية كعب ومرفق ، والشكر قولي وفعلي ٠

والله أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى : (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسي بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ماكانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ماقدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى ماالتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا أنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) ٠

يخبر الله تعالى أنه لعن الذين كفروا من بني إسرائيل من دهر طويل أنزله على نبيه داود عليه السلام ، وعلى لسان عيسي بن مريم بسبب عصيانهم لله ، واعتدائهم على خلقه ٠

قال العوفي عن ابن عباس : لعنوا في التوراة وفي الإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان ، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدون في زمانهم ٠ فقال تعالى: « كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » أى كان من دأبهم أن لا ينهى أحد أحداً عن منكر يقترفه مهما قبح وعظم ضرره فيشترك بذلك المباشر والساكت عن النهى عن المنكر ٠

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله ، وأن معصيته خفيفة عليهم ، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه ، ولغضبوا لغضبه ، وإنما كان السكوت عن المنكر مع القدرة موجباً للعقوبة لما فيه من المفاسد العظيمة التى منها أن مجرد السكوت فعل معصية ، وإن لم يباشر الساكت فإنه كما يجب اجتناب المعصية فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية

لقوله صلى الله عليه وسلم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » رواه مسلم ·

وعن حذيفة رضي الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « والذى نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » رواه الترمذى وقال : حديث حسن ·

وأجمعت الأمة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفي الحديث الثابت عن أمير المؤمنين أبى بكر الصديق رضي الله عنه أنه خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها » « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم» وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه » ·

وفي لفظ من عنده رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح وابن ماجه والنسائى ولفظه : « إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن القوم إذا رأوا المنكر فلم يغيروه عمهم الله بعقاب » وفي رواية لأبى داود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب » ، وفي رواية « إن الناس اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده » ·

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ماتصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله

وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب قلوب بعضهم ببعض » ، ثم قال : (لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسي بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ماكانوا يفعلون ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ، لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) إلى قوله (فاسقون) ، ثم قال : « كلا والله ، لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم ليلعننكم كما لعنهم » ، رواه أبو داود والترمذى ، وقال حديث حسن .

هذا لفظ أبى داود ، ولفظ الترمذى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسي ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متكئاً فقال : « لا والذى نفسي بيده ، حتى تأطروهم على الحق أطراً » .

وعن مجاهد قال : حدثنى مولى لنا أنه سمع جدى - يعنى عميراً - رضي الله عنه ، يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة ، حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم، وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكرونه ، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة » .

وعن العرس بن عميرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا عملت الخطيئة في الأرض ، من شهدها فكرهها كان كمن غاب عنها ، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها » ، رواه أبو داود .

وعن النعمان بن بشير ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المداهن في حدود الله ، والواقع فيها ، مثل قوم استهموا فى سفينة

فصار بعضهم في أسفلها . وصـار بعضهم في أعـلاها . فـكان الذى في أسفلها يمر على الذى في أعلاها ، فتأذوا به فأخـذ فأساً فجعـل ينقر أسفل السفينة ، فأتوه فقالوا مـالك ؟ قال تأذيتم بى . ولابد لى من المـاء ، فإن أخـذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم » رواه البخارى .

وقوله : (لبئس ماكانوا يفعلون) هذا تقبيح لسوء فعلهم وتعجب منه ، وذم لهم على اقتراف بعض المنكرات وإصرارهم عليها ، وسكوت آخرين ورضاهم بها .

وبعد أن ذكر الله لنبيه أحوال أسلافهم ذكر له أحوال حاضريهم مما يدل على رسوخ تلك الملكات فيهم. فقال : (ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا من مشركى قومك ، ويحالفونهم عليك ، ويحرضونهم على قتالك وأنت تؤمن بالله وبما أنزله على رسله وأنبيائه ، وتشهد لهم بصـدق الرسـالة ، وأولئـك المشركون لا يؤمنون بكتاب الله ولا رسوله ، ولا يعبدون إلهاً واحداً .

وقـد روى أن كعب بن الأشرف وأصحابه ذهبـوا إلى مكة واستجاشوا المشركين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم يتم لهم ماأرادوا إذ لم يلبوا لهم دعوة ولا استجابوا لهم كلمة .

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن (منهم) يعنى من المنافقـين يتولون اليهود .

وقوله : (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) أى بئس ماسولت وزينت أو بئس شيئاً قدموه لأنفسهم في آخرتهم ، الأعمال التى أوجبت سخط الله وعظيم غضبه ، وسيجزون بها شر الجزاء ، إذ سيحيط بهم العذاب، ولا يجدون عنه مصرفا . فالنجاة من العذاب ، إنما تكون برضا الله عن عبده ، وهم لم يعملوا إلا ما يوجب سخطه وشديد غضبه ..

وقوله : (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى ما اتخذوهم أولياء) أى ولو كان هؤلاء الذين يتولون الذين كفروا من بنى إسرائيل يؤمنون

بالله والنبي . أي يصدقون الله ويقرون به ويوحدونه . ويصدقون نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه لله نبي مبعوث . ورسول مرسل . وما أنزل إليه ، أي ويقرون بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله من آي الفرقان (ما اتخذوهم أولياء) يعني ما اتخذوا الكفار أنصاراً وأعواناً من دون المؤمنين . لأن الإيمان بالله وبالنبي . وما أنزل إليه . يوجب على العبد موالاة ربه وموالاة أوليائه . ومعاداة من كفر به وعاداه ورتع في معاصيه . فشرط ولاية الله والإيمان به أن لا يتخذ أعداء الله أولياء ، ولهذا قال تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم) الآية .

وقال في آية أخرى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) وبالتالي فالحب في الله والبغض في الله أصل عظيم من أصول الإيمان يجب على العبد مراعاته، ولهذا جاء في الحديث: « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله » ولذلك أكثر الله من ذكره في القرآن ، قال الله تعالى : لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة) فمن يتولى الكفرة فليس من ولاية الله في شيء يقع عليه اسم الولاية ، يعني منسلخ من ولاية الله رأساً ، وهذا أمر معقول ، فإن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان كما تقدم بيانه .

وقوله : تعالى (ولكن كثيراً منهم فاسقون) هذا بيان لأسباب الألفة والعلة الجامعة بينهم ، والمعنى والله أعلم : ولكن كثيراً منهم متمردون في النفاق ، خارجون عن طاعة الله وأمره ، لا يريدون إلا الرياسة والجاه ، ويسعون إلى تحصيلهما من أى طريق قدروا عليه ، ومتى سار الكثير من الأمة على طريق تبعه الباقون ، إنما قال (كثيراً) لعلمه بمن سيؤمن ، مثل عبد الله بن سلام وأصحابه .

وقوله تعالى : (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) اللام في قوله (لتجدن لام القسم ، تقديره : والله يا محمد إنك لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا بك وصدقوك ، اليهود والذين أشركوا ·

ووصف الله شدة عداوة اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق ، وجعلهم قرناء المشركين عبدة الأصنام في العداوة للمؤمنين ، وذلك حسداً منهم للمؤمنين ·

وأشد مالاقى النبى صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها ، ومن مشركى العرب ، ولاسيما مكة وما قرب منها ، وقد كان اليهود والمشركون مشتركين في بعض الصفات والأخلاق التى اقتضت عداوتهم الشديدة للمؤمنين ، كالكبر والعتو والبغى والحسد وغلبة الحياة المادية والأثرة والقسوة وضعف عاطفة الحنان والرحمة والعصبية الجنسية والحمية ، ولكن مشركى العرب على جاهليتهم كانوا أرق قلوبا نوعا ما وفيهم سخاء وإيثار ·

وقدم سبحانه ذكر اليهود للاشارة إلى تفوقهم على العرب فيما وصفوا به ، فضلا عما زادوا فيه عليهم من قتل بعض الأنبياء وإيذاء بعض آخر ، ووصف الله بما يتنزه عنه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا، واستحلالهم أموال غيرهم بالباطل وإفسادهم في الأرض ·

وقوله تعالى (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى) الآية ·

ذكر قصة الهجرة الأولى وسبب نزول هذه الآية

قال ابن عباس وغيره من المفسرين في قوله : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دِيْنهم ، فوثبت كل قبيلة على من آمن منهم فآذوهم وعذبوهم ، فافتتن من افتتن منهم ، وعصم الله من شاء منهم ، ومنع الله

رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بعمه أبى طالب ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مانزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين ، ولم يؤمر بعد بالجهاد أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة وقال إن بها ملكا صالحا لا يظلم ولا يظلم عنده أحد فأخرجوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً » ٠

فخرج إليها أحد عشر رجلا وأربع نسوة سراً ، وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والزبير بن العوام ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأبو حذيفة ابن عقبة ، وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو ، ومصعب بن عمير ، وأبو سلمة بن عبد الأسد ، وزوجته أم سلمة بنت أمية ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة ، وامرأته ليلى بنت أبى خيثمة ، وحاطب بن عمرو ، وسهيل بن بيضاء ، فخرجوا إلى البحر،وأخذوا سفينة بنصف دينار إلى أرض الحبشة ، وذلك في رجب في السنة الخامسة من مبعث النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذه هى الهجرة الأولى ٠

ثم خرج بعدهم جعفر بن أبى طالب ، وتتابع المسلمون ، فكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة من المسلمين اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان ٠

فلما علمت قريش بذلك وجهوا عمرو بن العاص وجماعة بهدايا إلى النجاشي وبطارقته ليردهم إليهم ، فدخل اليه عمرو ، وقال له : أيها الملك إنه قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها ، وزعم أنه نبى ، وإنه قد بعث إليك برهط من أصحابه ليفسدوا عليك قومك ، فأحببنا أن نأتيك ونخبرك خبرهم ، وإن قومهم يسألونك أن تردهم إليهم ، فقال : حتى نسألهم ، فأمر بهم ، فأحضروا ٠

فلما أتو باب النجاشي قالوا : يستأذن أولياء الله ، فقال : ائذنوا لهم فمرحبا بأولياء الله ، فلما دخلوا عليه سلموا ، فقال الرهط من المشركين : أيها الملك ألا ترى أنا قد صدقناك ، إنهم لم يحيوك بتحيتك

التى تحيا بها ، فقال لهم الملك : مامنعكم أن تحيونى بتحيتى؟ فقالوا له: إنا حييناك بتحية أهل الجنة ، وتحية الملائكة ، فقال لهم النجاشي : ما يقول صاحبكم في عيسي وأمه ؟ فقال جعفر بن أبى طالب : يقول هو عبد الله ورسوله ، وكلمة الله وروح منه ، ألقاها إلى مريم العذراء ، ويقول في مريم إنها العذراء البتول .

قال : فأخذ النجاشي عوداً من الأرض وقال : والله مازاد صاحبكم على ماقال عيسي قدر هذا العود،فكره المشركون قوله وتغيرت وجوههم فقال : هل تعرفون شيئاً مما أنزل على صاحبكم ؟ قالوا : نعم ، قال : اقرأوا ، فقرأ جعفر سورة مريم ، وهنالك قسيسون ورهبان وسائر النصارى ، فعرفوا ماقرأ فانحدرت دموعهم مما عرفوا من الحق،فانزل الله فيهم : (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون) إلى آخر الآيتين ، فقال النجاشي لجعفر وأصحابه : اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي : يعنى إنكم آمنون .

فرجع عمرو وأصحابه خائبين ، وأقام المسلمون عند النجاشي بخير دار وخير جوار إلى أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وعلا أمره وقهر أعداءه ، وذلك في سنة ست من الهجرة .

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي على يد عمرو ابن أمية الضمرى أن يزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكانت قد هاجرت مع زوجها ومات عنها ، فأرسل النجاشي جارية يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطبها ، فسرت بذلك وأعطت الجارية أوضاحا كانت لها ، وأذنت لخالد بن سعيد في نكاحها ، فأنكحها رسول الله صلى الله عليه وسلم على صداق مبلغه أربعمائة دينار .

وكان الخاطب لرسول الله صلى الله عليه وسلم النجاشي ، فارسل إليها بجميع الصداق على يد جاريته أبرهة ، فلما جاءتها بالدنانير وهبتها منها خمسين دينارا فلم تأخذها ، وقالت : إن الملك أمرنى أن

لا آخذ منك شيئاً ، وقالت : أنا صاحبة دهن الملك وثيابه ، وقد صدقت بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمنت به ، وحاجتي إليك أن تقرئيه مني السلام ، قالت : نعم ، فقالت : قد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بما عندهن من دهن وعود ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه عندها فلا ينكره .

قالت أم حبيبة : فخرجنا إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحاصر خيبر ، فخرج من خرج إليه ممن قدم من الحبشة ، وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت عليه، فكان يسألني عن النجاشي ، وقرأت عليه السلام من أبرهة جارية الملك فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام . وأنزل الله عز وجل (عسي الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة) يعني أبا سفيان ، وذلك بتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم حبيبة ، ولما بلغ أبا سفيان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أم حبيبة، قال : ذلك الفحل لا يجدع أنفه .

وبعث النجاشي بعد خروج جعفر وأصحابه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ابنه أزهى في ستين رجلا من أصحابه وكتب إليه :

« يا رسول الله ، إنى أشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك جعفرا وأسلمت لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك ابنى أزهى وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلت ، والسلام عليك يا رسول الله » .

فركبوا في سفينة في أثر جعفر حتى إذا كانوا في وسط البحر غرقوا ، ووافى جعفر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بخيبر

ووافى مع جعفر سبعون رجلا عليهم الثياب الصوف ، منهم اثنان وستون رجلا من الحبشة ، وثمانية من الشام ، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة يس إلى آخرها ، فبكى القوم حين سمعوا

القرآن وآمنوا ، وقالوا ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسي عليه السلام ، فأنزل الله فيهم قوله (ولتجدن أقربهم مودة للذينآمنوا الذين قالوا إنا نصارى) يعنى وفد النجاشي الذين قدموا مع جعفر ، وهم السبعون ، وكانوا من أصحاب الصوامع ·

وقيل : نزلت في ثمانين رجلا : أربعون من نصارى نجران من بنى الحارث ابن كعب ، وثلاثون من الحبشة ، وثمانية روميون من أهل الشام ·

وقال قتادة : نزلت في ناس من أهل الكتاب كانوا على شريعة من الحق مما جاء به عيسي عليه السلام ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم آمنوا به وصدقوه ، فاثنى الله عليهم بقوله (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) ·

بين سبحانه وتعالى سبب مودة النصارى للذين آمنوا :

أولا : أن منهم علماء متزهدون ، وعباداً في الصوامع متعبدين ، والعلم مع الزهد ـ وكذلك العبادة ـ مما يلطف القلب ويرققه ، ويزيل مافيه من الجفاء والغلظة فلذلك لا يوجد فيهم ـ غالبا ـ غلظة اليهود وشدة المشركين ·

ثانياً : أنهم لا يستكبرون ، أى ليس فيهم كبر ولا عتو وامتناع عن الحق ، وذلك موجب لقربهم من المسلمين ومن محبتهم ، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر ·

ثالثاً : أنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول الذى بعثه الله رحمة للعالمين ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق حتى يتدفق من جوانبها لكثرته ، قال امرؤ القيس :

ففاضت دموع العين منى صبابة   على النحر حتى بل دمعى محملى

وخبر مستفيض : إذ كثر وانتشر كفيض المـاء عن الكثرة ، وهذه أحوال العلماء يبكون ، وقال تعالى (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) ٠

ولمـا ذكر تعالى الأنبياء المـكرمين وخـواص المرسـلين ، وذكر فضائلهم ومراتبهم أخبر أنهم كانوا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكيا وقال : (الله الذى نزل أحسن الحـديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) وقال : (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ٠

ثم ذكر سبحانه وتعالى مايكون منهم من القول إثر بيان ما كان من حالهم فقال (يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) أى آمنا بهـذا الكتاب النازل من عندك على محمد وبمن أنزلته عليه ، فاكتبنا مـع الشاهدين على الناس يوم القيامة من أمة محمد ، أو مع الشاهدين بأنه حق ، أو مع الشاهدين بصدق محمد وأنه رسولك إلى الناس ٠

والأول أقرب فهم يشـهدون لله بالتوحيـد ولرسـله بالرسالة وبصحة ماجاءوا به ، ويشـهدون على الأمـم السابقة بالتصـديق والتكذيب ، وهم عدول ، شهادتهم مقبولة ، كما قال تعالى : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) ٠

وقوله : (وما لنـا لا نؤمن بالله) الآية، كلام مستأنف والاستفهام للاستبعاد ، أى أى شيء حصل لنا حال كوننا لا نؤمن بالله ، وبما جاءنا

والمعنى : أنهم استبعدوا انتفاء الإيمان منهم مع وجود المقتضي له ، أي وما الذى يمنعنا من الإيمان بالله ، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا الذى لا يقبل الشك والريب ، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا ربنا الجنة مع القوم الصالحين ، أليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه ٠

ثم بين جل وعلا ماجازاهم به ، فقال : (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين) أى فجزاهم الله وأعطاهم من الثواب بما نطقت به ألسنتهم معبراً عما في قلوبهم من خالص الإيمان وصحيح الاعتقاد جنات وحدائق في دار النعيم تجرى من تحتها الأنهار التى تسيل مياهها ، كما قال تعالى : (فيها أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى) وقال تعالى : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) الآية ·

وقوله : (وذلك جزاء المحسنين) أى وذلك المذكور من الأمر الجليل جزاء المحسنين ، لقد أحسنوا الاستماع وأحسنوا الإدراك وأحسنوا الإيمان ، وأحسنوا القول ، وساروا في طريق العمل الصالح، وذلك جزاء المحسنين ، وصلى الله على محمد وآله وسلم ·

مما يفهم من آيات الدرس ، وذكر بعض المفاسد المترتبة على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

(١) لعن الله لمن كفر من بنى إسرائيل ·
(٢) أن ذلك من أسبابه عصيانهم وظلمهم لعباد الله ·
(٣) أنهم كانوا يفعلون المنكر ولا يبالون ·
(٤) أنهم لا ينهى بعضهم بعضاً ·
(٥) أن ذلك دليل على تهاونهم بأمر الله ·
(٦) أن معصيته خفيفة عليهم ·
(٧) أنهم لا يعظمونه ويقدرونه حق قدره ، وإلا لغاروا لمحارمه وغضبوا لغضبه ·
(٨) إثبات صفة اللعن · (٩) التحذير من معاصي الله ·
(١٠) وجوب الإنكار على من فعل المعصية باليد . فإن لم يستطع فباللسان ، فإن لم يستطع فبقلبه ·
(١١) أن السكوت عن المنكر مع القدرة موجب للعقوبة ·

(١٢) أن في السكوت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مفاسد عظيمة وشرور وأضرار ومحن وتأمل ماحصل ومايحصل ٠

(١٣) أن ذلك يجرىء الفسقة والعصاة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها ويضرب على أيديهم ٠

(١٤) أن بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يزداد الشر ، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية ٠

(١٥) أن بإهمال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر ، حتى لا يقدرون على ماكانوا يقدرون عليه أولا ٠

(١٦) أن بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يندرس العلم ويكثر الجهل ويفشو الزنا واللواط والسرقة ونحوها ٠

(١٧) أن في ترك النهى عن المنكر مع طول المدة يزول قبحه من من النفوس ويصير عادة للمتجرئين على المعاصي ، ويزول سلطان الدين من قلوبهم وتترك أحكامه ورائهم ظهريا ٠

(١٨) أن بترك النهى عن المنكر وتكرارها ، أى المنكرات ، وصدورها من كثير من الناس ، ربما ظن بعض الناس أنها ليست بمعصية ، وربما ظن أنها عبادة ٠

(١٩) أن في الآية إرشاداً للمؤمنين وعبرة لهم حتى لايفعلوا فيكونوا مثلهم ، ويحل بهم غضب الله ولعنته ٠

(٢٠) جواز لعن الكافرين وإن كانوا من أولاد الأنبياء ٠

(٢١) أن شرف النسب لا يمنع إطلاق اللعنة في حقهم ٠

(٢٢) في الآية النهى عن مجالسة المجرمين ٠

(٢٣) دليل على تقدم المعاصي في اليهود ٠

(٢٤) النهى عن الاعتداء على خلق الله ٠

(٢٥) أن عقوبة المعاصي إذا جاءت تعم ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة »٠

(٢٦) رأفة الله بخلقه حيث ذكر لهم ما وقع لمن قبلهم ليحذروه ٠

(٢٧) تقبيح فعلهم والتعجب منه ·

(٢٨) ذمهم على اقتراف بعض المنكرات ·

(٢٩) الرد على الجبرية النافين لأفعال العباد ·

(٣٠) الرد على من قال : إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم

(٣١) إثبات صفة الكلام لله ·

(٣٢) أن الجامع بينهم وسبب ألفتهم هو الفسق ·

(٣٣) أن أشد عداوة للمؤمنين اليهود والذين أشركوا ·

(٣٤) أن اليهود أهل حسد للمؤمنين وصعبة إجابتهم إلى الحق ·

(٣٥) أن اليهود قرناء المشركين في العداوة للمؤمنين ·

(٣٦) الحث على العلم · (٣٧) الحث على العبادة ·

(٣٨) النهي عن الكبر · (٣٩) الحث على التواضع ·

(٤٠) أن في تقديم اليهود على المشركين مايفيد تفوق اليهود على العرب فيما وصفوا به فضلا عما امتازوا به من قتل بعض الأنبياء ، وإيذاء البعض الآخر،واستحلال أكل أموال الناس بالباطل والحيل والمكر والخديعة ·

(٤١) دليل على علو الله على خلقه ·

(٤٢) دليل على أن القرآن منزل ، غير مخلوق ·

(٤٣) الرد على من قال إنه مخلوق كالمعتزلة والجهمية ·

(٤٤) الحث على تدبر القرآن ·

(٤٥) الحث على الخشوع عند قراءة القرآن ·

(٤٦) إثبات الربوبية ·

(٤٧) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·

(٤٨) الرد على من أنكر رسالته صلى الله عليه وسلم ·

(٤٩) أن عرفان الحق سبب للخشوع إذا أراد الله ·

(٥٠) أن القرآن حق ، يدل لذلك أيضاً قوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وقال تعالى : « بل نقذف بالحق على الباطل » ·

(٥١) الحث على سؤال الله أن يدخله مع القوم الذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة والفضائل والآداب الكاملة ·
(٥٢) الترغيب في صحبة المؤمنين الصالحين ·
(٥٣) دليل على جود الله وكرمه ، فإنه أعطى الكثير على العمل القليل الذى وفق عبده له وهو أعلم بالمهتدين ·
(٥٤) إثبات الألوهية لله جل وعلا ·
(٥٥) إثبات البعث والحشر للخلائق ·
(٥٦) إثبات الحساب والجزاء على الأعمال ·
(٥٧) إثبات الجنة ·
(٥٨) أن الجنة أعدها للمؤمنين الصالحين ·
(٥٩) أن فيها أنهاراً ·
(٦٠) أن اللسان ذا حدين إن استعمل في طاعة الله ومراضيه ، وطابق ما في قلب صاحبه ، بأن كان عن إخلاص ومعرفة أفلح صاحبه ، وإن كان بضد ذلك ، بأن استعمله في معاصي الله خسر صاحبه خسراناً لا يعادله خسران ·
(٦١) أنهم خالدون في الجنة · (٦٢) دليل على بقاء الجنة ·
(٦٣) الحث على الإحسان ·
(٦٤) مدح أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون بالحق·
(٦٥) أن الله جل وعلا حقق رجاءهم وكتب لهم الفلاح ، أى الذين قالوا « ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين » ·
(٦٦) أن من أخلص في إيمانه وصديقيته ، واستقام على الكتاب والسنة يكون ثوابه الجنة ·
(٦٧) دليل على الأفعال الاختيارية ·
(٦٨) إثبات صفة العلم ، وأنه يعلم ماتكن الصدور وما يعلن ·
(٦٩) الرد على الجهمية ونحوهم من نفاة الصفات .
(٧٠) التحذير من تولي الذين كفروا ·

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم ·

بسم الله الرحمن الرحيم

عاقبة من افترى على الله كذبا والدليل على قدرة الله سبحانه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون . ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون . إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى . ذلكم الله فأنى تؤفكون . فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) .

قيل : إن هذه الآيات نزلت في عبد الله بن سعد بن أبى سرح، وكان قد أسلم ، وكان يكتب للنبى صلى الله عليه وسلم ، وكان إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما ، وإذا قال عليما حكيما كتب غفور رحيما ، فلما نزلت « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » أملاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فعجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان ، فقال تبارك الله أحسن الخالقين فقال النبى صلى الله عليه وسلم اكتبها فهكذا نزلت فشك عبد الله وقال لئن كان محمد صادقا لقد أوحى إلي كما أوحى إليه . فارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين ثم رجع عبد الله إلى الإسلام قبل فتح مكة إذ نزل رسول الله صلى الله عليه

وسلم بمر الظهران ، وقال قتادة نزلت في مسيلمة الكذاب وكان يسجع ويتكهن ، فادعى النبوة وزعم أن الله أوحى إليه وكان قد أرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولين فقال النبى صلى الله عليه وسلم لهما : « أتشهدا أن مسيلمة نبى ؟ قالا : نعم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما » وفي حديث أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بينا أنا نائم إذ أوتيت من خزائن الأرض ، فوضع في يدى سواران ذهب فكبرا علي وأهمانى فأوحى إلي أن أنفخهما فنفختهما فذهبا ، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما : صاحب صنعاء وصاحب اليمامة : أراد بصاحب صنعاء الأسود العنسي ، وبصاحب اليمامة مسيلمة الكذاب زوج سَجاح بنت المنذر التى تنبأت ، قال الشاعر :

أَضْحَتْ نبيتُنا أُنثَى يُطافُ بها   وأصبَحَتْ أنبياءُ اللهِ ذكرانا

وقال الآخر :

أَمَّتْ سَجاح ووالاها مسيلمة   كَذّابَةٌ في بنى الدنيا وكَذّابُ

المعنى يقول تعالى : لا أحد أظلم ممن كذب على الله بأن نسب إلى الله قولا أو حكما وهو تعالى برىء منه ، وإنما كان هذا أظلم الخلق لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها ونسبة ذلك إلى الله ما هو من أكبر المفاسد ، ويدخل في ذلك ادعاء النبوة وأن يوحى إليه وهو كاذب في ذلك ، فإنه مع كذبه على الله وجرأته عليه يوجب على الخلق أن يتبعوه ويجاهدهم على ذلك ويستحل دماء من خالفه وأموالهم ، ويدخل في ذلك مسيلمة الكذاب والأسود العنسي والمختار وطليحة الأسدى الذى ادعى النبوة في بنى أسد ، ونحوهم من كل من ادعى ذلك أو يدعيه في أى زمان ومكان .

(ومن قال سأنزل مثل ماأنزل الله) أى ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على مايقدر الله عليه ويجارى في أحكامه ويشرع من الشرائع كما

شرعه الله ويدخل في هذا كل من زعم أنه يقدر على معارضـة القرآن وانه في امكانه ان يأتي بمثله كمن قال من المشركين « لو نشاء لقلنا مثل هذا » فقد أثر عن النضر ابن الحارث أنه كان يقول إن القرآن أساطير الاولين فهذا ظلم عظيم وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات الناقص من كل وجه مشاركة القوي الغنى الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته . ولما ذم تعالى الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار ويوم القيامة لشـدة جرمهم وعظيم ذنبهم فقال « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت » الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم . ثم لكل من سمعه أو قرأه ، أي ولو تبصر إذ يكون الظالمون ـ سواء منهم من ذكروا في الآية أو غيرهم ـ في غمرات الموت وعي سكراته وما يتقدمها من شدائد وآلام تحيط بهم كما تحيط غمرات الماء بالغرق ومايجدونه من الأهوال الفظيعة والكرب الشنيعة ، لرأيت أمرا هائلاوحالة لا يقدر الواصف أن يصفها ولاقدرة للبيان على تجلى كهنها وحقيقتها (والملائكة باسطوا أيديهم) أى مادوا أيديهم إلى اولئك الظالمين المحتضرين لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والضرب والعذاب . وما أشار إليه في هذه الآية من العذاب صرح به في قوله (ولو ترى إذ يتوفي الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) وبين في موضع آخـر أنه يراد ببسط اليـد التنـاول بالسوء كقوله (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) وقـوله : (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى) الآية ثم حكى سبحانه أمر الملائكة لهم على سبيل التقريع والتوبيخ حين بسط أيديهم لقبض أرواحهم وقلعها وتعصيها عن الخروج من الأبدان (أخرجـوا أنفسكم) أى من هـذه الغمرات التى وقعتم فيها أو أخرجوا أنفسكم من أيدينا وخلصوها من العذاب أو أخرجوا أنفسـكم من أجسادكم وسلموها إلينا لنقبضـها ، وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغـلال والسلاسل والجحيم والحميم والغسـاق وغضـب الرحمـن فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج

أرواحهم من أجسادهم (اليوم تجزون عذاب الهون) أى اليوم الذى تقبض فيه أرواحكم تلقون عـذاب الذل والهوان بعـد ماكنتم فيه من الكبر والعظمة والفخر (بما تقولون الله على غير الحق) الباء للسببية أي بسبب ماكنتم تقولون مفترين على الله غير الحق ، كقول بعضـهم (ماأنزل الله على بشر من شيء) وقوله الآخر (أوحى إلى ، ولم يوحى إليه شيء) وإنكار طائفة لمـا وصف الله به نفسه من الصفات واتخاذ أقوام له البنين والبنات واستكبار آخرين عن الاعتراف بما أنزله من الآيات على رسله احتقاراً منهم للرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام ، ولذلك قال تعالى (وكنتم عن آياته تستكبرون) ٠

وقال ابن مسعود في قوله تعالى « فان له معيشة ضنكا » ٠

قال المعيشة الضنك هى عذاب القبر ، ومن الأدلة قوله تعـالى : (ولو ترى إذ يتوفي الذين كفروا الملائكة يضربون وجـوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) فهذه الإذاقة هي في البرزخ ، وأولها حين الوفاة

وفي الصحيح عن البراء بن عـازب رضي الله عنه في قوله تعـالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال نزلت في عذاب القبر ومن الأدلة قوله تعالى (وإن للذين ظلموا عذابا دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقـوله تعالى (ممـا خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا نارا) وقوله تعالى في حق آل فرعون « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا » ٠

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بقبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، ثم قال: بلى ، إنه كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » الحديث متفق عليه ٠

وفي حديث أنس رضي الله عنه « تنزهوا من البول فإن عامة عـذاب القبر منه » وعن زيد بن ثابت قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في حائط لبنى النجار على بغلة له ونحن معه إذ حادت به وكادت تلقيه وإذا أقبر ستة أو خمسة ، فقال من يعرف أصحاب هذه الأقبر ؟ قال

رجل : أنا ، قال فمتى ماتوا ؟ قال : في الشرك فقال إن هذه الأمة تبتلى في قبورها فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذى أسمع منه » ثم أقبل بوجهه علينا فقال : « تعوذوا بالله من عذاب القبر قالوا نعوذ بالله من عذاب القبر » الحديث رواه مسلم .

وعن ابن عباس أنه قال لرجل ألا أتحفك بحديث تفرح به قال بلى قال اقرأ تبارك الذى بيده الملك وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب أن ينجيه من عذاب النار وينجي بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتى » وورد أن رجلا غل شملة من المغنم فجاء سهم عائر فاصابه فقتله فقال الناس هنيئاً له الجنة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كلا والذى نفسي بيده إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم التى لم تصبها المقاسم تشتعلّ عليه نارا » .

وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ـ لمحمد صلى الله عليه وسلم ـ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال : أنظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً ، وأما المنافق والكافر فيقال له ماكنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : لا أدرى ، كنت أقول مايقول الناس ، فيقال لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين » متفق عليه .

وعن عبد الله بن عمر ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة » متفق عليه .

وعن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب

القبر ، فقالت لها ، أعاذك الله من عذاب القبر ، فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر ، فقال : « نعم : عذاب القبر حق » ، قالت عائشة فمارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ بالله من عذاب القبر ، متفق عليه ٠

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما المنكر وللآخر النكير ، فيقولان : ماكنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول : هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله ، فيقولان : قد كنا نعلم أنك تقول هذا ، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعا في سبعين ، ثم ينور له فيه ، ثم يقال له نم ، فيقول : أرجع إلى أهلى فأخبرهم ؟ فيقولان : نم كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك ، وإن كان منافقاً قال سمعت الناس يقولون شيئاً فقلت مثله ، لا أدرى ، فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول ذلك ، فيقال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه ، فتختلف أضلاعه فلايزال فيها معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك » رواه الترمذى ٠

وعن البراء بن عازب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول ربى الله ، فيقولان له : مادينك ؟ فيقول : دينى الإسلام ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ، فيقولان له : ومايدريك ؟ فيقول قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال فيناد مناد من السماء أن صدق عبدى ، فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابا إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فيها مد بصره » ٠

وأما الكافر فذكر موته قال : «ويعاد روحه فيجسده ويأتيه ملكان فيجلسانه ، فيقولان : من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، فيقولان له:

ما دينك ؟ فيقول هاه هاه لا أدرى ، فيقولان : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول هاه هـــاه لا أدرى ، فينادى منـــاد من السماء أن كذب عبدي فافرشوه من النار وألبسوه من النار ، وافتحوا له بابا إلى النار ، قال فيأتيه من حرها وسمومها ، قال ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيــه أضلاعه ، ثم يقيض له أعمى أصم معه مرزبة من حديد لو ضرب بهــا جبل لصار ترابا ، فيضربه بها ضربة يسمعها ما بين المشرق والمغرب إلا الثقلين فيصير ترابا ثم يعاد فيه الروح » رواه أحمد وأبو داود ٠

وعن أبي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليسلط على الكافر في قبره تسعة وتسعون تنيناً تنهشه وتلدغه حتى تقـوم الساعة لو أن تنيناً منها نفخ في الأرض ما أنبتت خضراً » رواه الدارمى، وروى الترمذى نحوه وقال سبعون بدل تسعة وتسعون ٠

وعن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « هــذا الذى تحرك له العرش ، وفتحت له أبواب السماء ، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه » رواه النسائى ٠

وقوله تعالى : (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة) أى يقال يوم القيامة : ولقد جئتمونا وحدانا منفردين عن الأنداد والأوثان والأهل والأولاد والإخوان ، مجردين من الخدم والأملاك والاموال ، كما كما خلقناكم أول مرة من بطون أمهاتكم ، حفاة عراة غرلا ٠

كما قال تعالى : (وعرضـــوا على ربك صـــفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى كما بدأناكم أعدناكم ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه،وتقولون أئذامتنا وكنا ترابا ذلك بعيد ويقولون (من يحي العظام وهى رميم) ، وقوله (وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم) يعنى وتركتم الذى أعطيناكم وملكناكم من الأموال والأولاد ، فلم ينفعكم ولم تحتملوا منه نقيراً ولا قدمتموه لأنفسكم ، وأشار بقوله وراء ظهوركم إلى الدنيا لأنهم يتركون ماخولوه موجوداً ٠

وثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك إلا ماأكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » ·

فما تزود مما كان يجمعه ··· سوى حنوط غداة البين في خرق
وغير نفحة أعواد تشب له ··· وقل ذلك من زاد لمنطلق

وقال الحسن البصرى : يؤتى بابن‌آدم‌يوم القيامة كأنه بذخ فيقول الله عز وجل : أين ماجمعت ؟ فيقول : يارب جمعته وتركته أوفر ماكان، فيقول له : ياابن آدم أين ماقدمت لنفسك ، فلا يراه قدم شيئاً ، وتلا هذه الآية (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) الآية ، رواه ابن أبى حاتم ·

وقوله : (وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) يقول نعالى ذكره لهؤلاء العادلين بربهم الأنداد يوم القيامة ، ما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم في الدنيا أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة ، وذلك أن المشركين كانوا يزعمون أنهم كانوا يعبدون الآلهة ، لأنهم شفعاء يشفعون لهم عند الله ، وأن هذه الآلهة شركاء لله ، قال‌تعالى مخبرا عما قالوا : (مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، وقال عنهم : (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ·

وقوله : (لقد تقطع بينكم) أى لقد تقطع ما بينكم من الوصل أو يكون المعنى ، لقد تقطع الأمر بينكم ، وقرىء برفع النون ، ومعناه لقد تقطع وصلكم والبين من الأضداد ، يكون وصلا ويكون هجراً ·

وفي الذى يزعمون أقوال ، أحدها : شفاعة الآلهة لهم ، وقيل : عدم البعث والجزاء · وقيل : مايزعمون من الربح والأمن والسعادة والنجاة التى زينها لهم الشيطان ، وحسنها في قلوبهم ، فنطقت بها ألسنتهم واغتروا بهذا الزعم الباطل الذى لا حقيقة له حين تبين لهم

نقيض ماكانوا يزعمون ، فذهب وبطل ماكانوا يكذبون في الدنيا،وظهر خسرانهم لأنفسهم وأهليهم وأموالهم يوم القيامة ٠

وقوله تعالى : (إن الله فالق الحب والنوى) لما تقدم الكلام على تقرير التوحيد وتقرير النبوة أردفه بذكر الدلالة على كمال قدرته وعلمه وحكمته تنبيهاً بذلك على أن المقصود الأعظم هو معرفة الله سبحانه وتعالى بجميع صفاته وأفعاله وأنه مبدع الأشياء وخالقها ، ومن كان كذلك كان هو المستحق للعبادة ، لا هذه الأصنام التى كانوا يعبدونها ، وتعريفاً منه خطأ ماكانوا عليه من الإشراك الذى كانوا عليه ، والمعنى أن الذى يستحق العبادة دون غيره هو الله الذى لا إله إلا هو ٠

والفلق : الشق ، قال الحسن وقتادة والسدى : معناه يشق الحبة عن السنبلة ، والنواة عن النخلة فيخرجها منها ، والحب جمع حبة ، وهى اسم لجميع البذور والحبوب من البر والشعير والذرة وكل مالم يكن له نوى ، وقال الزجاج : يشق الحبة اليابسة ، والنواة اليابسة ، فيخرج منها ورقا أخضر ٠

والخلاصة : أن هذا شامل لكل الحبوب التى يباشر الناس زرعها والتى لا يباشرونها كالحبوب التى يبثها الله في البرارى والقفار فيفلق الحبوب عن الزرع والنوابت على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه وغير ذلك ، فينتفع بها الخلق من الآدميين والأنعام والدواب ، ويقتاتون وينتفعون بها بجميع أنواع المنافع التى جعلها الله في ذلك ٠

وفي شعر أمية بن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه كما ورد في الحديث ، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل رضي الله عنه :

وأنت الذى من فضل من ورحمة ... بعثت إلى موسي رسولا منادياً

فقلت له فاذهب وهارون فادعوا ... إلى الله فرعون الذى كان طاغيا

إلى أن قال :

وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه العشب يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤسه ففى ذاك آيات لمن كان واعيا

وقوله : (يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى) في معنى ذلك ثلاثة أقوال :

أحدها : إنه إخراج الإنسان حيأ من النطفة وهى ميتة ، واخراج النطفة من الإنسان ، وكذا إخراج الفرخ من البيضة ، وإخراج البيضة من الطائر ، هذا قول ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وابن جبير والجمهور .

والثانى : إنه إخراج الحي[1] بالإيمان من الكافر الميت بالكفر ، واخراج الكافر[2] الميت بالكفر من المؤمن الحي بالإيمان ، روى نحو هذا الضحاك عن ابن عباس ، وهو قول الحسن وعطاء .

والثالث إنه إخراج السنبلة الحية من الحبة الميتة،والنخلة الحية من النواة الميتة والنواة الميتة من النخلة الحية ، قاله السدى وقال الزجاج : يخرج النبات الغض من الحب اليابس ، والحب اليابس من النبات الحى النامى .

وقوله : (ذلكم الله) : أى فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ، (فأنى تؤفكون) ، فكيف تصرفون عن عبادته وتشركون به من لا يقدر على شيء من ذلك كما قال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) ، وقال تعالى : (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون) ، وقال تعالى : (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشورا) ، وقال : (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) .

---

(١) كإخراج إبراهيم الخليل من آزر.
(٢) كإخراج ابن نوح من نوح.

وقوله : (فالق الإصباح) الإصباح مصدر سمى به الصبح ، قال امرؤ القيس :

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثل

فهو سبحانه خالق الضياء والظلام ، كما في أول السورة ، وجعل الظلمات والنور ، فهو يفلق ظلام الليل عن غرة الصبح فيضيء الوجود، ويستنير الأفق ويضمحل الظلام ويذهب الليل بسواده وظلامه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه كقوله تعالى : (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً) فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته وعظيم سلطانه ، فذكر أنه فالق الإصباح ، وقابل ذلك بقوله : (وجعل الليل سكنا) أى يسكن إليه من يتعب بالنهار ، ويستأنس به لاسترواحه فيه ، وكل ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحا إليه من حبيب أو زوج ، قال تعالى: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها) ٠

وعن قتادة : إن المعنى : يسكن فيه كل طير ودابة ، وروى نحوه عن ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهم ٠

فالمراد حينئذ جعل الليل مسكونا فيه من السكون أى الهدوء والاستقرار ، كما في قوله تعالى : (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) ، وقوله : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) فالليل وقت الراحة والسكون ، لأنه لا يتيسر فيه من الحركة وأنواع الأعمال مايتيسر في النهار ، لما خص به الليل من الإظلام والنهار من الإبصار ، وأكثر الأحيان من الإنسان والحيوان ، تترك العمل والسعى في الليل وتأوى إلى مساكنها للراحة التى لا تتم ولا تكمل إلا بالنوم الذى تسكن فيه الجوارح والخواطر ببطلان حركتها الإرادية كما تسكن به الأعضاء سكونا نسبياً ، فتقل نبضات القلب ،

ويقل إفراز خلايا الجسم للسوائل والعصارات التى تفرزها ، ويبطىء التنفس ويقل ضغط الدم في الشرايين ولاسيما أول النوم ، ويضعف الشعور حتى يكاد يكون مفقوداً ، ويستريح الجهاز العصبى لتستريح جميع الأعضاء ٠

وقوله : (والشمس والقمر حسبانا) أى يجريان بحساب مقدر مقنن لا يتغير ولا يضطرب ، بل لكل منهما منازل يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصراً ، كما قال تعالى : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) الآية وقال : (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) وقال : (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) ٠

وقد جمع الله في هذه الآية ثلاث آيات سماوية،كما جمع فيماقبلها ثلاث آيات أرضية ، فالآية الأولى : فلق الصبح والتذكير به للتأمل في صنع الله ــ الذى أتقن كل شيء ــ بإفاضة النور ، ومبدأ زمن تقلب الأحياء في القيام ومضيهم إلى ما يسروا له من الأعمال وما لله في ذلك من حكم وأسرار ٠

والآية الثانية : (جعل الليل سكنا) وذلك نعمة من الله ليستريح الجسم وتسكن النفس وتهدأ من تعب العمل بالنهار ٠

والآية الثالثة : (جعل الشمس والقمر حسبانا) وذلك فضل من الله عظيم ، فإن حاجة الناس إلى معرفة حساب الأوقات لعباداتهم ومعاملاتهم وتواريخهم لا تخفى على أحد منهم ٠

وقوله : (ذلك تقدير العزيز العليم) أى الجميع جار بتقدير العزيز الذى لا يمانع ولا يخالف العليم الذى أحاط علمه بكل شيء ، فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ٠

وقوله : (هو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر

والبحر) يذكر تعالى آية أخرى من آياته الكونية ويقرنها بذكر فائدتها وهى النجوم ، جعلها الله للناس أدلة في البر والبحر إذا ضلوا الطريق أو تحيروا ، قال تعالى : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) ٠

قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه ، أن جعلها الله زينة للسماء،ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها في ظمات البر والبحر ، قال القحطانى رحمه الله :

إن النجــوم على ثلاثة أوجــه   فاسمع مقــال الناقد الدهقان
بعض النجوم خلقن زيناً للسما   كالدر فوق ترائب النســوان
وكواكب تهدى المسافر في السرى   ورجــوم كل مشــابر شيطان

ولما في عالم السموات من بديع الصنع وبديع النظام ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : (قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون) أى بينـــاها ووضحناها وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخــر بحيث آيات الله بادية ظاهرة لقوم يعلمون بما في هذه الآيات من الدلالة على قدرة الله وعظمته وبديع حكمته وخص أهل العلم لأنهم الذين يوجه إليهم الخطاب ويطلب منهم الجواب وهم المنتفعون بالآيات وبعد أن ذكرنا جل وعلا ببعض آياته في الأرض والسماء ذكرنا بآياته في أنفسنا فقال : (وهــو الذى أنشأكم من نفس واحدة) المعنى أن الله هو الذى ابتدأ خلقكم أيها الناس فأوجدكم بعد أن لم تكونوا شيئاً ، من نفس واحدة ، يعنى من آدم عليه السلام ، فهو أبو البشر كلهم ، وحواء مخلوقة منه ، وعيسي أيضاً ، لأن ابتداء خلقه مريم وهى من بنات آدم ، فثبت أن جميع الخلق من آدم عليه السلام ٠

وفي إنشاء جميع البشر من نفس واحدة آيات بينات على قدرة الله وعلمه وحكمته ووحدانيته ، وقــد اختلف في المســتقر والمستودع ، فقيل : المستقر في الأصلاب والمستودع في الأرحام ، وإنما جعل الصلب مقر النطفة والرحم مستودعها لأن النطفة تتولد في الصــلب ابتداء ، والرحم شبيهة بالمستودع ، كما قيل :

وإنما أمهات الناس أوعية مستودعات وللآباء أبناء

وقيل : مستقر في الرحم ومستودع في القبر إلى أن يبعث ، وقيل: مستقر في بطون الأمهات ومستودع في أصلاب الآباء ، وقيل : مستقر على ظهر الأرض في الدنيا ، ومستودع عند الله في الآخرة ، وقيل : مستقرها أيام حياتها ومستودعها حيث يموت ، وحيث يبعث ، وقيل: مستقر في القبر ومستودع في الدنيا ٠

وأنشدوا قول لبيد :

وما المال والأهلون إلا ودائع ولابد يوماً أن ترد الودائع

وقال بعض المفسرين : الذى يقتضيه النظر أن الاستقرار والاستيداع حالان يعتوران على الإنسان من الظهر إلى الرحم ، إلى الدنيا إلى القبر ، إلى الحشر الى الجنة أو النار ٠

وفي كل رتبة يحصل له استقرار واستيداع استقرار بالإضافة إلى ما قبلها واستيداع ، بالإضافة إلى ما بعدها ، ولفظ الوديعة يقتضي الانتقال والله أعلم ٠

وقوله تعالى : (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون) أى بينا ووضحنا الدلائل الدالة على التوحيد والبراهين الواضحة والحجج النيرة لقوم يفقهون غوامض الدقائق ، ذكر سبحانه ههنا (يفقهون) وفيما قبله (يعلمون) ، لأن في إنشاء الأنفس من نفس واحدة ، وجعل بعضها مستقراً وبعضها مستودعاً من الغموض والدقة ماليس في خلق النجوم للاهتداء ، فناسبه ذكر الفقه لإشعاره بمزيد تحقيق وإمعان فكر وتدقيق نظر ، والله أعلم ٠

وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

مما يفهم من آيات الدرس ٩٣ ــ ٩٨ :

(١) أن لا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب أو قال أوحي إليه ولم يوح إليه شيء ·
(٢) النهى عن الظلم ·
(٣) إثبات الألوهية ·
(٤) النهى عن الكذب ·
(٥) الوعيد الشديد للظالمين ·
(٦) الوعيد الشديد لمدعى النبوة كمسيلمة ، والأسود العنسي ونحوهما ، لافترائهما على الله ·
(٧) دليل على علو الله على خلقه ·
(٨) أن القرآن منزل غير مخلوق ·
(٩) الرد على من قال إنه مخلوق كالمعتزلة والجهمية ·
(١٠) أنه ليس في الإمكان الإتيان بمثله ·
(١١) دليل على شدة سكرات الموت وأهواله وكربه في حق الظالمين المفترين على الله ·
(١٢) إثبات الملائكة ·
(١٣) أن للملائكة أيدى ·
(١٤) الرد على منكرى الملائكة من عمى البصائر المكذبين لله ورسوله ولما أجمع عليه المسلمون ·
(١٥) أن الملائكة تقبض الأرواح ·
(١٦) النهي والتحذير عن الاستكبار عن آيات الله ·
(١٧) توبيخ الكفار وتقريعهم حال النزع ·
(١٨) دليل على شدة عذاب الله ، وأنه لا يعذب عذابه أحد ·
(١٩) دليل على عذاب القبر ونعيمه ، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم إنما هو حال النزع عند الاحتضار ، وقبيل الموت وبعده ·
(٢٠) التحذير من الافتراء على الله وعلى رسله ·
(٢١) تقريع وتوبيخ آخر ، لأنهم صرفوا همهم في الدنيا إلى تحصيل المال والولد والجاه ، وأفنوا أعمارهم في عبادة الأصنام ، فلم يغن عنهم كل ذلك شيئاً في يوم القيامة ·
(٢٢) إثبات صفة الكلام لله ·

(٢٣) الرد على من أنكر صفة الكلام ·
(٢٤) أن الإنسان يأتي يوم القيامة فرداً ·
(٢٥) أنهم يأتون عراة ·
(٢٦) أنهم يأتون يوم القيامة حفاة عزلا كحالتهم الأولى ·
(٢٧) إثبات صفة الخلق لله ·
(٢٨) إثبات الأفعال الاختيارية ·
(٢٩) أنهم يتركون ماخولهم وراء ظهورهم ·
(٣٠) تقريع آخر على ماكانوا اتخـــذوا في الدنيـــا من الأنداد والأصنام والأوثان ·
(٣١) أن ظن المشركين في آلهتهم آل إلى الخيبة ·
(٣٢) أن الصلات والوسائل والأسباب التى كانت بينهم تقطع ·
(٣٣) أنه يذهب عنهم ما رجوا من الأصنام والأنداد ·
(٣٤) إثبات صفة الفلق ·
(٣٥) أن الله يخرج الحي من الميت وبالعكس ·
(٣٦) دليل على قدرة الله ·
(٣٧) دليل على البعث بعد الموت ، لأن القادر على إخراج البدن من النطفة قادر على إخراجه من التراب للحساب بلاشك ·
(٣٨) أن هذه القدرة تدل بذاتها على الألوهية ·
(٣٩) أن الله هو فالق الإصباح ·
(٤٠) نعمة الله بفلق الصبح ·
(٤١) نعمة الله بجعل الليل سكناً ·
(٤٢) نعمة الله بجعل الشمس والقمر حسباناً،بهما تعرف الأزمنة والأوقات ومدة ماضي الأوقات ··الخ ·
(٤٣) إثبات عزة الله ·
(٤٤) إثبات علم الله ·
(٤٥) دليل على حكمة الله ·

(٤٦) التنبيه على أعظم فوائد النجوم ، وهي الهداية للطرق والمسالك والجهات التي تقصد والقبلة .

(٤٧) أن الله هو الذي خلق النجوم للاهتداء بها .

(٤٨) أن الله جل وعلا بين الآيات بياناً مفصلا لقوم يعلمون .

(٤٩) الحث على العلم لفهم آيات الله .

(٥٠) أن أهل الجهل والاعراض عن آيات الله ، وعن العلم الذي جاءت به الرسل لا يفيدهم التفصيل شيئاً ، ولا يزيل عنهم ملتبسا .

(٥١) أن التحير والاشتباه غالباً ما يكون في الظلام .

(٥٢) آية أخرى ، وهي : خلق البشر من نفس واحدة .

(٥٣) دليل على قدرة الله الذي خلق الخلق من نفس واحدة .

(٥٤) لطف الله بخلقه أن جعل لهم مستقراً .

(٥٥) لطف الله ورحمته وعنايته بخلقه حيث جعل لهم مستودعاً يحفظهم فيه .

(٥٦) التعبير بالفقه هنا وفيما قبلها بالعلم لأن استخراج الحكم من خلق البشر يتوقف على غوص في أعماق الآيات وفطنة في استخراج دقائق الحكم .

وصلى الله على محمد وآله وسلم .

التحذير من فتنة الشيطان والأمر بالاعتدال وكراهية الإسراف

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرحيم

قال الله تعالى :

(يابنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون .

يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .

وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله مالا تعلمون . قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون .

يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون قل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه أمر آدم وحواء بالهبوط إلى الأرض وجعل الأرض مستقراً لهما وبقاء إلى زمن مقدر في علم الله ، وذكر أن

الشيطان عدو لهما أعقب ذلك بذكر ماامتن به عليهم مما يسره لهم من اللباس الضرورى واللباس الذى المقصود منه الجمال ، وهكذا سائر الأشياء كالطعام والشراب والمراكب والمناكح ونحوها ، قد يسر لعباده ضروريها ومكمل ذلك ، قال ابن جرير : الرياش في كلام العرب : الأثاث وما ظهر من الثياب ، وعن ابن عباس ومجاهد والسدي : أن المراد به المال ، وقال العوفي عن ابن عباس : الرياش اللباس والعيش والنعيم وقال ابن زيد ، الريش الجمال ·

وعن أبى العلاء الشامى قال : لبس أبو أمامة ثوبا جديداً ، فلما بلغ ترقوته قال : « الحمد لله الذى كسانى ما أوراى به عورتى وأتجمل به في حياتى » ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته: « الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في حياتي ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به ، كان في ذمة الله وفي جوار الله وفي كنف الله حياً وميتاً » رواه الترمذى وابن ماجه ·

وعن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استجد ثوبا سماه باسمه : عمامة أو قميصاً أو رداء ثم يقول : اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه أسألك خيره وخير ماصنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ماصنع له » رواه الترمذى ·

وعن أبى مطر أنه رأى عليا رضي الله عنه أتى غلاماً حدثاً فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ولبسه مابين الرسغين إلى الكعبين يقول حين لبسه : « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ماأتجمل به في الناس وأوارى به عورتى » فقيل له هذا شيء ترويه عن نفسك أو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : هذا شيء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند الكسوة : « الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ماأتجمل به في الناس وأوارى به عورتى » رواه الامام أحمد ·

ثم بين الله تعالى لهم أن هذا ليس مقصوداً بالذات وإنما أنزله الله للعباد ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته ، ولهـذا قال (ولبـاس التقوى ذلك خير) اختلف في تفسير لباس التقوى فقال بعضهم : هـو الإيمان وقيل : الحياء وقيل : الإسلام وقيل : العمل الصالح وقيل : خشية الله وقيل : السمت الحسن في الوجه وقال الكلبى : هو العفاف وقيل : لباس التقوى لباس الورع واتقاء معاصي الله وهو الورع نفسه والخشية من الله فذلك خير لباس وأجمل من اللباس الحسي فإن لباس التقوى يستمر مع العبد ولا يبلى ولا يبيد وهو جمال القلب والروح وأما اللباس الظاهر فغـايته أن يستر العـورة الظاهرة في وقت من الأوقات ، أو يكون جمالا للإنسان وليس وراء ذلك منـه نفع ، وأيضاً فبتقدير عدم هذا اللباس تنكشف العورة الظاهرة التى لا يضر كشفها مع الضرورة وأما بتقدير عدم لبـاس التقوى فإنهـا تنكشف عورته الباطنة ويناله الخزى والفضيحة ، قال بعضهم ٠

إذا المرء لم يلبس لباساً من التقى — تقلب عرياناً وإن كان كاسياً

وقال الآخر :

إذا أنت لم تلبس ثياباً من التقى — عريت وإن دارى القميص قميص

وقال الآخر :

وخـير لبـاس المـرء طاعـة ربه — ولا خـير فيمن كان لله عاصـياً

وقوله : (ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون) أى ذلك المتقدم ذكره من النعم بإنزال الملابس من آيات الله الدالة على أنه الخالق وعلى قدرته وعلى إحسانه ولطفه وفضله على بنى آدم لعـلهم يذكرون فيعرفون نعمته جل وعلا عليهم ويستعينون باللباس الظاهر على اللباس الباطن ويقومون بما يجب عليهم من الشكر ويتعظون فيترفعون عن القبائح ويبعدون من فتنة الشيطان وإبداء العورات ٠

ثم كرر سبحانه النداء لبني آدم تحذيراً لهم من الشيطان ، وفائدة تكرار النداء للايذان بكمال الاعتناء بمضمون ماصدر به فقال : « يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما » يقول تعالى ذكره يا بني آدم لا يخدعنكم الشيطان فيبدى سوآتكم للناس بطاعتكم إياه عند اختباره لكم كما وسوس لأبويكم آدم وحواء عند اختباره إياهما فزين لهما المعصية فأطاعاه وأكلا من الشجرة التى نهاهما ربهما عنها فأخرجهما بما سبب لهما من مكره وخدعه من الجنة ونزع عنهما ماكان ألبسهما من اللباس ليريهما سوآتهما بكشف عورتهما وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترة وأضاف نزعه إلى الشيطان وإن لم يباشر ذلك لأنه كان بسبب وسوسته ، فأسند اليه وصيغة المضارع لاستحضار الصورة التى وقعت فيما مضي والنزع الجذب للشيء بقوة عن مقره ومنه « تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر » ومنه نزع القوس ويستعمل في الإعراض ومنه نزع العداوة والمحبة من القلب ونزع فلان كذا سلبه ومنه « والنازعات غرقا » لأنها تقلع أرواح الكفرة بشدة ومنه المنازعة وهى المخاصمة والنزع عن الشيء الكف عنه والنزوع الاشتياق الشديد ومنه نزع إلى وطنه ، واختلفوا في اللباس فقيل : الظفر ، وقيل ، النور ، وقيل : التقوى وقيل : كان من ثياب الجنة .

وقوله (ليريهما سوآتهما) اللام لام كى ، أى لكى يريهما عوراتهما وقوله (إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) : قبيله : قيل جنوده قال مجاهد يعني الجن والشياطين وقال ابن زيد : قبيله نسله ، وقيل جيله ، أى إن إبليس وجنوده من شياطين الجن يرونكم ولا ترونهم ، وهم أجسام لطيفة معلوم من هذه الشريعة وجودهم كما أن الملائكة أيضاً معلوم وجودهم من هذه الشريعة ولا يستنكر وجود أجسام لطيفة جداً لا نراها نحن : من ذلك الهواء ، جسم لطيف لا ندركه نحن وقام البرهان على وجوده ، فإذاً يجب الاحتراز من إبليس وجنوده لأن الضرر إذا جاء من حيث لا يرى كان خطره أشد ، ووجوب العناية

بإتقائه أعظم كما يرى في بعض الأوبئة التى ثبت وجودها في هذا العصر بالمجهر (التليكسوب) فإنها تنفذإلىالأجسام بنقل الذباب أوالبعوض أو مع الطعام أو الشراب أو الهواء فتتوالد وتنموا بسرعة وقد تسبب للإنسان أمراضاً مستعصية العلاج كالحمى الصفراء (الملاريا) والتيفود والتيفوس والسل والسرطان إلى نحو ذلك ٠

وفعل جنة الشياطين في أرواح البشر أعظم من فعل هذه الجنة التى يسميها الأطباءالميكروبات في الأجسام،فكل يؤثر من حيث لا يرى فيتقى ، والثانية تتقى بالأسباب التي أرشد الله العباد لها من ذلك الأخذ بنصائح الأطباء واستعمال الوسائل العلاجية ، والأولى تتقى بالالتجاء إلى الله والتوكل عليه والاعتصام بالكتاب والسنة ٠

وقد صح تصورهم في الأجسام الكثيفة ورؤية بنى آدم لهم في تلك الأجسام كالشيطان الذى رآه أبو هريرة ٠

روى البخارى في صحيحه عن أبى هريرة قال : « وكلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتانى آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : دعنى فإنى محتاج وعلى عيال ولى حاجة شديدة ٠ قال : فخليت عنه فأصبحت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة ؟ قال : قلت : يارسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله ٠ قال أما إنه قد كذبك وسيعود ،

فرصدته ، فجاء يحثو من الطعام ، فعل ذلك ثلاث ليال كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : أما إنه قد كذبك وسيعود ، فلما كان في الثالثة قلت : لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه آخر ثلاث مرات تزعم أنك لا تعود : فقال : دعنى أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، فقلت : وما هى ؟ قال : إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) حتى ختم قوله » والعفريت الذى رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

فعن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة أو كلمة نحوها ليقطع على الصلاة فأمكننى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام « رب اغفرلى وهبلى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى » فرده خاسئاً ، رواه البخارى ومسلم والنسائى ٠

وروى مسلم في صحيحه عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فسمعناه يقول أعوذ بالله منك ثم قال ألعنك بلعنة الله ثلاثا وبسط يده كأنه يتناول شيئاً فلما فرغ من الصلاة قلنا : يارسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك قال صلى الله عليه وسلم : إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهى فقلت أعوذ بالله منك ثلاث مرات ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يستأخر ثلاث مرات ثم أردت أن آخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان المدينة ٠

وكحديث خالد بن الوليد حين سير لكسر ذى الخصلة وكحديث سواد ابن قارب مع رئيه من الجن ، وعندما اجتمع نفر من قريش ليدخلوا دار الندوة اعترضهم إبليس لعنه الله في صورة شيخ قالوا له من أنت قال شيخ من أهل نجد سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن أحضر معكم ، وعندما أبدى أبو جهل لعنه الله رأيه قال الشيخ النجدى هذا والله الرأى القول ماقال الفتى لا رأى غيره ٠ وعندما أجمعت قريش المسير ذكرت الذى بينها وبين بنى بكر من الحرب فكاد ذلك أن يثنيهم فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى وكان من أشراف بنى كنانة فقال أنا جار لكم أن تأتيكم كنانة بشيء تكرهونه فخرجوا سراعا ٠

إلا أن رؤيتهم في الصورة نادرة كما أن الملائكة تبدوا في صور كما في حديث عمر « بينما نحن جلوس عند النبى صلى الله عليه وسلم إذ

طلع علينا رجل شديد بياض الثياب » الحديث رواه مسلم وحـديث الملك الذى أتى الأعمى والأقرع والأبرص ·

وقوله تعالى (إنا جعلنا الشياطين أوليـاء للذين لا يؤمنون) أى قرناء وأعواناً وقيل نصراء الكفار الذين لا يوحدون الله ولا يصـدقون رسله ، قال الزجاج سلطناهم عليهم يزيدون في غيهم كما قال تعالى : «ألم ترأنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً» وقال أبوسليمان جعلناهم موالين لهم ، فعدم الإيمان هوالموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان ، قال تعـالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون · إنمـا سلطـانه على الذين يتولونه والذين هـم به مشركون) ·

وقوله (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجـدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها) بعد أن بين عز اسمه أنه جعل الشياطين قرناء للكافرين مسلطين عليهم متمكنين من إغوائهم ، ذكر هنا أثر ذلك التسليط عليهم وهـو الطاعة لهم في أقبح الأشياء مع عدم شعورهم بذلك القبيح : وفيمن عنى بهذه الآية ثلاثة أقوال :

أحدها : إنهم الذين كانوا يطوفون بالبيت عراة،والفاحشة كشف العورة رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس وبه قال مجـاهد وزيد بن أسلم والسدى ·

والثاني : إنهم اللذين جعلوا السائبة والوصيلة والحام ، وتلك الفاحشة : روى هذا المعنى أبو صالح عن ابن عباس ·

والثالث : إنهم المشركون ، والفاحشة : الشرك ·

قال الحسن وعطاء : والظاهر والله أعلم أنها تصدق على ماهو أعم من ذلك والمعنى أنهم فعلوا ذنباً قبيحاً متبالغاً في القبح اعتذروا عن ذلك بعذرين الأول أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم لمـا وجدوهم مستمرين على فعل تلك الفاحشة والثانى أنهم مأمورون بها من جهة الله سبحانه

وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد ، لأن وجود آبائهم على القبيح لا يسوغ لهم فعله ، والأمر من الله سبحانه لهم لم يكن بالفحشاء بل أمرهم باتباع الأنبياء والعمل بالكتب المنزلة ونهاهم عن مخالفتها ومما نهاهم عنه فعل الفواحش .

قال قتادة : والله ما أكره الله عبداً قط على معصيته ولا رضيها ولا أمره بها ولكن رضي لكم طاعته ونهاكم عن معصيته ، والحاصل أن الأمرين باطلان لأن الأول تقليدا للآباء والثانى افتراء على ذى الجلال والإكرام .

ولهذا رد الله عليهم سبحانه هذه النسبة بأن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم «إن الله لا يأمر بالفحشاء» فالفحشاء فيطبيعتها تجاوز واعتداء على حدود الله فهل يأمر الله بالاعتداء على حدوده،حاشا وكلا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ، إنما الذى يأمر بالفحشاء هو الشيطان كما جاء في قوله تعالى « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » .

ثم أنكر عليهم من وجه آخر : أى أتسندون إلى الله ما لا تعلمون صحته وهذا من تمام ما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم ، وفيه من التوبيخ والتقريع أمر عظيم ، فإن القول بالجهل إذا كان قبيحاً في كل شيء فكيف إذا كان في التقول على الله وإن في هذه الآية لأعظم زاجر وأبلغ واعظ للمقلدة الذين يتبعون آباءهم في الطرق المخالفة فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق فإنهم القائلون « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » والقائلون « وجدنا عليها أباءنا » .

ولما بين جل وعلا أنه لا يأمر بالفحشاء وهو اسم جامع للقبائح والسيئات عقبه ببيان ما يأمر به من القسط وهو اسم جامع لجميع الخيرات فقال (قل أمر ربى بالقسط) أى بالعدل والاستقامة ، (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) قيل فيه وجوه .

أحدها : أن معناه توجهوا حيث ما كنتم في الصلاة إلى الكعبة ، وهذا قول مجاهد والسدى وابن زيد ·

والثاني : إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه ولا يقولن أحدكم أصلى في مسجدى ، قاله ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة ·

والثالث اجعلوا سجودكم لله خالصاً دون غيره ، قاله الربيع ابن أنس ·

الرابع : أن معناه اقصدوا المسجد في وقت كل صلاة أمراً بالجماعة لها ، فيكون من جملة الأدلة الدالة على وجوب صلاة الجماعة ·

وقوله : (وادعوه مخلصين له الدين) هذا أمر منه تعالى بالدعاء والتضرع على وجه الإخلاص ، وهو شامل لدعاء المسألة ، وهو أن يسأل الإنسان ربه بلسان مقاله ، وشامل لدعاء العباد وهو أن يسأل بلسان حاله كما إذا صلى وزكى وصام وحج راجياً من الله الثواب ·

قال ابن القيم والدعاء ثلاثة أقسام أحدها أن تسأل الله بأسمائه وصفاته والثاني أن تسأله بحاجتك وفقرك وذلك فتقول أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك، والثالث أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين ، والأول أكمل وهذه عامة أدعية النبى صلى الله عليه وسلم وهذا القول قد جاء عن غير واحد من السلف قال الحسن البصرى « اللهم » مجمع الدعاء وقال أبو رجاء العطاردى إن الميم في قوله اللهم فيها تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله تعالى ، وقال النضر بن شميل « من قال اللهم » فقد دعا الله بجميع أسمائه ا هـ ·
(كما بدأ كم تعودون) قيل في وجه اتصاله بما قبله وجوه أحدها أن معناه وادعوه مخلصين فإنكم مبعوثون ومجازون وإن بعد ذلك في عقولكم فاعتبروا في الابتداء واعلموا أنه كما بدأ كم في الخلق الأول فإنه يبعثكم فتعودون إليه في الخلق الثاني والثاني أنه يتصل بقوله : (فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فقال (كما بدأكم تعودون) أى فليس

بعثكم بأشد من ابتدائكم عن الزجاج قال : وإنما ذكره على وجه الحجاج عليهم لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث،والثالث أنه كلام مستأنف أى يعيدكم بعد الموت فيجازيكم قال قتادة بدأ فخلقهم ولم يكونوا شيئاً ثم ذهبوا ثم يعيدهم كما قال (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) وقيل معناه كما بدأكم لا تملكون شيئاً كذلك تبعثون يوم القيامة عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ، ثم قرأ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين » الحديث متفق عليه وقيل معناه تبعثون على ماأنتم عليه المؤمن على إيمانه والكافر على كفره قال الله تعالى : « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » قال ابن كثير ويتأيد هذا القول بحديث ابن مسعود في صحيح البخارى : « فو الذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها،وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عنيه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة » .

وعن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنه ليعمل فيما يرى الناس بعمل أهل النار وهو من أهل الجنة،وإنما الأعمال بالخواتيم » وعن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « تبعث كل نفس على ما كانت عليه » وهذا الحديث رواه مسلم وابن ماجه من غير وجه عن الأعمش به ، ولفظه « يبعث كل عبد على ما مات عليه » .

وعن ابن عباس مثله ، قلت : ويتأيد بحديث ابن مسعود ، قلت : ولابد من الجمع بين هذا القول إن كان هو المراد من الآية وبين قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها) .

وما جاء في الصحيحين عن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » الحديث ووجه الجمع على هذا أنه تعالى خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال وإن كان قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأنه لا إله غيره كما أخذ عليهم الميثاق بذلك ، وجعله في غرائزهم وفطرهم ومع هذا قدر أن منهم شقي ومنهم سعيد (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) .

وفي الحديث « كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وقدر الله نافذ في بريته فإنه هو الذى قدر فهدى والذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى .

وفي الصحيحين : « فأما من كان منكم من أهل السعادة فسييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل أهل الشقاوة » انتهى .

وقوله تعالى (فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) يعنى هداهم الله إلى الإيمان به ومعرفته ووفقهم لطاعته وعبادته ، وفريقاً وجبت عليهم الضلالة بما تسببوا لأنفسهم وعملوا بأسباب الغواية ، وفيه دليل على أن الهداية والضلالة من الله عز وجل .

روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل » أخرجه الترمذى .

أما العلة في استحقاقهم للضلالة فهو توليهم الشيطان عدو الإنسان ، المعنى أن الذين حق عليهم الضلالة اتخذوا الشياطين نصراء وأعواناً وأطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصي ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، فحين انسلخوا من ولاية الرحمن واستحبوا ولاية الشيطان حصل لهم النصيب الوافر من

الخذلان ووكلوا إلى أنفسهم فخسروا أشد الخسران ومع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعاً لأنهم انقلبت عليهم الحقائق فظنوا الباطل حقاً والحق باطلا ، وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهى تابعة للحكمة والمصلحة حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما تستفحشه وتنكره العقول وأنه لا يأمر إلا بالعدل والإخلاص ، ولما تقدم ذكر ماأنعم به سبحانه على عباده من اللباس أمرهم في أثرها بتناول الزينة والتستر والاقتصاد في المأكل والمشرب فقال (يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) :

سبب نزول هذه الآية :

ماورد عن ابن عباس قال : كان ناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهى عريانة ، فتعلق على سفليها سيوراً مثل هذه السيور التى تكون على وجوه الحمر عن الذباب وهى تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم : (يابنى آدم خذوا خذوا زينتكم عند كل مسجد) فأمروا بلبس الثياب .

وفي هذه الزينة المذكورة في الآية أقوال :

أحدها : أنه ورد في ستر العورة في الطواف ، قاله ابن عباس والحسن في جماعة .

والثاني : أنه ورد في ستر العورة في الصلاة ، قاله مجاهد والزجاج

والثالث : أنه ورد في التزين بأجمل الثياب في الجمع والأعياد .

ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد ، وكذا يستحب الطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض ، كما ورد عن ابن عباس مرفوعاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم، وإن خير أكحالكم الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر » ، هذا حديث جيد الإسناد رجاله على شرط مسلم ، ولأحمد أيضاً وأهل السنن بإسناد جيد عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بثياب البياض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب وكفنوا فيها موتاكم » .

وروى الطبراني بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين أن تميما الداري اشترى رداء بألف ، وكان يصلي فيه .

وقوله تعالى : (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) هذا أمر منه جل وعلا بالأكل والشرب مما رزقنا من الطيبات ، ونهى عن الإسراف ، فلا زهد في ترك مطعم ولا مشرب ، وتاركه بالمرة قاتل نفسه ، وهو من أهل النار، كما صح في الأحاديث الصحيحة ، والمقلل منه على وجه يضعف البدن ويعجز عن القيام بما يجب عليه القيام به من طاعة أو سعى على نفسه وعلى من يعول مخالف لما أمر الله به وأرشد إليه ، والمسرف في إنفاقه على وجه لا يفعله إلا أهل السفه والتبذير مخالف لما شرعه الله لعباده واقع في النهى القرآني ، وهكذا تحريم الحلال وإحلال الحرام ، ومن الإسراف بذل المال فيما حرم الله كالزنا واللواط والخمر وآلات اللهو والصور لذوات الأرواح وحلق اللحا والدخان ، ونحو هذه من المعاصي والمنكرات التي أضعفت الإيمان والأبدان وضاعت فيها الأموال والأوقات ، نسأل الله أن يعصمنا وإخواننا المؤمنين منها .

وضابط الإسراف أنه إما أن يكون بزيادة على القدر الكافي والشره في المآكل والمشارب التي تضر بالجسم ، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتأنق في المآكل والمشارب واللباس والمسكن ، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام ، والمعول عليه في الإنفاق في كل طبقة من الناس عرف المعتدلين فيها ، فمن تجاوز طاقته مباراة لمن هم أغنى منه وأقدر كان مسرفاً ، وكم جر الإسراف إلى خراب بيوت عامرة ، ولا سيما في المهور

وتجهيز العرائس ، وهذا السرف كبير الضرر عظيم الخطر على الأمم أكثر من ضرره على الأفراد ، ولا سيما في البلاد التى تأتى إليها أنواع الزينة من البلاد الأجنبية ، إذ تذهب الثروة إلى غير أهلها،وربما ذهبت إلى من يستعين بها على استذلالهم والعدوان عليهم ، والخلاصة أن الطعام والشراب من ضرورات الحياة الحيوانية ·

قال ابن عباس : أحل الله في هذه الآية الأكل والشرب مالم يكن سرف أو مخيلة · قال القرطبى : فأما ماتدعو الحاجة إليه ، وهو ماسكن الظمأ وسد الجوع فمندوب إليه عقلا وشرعاً لما فيه من حفظ النفس وحراسة الحواس ، ولذلكورد الشرع بالنهى عن الوصال،لأنه يضعف البدن ويميت النفس ، ويضعف عن العبادة ، وذلك يمنع منه الشرع ويدفعه العقل ، وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر ولا نصيب من زهد ، لأن ماحرمها من فعل الطاعة بالعجز والضعف أكثر ثواباً وأعظم أجراً ، وقد اختلف في الزائد على قدر الحاجة على قولين ، فقيل: حرام ، وقيل : مكروه ·

قال ابن العربى،وهو الصحيح : فإن قدرالشبع يختلف باختلاف البلدان والأزمان والأسنان والطعمان ثم قيل في قلة الأكل منافع كثيرة منها : (١) أنه يكون الرجل أصح جسما · (٢) أجود حفظاً · (٣) أزكى فهماً لأن البطنة ـ كما قيل ـ تذهب الفطنة · (٤) أقل نوماً · (٥) أخف نفساً ·

وفي كثرة الأكل مضار عديدة منها : إضعاف المعدة ونتن التخمة وماينشأ عنها من العلل والأسقام والأمراض المختلفة ، فيحتاج من العلاج أكثر مما يحتاج إليه المقلل من الأكل · وقال بعض الحكماء : أكبر الدواء تقدير الغذاء ·

وقد بين النبى صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بياناً شافياً يغنى عن كلام الأطباء فقال : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » أخرجه الترمذى من حديث المقدام بن معديكرب ·

قال علماؤنا : لو سمع بقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة .

ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق ، فقال لعلي بن الحسين :ليس في كتابكم من علم الطب شيء،والعلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان ، فقال له علي بن الحسين : قدجمع الله الطب كله في نصف آية من كتابنا ، فقال : ما هي ؟ قال : قوله عز وجل : (كلوا واشربوا ولا تسرفوا) فقال النصراني : ولا يؤثر عن رسولكم شيء من الطب ، فقال له علي بن الحسين : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة ، قال : ما هي ؟ قال : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس كل دواء ، واعط كل جسم ما عودته » ، فقال النصراني : ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً » قلت : ويقال : إن معالجة المرضي نصفان : نصف دواء ونصف حمية ، فإن اجتمعا فكأنك بالمريض قد برأ وصح ، وإلا فالحمية به أولى ، إذلا ينفع دواء مع ترك الحمية،ولقد تنفع الحمية مع ترك الدواء ، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصل كل دواء الحمية » والمعنى بها والله أعلمأنها تغنى عن كل دواء،ولذلك يقال: إن أهل الهند جل معالجتهم الحمية ، يمنع المريض من الأكل والشرب والكلام عدة أيام ، فيبرأ .

وروى مسلم عن ابن عمر ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « الكافر يأكل في سبعة أمعاء والمؤمن يأكل في معى واحد » وهذا منه صلى الله عليه وسلم حض على التقلل من الدنيا ، والزهد فيها ، والقناعة بالبلغة .

وقد كانت العرب تمتدح بقلة الأكل وتذم بكثرته، كما قال قائلهم:

تكفيه فلذة كبد إن ألم بها ... من الشواء ويروى شربه الغمر

وقال طبيب ينصح ابنه :

لا تاكلن في كل يوم إلا مرة ... واحذر طعاماً قبل هضم طعام

وقال القحطاني :

أقلل طعامك ما استطعت فإنه ... نفع الجسوم وصحة الأبدان

وقالت أم زرع في ابن أبى زرع : ويشبعه ذراع الجفرة ·

وقال حاتم الطائى يذم بكثرة الأكل :

فإنك إن أعطيت بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقال الخطابى : معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن يأكل في معى واحد » أنه يتناول دون شبعه ، ويؤثر على نفسه ، ويبقى من زاده لغيره فيقنعه ماأكل ، والتأويل الأول أولى والله أعلم ·

وقيل ليس على عمومه لأن المشاهدة تدفعه ، فإنه قد يوجد كافر أقل أكلا من مؤمن ، ويسلم الكافر فلا يقل أكله ولا يزيد ·

وقيل : هو إشارة إلى معين : ضاف النبى صلى الله عليه وسلم ضيف كافر يقال إنه الجهجاه الغفارى ، وقيل ثمامة بن إثال ، وقيل نضله بن عمرو الغفارى ، وقيل بصرة بن أبى بصرة الغفارى ، فشرب حلاب سبع شياه ، ثم إنه أصبح فأسلم فشرب حلاب شاة فلم يستتمه، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ذلك ، فكأنه قال : هذا الكافر ، والله أعلم ·

وقيل : إن القلب لما تنور بنور التدحيد نظر إلى الطعام بعين التقوى على الطاعة ، فاخذ منه قدر الحاجة ، وحين كان مظلماً بالكفر كان أكله كالبهيمة ترتع حتى تثلط اهـ · بتصرف ·

والخلاصة أن الله عز وجل وعلا نهى عن الإسراف في الأكل والشرب ، ولو لم يكن فيه إلا أنه ينشأ عنه كثرة الشرب ، وذلك يثقل المعدة ويثبط الإنسان عن خدمة الله والأخذ بحظه من نوافل الخير ، فإن تعدى ذلك إلى مافوقه مما يمنعه القيام بالواجب عليه : حرم عليه ، وكان قد أسرف في مطعمه ومشربه ·

روى أسد بن موسي من حديث عون بن جحيفة عن أبيه قال : أكلت بلحم سمين ، فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا أتجشأ ، فقال : « أكفف عليك من جشائك أبا جحيفة ، فإن أكثر الناس شبعاً في الدنيا

أطولهم جوعا يوم القيامة ، فما أكل أبو جحيفة بملء بطنه حتى فارق الدنيا ، وكان إذا تغدى لا يتعشي ، واذا تعشي لا يتغدى .

وذكر ابن عبد البر وغيره أن عمر رضي الله عنه خطب يوما فقال : إياكم والبطنة ، فإنها مكسلة عن الصلاة ، مؤذية للجسم ، وعليكم بالقصد في قوتكم فإنه أبعد عن الأشر ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة ، وإن امرءاً لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه .

وقال على رضي الله عنه : المعدة حوض البدن ، والعروق واردة عليها وصادرة عنها ، فإذا صحت صدرت العروق عنها بالصحة ، وإذا سقمت صدرت العروق بالسقم .

وقال الفضيل بن عياض : ثنتان يقسيان القلب ، كثرة الكلام ، وكثرة الأكل .

وقال لقمان لإبنه : لا تأكل شيئاً على شبع،فإنك إن تتركه للكلب خير لك من أن تأكله .

إذا تقرر هذا فاعلم أنه يستحب للإنسان غسل يديه قبل الأكل وبعده ، لقوله عليه السلام : «الوضوء قبل الطعام وبعده بركة» ويسمى في أول الطعام ويحمد في آخره ، لما ورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى ، فإن نسي أن يذكر الله تعالى في أوله فليقل بسم الله أوله وآخره » رواه أبو داود والترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .

وعن أبى أمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع مائدته قال : « الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركا فيه غير مكفى ولا مستغنى عنه ربنا » رواه البخاري .

ولا ينبغى أن يرفع صوته بالحمد إلا أن يكون جلساؤه قد فرغوا من الأكل ، لأن في رفع الصوت منعاً لهم عن الأكل كغسل اليدين وهم يأكلون ونحو ذلك من الأفعال والإشارات التي يفهم منها الحث على القيام

قال بعضهم :

لا يبصر القوم في مغناك رفع يد ... عن الطعام إلى أن يرفع السور
ولا يكن ذاك إلا بعد كفهم ... أكفهم ويسير الفعل ميسور
فإن تقريب خدام الفتى حرضا ... والضيف يأكل رأي منه مخسور

وعن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل طعاما فقال : الحمد لله الذى أطعمنى هذا ، ورزقنى من غير حول منى ولا قوة ، غفر له ماتقدم من ذنبه » رواه أبو داود والترمذى ، وقال حديث حسن ٠

ويستحب أن يأكل بيمينه مما يليه لما ورد عن عمرو بن أبى سلمة ، قال : كنت غلاما في حجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت يدى تطيش في الصحفة ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا غلام سم الله وكل مما يليك » متفق عليه ٠

وعن سلمة بن الأكوع أن رجلا أكل عندالنبى صلىالله عليه وسلم بشماله ، فقال : « كل بيمينك » قال : لا أستطيع ، قال : « لا استطعت فما رفعها إلى فيه » رواه مسلم ٠

ويستحب الأكل من جانب الإناء الذى فيه الطعام ، والنهى عن الأكل من وسطها ، لما ورد عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « البركة تنزل وسط الطعام فكلوا (من) حافتيه ، ولا تأكلوا من وسطه » رواه أبو داود والترمذى ، وقال حديث حسن صحيح ٠

ويستحب الأكل بثلاث أصابع ، ولعقها ، لما ورد عن كعب بن‌مالك قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل بثلاث أصابع ، فإذا فرغ لعقها ، وكما يستحب الأكل باليمين يستحب الشرب بها لما في صحيح مسلم عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ، وإذا شرب فليشرب بيمينه ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » ٠

ومن الآداب أن لا يكثر النظر إلى وجوه الآكلين ، لأنه مما يحشمهم ويدل على بخل الناظر بل الأولى أن يبعد عنهم ويطفى النور قليلا ليأخذ الجائع نصيبه من الطعام كما هي عادة الكرماء ولا يتكلم على الطعام بما يستقذر من الكلام ، ولا بما يضحكهم خوفاً عليهم من الشرق والغفلة عن شكر الله ، ولا بما يحزنهم لئلا ينغص على الآكلين أكلهم ، ولا يمد يده قبل الآكلين ، لأن هذا دليل شره وجشع وكان العرب يذمون المستعجل ، قال الشاعر :

وإن مدت الأيدى إلى الزاد لم أكن
باعجلهم إذ أجشع القوم أعجل

ويقول الآخر :

وإنى لأستحيي صحابي أن يروا مكان يدي في جانب الزاد أقرعا
وإنك مهما تعطى بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

ولا يقوم بسرعة قبل أن يقضوا نهمتهم لأن في ذلك إساءة أدب ، وربما حضره فقراء فقاموا حياء ، ولكن إذا تأملت الذى يفعل ذلك أي القيام بسرعة وجدته غالباً جاهلا متكبرا .

ويكره أكل البقلة الخبيثة ، وهى : الثوم والبصل والكراث لكراهة ريحه ، ولا سيما في حق الرجال ، لما ورد عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا ـ أو ـ فليعتزل مسجدنا » ، وفي رواية لمسلم : « من أكل البصل والثوم والكراث فلا يقربن مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم» .

وقوله : (إنه لا يحب المسرفين) أى إن الله لا يحب المتعدين حده في حلال أو حرام ، الغالين فيما أحل الله أو حرم بإحلال الحرام وبتحريم الحلال ، ولكن يجب أن يحلل ما أحل ويحرم ما حرم ، وذلك العدل الذى أمر به .

قوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) .

في سبب نزولها ثلاثة أقوال :

أحدها : أن المشركين عيروا المسلمين ، إذا لبسوا الثياب في الطواف ، وأكلوا الطيبات ، فنزلت ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ٠

والثانى : أنهم كانوا يحرمون أشياء أحلها الله من الزروع وغيرها، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبى طلحة عن ابن عباس ٠

والثالث : أنها نزلت في طوافهم بالبيت عراة،قاله طاووس وعطاء٠
وفي (زينة الله) قولان :

أحدهما : أنها ستر العورة ، فالمعنى من حرم أن تلبسوا في طوافكم مايستركم ٠

والثانى : أنها زينة اللباس ٠

وفي (الطيبات) قولان :

أحدهما : أنها الحلال ٠ والثانى المستلذ ٠

ثم فيما عنى بها ثلاثة أقوال :

أحدها : أنها البحائر والسوائب والوصائل والحوامى ، التى حرموها ، قاله ابن عباس وقتادة ٠

والثانى : أنها السمن والألبان واللحم ، وكانوا حرموه في الإحرام، قاله ابن زيد ٠

والثالث : الحرث والأنعام والألبان ، قاله مقاتل ٠

المعنى : يأمر تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل سؤال إنكار : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، وعلمهم طرق صنعتها بما أودع في فطرهم من حبها والميل إلى الافتنان في استعمالها ، إذ خلقهم مستعدين لإظهار بعض آياته فيما خلق في هذا العالم الذى يعيشون فيه ، بما أودع في غرائزها من الميل إلى البحث في كشف المجهول ، والاطلاع على خفايا الأمور ، فهم لا يدعون شيئاً

عرفوه بحواسهم أو عقولهم حتى يبحثوه من طرق شتى ووجوه لا نهاية لها ، وغريزة حب الزينة التى أودع الله فيهم وحب التمتع بالطيبات كانت من أهم الأسباب في اتساع أعمال الفلاحة والزراعة وضروب الصناعة ، واتساع وسائل العمران ، ومعرفة سنن الله وآياته في الأكوان ، وهما لا يذمان إلا بالإسراف فيهما والغفلة عن الشكر لله الذى أسدى إليهم نعمه ، فمن تعنت وحرم ما أحل الله من الطيبات فهو مفتر على الله جل وعلا ۰

ولهذا قال الله تعالى في الآية الأخرى : (ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب ، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون) ، وقال : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم وحرموا مارزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين) ، وقال : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا ، قل آ الله أذن لكم أم على الله تفترون) ۰

وطلبهم في موضع آخر طلب إعجاز أن يأتوا بالشهداء الذين يشهدون لهم أن الله حرم هذا ، ونهى نبيه صلى الله عليه وسلم إن شهد لهم شهود زور أن يشهد معهم ، وهو قوله تعالى : (قل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا ، فإن شهدوا فلا تشهد معهم) ۰

والخلاصة : أن الدين الإسلامى يدعو إلى الكمال الروحى والسمو الخلقى مع العناية بالجسم وبالنفس ، وما تميل إليه مادام في حدود الحلال ۰

وروى عن عمر : إذا وسع الله عليكم فوسعوا ۰

وروى عن على بن الحسين بن على بن أبى طالب شيخ مالك رضي الله عنهم أنه كان يلبس كساء خز بخمسين دينار ، يلبسه في الشتاء ، فإذا كان في الصيف تصدق به أو باعه فتصدق بثمنه ، وكان يلبس في الصيف ثوبين من متاع مصر ممشقين ويقول : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده) ۰

وقد دلت الآية الكريمة على جواز لباس الرفيع من الثياب ، والتجمل بها في الجمع والأعياد ، وعند لقاء الناس ومزاورة الإخوان ، قال أبو العالية : كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا ٠

وقد اشترى تميم الدارى حلة بألف درهم كان يصلى فيها ، وكان مالك بن دينار يلبس الثياب العدنية الجياد ، وكان ثوب أحمد بن حنبل يشترى بنحو الدينار ٠

قال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله : وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه :

أحدها : أنه ليس من لبس السلف ، وإنما كانوا يرقعون ضرورة ٠

والثانى : أنه يتضمن ادعاء الفقر ، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه ٠

والثالث : إظهار التزهد ، وقد أمرنا بستره ٠

والرابع : أنه تشبه بهؤلاء المتزحزين عن الشريعة ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ٠

وقال أبو الفرج : وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة لا المترفعة ولا الدون ، ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان ولم يكن تخير الأجود عندهم قبيحاً ، وأما اللباس الذى يزرى بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر ، وكأنه لسان شكوى من الله ، ويوجب احتقار الملابس وكل ذلك مكروه منهى عنه ٠

وقال القرطبى : فإن قال قائل : تجويد اللباس هوى النفس ، وقد أمرنا بمجاهدتها ، وتز ين لِلْخُلْقِ ، وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله ، لا للخلق ٠

فالجواب : ليس كل ما تهواه النفس يذم ، وليس كل ما يتزين به للناس يكره ، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه ، أو على

وجه الرياء في باب الدين ، فإن الإنسان يحب أن يرى جميلا ، وذلك حظ النفس لايلام فيه ، ولهذا يسرح شعره ، وينظر في المرآة ، ويسوى عمامته ، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج ، وليس في شيء من هذا مايكره ولا يذم .

وقد روى مكحول عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه على الباب فخرج يريدهم ، وفي الدار كوة فيها ماء فجعل ينظر في المـاء ويسوى لحيته ورأسه ، فقلت : يا رسول الله وأنت تفعل هذا ؟ قال : « نعم ، إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه ، فإن الله جميل يحب الجمال » .

وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعـله حسنة ، قال : « إن الله جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة ، تدل كلها على النظافة وحسن الهيئـة .

وعن خالد بن معدان قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يسافر بالمشط والمرآة والدهن والسواك والكحل .

وعن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر دهن رأسه ويسرح لحيته بالمـاء .

وعن ابن عبـاس قال : كانت لرسول الله صـلى الله عليه وسلم مكحلة يكتحل بها عند النوم ثلاثاً في كل عين .

قوله تعالى : (قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يـوم القيامة) .

قال بعض المفسرين : خالصـة نصب على الحـال من لام مضمرة تقديرها هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا مشتركة ، وهى لهم في الآخرة

خالصة ، فحذفت اللام لوضوح معناها كما تحذف العرب أشياء لا يلبس سقوطها .

وقال المفسرون : إن المشركين شاركوا المؤمنين في الطيبات ، فأكلوا وشربوا ولبسوا ونكحوا ، ثم يخلص الله الطيبات في الآخرة للمؤمنين وليس للمشركين فيها شيء ، وقيل : خالصة لهم من ضرر أو إثم ، وقرأ نافع (خالصة) بالرفع ، قال الزجاج : ورفعها على أنها خبر بعد خبر ، كما تقول : زيد عاقل لبيب .

والمعنى : قل أيها الرسول لأمتك : إن الزينة والطيبات من الرزق للذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها غيرهم تبعاً لهم ، وإن لم يستحقها مثلهم ، وهي يوم القيامة خالصة لهم .

وقال بعض المفسرين للآية : إن مفهومها أن من لم يؤمن بالله بل استعان بها على معاصيه فإنها غير خالصة له ولا مباحة ، بل يعاقب عليها وعلى التنعم بها ، ويسأل عن النعيم يوم القيامة ا هـ .

وقصارى ذلك أن الدين يورث أهله سعادة الدنيا والآخرة جميعاً كما يدل على ذلك قوله تعالى : « فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى » ، وقوله : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » ذاك أن المؤمن يزداد إيماناً بربه وشكراً له كلما عرف شيئاً من سننه وآياته في نفسه أو في غيرها من الكائنات، ومن أهم أركان الشكر استعمال النعمة فيما وهبها المنعم لأجله من شكر الجوارح ، كشكر اللسان بالثناء عليه ، وشكر سائر الأعضاء .

كذلك ففى حديث أبى هريرة عند أحمد والترمذى والحاكم « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » والسر في هذا أن الأكل والشرب من الطيبات بدون إسراف هما قوام الحياة والصحة ، وهما الدعامتان اللتان يتوقف عليهما القيام بجميع الأعمال الدينية والدنيوية من عقلية وبدنية ، ولهما التأثير العظيم في جودة النسل الذى حث صلى الله عليه وسلم على السعي في تكثيره لأن به يكثر سواد الأمة .

والملابس النظيفة الجيدة لها فوائد :

١ ـ حفظ الصحة ·

٢ ـ كرامة من يتجمل بها وتوقيره وتقديره ، قال الشاعر :

تجمـل بالثياب تعش حميـدأ فإن العـين قبـل الاختبـار

وقال :

أما الطعام فكل لنفسك ماشتهت وإجعـل لباسك ما إشتهاه الناس

قوله : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) يقول تعالى ذكره : كما بينت وفصلت لكم الواجب عليكم في اللباس والزينة والحلال من المطاعم والمشارب والحرام منها ، وميزت بين ذلك لكم أيهـا الناس ، كذلك أبين جميع أدلتي وحججي ، وإعلام حلالي وحرامي لقوم يعلمون مايبين لهم ويفقهون ما في تضاعيفها من المعانى الرائقة ·

مِمـا يفهم من هذه الآية الكريمة :

(١) إثبات صفة الكلام لله ·

(٢) منة الله على بنى آدم بما يسره لهم من اللباس الموارى للسوأة

(٣) منة الله بما يسره من اللباس المعد للجمال ·

(٤) إن لباس التقوى خير لباس ·

(٥) إن اللباس ينقسم إلى قسمين ، لباس حسي ولباس معنوى·

(٦) وجوب ستر العورة ·

(٧) بلاغة القرآن حيث أن خطابه عام لجميع أهل الأزمنة من المكلفين

(٨) جواز توجيه الخطاب للمعدوم الذى سيوجد وتتكامل فيـه شروط التكليف ·

(٩) دليل على علو الله على خلقه ·

(١٠) إن في ذلك دلالة على أن الله الخالق الرازق ·

(١١) دليل على قدرة الله واعتنائه ببنى آدم ·

(١٢) تعليل الأحكام ·

(١٣) الحث على التذكر والاتعاظ والانزجار عن مانهى الله عنه ·

(١٤) دليل على إباحة لباس الزينة والرغبة في استعمالها ·

(١٥) إن الإسلام دين الفطـرة ، وليس فيـه مايخالف ماتدعـوا الحاجة إليه ٠

(١٦) الحث على شكر الله ٠

(١٧) الإشارة بالبعيد للتعظيم ٠

(١٨) الحث على خشية الله ومراقبته ٠

(١٩) لطف الله بخلقه حيث ستر عوراتهم باللباس ٠

(٢٠) في الآية رد على من أنكر صفة العلو ٠

(٢١) في الآية رد على من أنكر صفة الكلام أو أولها بتأويل ٠

(٢٢) دليل على جود الله وكرمه ٠

الآية الثانية : قوله : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾٠

مما يفهم من هذه الآية الكريمة ٠

(١) إثبات صفة الكلام ٠

(٢) تكرير النداء للايذان بكمال الاعتناء بمضمون ماصدر به ٠

(٣) التحذير من محن الشيطان وفتنه ٠

(٤) إن الشيطان لبنى آدم عدو مبين ٠

(٥) إن الشيطان يفتن من لم يعصمه الله منه ٠

(٦) الاعتبار بالجولة الأولى التى انتهت بالفتنة ، والخروج من الجنة ، ونزع اللباس ، وانكشاف السوآت ٠

(٧) إن الشيطان هو السبب في نزع لباس آدم وحواء عنهما ٠

(٨) الإتيان بصيغة المضارع لاستحضار الصـورة التى وقعت فيما مضي ٠

(٩) إثبات الجن ٠

(١٠) الرد على من أنـكرهم من الزنادقـة والفجـرة المـكذبين لله وللرسول وللمؤمنين ٠

(١١) إن الشيطان هو الذى أخرج الأبوين من الجنة ·
(١٢) إنه يرانا هو وقبيله من حيث لا نراهم ·
(١٣) وجوب الاحتراز من إبليس وجنوده ·
(١٤) إن الشيطان له أعوان يساعدونه على إغواء بنى آدم ·
(١٥) إثبات الجنة وأنها حق ·
(١٦) إن الجنة موجودة ·
(١٧) تكرير النداء في مقام الوعظ والتذكير اقتداء بالقرآن الكريم ·
(١٨) تعليل الأحكام ·
(١٩) إن الشيطان يعجز البشر ، وليس لهم قدرة على دفع أذاه إلا بمعونة الله والالتجاء إليه ، والا بتذكره وتقواه ، والله ولى المؤمنين ·
(٢٠) إن عدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان ·
(٢١) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ·
(٢٢) تأكيد التحذير إثر تأكيد ·
(٢٣) جواز توجيه الخطاب للمعدوم الذى سيوجد ، لأن الخطاب عام للموجد وقت النزول وبعده إلى آخر الدنيا ·
(٢٤) لطف الله بخلقه حيث حذرهم من إبليس وأعوانه ·
(٢٥) أن لله الحجة البالغة ، ولا عذر لمن اتبع عدو الله إبليس ·
(٢٦) دليل على أن الجد يسمى أباً وإن علا لقوله : « كما أخرج أبويكم » ·

مما يفهم من قوله تعالى : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) ·

ففيها أولا :

(١) إثبات صفة الكلام لله ·
(٢) ذكر أثر من آثار ولاية الشيطان للذين لا يؤمنون ·

(٣) إن المشركين إذا فعلوا فعلة قبيحة ينكرها الشرع ، ويأباها العقل السليم ، يعتذرون بمعاذير في غاية البطلان ·

(٤) إن المشركين يفترون على الله الكذب ·

(٥) ذم الاقتداء بالآباء الضالين ·

(٦) إن ما كان يفعله المشركون من كشف العورة من الفاحشة ·

(٧) إن الله لا يأمر بالفحشاء ·

(٨) إثبات الألوهية ·

(٩) إثبات الرسالة والرد على منكرها ·

(١٠) الإنكار على من قال على الله بلا علم ·

(١١) تحريم القول على الله بلا علم ·

(١٢) إن القائل هذه المقالة ونحوها لم يقدر الله حق قدره ·

(١٣) دليل على حلم الله ، حيث لم يعاجل المتهورين في القول على الله ، الكاذبين عليه ·

(١٤) إن هذه من آفات اللسان ·

(١٥) الاحتراز من آفات اللسان ·

(١٦) وجوب اتباع الكتاب والسنة والرجوع إليهما في القليل والكثير ، وترك ماخالفهما ·

(١٧) رد على الجبرية حيث قالوا : إن أفعال العباد مجاز ·

(١٨) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم ·

(١٩) الرد على من قال إنه كلام الله النفسي ·

(٢٠) إن المشركين لا ينكرون وجود الله ، كما يفعله الدهريون قديماً وحديثاً ·

(قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون · فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) ·

هذه الآية الرابعة وفيها :

(١) إن الله أمر بالعدل والاستقامة ٠
(٢) إثبات الربوبية ٠
(٣) الحث على التوجه في الصلاة إلى الكعبة ٠
(٤) الحث على الإخلاص ٠
(٥) دليل على وجوب صلاة الجماعة في المسجد ٠
(٦) الحث على الدعاء على وجه الإخلاص ٠
(٧) النهى عن الشرك ٠
(٨) النهى عن الجور والظلم ، لأنه ضد ما أمر الله به ٠
(٩) إن الدعاء ينفع ٠
(١٠) دليل على البعث ٠
(١١) إن الله هو الذى بدأ الخلق ٠
(١٢) دليل على قدرة الله التى لا يعجزها شيء ، الحث على التأهب لذلك اليوم والاستعداد له ٠
(١٣) إثبات صفة الكلام لله ٠
(١٤) الرد على من أنكر هذه الصفة ٠
(١٥) إثبات علم الله في المستقبل ٠
(١٦) الرد على من أنكر صفة العلم كالجهمية والقدرية ٠
(١٧) قياس الإعادة على الابتداء ٠
(١٨) إن الناس يعودون فريقين سعداء وأشقياء ، والفريق الذى هداه الله هم المؤمنون بالله ، المتبعون لأنبيائه ، والفريق الذى حقت عليه الضلالة هم الكفار ٠
(١٩) إن الهداية والإضلال بيد الله ، كما قال تعالى : « من يهدى الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً » ٠
(٢٠) بيان العلة وأن السبب في ذلك أنهم أطاعوا الشيطان في معصية الله ٠

(٢١) إنهم مع ضلالتهم يظنون ويحسبون أنهم على هداية وحق ٠
(٢٢) دليل على أن الكافر الذى يظن أنه في دينه على الحق والجاحد المعاند في الكفر سواء ٠
(٢٣) دليل على خطأ قول من زعم أن الله تعالى لا يعذب أحداً على معصية ارتكبها ، أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها على علم منه بموضع الصواب ووجه الدلالة ، قوله : (ويحسبون) والمحسبة الظن لا العلم ٠
(٢٤) في الآية رد على الجبرية لأن المشركين هم الذين اختاروا ولاية الشيطان على ولاية الرحمن ٠
(٢٥) الآية فيها حجة على أهل الاعتزال في كون الهداية والإضلال إلى الله جل وعلا ٠
(٢٦) في الآية دليل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفى في صحة الدين ، بل لابد من الجزم والقطع ، لأنه تعالى ذم الكافرين بأنهم يحسبون كونهم مهتدين ولولا أن هذا الحسبان مذموم لما ذمهم بذلك ٠
(٢٧) ودلت الآية على أن كل من شرع في باطل فهو مستحق للذم سواء حسب كونه هدى أو لم يحسب ذلك ٠
(٢٨) في الآية ما يدل على شدة تمردهم وعنادهم حيث لم يعترفوا على أنفسهم بالضلالة ٠
(٢٩) دليل على لطف الله بخلقه حيث بين لعباده أن سبب الشقاوة اتخاذ الشياطين أولياء ٠
(٣٠) التحرز من الشيطان وجنوده ٠

هذه الآية الخامسة وفيها :

(١) إثبات صفة الكلام لله ٠
(٢) جواز توجيه الخطاب للذى سيوجد ٠

(٣) في الآية رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة ٠

(٤) استحباب التجمل عند الصلاة ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد ٠

(٥) استحباب الطيب لأنه من الزينة ٠

(٦) استحباب السواك لأنه من تمام ذلك ٠

(٧) استحباب لبس النعال لما أخرجه ابن عدى عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذو زينة الصلاة ، قالوا : وما زينة الصلاة قال البسوا نعالكم فصلوا فيها » ، وأخرج ابن عساكر وغيره عن أنس رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال في قوله سبحانه : (خذوا زينتكم عند كل مسجد) ٠٠ الخ « صلوا في نعالكم » ٠

(٨) وجوب ستر العورة في الصلاة ٠

(٩) إباحة الأكل والشرب ٠

(١٠) النهى عن الإسراف فيهما ٠

(١١) لا يجوز تحليل الحرام ، لأنه إسراف وتعد لحدود الله ٠

(١٢) لا يجوز تحريم الحلال لأنه إسراف ٠

(١٣) لا يجوز الإفراط في الطعام لأنه يؤدى إلى التخمة التى ربما أدت إلى الموت أو الأمراض الخطرة،وهذا نوع من الإسراف وقد نهى الله عنه ٠

(١٤) الأصل في جميع الأشياء الإباحة ، إلا ما حظره الشارع ٠

(١٥) إثبات الأفعال الاختيارية ٠

(١٦) لطف الله بخلقه حيث أرشد إلى مافيه صلاح أبدانهم ٠

(١٧) إثبات حكمة الله ٠

(١٨) الرد على الجهمية ونحوهم من المنكرين لصفة الكلام والمحبة وسائر الصفات ٠

(١٩) في الآية وعيد وتهديد لمن أسرف ، لأن من لم يحبه الله ليس بخير وهو من المحرومين الخاسرين ٠

(٢٠) العناية بالبدن والمحافظة عليه عن مايضره ٠

مما يفهم من الآية السادسة وهي قوله تعالى : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ٠

(١) إثبات صفة الكلام لله ٠

(٢) الرد على من أنكرها ٠

(٣) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم ٠

(٤) الإنكار على من يحرم على نفسه وعلى غيره الزينة ٠

(٥) إن الأصل في المأكولات والملبوسات الحل ، إلا ماورد الشرع بتحريمه ٠

(٦) لا يحل لأحد أن يحرم شيئاً تحريماً دينياً على عباد الله ، أو يوجب عليهم شيئاً إلا بنص صريح عن الله ورسوله ٠

(٧) إن من تهجم على ذلك بأن حرم ما أحل الله ، فقد تجرأ على الله ، وأساء إلى عباد الله ٠

(٨) الإشارة إلى عظم شأن الدليل والبرهان في الدين ٠

(٩) سماحة الدين الإسلامي ٠

(١٠) إن الملك للزينة وغيرها لله المالك لكل شيء ٠

(١١) إن العباد لا يملكون الأعيان ملكا مطلقاً ، وإنما يملكون التصرف فيها على مقتضي الشرع ٠

(١٢) إن الله هو المخرج للزينة الخالق لموادها ، المعلم لطرق صنعها ، قال تعالى : (الله خالق كل شيء) ، وقال : (والله خلقكم وما تعلمون) ٠

وقال والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » الآية ٠

(١٣) إثبات قدرة الله ·
(١٤) لطف الله بخلقه حيث أخرج لهم رزقهم ·
(١٥) حلم الله حيث شملت رحمته ونعمتـــه ، البر ، والفـــاجر ، والعاصي ، والمطيع ·
(١٦) إن الجميع عبيد الله ، والعبودية نوعان :

النوع الأول : عبودية لربوبيته ، فهذه مشتركة بين سائر الخلق. مسلم وكافرهم برهم وفاجرهم،فكلهم عبيد مربوبون كما في آية مريم: (إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً) ·

والنوع الثانى : عبودينه لألوهينه ، وعبادته ورحمته وهى عبودية أنبيائه وأوليائه ، والمراد هنا بآية الأعراف العامة المشتركة بين الخلق

(١٧) خطأ من آثر اللباس الدنى وهو يقدر على اللباس العالى والمتوسط ، ومن ترك اللحم والفواكه مع الشهوة لهـــا والقدرة عليها ، خوفاً من عارض الشهوة ·

قال بعض الأدباء :

أما الطعام فكل لنفسك ما اشتهيت   واجعل لباسك ما اشتهاه الناس

(١٨) إن الكفار يشاركون المؤمنين في طيبات الدنيا ·
(١٩) إنها خالصة يوم القيامة للمؤمنين ·
(٢٠) إثبات القيامة والبعث ، والحشر ، والحساب ، والجنة ·
(٢١) إن الله فصل وبين ما يجب في اللباس والحـلال والحرام المطاعم والمشارب ·
(٢٢) إن الأمر يحتاج إلى العلم به والى معرفة ماأحل الله وما حرم ليكون الناس على بصيرة وبينة من ذلك وعلم ، فأما الذى حرمه الله حقاً فليس هو الزينة المعتدلة من اللباس وليس هو الطيب من الطعام والشراب ، بل المحرم هو الإسراف ·

الآية السابعة : الفواحش : جمع فاحشة،وهي ما عظم جرمه وذنبه كالكبائر التي بلغت الغاية في الفحش وذلك كالزنا ، واللواط ، والكبر

والعجب ، والرياء ، والنفـاق · والإثم : أى مـا يوجب الإثم والذل ، فيتناول كل معصية يتسبب عنها الإثم · والبغي بغير الحق : التعدي على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم من غير أن يكون على جهـة القصاص والمماثلة ، والشرك : دعوة الله ودعوة غيره معه ، والسلطان : الحجة والبرهان ·

ففي هذه الآية المحرمات الخمس التي اتفق على تحريمها الرسل والشرائع والكتب ، وهي محرمات على كل أحد وفي كل حال لا تباح قط ·· والمراد بالتحريم هنا التحريم الشرعي لا الكوني القدري وقوله (وأن تشركوا بالله مـا لم ينزل به سلطاناً) أي وحـرم الشرك به بأن تجعلوا لله شريكاً مالم ينزل به سلطاناً ، وحرم سبحانه القول عليه بلا علم في أسمائه وصفاته وشرعه · وأصل الشرك والكفر القول على الله بلا علم فكل مشرك قائل على الله بلا علم دون العكس إذ القول على الله بلا علم ، قد يتضمن التعطيل والابتداع في الدين فهو أعـم من الشرك والشرك فرد من أفراده،ورتب هذه المحرمات أربع مراتب وبدأ بأسهلها وهو الفواحش ، ثم ثنى بما هو أشد تحريماً وهو الإثم والظلم ، ثم ثلث بما هو أعظم وهو الشرك به سبحانه ، ثم ربع بما هو أشد تحريماً من ذلك كله وهو القول على الله بلا علم ·

وقال بعض المفسرين : الجنايات محصورة في خمسة أنواع :

(١) الجنايات على الأنساب وهي المرادة بالفواحش ·

(٢) الجنايات على العقول وهي المشار إليها بالإثم ·

(٣) الجنايات على النفوس ، والأموال ، والأعـراض ، وإليهـا الإشارة بالبغي ·

(٤) الجنايات على الأديان وهي من وجهين إما طعن في توحيد الله وإليه الإشارة بقوله (وأن تشركوا بالله) ·

(٥) وإما القول في دين الله من غير معرفة وإليه الإشارة بقوله : (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) ·

وهــذه الخمسة أصول الجنايات ، وأما غـيرها فهي كالفـروع ومناسبة ذكرها هنا ما فيها من تحريم القول على الله بلا علم ، ومنـه القول على الله في أسمائه وصفاته بلا علم ، لأن القول على الله بلا علم أشد من الشرك تحريما لأن الله رتبها في الآية من الأدنى إلى الأعلى .

وقال ابن القيم رحمه الله : أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة : تعلق القلب بغير الله وطاعة القوة الغضبية والقـوة الشهوانية وهى الشرك والظلم والفواحش فغـاية التعلق بغـير الله الشرك وغاية القوة الغضبية القتل وغاية القوة الشهوانية الزنا ، ولهذا جمـع الله الثلاثة في قوله : (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) .

وقال الشيخ رحمه الله : ظلم العبدنفسه يكون بتركماينفعها وهي محتاجة إليه وذلك فعل ما أمر الله به ، وبفعل ما يضرها وذلك المعاصي كلها كما أن ظلم الغير كذلك إما بمنع حقه أو التعدى عليه فان الله أمر العباد بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم وجاء القرآن بالأمر بالإصـلاح والنهي عن الفساد والصلاح كله طاعة والفساد كله معصية وقد لا يعلم كثير من الناس ذلك على حقيقته فعلى المؤمن أن يعلم أن الله يأمر بكل مصلحة وينهى عن كل مفسدة وكل ما أمر الله به راجع إلى العدل وكل ما نهى عنه راجع إلى الظلم ، والظلم الذي حرمه الله على نفسه أن يترك حسنات المحسن فلا يجزيه بها أو يعاقب البرىء على مالم يفعله من السيئات أو يعاقب هذا بذنب غيره أو يحكم بين الناس بغـير القسط ونحو ذلك وذلك لكمال عدله وحمده ، اهـ .

من ما يفهم من الآية الكريمة :

(١) الرد على من قال إن القرآن كلام مخلوق .

(٢) إثبات الربوبية .

(٣) تحريم الفواحش عامة .

(٤) أن الفواحش قسمان ظاهرة وباطنة .

(٥) تحريم الإثم ٠
(٦) تحريم الزنا لأنه فاحشة ٠
(٧) تحريم اللواط لأنه فاحشة ٠
(٨) تحريم البغي بغير حق ٠
(٩) أن القصاص بحق يجوز ٠
(١٠) تحريم الشرك بالله ٠
(١١) أن العلة في ذلك أنه لم ينزل به سلطاناً ٠
(١٢) تحريم القول على الله بلا علم ٠
(١٣) في الآية رد على الجهمية المنكرين لصفة العلم ٠
(١٤) في الآية رد على المعتزلة القائلين عليم بلا علم ٠
(١٥) في الآية رد على الأشاعرة المنكرين لبعض الصفات ٠
(١٦) أن التحريم والتحليل إنما يكون من عند الله ٠
(١٧) شمول الشريعة لكل الأحكام ٠
(١٨) الرد على من يقول بعدم كمال الشريعة الإسلامية ٠
(١٩) الرد على من يطالب بالقوانين الوضعية ٠ والأنظمة المخالفة للشرع ٠
(٢٠) الرد على المشركين القائلين بأن لأصنامهم ومعبوديهم شفاعة
(٢١) ضرر الشرك على الخلق ٠
(٢٢) إثبات صفة العلم ٠
(٢٣) الرد على من أنكر صفة العلم أو أولها بتأويل باطل ٠
(٢٤) إثبات صفة الكلام والرد على من أنكرها أو أولها بتأويل باطل
(٢٥) قيام الحجة على الخلق ٠
(٢٦) تحريم السرقة لأنها من الفواحش ٠
(٢٧) تحريم أكل الربا لأنه من الفواحش ٠
(٢٨) تحريم أكل مال اليتيم لأنه من الفواحش ٠
(٢٩) تحريم السحر لأنه من الفواحش ٠
(٣٠) تحريم القذف بالزنا أو اللواط لأنه فاحشة ٠

(٣١) تحريم شهادة الزور لأنها فاحشة ·
(٣٢) تحريم القتل لأنه فاحشة ·
(٣٣) تحريم التولي يوم الزحف لأنه فاحشة ·
(٣٤) تحريم اتيان المرأة في دبرها لأنه فاحشة ·
(٣٥) تحريم اتيان من حاضت لأنه فاحشة ·
(٣٦) تحريم سوء الظن بالله لأنه فاحشة ·
(٣٧) تحريم الطعن في الدين لأنه فاحشة ·
(٣٨) تحريم سب الرسل لأنه فاحشة ·
(٣٩) أن الشرك جناية على الدين ·
(٤٠) ترتيب المحرمات الخمس ·
(٤١) أنها حرام في كل زمان ومكان أي المحرمات الخمس ·
(٤٢) أن البغي ينقسم قسمين محرم وهو ما كان بغير الحق · وجائز وهو ما كان بحق ·
(٤٣) تعظيم حرمة المسلم ·
(٤٤) إن الفواحش تنقسم إلى قسمين ظاهرة وباطنة : ظاهرة كالزنا وباطنة كالكبر والعجب والحسد وسوء الظن ·
(٤٥) تحريم التعدي على الناس في أبدانهم وأموالهم لأنه من البغي بغير الحق ·
(٤٦) إن الجنايات على الأنساب تعتبر من الفواحش ·
(٤٧) إن الشرك بالله جناية على الدين ·
(٤٨) إن هذه الآية على ايجازها حوت أحكاماً كثيرة ·
(٤٩) في الآية ناحية اقتصادية : ترك اللواط والزنا والقتل ·
(٥٠) في الآية ناحية صحية ترك الزنا واللواط والقتل والفواحش التي تبعث على الهموم وضعف الجسم أو هلاكه ·
(٥١) في الآية ناحية صحية واقتصادية ترك الخمر ·
(٥٢) دليل على عظمة الله وإنه أحاط بكل شيء علماً ·
(٥٣) الحث على فعل الأوامر وترك النواهي ·

(٥٤) إن القول على الله بلا علم أعظم من الشرك لأن المحرمات في الآية مرتبة مبدوءة بالأسهل ·

(٥٥) في الآية مناسبة لذكرها في كتاب التوحيد لأن الله حرم القول عليه بلا علم ومن ذلك القول عليه بأسمائه وصفاته ·

(٥٦) إن القرآن شامل لجميع الأديان وناسخ لها ·

(٥٧) في القرآن معجزة من المعجـزات لتحقق مضار هـذه التي نهى عنها ·

(٥٨) إن الدليل على ذلك إن من لم يحرم هذه المحرمات الخمس تجد الفساد منتشراً في جميع أرجائه وأنظر ماحولك من البلدان المبيحة لذلك ·

(٥٩) لطف الله بخلقة حيث أرشـدهم إلى ما فيه صـلاح دينهم ودنياهم وأبدانهم ·

(٦٠) قيام الحجة على الخلق ·

(٦١) الحث على الخوف من الله ومراقبته ·

(٦٢) أن أوامر الله ونواهيه في غاية الحسن فلا يأمر إلا بخير ولا ينهى إلا عن شر ·

(٦٣) ناحية اجتماعية ترك البغي ·

(٦٤) دليل على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·

(٦٥) الرد على من أنكر رسالته صلى الله عليه وسلم ·

(٦٦) دليل على البعث والحساب والجزاء على الأعمال ·

(٦٧) عظم حرمة المسلم وأن البغي عليه بغير حق انتهاك لما حرم الله ·

(٦٨) إن الخلق لم يقدروا الله حق قدره وإلا لمـا عصوه واقترفوا هذه المحرمات ·

(٦٩) إن علم الباطن والظاهر عند الله سواء كله يعلمه الله ·

(٧٠) إن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ الأمة ما أمر به ·

(٧١) دليل لأهل السنة أن القرآن غير مخلوق وأنه منزل ·

(٧٢) جواز القول بالشرع عن علم ·

(٧٣) الحث على طلب العلم ليسلم من القول على الله بلا علم ٠
(٧٤) أن مالم يكن فاحشة فليس يدخل في المنهي عنه في الآية هذه
(٧٥) ذم الجهل ٠ والمأخذ من قوله وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون
(٧٦) اتفاق التحريم الديني الشرعي والتحريم الكوني القدري ٠
(٧٧) دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى وما أتى به فهو وحي من الله ٠
(٧٨) اعتناء الله سبحانه وتعالى ولطفه برسوله صلى الله عليه وسلم ٠
(٧٩) أن الخلق لم يتركوا بدون أوامر ونواهي ٠
(٨٠) أن افعال العباد تصدر عنهم باختيارهم وإلا لما كان للأمر فائدة ٠
(٨٢) أن في القرآن تربية عالية وتوجيهات دينية ٠
(٨٣) أن القرآن نزل بالتدريج شيئاً فشيئاً والدلالة من قوله ينزل
(٨٤) الرد على من قال إنه نزل دفعة واحدة ٠
(٨٥) بلاغة القرآن وفصاحته حيث أن الآية الواحدة القصيرة تحتوي على أحكام كثيرة ٠
(٨٦) أن في القرآن حكماً وأسراراً لا يفهمها إلا من وفقه الله لذلك اللهم وفقنا لما وفقت له عبادك الصالحين ٠
(٨٧) بيان عجز الخلق وضعفهم وضيق علمهم وسعة علم الله ٠
(٨٨) دليل على علو الله على خلقه والدلالة مأخوذة من قوله ينزل
(٨٩) إثبات الألوهية ٠
(٩٠) الرد على القدرية القائلين إن العباد يخلقون أفعالهم لأنهم مكذبون لله ٠
(٩١) تحريم نسبة الولد إلى الله لأنه فاحشة ٠
(٩٢) تحريم نسبة الزوجة إلى الله لأنه فاحشة ٠
(٩٣) تحريم نسبة الفقر إلى الله لأنه فاحشة ٠
(٩٤) تحريم نسبة البخل إلى الله لأنه فاحشة ٠

(٩٥) تحريم تشبيه الله بخلقه لأنه فاحشة .
(٩٦) تحريم نفى صفات الله لأنه فاحشة .
(٩٧) تحريم الحكم بالقوانين الوضعية لأنه فاحشة .
(٩٨) تحريم نسبة الظلم إلى الله لأنه فاحشة .
(٩٩) تحريم نسبة التعب أو النصب أواللغوب إلىالله لأنه فاحشة
(١٠٠) تحريم الكذب على الله لأنه فاحشة .
(١٠١) تحريم إنكار البعث والحساب والجزاء على الأعمال لأنه فاحشة .

بسم الله الرحمن الرحيم

امتنان الله على عباده ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تعالى :

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) .

يقول تعالى ممتناً على عباده بما أرسل اليهم رسولا من أنفسهم، أى من جنسهم وعلى لغتهم .

والآية بمعنى قوله : (هو الذى بعث في الأميين رسولا منهم) ، وقال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال جعفر بن أبى طالب للنجاشي والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولا منا نعرف نسبه وصفته ، ومدخله ومخرجه ، وصدقه وأمانته .

وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية

وقال صلى الله عليه وسلم : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح » .

وعن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدنى أبى وأمى ، ولم يمسسنى من سفاح الجاهلية شيء » .

وقال ابن عباس : ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبى صلى الله عليه وسلم ، قال بعض العلماء : يعنى من مضرها وربيعتها ويمانها ،

وهم القحطانيه فإن آمنة لها نسب في الأنصار ، وإن كانت من قريش ، والأنصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ ، فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله : (لقد جاءكم رسول منأنفسكم) ترغيب للعرب في نصره والإيمان به ، فإنه تم شرفهم بشرفه ، وعزتهم بعزه ، وفخرهم بفخره ·

قال الشاعر :

وكَمْ أبٍ قد علا بابنٍ ذُرى شرفٍ كما عَلَتْ برسولِ اللهِ عَدْنانُ

وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والأمانة ، والصيانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الحميدة ·

وعن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصفاني من بني هاشم »·

عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قلت : يا رسول الله ، إن قريشاً جلسوا يتذكرون أحسابهم بينهم ، فقالوا : مثلك كمثل نخلة في كدية من الأرض ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » أخرجه الترمذي ·

وقيل : إن قوله سبحانه وتعالى : (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) عام فيكون المعنى على هذا القول : لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم ، يعني من جنسكم ، بشر مثلكم ، إذ لو كان من الملائكة لم يطيقوا التلقي عنه ، وهذا من رحمة الله بهم ، حيث كان من جنسهم، ولم يقل جل وعلا جاءكم رسول منكم ، ولكن قال : (من أنفسكم) وهي أشد حساسية وأعمق صلة ، وأدل على نوع الوشيجة التي تربطهم به فهو بضعة من أنفسهم تتصل بهم صلة النفس بالنفس وهي أعمق وأحسن ·

وقوله تعالى : (عزيز عليه ماعنتم) اى يعز عليه الذى يعنت أمته ويشق عليها فمن شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته كراهته أشياء مخافة أن يفرض عليهم ثم لا يطيقها كثير منهم كما سنذكر بعضه من ذلك ماورد عنه صلى الله عليه وسلم في حديث عائشة رضي الله عنها أنه قال « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه » الحديث رواه مسلم .

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » رواه الجماعة .

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : جاء ثلاثة نفر إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، قالوا : فأين نحن من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى غفر الله له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر ، أنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » الحديث متفق عليه .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لمن يشدد على نفسه : « إن لأهلك عليك حقاً ، وإن لضيفك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقاً ، فقم ونم وصم وأفطر ، فإنك لا تدرى يطول بك عمر فتعجز عن ذلك ، فاكلفوا أيها الناس من العمل ما تطيقونه فإن الله لا يمل حتى تملوا » .

وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً مايقول لأصحابه : « ما تركت شيئاً يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ولا شيئاً يبعدكم عن الله الا وقد نهيتكم عنه ، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » .

وقد ورد في الحديث « أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » .

وقال صلى الله عليه وسلم حين فرض الحج وسأله رجل أكل عام يا رسول الله ؟ قال : « لا ، ولو قلت نعم لوجبت ولم تستطيعوا » .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم ، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم ، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار رهبانية ابتدعوها ماكتبناها عليهم » .

قال أنس : ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة المسجد فرأى حبلاً ممدودا بين الساريتين ، فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : حبل لزينب ، فإذافترت تعلقت به ، فقال : « لا ... حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليقعد ، فإن أحب الدين مادام صاحبه عليه وإن قل » .

وعن زيد بن ثابت أن النبى صلى الله عليه وسلم اتخذ حجرة فصلى فيها ليالى اجتمع عليه ناس ثم فقدوا صوته ليلة ، فظنوا أنه نام فجعل بعضهم يتنحنح ليخرج إليهم ، فقال : « مازال بكم الذى رأيت من صنيعكم حتى خشيت أن يكتب عليكم ، ولو كتب عليكم ماقمتم به » الحديث متفق عليه .

ولنهيهم عن الوصال في الصوم ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم يسمع بكاء الصبى فيخفف مخافة أن تفتن أمه ، وقال : « فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز فإن فيهم الضعيف والكبير وذوا الحاجة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنى لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فاسمع بكاء الصبى فأتجوز في صلاتى مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه » .

وبينما هو يخطب إذا برجل قائم فسأل عنه ، فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس لا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم ، فقال : مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه » :

وقوله تعالى : (حريص عليكم) أى على هدايتكم ووصول النفع الدنيوى والأخروى إليكم ، فيحب لكم الخير ، ويسعى جهده في إيصاله

اليكم ، ويكره لكم الشر ، ويسعى جهده في تنفيركم عنه ، لا يلقى بكم في المهالك ولا يدفع بكم إلى المهاوى ، فإذا هو كلفكم الجهاد وركوب الصعاب فما ذاك من هوان بكم عليه ولا بقسوة في قلبه وغلظة ، إنما هى رحمة في صورة من صورها ، رحمتكم من الذل والهوان ، ورحمة بكم من الذنب والخطيئة وحرص منه على أن يكون لكم شرف حمل الدعوة ، وحظ رضوان الله والجنة التى وعد المتقون ، والنظر إلى وجه الله الكريم .

وإليك نماذج من حرصه صلى الله عليه وسلم على أمته ، ونصحه لهم ، وشفقته عليهم .

قال أبو ذر : لقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علما .

وقال عمر بن الخطاب : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما ، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه ، رواه البخارى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما بقى شيء يقرب من الجنة ويباعد بين النار إلا وقد بين لكم » .

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لم يحرم حرمة إلا وقد علم أنه سيطلعها منكم مطلع ، الا وانى آخذ بحجزكم أن تهافتوا في النار كتهافت الفراش أو الذباب » .

وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه ملكان فيما يرى النائم ، فقعد أحدهما عند رجليه والآخر عند رأسه ، فقال الذى عند رجليه للذي عند رأسه : اضرب مثل هذا ومثل أمته ، فقال: إن مثله ومثل أمته كمثل قوم سفر انتهوا إلى رأس مفازة ولم يكن معهم من الزاد ما يقطعون به المفازة ، ولا مايرجعون به ، فبينما هم كذلك إذ أتاهم رجل في حلة حبرة ، فقال : أرأيتم إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء تتبعونى ؟ فقالوا : نعم ، قال : فانطلق بهم فأوردهم

رياضاً معشبة وحياضاً رواء ، فأكلوا وشربوا وسمنوا ، فقال لهم : ألم ألفكم على تلك الحال فجعلتم لي إن وردت بكم رياضاً معشبة وحياضاً رواء أن تتبعونى ؟ فقالوا : بلى ، فقال : فإن بين أيديكم رياضاً هى أعشب من هذه وحياضاً هى أروى من هذه ، فاتبعونى ، فقالت طائفة : والله لنتبعنه ، وقالت طائفة : قد رضينا بهذا نقيم عليه .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه ، أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينه في شيء ، قال عكرمة : أراه قال في دم ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ، ثم قال : « أحسنت إليك ؟ » قال الأعرابى : لا ، ولا أجملت ، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه ، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كفوا ، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ إلى منزله دعا الأعرابى إلى البيت ، فقال : « إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك ، فقلت ما قلت » فزاده رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً وقال : « أحسنت إليك » فقال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك ، فقلت ماقلت وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء ، فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب عن صدورهم » فقال : نعم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه ، فقال ما قال وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي ، كذلك يا أعرابى ؟ » قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتبعها الناس فلم يزدها إلا نفوراً ، فقال لهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى فأنا أرفق بها وأعلم بها فتوجه إليها وأخذ لها من قشام الأرض ودعاها حتى جاءت واستجابت،وشد عليها رحلها ، وإنى لو أطعتكم حيث ماقال لدخل النار » .

ومن الأدلة على حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية الخلق مغامرته بنفسه وأهله ، وصبره على ما كان يلاقيه عند عرضه نفسه

على القبائل ، وما أوذى به حينما ذهب إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله ، فقد خضبوا نعليه بالدماء ، وأغروا به سفهاءهم .

ومن حرصه صلى الله عليه وسلم أنه كان يذهب إلى الأماكن التى تجمع الناس لتبليغهم دعوة الله .

فقد أخرج الإمام أحمد عن رجل من بنى مالك قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بسوق ذى المجاز يتخللها يقول : « يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » قال : وأبو جهل يحثى عليه التراب ويقول : لا يغوينكم هذا عن دينكم ، فإنما يريدلتتركوا آلهتكم وتتركوا اللات والعزى ، وما يلتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أحمد عن ربيعة بن عباد من بنى الديل ، وكان جاهلياً فأسلم ، قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذى المجاز وهو يقول : « يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » ، والناس مجتمعون عليه ووراءه رجل وضيء الوجه ، أحول ذو غديرتين ، يقول : إنه صابىء كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب .

وعن ابن عباس قال : لما أنزل الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) أتى النبى صلى الله عليه وسلم الصفا فصعده ، ثم نادى ياصباحاه ، فاجتمع الناس إليه بين رجل يأتيه وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا بنى عبد المطلب ، يابنى فهر ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتمونى ؟ قالوا : نعم ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد» ، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ، وأنزل الله (تبت يدا أبى لهب) أخرجاه في الصحيحين .

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : لما نزلت هذه الآية (وأنذر عشيرتك الأقربين) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فعم وخص ، فقال : « يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بنى كعب

أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا معشر بني المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يافاطمة بنتمحمد أنقذي نفسك من النار ، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً ، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلاها » ٠

وقوله تعالى : (بالمؤمنين رؤوف رحيم) يخبر جل وعلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم رءوف بالمؤمنين رحيم بهم ، فهو صلى الله عليه وسلم شديد الرأفة والرحمة بهم ، أرحم بهم من والديهم ، ولهذا كان حقة صلى الله عليه وسلم مقدما على سائر حقوق الخلق،ومحبته مقدمة على محبة الولد والوالد ، والمال والنفس ، وواجب على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيزه ٠

قال الله تبارك وتعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) الآية ٠

وورد أن النبى صلى الله عليه وسلم كان آخذاً بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا نفسي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ، فقال عمر : فأنت والله أحب إلى من نفسي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الآن يا عمر » ٠

وقد ثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « والذى نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه منولده ووالدهوالناس أجمعين » ٠

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » الحديث رواه مسلم ٠

وقوله تعالى : (فإن تولوا فقل حسبى الله لا إنه إلا هو) ٠

المعنى والله أعلم : فإن تولوا وأعرضوا عن الإيمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فامض على سبيلك وامض لأمرك ، فإن الله يعينك عليهم ويكفيك أمر توليهم وما يتبعه من عدواتهم وصدهم عن سبيله ، وقد بلغت وما قصرت ·

وقوله : (لا إله إلا هو) أى لا معبود بحق الا هو ، ولكلمة الإخلاص أركان وشروط ، فأركانها اثنان ، نفى وإثبات ، وحد النفى من الإثبات لا إله أى نافياً جميع ما يعبد من دون الله ، والإثبات إلا الله مثبتاً العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته ، كما أنه لا شريك له في ملكه ·

وأما شروطها فسبعة لا تصح هذه الكلمة ولا تنفع قائلها إلا إذا استجمعت له الشروط التى تلى :

الأول : العلم بمعناها نفياً وإثباتاً ، قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (فاعلم أنه لا إله إلا الله) ، وقال : (الا من شهد بالحق وهم يعلمون) بقلوبهم معنى مانطقوا به بألسنتهم قال صلى الله عليه وسلم: « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة » ·

الثاني : اليقين ، استيقان القلب بها ، قال الله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) إلى قوله : (أولئك هم الصادقون) وقوله صلى الله عليه وسلم : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة »، وقال صلى الله عليه وسلم لأبى هريرة : « من لقيت وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة » كلاهما في الصحيح ·

الثالث : الإخلاص ، قال الله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال : (الا لله الدين الخالص) ·

وعن أبى هريرة قال : قلت يا رسول الله ، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألنى عن هذا الحديث أحد أولى منك لما رأيت

من حرصك على الحديث : أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة : من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه » وقال صلى الله عليه وسلم : « ان الله تعالى حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله ٠

وعن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صــلى الله عليه وسلم يقول : « قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عمــلا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه » رواه مسلم ٠

الرابع : الصدق ، قال الله تعالى : (والذى جاء بالصدق وصــدق به أولئك هم المتقون) ٠

عن ابن عباس قال : من جاء بلا إله إلا الله وقال : فليعلمن الله الذى صدقوا وليعلمن الكاذبين ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : « مامن أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار » متفق عليه ٠

وتقدم قوله صلى الله عليه وسلم « يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه » الحديث رواه مسلم ٠

وقال صلى الله عليه وسلم للأعرابى الذى علمه شرائع الإسلام : « أفلح إن صدق » ٠

الخامس : المحبة ، قال تعــالى : (فسوف يأت الله بقــوم يحبهم ويحبونه) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله » الحديث متفق عليه ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » ٠

السادس : الانقياد لها ظاهراً وباطناً ، قال الله تعالى : (ومن يسلم وجهه لله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى) ، وقال تعالى : (وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) ، وقال صلى الله عليه وسلم : « لايؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لمــا جئت به » ٠

السابع : القبول لها فلا يرد شيئاً من لوازمها ومقتضياتها ، قال تعالى : (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون هـذا ساحر كذاب).إلى قوله : (بل لمـا يذوقوا عذاب) وقال أيضاً في حق من لم يقبلها (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون) إلى قوله : (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون·ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) ولابد من المولاة لله والمعادات لأجله ·

قال الله عـز وجـل : « يا أيهـا الذين آمنوا ألا تتخـذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم » إلى قوله إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » إلى آخر الآيات وقال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم واخوانكم أوليـاء ان استحبوا الكفر على الإيمان » الآية وقال : « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم وإخوانهم » الآية وقال : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء » إلى آخر السورة ·

وعن أبى موسي رضيالله عنه قال : قال النبى صلىالله عليه وسلم: « مثل مابعثنى الله بهمن الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة قبلت المـاء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،وكان منها أجادب أمسكت المـاء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعـوا ، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه مابعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » متفقعليه

وقـوله : (عليه توكلت) التوكل اعتمـاد القلب على الله في جلب المنافع ، ودفع المضار ، مع الثقة بالله وفعل الأسباب ·

المعنى : اعتمدت على الله ووثقت به في جلب ماينفع ودفع مايضر ، (وهو رب العرش العظيم) أى هو المالك لكل شيء الخالق للعرش ، لأنه رب العرش العظيم ، الذى هوسقف المخلوقات ، وجميع المخلوقات من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورين ،

بقدرة الله التى لا يعجزها شيء ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدرته نافذة في كل شيء قدير ، وهو على كل شيء وكيل .

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبى بن كعب قال : « آخر آية نزلت من القران هذه الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) إلى آخر السورة » .

وعن أبى بن كعب رضي الله عنه « أنهم جمعوا القرآن في المصاحف في خلافة أبى بكر رضي الله عنه ، فكان رجال يكتبون ويملى عليهم أبى ابن كعب ، فلما انتهوا إلى هـذه الآية من سورة براءة ، ثم انصرفوا فظنوا أنها آخر ما نزل ، فقال لهم أبى : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر أنى بعدها آيتين » ، والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

مما يفهم من آيات الدرس :

(١) امتنان الله على عباده ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٢) أنه من جنسهم ، وعلى لغتهم .
(٣) أنه صلى الله عليه وسلم يشق عليه ما يعنت أمته .
(٤) أنه صلى الله عليه وسلم حريص على هداية الخلق .
(٥) أنه صلى الله عليه وسلم رءوف بالمؤمنين .
(٦) أنه صلى الله عليه وسلم رحيم بالمؤمنين .
(٧) إثبات الألوهية .
(٨) أن الله كاف من توكل عليه .
(٩) نفى الشريك لله والحث على التوكل على الله .
(١٠) إثبات الربوبية .
(١١) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .
(١٢) الرد على من أنكرها .
(١٣) إن الله لم يهمل خلقه بلا رسل .
(١٤) إثبات العرش .

(١٥) دليل على عظمة العرش ٠

(١٦) دليل على حرص النبى صلى الله عليه وسلم على إعزازأمته، وأنه ليس من الهين عليه أن تكون أمته ذليلة يعنتها أعداؤها بالسيطرة عليها والتحكم فيها ٠

(١٧) أن دعاءه أمته وحثهم على الجهاد رأفة بهم لينالوا الدرجات العالية في جنات النعيم ٠

(١٨) إن نسبه صلى الله عليه وسلم متشعب في جميع القبائل من العرب وبطونها ٠

(١٩) أن هداية التوفيق والإلهام بيد الله ٠

(٢٠) أن ما على الرسول إلا البلاغ ٠

(٢١) وأن من تولى وأعرض لا يضر إلا نفسه ٠

(٢٢) الحث على اللجأ إلى الله بالدعاء والإعانة ، وهو الكافي والمعين ٠

(٢٣) فيه تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمأخذ من قوله تعالى : (فإن تولوا فقل حسبى الله ٠٠٠ الخ) ٠

(٢٤) دليل على قدرة الله ٠

(٢٥) أن التوكل لا يجوز إلا على الله ، لأنه عبادة ٠

(٢٦) تخصيص العرش بالذكر ، قيل : لأنه أعظم المخلوقات ، فيدخل ما دونه في الذكر من باب الأولوية ، وقيل : خص بالذكر تشريفاً ، كما يقال : بيت الله ٠

(٢٧) إثبات صفة الكلام لله ٠

(٢٨) الرد على من قال : إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم لأنه المخاطب ٠

(٢٩) لطف الله بخلقه ، إذ بعث فيهم هذا النبى الرءوف الرحيم ٠

(٣٠) في الآية مايضطر الموفق حيث أتحفنا بإنزال كتابه وإرسال محمد صلى الله عليه وسلم ٠ إلى محبة الله جل وعلا ٠

(٣١) محبة النبى صلى الله عليه وسلم لأن الله اصطفاه لهداية الخلق ٠

(٣٢) دليل على علو الله على خلقه ٠

(٣٣) الحث على التخلق بالأخلاق الفاضلة ، وفي الحديث : « الراحمون يرحمهم الرحمن » ٠

(٣٤) أن في قوله (من أنفسكم) مايقتضي مدحاً لنسب النبى صلى الله عليه وسلم ٠

(٣٥) أن ما ذكر الله من صفة نبيه حق وصدق ٠

(٣٦) أن عظمة العرش الذى هو مخلوق من مخلوقات الله دليل على عظمة الله ٠ والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

(إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون • والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم • للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون • والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة مالهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) •

لما كان بغي الناس في هذه الدنيا سببه إفراطهم في حبها والتمتع بزينتها ، ضرب تبارك وتعالى مثلا يصرف العاقل الموفق عن الغرور بها ، ويرشده إلى الاعتدال في طلبها ، والكف عن التوسع في الحصول على لذاتها بالبغى والظلم والفساد في الأرض ، فشبه زهرتها وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذى أخرجه الله من الأرض بماء أنزله من السماء فأنبتت به الأرض أزواجاً شتى من النبات ، تشابكت واختلط بعضها ببعض على كثرتها واختلاف ألوانها وأنواعها من أصناف شتى مما يأكل الناس من زروع وثمار وما تأكل الأنعام من أب وقصب كما قال في الآية الأخرى : « وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى » وقوله : (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت) أى حتى إذا كانت متزخرفة في منظرها ، واكتست في زينتها فصارت بهجة للناظرين ونزهة للمتفرجين وآية للمتبصرين ، فصرت ترى لها منظراً عجيباً ما بين أخضر وأصفر وأبيض وغيره من سائر

الألوان المختلفة كعروس جليت بالذهب والفضة والجواهر والحلل المختلفة الألوان ذات البهاء والبهجة ، (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) أي حصل معهم طمع بأن التمتع بثمراتها سيستمر ويدوم ، وأنهم متمكنون من جذاذها وحصادها وادخار غلاتها ، فبينما هم كذلك إذ نزل بها في تلك الحال أمرنا المقدر لهلاكها ، فجاءتها جائحة وضربت زرعها بعاهة كجراد أو صقيع شديد أو ريح شديدة باردة ، أو ريح سموم ليلا وهم نائمون ، أونهاراً وهم غافلون فأيبستأوراقها وأتلفت ثمارها (فجعلناها حصيداً) أى يابساً بعد الخضرة والنضارة (كأن لم تغن بالأمس) أى كأن لم تكن بالأمس ، وأصله من غنى بالمكان إذا أقام به ٠

وقال قتادة : معناه أن المتشبث بالدنيا يأتيه أمر الله وعذابه أغفل مايكون ٠

وقال بعض المفسرين في تأويل الآية : إن الحياة في الدنيا سبب لاجتماع المال وما يروق من زهرة الدنيا ويعجب ، حتى إذا استتم ذلك عند صاحبه وظن أنه متمتع بذلك سلب عنه بموته أو بحادثة تهلكه ، وقديماً قيل :

إذا تم أمر بدا نقص ترقب زوالا إذا قيل تم

وقال الآخر :

إذا كنت تهوى العيش فابغ توسطاً
فعند التناهي يقصر المتطاول
توقى البدور النقص وهى أهلة
ويدركها النقصان وهى كوامل

كما أن الماء سبب لالتفاف النبات وكثرته ، فإذا تزينت به الأرض وظن الناس أنهم مستمتعون بذلك أهلكه الله ، فعاد ما كان فيها كأن لم يكن ، وهكذا الأمور بعد زوالها ، كأنها لم تكن ٠

أعوام وصل كان ينسي طيبها ذكر النوى فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أردفت نحوى أسي فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

وكما جاء في الحديث : « يؤتي بأنعم أهل الدنيا فيغمس في النار غمسة ، فيقال له : هل رأيت خيراً قط ؟ هل مر بك نعيم قط ؟ فيقول : لا ، ويؤتي بأشد الناس عذاباً في الدنيا فيغمس في النعيم غمسة ، ثم يقال له : هل رأيت بؤساً ؟ فيقول : لا » .

وقال تعالى إخباراً عن المهلكين : « فأصبحوا في دارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها » ، وقال تعالى في الآية الأخرى مخوفا نزول العذاب في أوقات الغفلات إما حين النوم وإما وقت الضحى ، اذ يكثرفيه تشاغل الناس باللذات : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون أو آمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) ؟ .

ثم قال تعالى : (كذلك نفصل الآيات) أى كهذا المثل الواضح الذى يمثل حال الدنيا وغرور الناس فيها مع سرعة زوالها عنهم ، وتعلق الآمال بها الخداعة ، وتمسكهم وتوثقهم بمواعيدها الغرارة وقد ضرب الله جل وعلا مثل الدنيا بنبات الأرض في غير ما آية في كتابه العزيز !

فقال في سورة الكهف : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً) .

وقال في سورة الحديد : (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً) .

وقوله (نفصل الآيات) أي الدالة على حقيقة التوحيد وأصول التشريع والآداب والمواعظ (لقوم يتفكرون) أى يعملون أفكارهم فيما ينفعهم ،

وأما الغافل المعرض فهذا لا تنفعه الآيات ولا يزيل عنه الشك البيان ·

قال أحد المفسرين للآية : وهذا من التشبيه المركب ، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاما بعدما التف وتكاثف وزين الأرض بخضرته ورفيفه ، والتنبيه على حكمة التشبيه أن الحياة صفوها شبيبتها كما أن صفو الماء في أعلى الاناء :

ألم تر أن العمر كأس سلافة　　فأوله صفو وآخره كدر

وحقيقة تزيين جثة الطين بمصالح الدنيا والدين كاختلاط النبات على اختلاف التكوين ، فالطينة الطيبة تنبت بساتين الأنس ورياحين الروح وزهرة وكروم الكرم ، وحبوب الحب ، وحدائق الحقيقة وشقائق الغريقة ، والخبيثة تخرج خلاف الخلف ، وثمام الإثم، وشوك الشرك ، وشيح الشح ، وحطب العطب ، ولعاب اللعب ·

ثم يدعوه معاده كما يحين للحرث حصاده، فتزايله الحياة مغتراً كما يهيج النبات مصفرا فتنتبت جثته في الرمس، كأن لم تغن بالأمس ، إلى أن يعود ربيع البعث ، وموعد العرض والبحث ، وكذلك حال الدنيا كالماء ينفع قليله ويهلك كثيره ، ولابد من ترك مازاد ، كما لابد من أخذ الزاد ، وأخذ المال لا يخلو من زلة ، كما أن خائض الماء لا ينجو من بله ، وجمعه وإمساكه تلف صاحبه وإهلاكه ، فما دون النصاب كضحضاح يجاوز بلا احتماء والنصاب كنهر حائل بين المجتاز والجواز إلى المفاز ، لا يمكن إلا بقنطرة وهي الزكاة ، وعمارتها بذل الصلاة ، فمتى اختلت القنطرة غرقته أمواج القناطير المقنطرة ، وكذا المال يساعد الأوغاد دون الأمجاد ، كما أن الماء يجتمع في الوهاد دون النجاد، وكذا المال لا يجتمع إلا بكد البخيل ، كما أن الماء لا يجتمع إلا بسد المسيل ثم يفنى ويتلف كالماء في الكف · انتهى ·

ومما ساقه ابن القيم رحمه الله في كتابه (عـدة الصابرين) من أمثلة الدنيا وأهلها ، قال :

مثال لاغترار الناس بالدنيا وضعف إيمانهم بالآخرة ٠

قال ابن أبى الدنيا : حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا روح بن عبادة حدثنا هشام بن حسان الحسن قال : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : « إنما مثلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء حتى إذا لم يدروا أماسلكوا منها أكثر أم مابقى ، أنفدوا الزاد وحسروا الظهر ، وبقوا بين ظهراني المفازة لا زاد ولا حمولة فأيقنوا بالهلكة ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حلة يقطر رأسه ، فقالوا إن هذا قريب عهد بريف ، وما جاءكم هذا إلا من قريب ، فلما انتهى إليهم قال : يا هؤلاء : علام أنتم ، قالوا : على ماترى ٠

قال : أرأيتم إن هديتكم على مـاء ورياض خضر ماتجعـلون لى ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً ، قال : عهودكم ومواثيقكم بالله ، قال : فأعطوه عهودهم ومواثيقهم بالله لا يعصونه شيئاً ، قال : فأوردهم ماء ورياضاً خضراً ، قال : فمكث فيهم ماشاءالله ثم قال : ياهؤلاء الرحيل ، قالوا إلى أين قال إلى ماء ليس كمائكم ورياض ليست كرياضكم ٠

قال : فقال جل القوم ، وهم أكثرهم : والله ماوجدنا هـذا حتى ظننا أن لن نجده ، ومانصنع بعيش هو خير من هذا ؟ قال : وقالت طائفة وهم أقلهم : ألم تعطوا هـذا الرجل عهـودكم ومواثيقـكم بالله لا تعصـونه شيئاً وقد صدقـكم في أول حديثـه فوالله ليصـدقنكم في آخره ، فراح بمن اتبعه وتخلف بقيتهم فبادرهم عدوهم ، فأصبحوا بين أسير وقتيل » ٠

مثال آخر للدنيا وأهلها ما مثلها به النبى صلى الله عليه وسلم كظل شجرة والمرء مسافر فيها إلى الله فاستظل في ظل تلك الشجرة

في يوم صائف ثم راح وتركها ، فتأمل هـذا المثال ومطابقته للواقـع سواء فإنها في خضرتها كشجرة وفي سرعـة انقضائها وقبضـها شيئاً فشيئاً كالظل ، والعبد مسافر إلى ربه والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن أن يبني تحتها داراً ولا يتخذها قراراً ، بل يستظل بها بقدر الحاجة ، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق .

مثال آخر للدنيا ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة ومايعقبهم من الحسرات :

مثل أهلها في غفلتهم مثل قوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة وحذرهم الإبطاء وخوفهم مرور السفينة فتفرقوا في نواحي الجزيرة فقضي بعضـهم حاجته وبادر إلى السفينة فصادف مكاناً خالياً ، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده ، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة ويسمع نغمات طيورها ويعجبه حسن أحجارها .

ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها فلم يصادف إلا مكاناً ضيقاً فجلس فيه وأكب بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفـائقة فحمل منهـا حمله فلمـا جاء لم يجد في السفينة إلا مكاناً ضيقاً وزاده حمـله ضيقاً فصار محموله ثقـلا عليه ووبالا ولم يقدر على نبذه بل لم يجد من حمله بداً ولم يجد له في السفينة موضعا فحمله على عنقه وندم على أخذه فلم تنفعه الندامة .

ثم ذبلت الأزهار وتغيرت أرايحها وآذاه نتنها وتولج بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة وأبعد في نزهته حتى إن الملاح نادى عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه فهو تارة يتناول من الثمر ، وتارة يشم تلك الأزهار ، وتارة يعجب من حسن الأشجار وهو على ذلك خائف من سـبع يخرج عليه غير منفـك من شوك ينشب في

ثيابه ويدخل في قدميه أو غصن يجرح بدنه أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته أو صوت هائل يفزعه ثم من هؤلاء من لحق بالسفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل ، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات ، ومنهم من تاه فهام على وجه حتى هلك ، فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيما ، قد شغل باله وعوق عن نجاته ولم يصحبه ٠

مثال آخر : مثل قوم خرجوا في سفر بأموالهم وأهليهم فمروا بواد معشب كثير المياه والفواكه ، فنزلوا به وضربوا خيامهم وبنوا هنالك الدور والقصور ، فمر بهم رجل يعرفون نصحه وصدقه وأمانته فقال: إنى رأيت بعينى هاتين الجيش خلف هذا الوادى وهو قاصدكم فاتبعونى أسلك بكم على غير طريق العدو فتنجوا منه ، فأطاعته طائفة قليلة ، فصاح فيهم ياقوم النجاة النجاة أتيتم أتيتم وصاح السامعون له بأهليهم وأولادهم وعشائرهم ٠

فقالوا : كيف نرحل من الوادى وفيه مواشينا وأموالنا ودورنا وقد استوطناه ؟ فقال لهم الناصح : لينج كل واحد منكم بنفسه مما خف من متاعه وإلا فهو مأخوذ وماله مجتاح ، فثقل على أصحاب الجد والأموال ورؤساء القوم النقلة ومفارقة ما هم فيه من النعيم والرفاهية والدعة ، وقال كل أحمق لىأسوة بالقاعدين فهم أكثرمنى ، مالا وأهلا٠ فما أصابهم أصابنى معهم ، ونهض الأقلون مع الناصح ففازوا بالنجاة وصبح الجيش أهل الوادى فقتلهم واجتاح أموالهم ٠

مثال آخر : قوم سلكوا مفازة ، فاجأهم العطش فانتهوا إلى البحر وماؤه أمر شيء وأملحه ، فلشدة عطشهم لم يجدوا مرارته وملوحته ، فشربوا منه فلم يرووا وجعلوا كلما ازدادوا شربا ازدادوا ظمأ حتى تقطعت أمعاؤهم وماتوا عطشا ، وعلم عقلاؤهم أنه مر مالح ، وأنه كلما ازداد الشارب منه ازداد ظمؤه ، فتباعدوا عنه مسافة حتى وجدوا

أرضاً حلوة فحفروا فيهـا قليباً ، فنبع لهـم ماء عـذب فرات فشربوا وعجنوا وطبخوا ونادوا إخوانهـم الذين على حافة البحـر هلموا إلى المـاء الفرات ، وكان منهم المستهزىء ومنهم المعرض الراضي بما هـو فيـه ، وكان المجيب واحداً بعـد واحد ، وهذا المثل بعينـه قـد ضربه المسيح عليه السلام ، فقال : طالب الدنيا كمثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شربا ازداد عطشاً حتى يقتله .

وقال إبن القيم رحمه الله :

ولو تبصر الدنيا وراء ستورها ... رأيت خيـالا في المنام سيصرم

كحلم وطيف زارا في النوم وانقضي الـ

منـام وراح الطيف والصب مغـرم

وظل أرته الشمس عند طلوعها ... سيقلص في وقت الزوال ويفصم
ومزنة صيف طاب منها مقيلها ... فـولت سريعاً والحـرور تضرم
ومطعم طيب لذ عنـد مساغه ... وبعد قليل حاله تلك تعـلم
كذا هـذه الدنيـا كأحلام نائم ... ومن بعدها دار البقاء ستقدم
فجزها ممراً لا مقراً وكن بها ... غريباً تعش فيها حميداً وتسلم
أو ابن سبيل قال في ظل دوحة ... وراح وخـلى ظلهـا يتقسم
أخا سفر لا يسـتقر قـراره ... إلى أن يرى أوطـانه ويسلم
فياعجبـا كم مصرع وعظت به ... ولكن بنوها عن مصارعها عموا
سقتهم كؤس الحب حتى إذا نشوا ... سقتهم كؤس السم والقوم قد ظموا
وأعجب ما في العبـد رؤية هـذى العظائم منهـا وهـو فيهـا متيم
ومـا ذاك إلا أن خمـرة حبها ... لتسلب عقـل المرء منـه وتسلم
وأعجب من ذا أن أحبابها الأولى ... تهـين وللأعـدا تراعى وتـكرم
وذلك برهـان على أن قـدرها ... جنـاح بعـوض أو أدق والأم
وحسبك ما قال الرسول ممثـلا ... لهـا ولدار الخلد والحق يفهـم
كما يدلي الإنسان باليم أصبعاً ... وينزعها منـه فما ذاك يغنم

فياليت شعري هل أبيتن ليـلة على حـذر منها وأمرى مبرم

وقوله تعالى : (والله يدعو إلى دار السلام) لمـا ذكر جل وعـلا مثالا لزهرة الحياة الدنيا ، وأنها فانية زائلة لا محالة ، قفى على هذا بالترغيب في داره : دار السلام ، فدعا عموماً ، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واسطفاءه ، فهذا فضله وإحسانه ، والله يختص برحمته من يشاء ، وذلك عدله وحكمته ، وليس لأحد عليه حجة بعد البيـان والرسل ٠

قال قتادة : الله هو السلام وداره الجنة ، والسلام اسم من أسماء الله عز وجل ومعناه : السالم من كل عيب ونقص ، وسميت الجنة دار السلام لسلامة أهلها عن كل ألم وآفة ، أو لأن الله تعالى يسلم عليهم ، أو لأن حزنتها يقولون : « سلام عليكم طبتم » أو لأن بعضهم يسلم فيها على بعض ، فالسلام إما بمعنى السلامة ، أو بمعنى التسليم ٠

قال ابن القيم رحمه الله في صفة الجنة :

فاسمع إذاً أوصافها وصفات هـا تيـك المنـازل ربة الإحسـان
هي جنـة طابت وطاب نعيمهـا فنعيمها باق وليس بفـــان
دار السلام وجنـة المـأوى ومنـ ـزل عسـكر الإيمـــان والقرآن
فالدار دار سلامة وخطابهـم فيهـا سلام واسم ذى الغفران

وعن أبى قلابة عن النبى صـلى الله عليه وسلم قال : قيـل لتنم عينك ، وليعقل قلبك ولتسمع أذنك ، فنامت عينى وعقل قلبى وسمعت أذنى ، ثم قيل : سيد بنى داراً ، ثم صنع مأدبة ، ثم أرسل داعياً ، فمن أجاب الداعي دخل الدار ، وأكل من المأدبة ورضي عنه السيد ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ، ولم يأكل من المأدبة ولم يرض عنه السيد ، والدار الإسلام ، والمأدبة الجنة ، والداعى محمد صلى الله عليه وسلم» ٠

وعن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسـلم : « ما من يوم طلعت فيه شمسه إلا وبجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعه

خلق الله كلهم إلا الثقلين : يا أيها الناس هلموا إلى ربكم : ان ما قل وكفى خير مما كثر وألهى · قال : وأنزل الله ذلك في القرآن (والله يدعو إلى دار السلام) الآية » ·

وقوله تعالى : (ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) الهداية لغة الدلالة والبيان ، وتنقسم إلى قسمين : هداية توفيق وإلهام ، وهذه اختص الله بها ، فلا يقدر عليها إلا الله ودليل هذا القسم قوله تعالى : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » ، وقوله تعالى : « إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء » وقوله « من يهدي الله فهو المهتدي ·

والقسم الثاني · هدى الدلالة والبيان ، وهذا يقدر عليه من أقدره الله عليه ، ودليله قوله تعالى : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم » ، وقوله : « ولكل قوم هاد » ، وقوله صلى الله عليه وسلم لعلى رضي الله عنه : « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير من حمر النعم » · والخلاصة أن الله جل وعلا يهدى من يشاء إلى الإيمان والدين الحق بالتوفيق والتيسير ، وهو أعلم بالمهتدين ·

وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » يخبر الله تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح ، فأحسن في عبادة الخالق بأن عبده على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته ، وقام بما قدر عليها منها ، وأحسن إلى عباد الله بما يقدر عليه من الإحسان القولي والفعلي من بذل الإحسان المالى ، والإحسان البدني ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتعليم الجاهلين ، ونصيحة المعرضين، ونحو ذلك من وجوه البر والإحسان ، فهؤلاء لهم الحسنى في الدار الآخرة ، قال تعالى : « هل جزاء الإحسان إلا الإحسان » وقال « إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا » ·

وقوله : « وزيادة » هى تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، ويشمل ما يعطيهم الله من القصور والحور والرضا عنهم وما أخفاه لهم من قرة أعين ،

وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجه الله الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقونها بعملهم ، بل بفضله ورحمته •

وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم عن أبى بكر الصديق ، وحذيفة بن اليمان ، وعبد الله بن عباس ، وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبى ليلى ، وعبد الرحمن بن سابط ، ومجاهد ، وعكرمة ، وعامر بن سعد ، وعطاء ، والضحاك ، والحسن ، وقتادة ، والسدى ، ومحمد بن إسحاق ، وغيرهم من السلف والخلف •

وقد ورد فيه أحاديث كثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من ذلك : ما ورد عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته » متفق عليه •

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : « تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ! وتنجينا من النار !؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم » رواه مسلم •

وعن أبان بن أبى تميمة الهجيمى أنه سمع أبا موسي الأشعرى يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يبعث يوم القيامة منادياً ينادى : يا أهل الجنة ــ بصوت يسمع أولهم وآخرهم ــ إن الله وعدكم الحسنى وزيادة ، فالحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الرحمن عز وجل » •

قال ابن القيم رحمه الله في رؤية أهل الجنة ربهم تبارك وتعالى ونظرهم إلى وجهه الكريم :

ويرونه سبحانه من فوقهم نظر العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسل الله لم ينكره إلا فاسد الإيمان
وأتى به القرآن تصريحاً وتعريضاً هما بسياقه نوعان
وهى الزيادة فسرت في يونس تفسير من قد جاء في القرآن
وروى ابن ماجة مسنداً عن جابر خيراً وشاهده ففى القرآن
بينا هموا في عيشهم وسرورهم ونعيمهم في لذة وتهان
وإذا بنور ساطع قد أشرقت منه الجنان قصيها والداني
رفعوا إليه رؤسهم فرأوه نور ر الرب لا يخفى على إنسان
وإذا بربهمو تعالى فوقهم قد جاء للتسليم بالإحسان
قال : السلام عليكم فيرونه جهراً تعالى الرب ذو السلطان

وقوله تعالى : (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) : الرهق لحاق الأمر ، ومنه راهق الغلام ، إذ لحق بالرجال ، ورهقه بالحرب أدركه ، والقتر في كلام العرب : الغبار ، وأنشدوا قول الفرزدق :

متوج بـرداء الملك يتبعه فوج ترى فوقه الرايات والقترا

المعنى : لا يغشي وجوه أهل الجنة قتام وسواد في عرصات القيامة، كما يعترى الكفرة الفجرة من القتر والغبرة ، (ولا ذلة) أى هوان ، وصغار : أى لا يحصل لهم إهانة في الباطن ولا في الظاهر ، بل كما قال الله تعالى : (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) أى نضرة في وجوههم وسروراً في قلوبهم ، جعلنا الله وإخواننا المسلمين منهم آمين ٠

وقوله تعالى : (أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) يعنى أن هؤلاء الذين وصفت صفاتهم هم أصحاب الجنة وسكانها ، لا غيرهم وهم فيها مقيمون لا يخرجون منها أبداً و « لا يبغون عنها حولا » ٠

قال ابن القيم رحمه الله :

هذا وخاتمة النعيم خلودهم أبداً بدار الأمن والرضوان

وقوله تعالى : (والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها) لما

ذكر سبحانه وتعالى حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ويزادون على ذلك عطف بذكر حال الأشقياء ، فذكر جل وعلا عدله فيهم وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها لا يزيدهم على ذلك ·

والمراد بالسيئات : الشرك ، والكفر،والمعاصي ، وفي الآية محذوف وفي تقديره قولان ، أحدهما : أن فيها إضمار « لهم » المعنى : لهم جزاء سيئة بمثلها ، وأنشد ثعلب :

فإن سأل الواشون عنه فقل : لهم وذاك عطاء للوشاة جزيل
ملم بليلى لمة ثم إنه لهاجر ليلى بعدها فمطيل

أراد : هو ملم ·

والثاني : أن فيها إضمار « منهم » المعنى : جزاء سيئة منهم بمثلها تقول العرب : رأيت القوم : صائم وقائم ، أى منهم صائم وقائم ، وأنشدوا :

حتى إذا ما أضاء الصبح في غلس
وغودر البقل : ملوى ومحصود

أى : منه ملوى :

والمقصود من التقييد : التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيآت لأن الحسنات يضاعف ثوابها لعاملها من الواحدة إلى العشرة إلى السبعمائة الى أضعاف كثيرة ، وذلك تفضلا منه وتكرماً ، وأما السيئات فإنه يجازى عليها بمثلها عدلا منه سبحانه وتعالى ·

وقوله : « وترهقهم ذلة » أى يغشاهم ويعتريهم ويعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها ، قال تعالى : « وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون ـ وبدالهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون» وقال تعالى : « وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من

طرف خفى » وقال : « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » الآيات ·

وقوله : « مالهم من الله من عاصم » أى مالهم أحد يعصمهم ويمنعهم من سخط الله تعالى وعذابه ، كما قال تعالى : « ومالهم من الله من واق»، وكقوله تعالى : « يقول الإنسان يومئذ أين المفر · كلا لا وزر · إلى ربك يومئذ المستقر » ·

وقوله : « كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما » الآية : إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة ، كقوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ·

وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون » ، وقوله : « وجوه يومئذ مسفرة · ضاحكة مستبشرة · ووجوه يوم عليها غبرة » الآية ، وقوله تعالى : « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » أى أولئك الذين لهم تلك الصفات هم أصحاب النار هم فيها خالدون مقيمون لا يبرحون ·

اللهم صل على محمد وآله وسلم ·

من ما يفهم من آيات الدرس آية ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ·

(١) صفة الحياة الدنيا في صورتها ومآلها ·

(٢) أنها كماء أنزله الله من السماء إلخ ·

(٣) أنها زائلة لا محالة ومنتقلة ومنتقل عنها ·

(٤) الحذر من الإغترار بزهرة الحياة الدنيا ·

(٥) التشويق إلى الآخرة ·

(٦) لطف الله بخلقه حيث بين لعباده مثال الحياة الدنيا ليكونو على حذر ويستعدوا لما خلقوا له ·

(٧) أن الله بين الحجج والأدلة لمن تفكر واعتبر ·

(٨) أن في تفصيل الآيات إزالة للشكوك والشبهات من القلوب ·

(٩) الحث على التفكر والتدبر ·

(١٠) لطف الله بخلقه إذ أنزل لهم من السماء ماءاً فأنبت به ما يأكلون وأنعامهم ·

(١١) الخوف من عذاب الله أن يأتي ليلا أو نهاراً ·

(١٢) إثبات البعث ·

(١٣) إثبات الحشر والحساب والجزاء على الأعمال ·

(١٤) إثبات الجنة ·

(١٥) تسميتها بدار السلام ·

(١٦) أن في تسميتها بهذا الاسم مايدل على أن من دخلها سلم من جميع الآفات ، كالموت والمرض والمصائب والحزن والغم والتعب والكدر ·

(١٧) أن في ذلك ما يحفز القلوب ويبعثها ويشوقها إلى طلب دار السلام ·

(١٨) وفي دعاء الله جل وعلا إليها دليل على أن فيها « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » لأن العظيم مايدعو إلا إلى عظيم ·

(١٩) أن الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ·

(٢٠) أن هداية التوفيق والإلهام لا يقدر عليها إلا الله جل وعلا ·

(٢١) إثبات علم الله ·

(٢٢) إثبات مشيئة الله ·

(٢٣) إثبات قدرة الله ·

(٢٤) إثبات صفة الكلام لله ٠
(٢٥) الحث على سؤال الله الهداية ٠
(٢٦) العمل بالأسباب الموصلة إلى الصراط المستقيم ٠
(٢٧) أن صراط الله معتدل لا عوج فيه ٠
(٢٨) التعميم بالدعوة إظهارا للحجة ٠
(٢٩) إن الله غنى عن خلقه ٠
(٣٠) الرد على القدرية ٠
(٣١) الرد على الجهمية ٠
(٣٢) وعد الله بالحسنى لمن أحسن ٠
(٣٣) إثبات رؤية الله وأن المؤمنين يرونه في الآخرة ٠
(٣٤) أن الجزاء من جنس العمل ٠
(٣٥) دليل على كرمه وجوده ٠
(٣٦) أن أهل الجنة لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ٠
(٣٧) أن التعبير بذلك يوحي بأن في الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة مايخلع القلوب ، ويظهر آثاره على الوجوه ٠

(٣٨) التنويه بأصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق في الجنة
(٣٩) الفوز بالخلود الدائم الأبدى ٠
(٤٠) دليل على بقاء الجنة وأهلها ٠
(٤١) أن نعيم أهل الجنة خالص ما فيه شوائب مكدرات ٠
(٤٣) أن الجزاء من جنس العمل ٠
(٤٤) التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات ٠
(٤٥) أن الكفار لا يزادون على مايستحقونه من العذاب شيئاً ٠
(٤٦) أن الكفار تغشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزي بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وفجور ٠

(٤٧) أن لا مانع ولا واقى من عذاب الله للكفار ٠

(٤٨) إثبات الألوهية ·
(٤٩) أن وجوه الكفار كأنما البست قطعا من سواد الليل حالة كونه مظلما ، فصارت ظلمات بعضها فوق بعض ·
(٥٠) إثبات النار ·
(٥١) دليل على خلود الكفار في النار ·
(٥٢) دليل على بقاء النار ·
(٥٣) أن الله اعدها للكفار ·
(٥٤) أن الشركاء والشفعاء الذين اتخذهم الكفار في الدنيا لايفيدون الكفار بشيء في الآخرة ·
(٥٥) التحذير من الشرك والمعاصي لسوء عاقبتهما ·
(٥٦) أن في إسناد الرهق إلى أنفسهم دون وجوههم ايذانا بانها محيطة بهم فاشية لهم ·
(٥٧) الحث على مقام الإحسان ·
(٥٨) الحث على الإحسان في عبادة الله ·
(٥٩) الحث على بر الوالدين والإحسان إليهما للحصول على وعد الله ·
(٦٠) الحث على الإحسان إلى ذوى القربى لما سبق ·
(٦١) الحث على الإحسان إلى اليتامى للحصول على ذلك ·
(٦٢) الحث على الإحسان إلى المساكين ·
(٦٣) الحث على الإحسان إلى الجار ·
(٦٤) الحث على الإحسان إلى أبناء السبيل لقوله تعالى : «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » والله أعلم · وصلى الله على محمد وآله وسلم ·

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون · وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ماتفعلون ·

ماذكر في سبب نزول هذه الآية الكريمة :

ورد عن عبد الله بن عباس قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء بيته جالس إذ مر به عثمان بن مظعون فكسر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا تجلس ؟ فقال بلى ، قال فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقبله ، فبينما هو يحدثه إذ شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ببصره إلى السماء فنظر ساعة إلى السماء فأخذ يضع بصره حتى وضعه على يمينه في الأرض فتحرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جليسه عثمان إلى حيث وضع بصره ، فأخذ ينغض رأسه كأنه يستفقه ما يقال له ، وابن مظعون ينظر ، فلما قضي حاجته واستفقه ما يقال له شخص بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء كما شخص أول مرة ، فأتبعه بصره حتى توارى إلى السماء ·

فأقبل إلى عثمان بجلسته الأولى ، فقال : يا محمد فيما كنت أجالسك مارأيتك تفعل كفعلك الغداة ؟ فقال : وما رأيتني فعلت؟ قال:

رأيتك شخص بصرك إلى السماء ثم وضعته على يمينك فتحرفت إليه وتركتني فأخذت تنغض رأسك كأنك تستفقه شيئاً يقال لك ؟ قال وفطنت لذلك ؟ فقال عثمان : نعم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني رسول الله آنفا وأنت جالس ، قال : رسول الله ؟ قال : نعم • قال: فما قال لك ؟ قال : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية قال عثمان : فذلك حين استقر الإيمان في قلبي وأحببت محمداً صلى الله عليه وسلم» إسناده جيد متصل حسن •

بعد أن بالغ سبحانه في الوعد للمتقين والوعيد للكافرين ، وعاد وكرر في الترغيب والترهيب إلى أقصي الغاية أردف ذلك ذكر هذه الأوامر التى جمعت فضائل الأخلاق والأدب وضروب التكاليف التى رسمها الدين وحث عليها لما فيها من إصلاح حال النفوس وصلاح الامم والشعوب •

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : « أعظم آية في كتاب الله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم » وأجمع آية في كتاب الله للخير والشر الآية التى في النحل : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » وأكثر آية في كتاب الله تفويضا : « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحسب » وأشد آية في كتاب الله رجاء : « يا عبادى الله الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن يغفر الذنوب جميعاً »•

وروى عن عثمان بن مظعون أنه قال : « لما نزلت هذه الآية قرأتها على على بن أبى طالب رضي الله عنه فتعجب فقال يا آل غالب اتبعوه ، فوالله إن الله أرسله ليأمركم بمكارم الأخلاق » •

وفي حديث أن أبا طالب لما قيل له : إن ابن أخيك زعم أن الله انزل عليه : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية قال اتبعوا ابن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق » •

وعن عكرمة أن النبى صلى‌الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن‌المغيرة هذه الآية فقال له يا ابن أخى أعد علي فاعادها عليه فقال له الوليد والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وان أعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما هو بقول البشر ٠

وأخرج البيهقى في شعب الإيمان عن الحسن رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ثم قال إن الله عزوجل جمع لكم الخير كله والشر كله في آية واحدة فوالله ما ترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئاً الا جمعه وأمر به، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغي من معصية الله شيئاً إلا جمعه وزجر عنه » ٠

وقال سعيد عن قتادة قوله : « إن الله يامر بالعدل والإحسان » الآية ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله به وليس من خلق سيء كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدح فيه ، وإنما نهى عن سفساف الأخلاق ومذامها وجاء في الحديث: « إن الله يحب معالى الأخلاق ويكره سفسافها » ٠

وقال الحافظ أبو نعيم في كتاب « معرفة الصحابة » عن على بن عبد الملك ابن عمير عن أبيه قال : « بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فابى قومه أن يدعوه وقالوا : أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه قال : فليأته من يبلغه عنى ويبلغني عنه ، فانتدب رجلان ، فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقالا ٠ نحن رسل أكثم بن صيفي وهو يسألك من أنت وما أنت ٠

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما من أنا فأنا محمد بن عبد الله وأما ما أنا فانا عبد الله ورسوله ، قال : ثم تلا عليهم هذه الآية « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » الآية ، قالوا : ردد علينا هذا القول ، فردده عليهم حتى حفظوه فأتيا أكثم فقالا : أبى أن يرفع نسبه ، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب وسطا في مضر ، وقد رمى إلينا بكلمات قد

سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن ملائمها ، فكونوا في هذا الأمر رؤساء ولا تكونوا فيه أذناباً » .

وقد اختلف العلماء في تفسير العدل والإحسان فقيل : العدل لا إله إلا الله ، وقيل : الفرض ، والإحسان ، قيل : أداء الفرائض ، وقيل : النافلة ، وقيل العدل استواء السر والعلانية ، والإحسان أن تكون السريرة أحسن من العلانية وقيل العدل : الإنصاف والإحسان : التفضل .

والأولى تفسير العدل بالمعنى اللغوي ، وهو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط ، فمعنى أمره سبحانه وتعالى بالعدل أن يكون عباده في الدين على حالة متوسطة ليست بمائلة إلى جانب الإفراط وهو : الغلو المذموم في الدين ، ولا إلى جانب التفريط وهو : الإخلال بشيء مما هو من الدين .

أخرج بن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى أنه قال : دعانى عمر بن عبد العزيز فقال : صف العدل ، فقلت : بخ ، سألت عن أمر جسم : كن لصغير الناس أباً ولكبيرهم ابنا ، وللمثل أخاً ، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم ، وعلى قدر أجسامهم ، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتكون من العادلين .

وأخرج البخارى في تاريخه أن على ابن أبى طالب مربقوم يتحدثون فقال : فيم أنتم ؟ فقالوا : نتذاكر المروءة ، فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذاك في كتابه أن يقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » فالعدل : الإنصاف والإحسان : التفضل فما بقى بعد هذا » ا هـ .

والإحسان نوعان : إحسان في عبادة الله فسره صلى الله عليه وسلم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك » وإحسان الى المخلوق وهو إما أن يكون بإيصال النفع الدينى والدنيوى ، ويدخل في ذلك : إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين ،

ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه البر والخيرات والعبادات ، وإما أن يدفع الأذى عنهم ـ حسب الاستطاعة ـ أو بهما جميعاً ، وأعلى مراتب الإحسان : الإحسان إلى المسيء ، وقد أمر به النبى صلى الله عليه وسلم.

وروى عن الشعبي أنه قال : قال عيسي ابن مريم عليه السلام : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك .

ثم أمر جل وعلا بصلة الأرحام فقال : « وإيتاء ذى القربى » وهذا من باب عطف الخاص على العام إن كان إعطاء الأقارب داخلا تحت العدل والإحسان .

وقيل : من باب عطف المندوب على الواجب ، ومثل هذه الآية : « وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً » وإنما خص ذوى القربى لأن حقهم آكد ، فإن الرحم اشتق الله اسمها من اسمه ، وصلتها من صلته ، وقطيعتها من قطيعته .

وبعد ذكر الثلاث التى أمر بها أتبعها بالثلاث التى نهى عنها فقال: « وينهى عن الفحشاء» وهى كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر كالشرك والقتل بغير حق والزنا واللواط والسرقة والكبر والعجب والرياء والنفاق « والمنكر » وهو ما أنكره الشرع بالنهى عنه ، وهو يعم جميع المعاصي على اختلاف أنواعها ، وقيل : هو الشرك .

« والبغى » : هو التعدى على الخلق في الدماء والأموال والأعراض ، وقيل : هو الظلم ، وقيل : الكبر، وقيل : الحقد ، وحقيقته تجاوز الحد، فيشمل هذه المذكورات ويندرج بجميع أقسامه تحت المنكر ، وإنما خص بالذكر اهتماماً به لشدة ضرره ووبال عاقبته ، وهو من الذنوب التي ترجع على فاعلها لقوله تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا » .

وعن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر ، والنكث ، والبغي ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم﴾ ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾ ﴿ومن نكث فإنما ينكث على نفسه﴾ ».

وجاء في الحديث الآخر : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع مايدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » ، والبغي من منكرات الذنوب العظام ، قال بعضهم : لو بغى جبل على جبل لا ندك الباغي ، وقد نظم بعضهم هذا المعنى شعراً :

يا صاحب البغي إن البغي مصرعة   فارجع فخير مقال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوماً على جبل   لا ندك منه أعاليه وأسفله

ثم ختم هذه الآية بقوله « يعظكم لعلكم تذكرون » أى يعظكم بما ذكره في هذه الآية ونهاكم عنه ، فإنها كافية في باب الوعظ والتذكير ، فهذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى ، فهى مما أمر الله به ، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغى ، فهى مما نهى الله عنه ، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى الله عنه ، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال ، وترد إليها سائر الأحوال .

وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال في الآية الأولى ذكر بعضها على سبيل التخصيص فقال : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم» أىأوفوا بميثاق الله إذاواثقتموه وعقدهإذا عاقدتموه فأوجبتم به على أنفسكم حقاً لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه ، ويدخل في هذا جميع ماعاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان بها براً ، ويشمل ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين ، وكالوعد الذى يعده العبد لغيره ويوكده على نفسه ، فعليه

في ذلك كله الوفاء ، لأن المسلم إذا أبرم عقداً فيجب أن يحترمه ، وإذا أعطى عهداً فيجب أن يلتزمه ٠

ومن الإيمان أن يكون الإنسان عندكلمته التي قالها ، ينتهي إليها، فالعهد لابد من الوفاء به ، كما أن اليمين لابد من البر بها،ومناط الوفاء والبر أن يتعلق الأمر بالحق والخير وطاعة الله ، وإلا فلا عهد في عصيان ولا يمين في مأثم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه » حتى بالغ صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال : « والله لا أحلف على يمين فأري غيرها خيراً منها إلا أتيت الذى هو خير وكفرت عن يمينى » ٠

ويخص أيضاً من العموم يمين اللغو ، لقوله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم » ولا يسوغ لامرىء الإصرار على الوفاء بيمين ، الحنث فيها أفضل ٠

وفي الحديث : لأن يلج أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله تعالى من أن يعطى كفارته التي افترض اللهعليه» ومن ثمفلا تعهد إلا بمعروف فإذا وثق الإنسان عهداً بمعروف فليصرف همته في إمضائه ولا يتردد، فقد روى أنس ابن مالك قال : « غاب عمى أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غبت عن أول قتال قاتلت المشركين ، لئن أشهدني الله مع النبى صلى الله عليه وسلم قتال المشركين ليرين الله ما أصنع ، فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون ، فقال : اللهم إنى أعتذر اليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى أصحابه ـ وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ـ يعنى المشركين ٠

ثم تقدم ، فاستقبله سعد بن معاذ ، فقال : يا سعد بن معاذ : الجنة ورب النضر ، إنى أجد ريحها من دون أحد ، قال سعد : فما استطعت يا رسول الله ما صنع ٠ قال أنس : فوجدنا به بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم ، ووجدناه قد قتل ومثل به

المشركون فما عرفه أحد إلا أخته ببنانة • قال أنس : كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضي نحبه •• » إلى آخرها ـ متفق عليه •

ومن الوفاء المحمود أن يذكر الإنسان ما جرى له في الماضي لينتفع به في الحاضر ، فإذا كان فيما مضي معسراً فأغناه الله أو مريضاً فشفاه الله ، فليس من العدل والإنصاف والمروءة أن يفصل بين أمسه ويومه ويزعم أنه ما كان فقيراً ولا مريضاً ، لأن هذا نوع من الغـدر وكفران النعم ، وربما أفضي بصاحبه إلى النفاق ، نسأل الله تعالى العافية ، فقد ورد في قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتنا من فضله لنصدقن » الآيات : أن سبب نزولها في ثعلبة بن حاطب وقصته مشهورة وإليك ملخصها •

عن أبى أمامة الباهلى قال : جاء ثعلبـة بن حاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة : قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه • قال : ثم قال مرة أخرى ، فقال : أما ترضي أن تكون مثل نبى الله ؟ فوالذى نفسي بيده لو شئت أن تصير الجبال معى ذهباً وفضة لصارت • قال : والذى بعثك بالحق : إن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه •

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالا • قال : فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ، فنزل وادياً من أوديتها وهى تنمو كالدود ، فكان يصلى مع النبى صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ، ويصلى في غنمه سائر الصلوات، ثم كثرت ونمت حتى تباعد بها عن المدينة ، فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت فتباعد أيضاً حتى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة ، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار •

فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : ما فعـل

ثعلبة ؟ قالوا : يا رسول الله اتخذ غنماً ما يسعها واد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة،فأنزل آية الصدقة: « خذ من أموالهم صدقة » الآية ، ونزلت فرائض الصدقة .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين من المسلمين ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة ، وقال لهما : مرا بثعلبة ورجلا من بني سليم فخذا صدقاتهما ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية ، إذهبا حتى أرى رأيي ، فانطلقا .

وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها قالوا : ما يجب هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك ، فقال : بلى فخذوها ، فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي له ، فأخذا منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات .

ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما ، فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي،فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآهما قال : يا ويح ثعلبة ، قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة،فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي ، فأنزل الله « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله » الآية .

ومن القصص الدالة على شؤم الغدر وكفران النعم قصة الثلاثة : « الأبرص والأقرع والأعمى » أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، وهي من القصص المشهورات التي كثير ماتمر على الناس فنكتفي بالإشارة إليها .

وقد تتابعت الآيات القرآنية تحض على الوفاء ، وتخوف من الغدر ، قال تعالى : « وأوفوا بالعهد إن كان مسئولا » ، وقال : « ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » ، وقال « يا أيها

الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا » وقال « الذين يوفـــون بعهـد الله ولا ينقضون الميثـاق » الآية . وورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل غادر لواء يوم القيامة يقال هذه غدرة فلان »

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ما يستفاد من الآيات :

(١) إثبات الألوهية لله جل وعلا .
(٢) الأمر بالعدل والنهي عن الجور والحيف .
(٣) إثبات صفة الكلام .
(٤) النهى عن الظلم والجور والحيف .
(٥) النهى عن الإساءة .
(٦) الأمر بإيتاء ذى القربى .
(٧) الإرشاد إلى صلة الرحم .
(٨) الترغيب في التصدق عليهم .
(٩) أن للقرابة ميزة خاصة .
(١٠) الحث على الوفاء بالعهد .
(١١) النهى عن نقض العهد ، وليس المراد اختصـاص النهى عن النقض بالأيمان المؤكدة لا بغيرها مما لا تأكيد فيـه ، فإن تحريم النقض يتناول الجميـع ، ولـكن في نقض اليميـن المؤكدة من الإثم ماليس في نقض مالم يؤكد منها .
(١٢) الأمر بالإحسان والنهي عن ضده .
(١٣) الحث على ما هو سبب للتوادد والتواصل .
(١٤) الحث على التعاون على البر والتقوى .
(١٥) النهى عن الشرك .
(١٦) النهى عن القتل .
(١٧) النهى عن اللواط .

(١٨) النهى عن الربا ٠ (١٩) النهى عن الزنا ٠
(٢٠) النهى عن السرقة ٠ (٢١) النهى عن أكل مال اليتيم ٠
(٢٢) النهى عن السحر ٠
(٢٣) النهى عن التولى يوم الزحف ٠
(٢٤) النهى عن العقوق ٠ (٢٥) النهى عن الربا ٠
(٢٦) النهى عن الخيلاء ٠ (٢٧) النهى عن شهادة الزور ٠
(٢٨) النهى عن الكبر ٠ (٢٩) النهى عن الرياء ٠
(٣٠) النهى عن قذف المحصن ٠ (٣١) النهى عن التصوير ٠
(٣٢) النهى عن البغى ٠
(٣٣) النهى عن القول على الله بلا علم ٠
(٣٤) النهى عن اليمين الغموس ٠
(٣٥) النهى عن شرب الخمر ٠ (٣٦) النهى عن المنكر ٠
(٣٧) النهى عن قطع طريق المسلمين ٠
(٣٨) النهى عن قطيعة الرحم ٠
(٣٩) النهي عن الحكم بغير ما أنزل الله ٠
(٤٠) النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ٠
(٤١) النهى عن القنوط من رحمة الله ٠
(٤٢) النهى عن إساءة الظن بالله ٠
(٤٣) النهي عن سب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ٠
(٤٤) النهى عن إتيان الكهان والمنجمين ٠
(٤٥) النهى عن إتيان المرأة في الدبر ٠
(٤٦) النهى عن الجور في الوصية ٠
(٤٧) النهى عن الحسد ٠
(٤٨) النهى عن الكذب على الرسول صلى الله عليه وسلم ٠
(٤٩) النهى عن الغيبة ٠ (٥٠) النهى عن النميمة ٠
(٥١) النهى عن الكذب ٠
(٥٢) النهي عن سب أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ٠
(٥٣) النهى عن القيادة ٠ (٥٤) النهي عن الدياثة ٠

(٥٥) النهى عن تصديق الكهان والعراف ·

(٥٦) النهى عن إتيان من حاضت في فرجها ·

(٥٧) النهى عن السجود لغير الله تعالى ·

(٥٨) النهى عن البدعة ·

(٥٩) النهى عن الدعاء إلى البدعة ·

(٦٠) النهى عن نكاح التحليل ·

(٦١) النهى عن الغلول ، لأن هذه الأشياء التى نهى عنها داخلة في قوله تعالى : «وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى» ، وقوله: « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » ، فما تركت الآية الأولى من معصية لله شيئاً إلا جمعته ، وهذا قليل من كثير مما تضمنته الآية من الفوائد لكن هذا ماتيسر ، ومما يستفاد من قوله جل وعلا : « إن الله عليم بما تفعلون » ·

(٦٢) إثبات الألوهية ·

(٦٣) إثبات صفة العلم ·

(٦٤) الرد على القدرية : نفاة العلم ·

(٦٥) إثبات أفعال العباد ·

(٦٦) الرد على الجبرية : نفاة أفعال العباد ·

(٦٧) التهديد والوعيد لمن نكث العهد ، لقوله تعالى : « إن الله يعلم ماتفعلون » ·

(٦٨) لطف الله بخلقه حيث نهاهم فيما تقدم في الآية عن المحرمات·

(٦٩) لطف الله بخلقه حيث أمرهم بما تقدم من الخصال الحميدة

من العدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ·

(٧٠) سعة علم الله حيث لم يخرج عن علمه شيء ·

(٧١) الحث على الأمر بالمعروف ·

(٧٢) الحث على التخلق بالأخلاق الفاضلة ·

(٧٣) الإبعاد عن سفساف الأخلاق ·

(٧٤) إثبات البعث والحشر ·

(٧٥) إثبات الحساب والجزاء على الأعمال والجنة والنار ·

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ·

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبـارك وتعـالى :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس قال أ سجد لمـن خلقت طيناً » .

قال أرأيتك هــذا الذي كرمت على لئن أخــرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليــلا .

قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً .

واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً .

إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا .

ربكم الذي يزجى لكم الفلك في البحــر لتبتغوا من فضـــله إنه كان بكم رحيمــاً .

وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا اياه فلما نجيكم الى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا .

افامنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلا .

أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً .

ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحــر ورزقنــاهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا .

يوم ندعو كل أناس بإمامهم فمن أوتي كتابه بيمينهفاولئك يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيـلا ٠

ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا »)

بعـد أن ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في محنة من قومه إذكذبوه وتوعدوهحين حدثهمبالإسراء وشجرة الزقوم، وأنهم نازعوه وعاندوه ، واقترحوا عليه الآيات حسداً على ماآتاه الله من النبوة ، وكبراً عن أن ينقادوا إلى الحق ٠

بين أن هذا ليس ببدع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمـانهم مثـل مالاقيت ٠

ألا ترى أن آدم عليه السلام كان في محنة شديدة من إبليس ٠

وقد ذكر سبحانه قصص آدم في سبع سور : البقرة ، والأعراف ، والحجر ، والكهف ، وطه ، وص،وهذه السورة ، فقال تعالى : واذكر أيها الرسول لقومك عداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنها عداوة قـديمة منـذ خلق آدم ٠

فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود فسجدوا كلهم إلا ابليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخاراً عليه واحتقاراً له وقال : أأسجد لمن خلقت طيناً وأنا مخلوق من النار ، كما جاء في الآية الأخرى : « انا خير منـه وقياس إبليس من أفسد الأقيسة ، فإنه باطل من عدة أوجه :

أولا : أنه فاسد الاعتبار لمخالفته للنص ، لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأتي فيه نص يقارب الأمور المنصوص عليهـا ويكون تابعاً لهـا ٠

ثانيا : أنه لا يسلم أن النار خير من الطين ، بل الطين خير منها لأن طبيعتها الخفة والطيش والافساد والتفريق ٠

وطبيعته الرزانة والاصلاح فتودعـه الحبة فيعطيكها سـنبلة ، والنواة فيعطيكها نخـلة ٠

وانظر إلى الرياض الناضرة وما فيها من الثمار اللذيذة ، والأزهار الجميلة ، والروائح الطيبة تعلم أن الطين خير من النار ٠

ولهذا نفع آدم عنصره بالرجـوع والانابة والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله والاعتراف ، وطلب التوبة والمغفرة ٠

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » هكذا رواه مسلم ٠

وقال أيضاً لربه ـ جرأة وكفراً ـ والرب يحلم وينظر : « أرأيتك هـذا الذي كرمت علي » أي أخبرني هذا الذي كرمته علي فأمرتني بالسجود له وهو آدم لم كرمته عليَّ وأنا خير منه ، واللام في « لئن أخرتن » موطئة للقسم ٠

وإنما أقسم اللعين هذا القسم على أنه سيفعل بذرية آدم ماذكره لـما ظنه من قوة نفوذ كيده في بني آدم ، وأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وأنه بحيث يروج عندهم كيده وتنفق لديهم وسوسته إلا من عصمـه الله ٠

وقوله : « أخرتن » أي أنظرتني ، وفي الآية الأخرى قال : «فانظرني إلى يوم يبعثون ٠ قال فإنك من المنظرين ٠ إلى يوم الوقت المعلوم » وهو يوم القيـامة ، فإنه يوم الدين ، ويـوم البعث ، ويوم الوقت المعلوم ٠ وقيل : المراد بالوقت المعلوم هو الوقت القريب من البعث فعند ذلك يموت ٠

وقوله : « لأحتنكن ذريته إلا قليلا » قال ابن عباس : لأستولين عليهم ، وقيل : لأحتوينهم ، وقيل : لأضلنهم ، والمعنى متقارب ، أي لأستأصلن ذريته بالاغواء والاضلال ولأجتاحنهم ·

وقيل : معناه لأسوقنهم حيث شئت ، وأقودنهم حيث أردت من قولهم حنكت الفرس أحنكه وأحنكه حنكاً إذا جعلت في فيه الرسن ، وكذلك احتنكه ·

وهذا الذي ذكره جل وعلا عن إبليس في هذه الآية من قوله « لأحتنكن ذريته » الآية بينه في مواضع أخر من كتابه ، كقوله : « لأقعدن لهم صراطك المستقيم · ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » ، وقوله : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين » إلى غير ذلك من الآيات ·

وقوله في هذه الآية « إلا قليلا » المراد بهذا القليل من عناهم الله بقوله جل وعلا : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » ، وكما بين في الآيات الأخرى ، كقوله : « لأزينن لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين · إلا عبادك منهم المخلصين » وقوله : « لأغوينهم أجمعين · إلا عبادك منهم المخلصين » ·

قوله تعالى : « إذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » هذا أمر إهانة ، أي اذهب فحاول محاولتك إذهب ماذوناً في إغوائهم فهم مزودون في العقل والارادة ان أرادوا اتباعك أو الاعراض عنك ، فمن تبعك منهم مغلبا جانبا الغواية في نفسه على جانب الهداية معرضا عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان ، غافلا عن آيات الله في الكون وآيات الله المصاحبة للرسالات . « فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً » مدخراً لك أنت ومن تبعك ·

ثم كرر جل وعلا الأمر والامهال لابليس فقال : « واستفزز من استطعت منهم بصوتك » أي استزعج واستخف من استطعت من بني

آدم ، يقال : أفزه واستفزه ، أي أُزعجه واستخفه ٠

والمعنى استخفهم بصوتك داعياً لهم إلى المعصية ومن صوته صوت كل داع الى معصية من جند ابليس ٠

وقال مجاهد : الغناء واللهو والمزامير ٠

وقال الضحاك : صوت الشيطان في هذه الآية هو صوت المزمار ، وإذاً فليكف الغناء والمزمار قبحا وتحريما أن يكونا عدة للشيطان وعتاداً له يغرى بهما عباد الله على الفسق والفجور والعصيان ويفتنهم بهما عن عبادة الله ويصدهم عن سبيله ٠

ومن الأدلة على تحريم الغناء أيضاً قوله تعالى : « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم » الآية ٠

وقد فسر كثير من الصحابة والتابعين لهو الحديث في هذه الآية بالغناء وَالمزامير ٠

وقال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : « وأنتم سامدون » : السمود هو الغناء بلغة حمير ، وهي إحدى القبائل العربية قال : يقال اسمدي لنا يا فلانة ، أي غني لنا ٠

وقال عكرمة في تفسير الآية : كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا ليصدوا الناس عن القرآن بالغناء ، فنزلت الآية « أفمن هذا الحديث تعجبون ٠ وتضحكون ولا تبكون ٠ وأنتم سامدون » ٠

ولهذا سمي السلف الصالح الغناء قرآن الشيطان لأنه يعارض به القرآن ويشتغل به عنه وعن ذكر الله كما يصد به عن الله تعالى ٠

وعن أبي أمامة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن ابليس لما أنزل الى الأرض ، قال : يارب أنزلتني إلى الأرض وجعلتني رجيما فاجعل لي بيتاً ، قال : الحمام ، قال : فاجعل لي مجلسا ، قال: الأسواق

ومجامع الطرقات ، قال : فاجعل لي طعاما ، قال : كل مالم يذكر اسم الله عليه ٠

قال : فاجعل لي شرابا ، قال : كل مسكر ، قال : فاجعل لي مؤذناً، قال : المزمار ، قال : فاجعل لى قرآناً ، قال : الشعر ، قال : فاجعل لي كتابا ، قال : الوشم ، قال : فاجعل لي حديثاً ، قال الكذب ، قال : فاجعل لي رسلا ، قال : الكهنة ، قال : فاجعل لي مصائد قال : النساء » ٠

قال ابن القيم رحمه الله : وشواهد هذا الأثر كثيرة ، فكل جملة منها لها شواهد من السنة أو من القرآن ، ثم ذكر رحمه الله كل جملة ومالها من الشواهد ٠

وروي الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن نافع أن ابن عمر رضي الله عنهما سمع صوت زمارة راع فوضع إصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق وهو يقول : « يانافع هل تسمع ؟ فاقول : نعم ، فيمضي حتى قلت ٠ لا ، فرفع يده وعدل راحلته إلى الطريق وقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع زمارة راع فصنع مثل هذا» ٠

وقوله : « وأجلب عليهم بخيلك ورجلك » أصل الاجلاب السوق بجلبة من السائق ، والجلبة الأصوات ، تقول العرب : أجلب على فرسه وجلب عليه إذا صاح به من خلفه واستحثه للسبق ، والخيل تطلق على نفس الأفراس وعلى الفوارس الراكبين عليها ، وهو المراد بالآية ٠

والرجل جمع راجل ، قال مجاهد : ماكان من راكب يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل في معصية الله فهو من رجالة ابليس وهو تجسيم لوسائل الغواية والاحاطة والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ٠

فهي المعركة الصاخبة تستخدم فيها الأصوات والخيل والرجل على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخ المنصوب والمكيدة المدبرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل وأحاطت بهم الرجال ·

وقوله : « وشاركهم في الأموال والأولاد » هذا التعبير في عمومه يصور شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد ، وهما قوام الحياة ، أما مشاركة الأموال فقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد : هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله ·

وقال عطاء : هوالربا ، وقال الحسن : هوجمعها منخبيث وانفاقها في حرام ، والأولى أن يقال : إن الآية شاملة لكل تصرف فيها يخالف وجه الشرع سواء كان أخذا بغير حق او وضعاً بغير حق ، كالغصب والسرقة والربا ومنع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة ·

ومن ذلك إنفاقه في الزنا واللواط والخمر قلت ومثله انفاقه في الاسطوانات والسينما والتليفزيون مقبرة الاخلاق والفيديوات والدخان وحلق اللحا والمطربات ومن ذلك ما حرموا على أنفسهم من أموالهم طاعة للشيطان كالبحائر والسوائب ، ونحو ذلك·

وأما مشاركته لهم في الأولاد فعلى أصناف أيضاً ، منها ، قتلهم أولادهم طاعة له ، ومنها أنهم يمجسون أولادهم ويهودونهم ، وينصرونهم طاعة له وموالاة له ، ومنها تسميتهم أولادهم عبد الحارث وعبد العزى وعبد شمس ، ونحو ذلك لأنهم سموا أولادهم عبيداً لغير الله طاعة للشيطان ·

وقال العوفي عن ابن عباس ومجاهد والضحاك : يعني أولاد الزنا ·
وقيل : المشاركة في الأولاددعوى الولد بغيرسبب شرعيوتحصيله

بالزنا والاساءة في تربيتهم على وجه يألفون فيه خصال الشر وأفعال السوء ، ومن ذلك وأد البنات ٠

وقال ابن كثير رحمه الله : قال ابن جرير : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : كل مولود ولدته أنثى عصي الله فيه بتسميته بما يكرهه الله أو بإدخاله في غير الدين الذي ارتضاه الله ، أو بالزنا بأمه ، أو بقتله أو وأده أو غير ذلك من الأمور التي يعصي الله بفعله به أو فيه ٠

فقد دخل في مشاركة إبليس فيه من ولد ذلك له أو منه ، لأن الله لم يخصص بقوله : « وشاركهم في الأموال والأولاد » معنى الشركة فيه بمعنى دون معنى ، فكل ماعصي الله فيه أو به أو أطيع الشيطان فيه أو به فهو مشاركة ، وهذا الذي قال متجه وكل من السلف الصالح رحمهم الله فسر بعض المشاركة ٠

فقد ثبت في صحيح مسلم عن عياض بن حمار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل : « إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ماأحللت لهم» ٠
وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً » ٠

وقوله : « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » ٠

كما أخبر الله تعالى عن إبليس أنه يقوم في مجمع الأشقياء خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم وغبناً إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم ، فيقول إذا حصحص الحق يوم يقضي الله بالحق بين العباد : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي

ومن تزيين إبليس ومواعيده الباطلة التي استخفت وغرت كثيراً من الناس وعده إياهم أن لا جنة ولا نار أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالتسويف بالتوبة أو بإيثار العاجل على الآجل أو بتحسين المعاصي لهم وإيقاعهم فيها ، أو بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل ما أمرهم الله به ، أو بتنفيرهم عن الطاعة بأن لا فائدة فيها وأنها عبث محض ٠

ومن وعوده الوعد بالعفو والمغفرة ، بعد الذنب والخطيئة ، وهي التي يدخل معها الشيطان على كثير من القلوب التي يعز عليه غزوها من جهة المجاهرة بالمعصية والمكابرة ، فيتلطف إلى تلك النفوس المتحرجة ويزين لها الخطيئة ، وهو يلوح لها بسعة رحمة الله ، وشمول عفوه ومغفرته ٠

ونحو ذلك ، وأصل الغرور تزيين الباطل بما يوهم الصواب ، فإن قيل : كيف ذكر الله هذه الأشياء وهو يقول : « إن الله لا يأمر بالفحشاء » ، قيل : هذا على طريق التهديد أي أفعل ذلك فسترى عاقبته الوخيمة ، كقوله تعالى : « اعملوا ماشئتم » ٠

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد ذكر مايعتصم به من فتنة وهو عبودية الله والقيام بالايمان والتوكل على الرب جلا وعلا، فقال : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان » هذا إخبار منه جل وعلا بتأييده لعباده المؤمنين وحفظه لهم، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم٠ وقال في سورة النحل : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا ، وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » والاضافة في قوله تعالى : « إن عبادي » للتشريف والتكريم

والعبودية لله نوعان : عبودية لربوبيته ، فهذه مشتركة بين سائر الخلق ، مسلمهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، فكلهم عبيد مدبرون مربوبون ، قال تعالى : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » ٠

والنوع الثاني : عبوديته لألوهيته ، وعبادته ورحمته وهي عبودية أنبيائه وأوليائه وهي المراد هنا في آية سبحان ، وقوله : « وكفى بربك وكيلا » أي وكفى به عاصما من القبـول بابليس ، وحافظا من كيده ومكره ، فأولياء الله يتوكلون عليه ، ويستمدون منه العون في الخلاص من ابليس واغوائه ووسوسته ، والله أعلم ، وصلى الله على محمـد وآله وسلم ٠

مايفهم من الآيات آية ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ :

(١) إثبات صفة الكلام لله ٠

(٢) دليل على وجود الملائكة ٠

(٣) الرد على من أنكرهم من الزنادقة ٠

(٤) فضيلة لآدم ٠

(٥) أن الملائكة يبادرون إلى امتثال أوامر الله ٠

(٦) استكبار إبليس لعنه الله وإباؤه ٠

(٧) التحذير من الكبر ٠

(٨) التحذير من الحسد ٠

(٩) أن آدم مخلوق من طين ٠

(١٠) قدم عداوة إبليس لآدم ٠

(١١) جراءة إبليس لعنه الله في هذا الاستفهام ٠

(١٢) إحتقار إبليس لآدم واستصغاره لشأنه ٠

(١٣) تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لأنه كان في محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم بالاسراء والمعراج وشجرة الزقوم ، وأنهم

نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسدا على ماآتاه الله من النبوة، وكبْراً أن ينقادوا للحق ، فبين جل وعلا أن هذا ليس ببدع من قومك فقد لاقى كثير من الأنبياء شدائد ومحنا ، فآدم عليه السلام كان في محنة شديدة من ابليس .

(١٤) أن قياس إبليس من أفسد الأقيسة ١٥ دليل على حلم الله على إبليس حيث لم يعاجله بالعقوبة على استفهامه .

(١٥) أن الظن قد يصيب وإن كان من كافر أو فاسق

(١٦) أن من عصمه الله فليس لابليس عليه سلطان .

(١٧) الحذر من إبليس لعنه الله .

(١٨) الدلالة على جهل وتغفيل من أطاع إبليس بعد ماأعلمه الله بما صدر من إبليس من العداوة القديمة والحديثة

(١٩) لطف الله بخلقه حيث نبههم على عداوة إبليس وسعيه في اضلالهم لينتبهوا فيأخذوا حذرهم .

(٢٠) إثبات القول لله والرد على من أنكره .

(٢١) اثبات البعث والقيامة .

(٢٢) أن أزمة الأمور كلها بيد الله جل وعلا .

(٢٣) أن من أعرض عن نداء الرحمن إلى نداء الشيطان جزاؤه جهنم

(٢٤) الخوف من عذاب الله .

(٢٥) البعد عن كل صوت داع إلى معصية الله .

(٢٦) التحذير عن الغناء واللهو والمزامير لأنها من أصوات إبليس .

(٢٧) أن إبليس لعنه الله يشارك بعض الناس في الأموال .

(٢٨) إنه يشارك بعض الناس في الأولاد .

(٢٩) التحذير عن كل تصرف يخالف الشرع ، لأن ماخالف الشرع يشارك فيه إبليس .

(٣٠) أن الملائكة خلقهم الله قبل آدم .

(٣١) الرد على من أنكر الملائكة .

(٣٢) أن خلق إبليس قبل خلق آدم .

(٣٣) أن إبليس يعد الناس ويغرهم .

(٣٤) رأفة الله ورحمته بخلقه حيث بين لهم أن مواعيد إبليس أباطيل وغرور ليحذروه ، قال تعالى في الآية الأخرى « ولا يغرنكم بالله الغرور » وهنا قال : « وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

(٣٥) أن كل راكب في معصية الله فهو من خيل إبليس .

(٣٦) أن كل راجل في معصية الله فهو من رجل إبليس .

(٣٧) تعريض إبليس بضعف آدم واستعداده لغواية ذريته .

(٣٨) اقتضاء مشيئة الله جل وعلا أن يطلق الزمام لابليس يحاول محالته .

(٣٩) أن بني آدم انقسموا قسمين : قسم اتبع نداء الرحمن فسلم وقسم اتبع نداء الشيطان فغلب جانب الغواية فهلك .

(٤٠) أن جهنم جزاء إبليس ومتبعيه .

(٤١) إثبات قدرة الله .

(٤٢) إثبات علم الله .

(٤٣) تهديد الله لابليس دليل على العبودية الخاصة) ٤٤

(٤٤) دليل على صوت إبليس ·

(٤٥) دليل على أن لإبليس خيل ورجل ·

(٤٦) شرف عباد الله المؤمنين وكرمهم حيث الاضافة في قـوله : « إن عبادي » ·

(٤٧) إثبات الربوبية ·

(٤٨) أن الله كاف من توكل عليه ففوض أمره إليه ·

(٤٩) الحث على التوكل على الله ·

(٥٠) أن الانسان لا يمكن أن يحترز من الشيطان إلا بمعونة الله ·

(٥١) أن أول ذنب عصي الله به الكبر ·

(٥٢) إن أول ذنب حدث سببه النفس ، لأنها التي دعت وزينت لعدو الله الكبر فطاوعها إبليس لعنه وعصي الله فطرد وأبعد ·

نسأل الله أن يعصمنا من أغوائه ··· اللهـم صـلى على محمـد وآله وسـلم ·

وقـوله تعـالى :

« ربكم الذي يزجى لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما · وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلمـا نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا ·

أفاأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجـدوا لكم وكيلا ·

أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً » ·

بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة أنه هو الحافظ الكالىء للعبد

المؤمن من غواية إبليس وأنه لا يستطيع أن يمسه بسوء ـ ففي ذلك بذكر بعض نعمه تعالى على الإنسان التي كان يجب عليه أن يقابلها بالشكران لا بالكفران ، وهو الذي يرى دلائل قدرته في البر والبحر .

أي إن ربكم أيها الناس هو القادر الحكيم الذي يجري لكم لنفعكم السفن في البحر بالريح اللينة أو بالآلات البخارية أو الكهربائية لتسهيل نقل قوتكم وحاجاتكم من إقليم إلى آخر من أقصا المعمورة إلى أدناها والعكس بالعكس ونقل أشخاصكم من قطر إلى قطر إبتغاء للرزق والسياحة .

وهذا من رحمته بعباده ، فانه لم يزل بهم رحيما رءوفا يؤتيهم من كل ماتعلقت به إرادته ومنافعه ثم أخبر تبارك وتعالى أن الناس إذا مسهم الضر في البحر دعو الله منيبين إليه مخلصين له الدين ، وذهب عن قلوبهم ماكانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات ، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر .

وصرخوا بدعوة فاطر السموات ، مجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، فاطر السموات والأرض الذي تستغيث به جميع المخلوقات في شدائدها ، وأخلصوا له الدعاء والتضرع والالتجاء في هذه الحال .

كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة فذهب هارباً ، فركب في البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده .

فقال عكرمة في نفسه : والله إن كان لا ينفع في البحر غير الله فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك على عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد ، فلأجدنه رءوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه .

وقوله : « فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفوراً » الانسان هو الانسان ، فما تنجلي عنه الغمرة وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسي لحظة الشدة فينسي الله ويعرض عنه وتتقاذفه الأهواء وتجرفه الشهوات وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر ، فيرجع إلى ماكان عليه من الكفر ، إلا من عصمه الله فاشرق واستنار بنور الايمان ·

وهذا المعنى المذكور أوضحه جل وعلا في آيات كثيرة ، كقوله في سورة يونس : « هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين · فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق » ·

وقوله : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعا وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين · قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » ·

وقوله : « فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » ·

وقوله : « وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ومايجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور » ·
وقوله : « واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيباً إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ماكان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله » إلى غير ذلك من الآيات ·

ثم حذر من كفران نعمته وأبان جل وعلا في هذا الموضع الذي تقدم سخافة عقول الكفار ، وأنهم إذا وصلوا إلى البر ونجوا من هول البحر رجعوا إلى كفرهم آمنين عذاب الله ، مع أنه قادر على إهلاكهم بعد وصولهم إلى البر بأن يخسف بهم جانب البر الذي يلي البحر بزلزلة

أو بركان أو غيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله ، أو يرسل عليهم حجارة من السماء فتهلكهم أو يعيدهم فيه فيرسل عليهم ريحاً قاصفة تقصف الصوارى وتحطم السفن فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم ٠

قال تعالى : « ولا يظلم ربك أحداً » ٠ قال قتادة في تفسير قوله تعالى : « ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا » : أي لا نخاف أحدا يتبعنا بشيء مما فعلنا يريد انكم لا تجدون ثائرا يطلبنا بما فعلنا انتصارا منا أو دركا للثار من جهتنا ، وفي معنى الآية قوله تعالى : « فسواها ٠ ولا يخاف عقباها » ٠

وقوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ٠

هذا إجمال منه تعالى لذكر النعمة التي أنعم بها على بني آدم وشرفهم بها ، وهذه يدخل تحتها خلقهم على هذه الهيئة الحسنة المعتدلة ، كقوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » ، وقوله: «وصوركم فاحسن صوركم » ٠

ولقد أجاد القائل :

ما انت مادحها يا من يشبهها بالشمس والبدر لا بل انت هاجيها

من أين للشمس خال فوق وجنتها، ومضحك من نظام الدر في فيها

واين للبدر أجفان مكحلة بالسحر والغنج تجري في حواشيها

وقال بعض أهل العلم من تكريم الله لبني آدم : كون الانسان يمشي على رجليه قائما منتصبا ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوان يمشي على اربع ويأكل بفمه ، وجعله الله سميعا بصيرا ، وجعل له فؤاداً يفقه به وينتفع به ويفرق به بين الأشياء ويعرف منافعها وخواصها ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ٠ وقيل : ميزهم بالنطق والعقل والتمييز ٠

وقيل : أكرمهم بتسليطهم على سائر الخلق ، وتسخير سائر الخلق لهم ·

وقيل : بالكلام والخط والفهم ·

وقيل : أكرم الرجال باللحي والنساء بالذوائب ·

ويروى : ومن تسبيح الملائكة سبحان من زين الرجال باللحى ، ولا شك إن اللحية جمال وزينة للرجال واعفاؤها من سنن الأنبياء والمرسلين ، قال الله تعالى إخباراً عما قاله هارون لموسي : « يابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي » ·

وقال تعالى بعد أن عد الأنبياء ومنهم هارون : « أُولَٰئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » · وأمره صلى الله عليه وسلم أمر لنا ، لأن أمر القدوة أمر لاتباعه ·

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خالفوا المشركين : وفروا اللحى وأحفوا الشوارب » ·

ولهما أيضاً : « أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى » · وفي رواية : « انهكوا الشوارب وأعفوا اللحى » · والتوفير هو الابقاء ، أي اتركوها وافرة ، وإعفاؤها : تركها على حالها ·

ولمسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خالفوا المجوس لأنهم كانوا يقصرون لحاهم ويطولون الشوارب » ·

ولابن حبان عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من فطرة الاسلام : أخذ الشارب وإعفاء اللحى ، فإن المجوس تعفى شواربها وتحفى لحاها ، فخالفوهم ، خذوا شواربكم واعفوا لحاكم » ·

وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أمرنا باحفاء الشوارب وإعفاء اللحية » .

وله عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جزوا الشوارب وأرخوا اللحى » وجز الشارب : قصه ، وإرخاء اللحية : تطويلها .

وروى الامام أحمد عن أبي هريرة مرفوعا : « أعفوا اللحى وجزوا الشوارب ولا تشبهوا باليهود والنصارى » .

وللبزار عن ابن عباس مرفوعا : « لا تشبهوا بالأعاجم : أعفوا اللحى » .

وروى أبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تشبه بقوم فهو منهم » .

وله عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس منا من تشبه بغيرنا ، لا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى » .

وروى ابن أبي شيبة أن رجلا من المجوس جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد حلق لحيته وأطال شاربه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ماهذا ؟ قال : هذا ديننا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لكن في ديننا أن نحفى الشوارب وأن نعفي اللحية » .

وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن ابن كثير قال : « أتى رجل من العجم المسجد ، وقد وفر شاربه وجز لحيته،فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما حملك على هذا ، فقال : إن ربى أمرني بهذا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أوفر لحيتي وأحفي شاربي » .

وجاء في رواية ابن جرير عن زيد بن حبيب : أن رجلين من المجوس دخلا على النبي صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما وأعفيا شواربهما فكرر النظر إليهما وقال : ويلكما من أمركما بهذا ، قالا : أمرنا ربنا ـ يعنيان كسرى ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ولكن ربى أمرنى بإعفاء لحيتي وقص شاربي » .

وروى مسلم عن جابر رضي الله عنه ، قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير اللحية » .

وللترمذي عن عمر كث اللحية ، وفي رواية كثيف اللحية ، وفي أخرى عظيم اللحية .

وعن أنس : « كانت لحيته قد ملأت من هنا إلى هنا وأمر يده على عارضيه » .

وكان الخلفاء الراشدون الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ بسنتهم والعض عليها بالنواجذ يعفون لحاهم، وكذلك التابعون ، إذا فهمت ذلك أي ماتقدم من أمره صلى الله عليه وسلم وفعله ، فاسمع ماقال الله جل وعلا في الأمر بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ومانهاكم عنه فانتهوا» .
وقال : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول » .

وقال : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ، وقال : « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » .

وقال : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً .

وقال : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » ، وقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث ٠

وأما ما قاله أهل العلم ، فقال : شيخ الاسلام ابن تيمية : يحرم حلقها ، وقال القرطبي : لا يجوز حلقها ولا قصها ، وحكى ابن حزم الاجماع على أن قص الشارب وإعفاء اللحية فرض ٠

وقال في الدر المختار : وأما الأخذ منها وهي دون القبضة كما يفعله بعض المغاربة ومخنثة الرجال فلم يبحه أحد ٠

وقال في التمهيد : ويحرم حلق اللحية ، ولا يفعله إلا المخنثون من الرجال ٠

وقال الامام أبو شامة : وقد حدث قوم يحلقون لحاهم وهو أشد مما نقل عن المجوس من أنهم كانوا يقصونها ٠

وفي أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن والعجب من الذين مسخت ضمائرهم واضمحل ذوقهم حتى صاروا يفرون من صفات الذكورية وشرف الرجولة إلى خنوثة الأنوثية ويمثلون بوجوههم بحلق أذقانهم ويتشبهون بالنساء حيث يحاولون القضاء على أعظم الفوارق الحسية بين الذكر والأنثى وهو اللحية : أهـ

وقال العلماء : وفي اللحية إذا أزيلت ولم تعد : دية كاملة ، قلت ويخشي على حالقها بغضاً لها وكراهة أن يكون ذلك ارتداداً عن الاسلام ، لأن من نواقص الاسلام بغض شيء مما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقدم أمره صلى الله عليه وسلم باعفائها وتوفيرها نسأل الله أن يعصمنا واخواننا المسلمين من التعرض لها بحلق أو نتف أو قص أو كى ، اللهم صل على محمد ٠

ولا مانع من حمل التكريم المذكور على جميع هذه الأشياء وأعظم

ذلك أي خصال التكريم العقل ، فانهم به تسلطوا على جميع الحيوانات وميزوا بين الحسن والقبيح ، وتوسعوا في المطاعم والمشارب وكسبوا الأموال التي تسببوا بها إلى تحصيل أمور لا تقدر عليها الحيوانات وبه قدروا على تحصيل الأبنية التي تمنعهم باذن الله مما يخافون ، وعلى تحصيل الأكسية التي تقيهم الحر والبرد ، ولله در القلائل :

ما وهب الله لامرء هبـــه　　　أشرف من عقله ومن أدبه

هما حياة الفتى فان فقدا　　　فان فقـد الحياة أجمل به

وقيل : تكريمهم هو : أن جعل محمداً صلى الله عليه وسلم منهم ·

وأخرج الطبراني والبيهقي في الشعب ، والخطيب في تاريخه عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم، قيل يارسول الله : ولا الملائكة قال ولا الملائكة · الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » ·

وقوله تعالى : « وحملناهم في البر والبحر » هذا تخصيص لبعض أنواع التكريم أي وحملناهم في البر على الدواب من الأنعام والخيـل والبغال والحمـير وعلى ماخلق لهم في هـذا الزمان من السـيارات والقطارات والطائرات بأنواعها وفي البحر أيضاً على السفن الـكبار والصغار والمراكب ونحو ذلك مما حدث وما سيحدث.

وقوله : « ورزقناهم من الطيبات أي من زروع وثمار ولحوم والبان وفواكه ، من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهيات اللذيذة المناظر الحسنة والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصـنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسـهم ويجلبه عليهم غـيرهم من أقطـار الأقاليم والنواحي : والانســان ينسى مارزقه الله من الطيبات بطول الألفة كما قيل :

إذا ألف الشيء استهان به الفتى   فلم يره بؤساً يعد ولا نعما

كإنفاقه من عمره ومساغه   من الريق عذباً لا يحس له طعما

فلا يذكر الكثير من هذه الطيبات التي رزقها إلا حين يحرمها ، فعندئذ يعرف قيمة مايستمتع به ، ولكن سرعان مايعود فينسي ، هذا الهواء ، هذه الشمس ، هذا الماء ، هذه الصحة ، هذه القدرة ، هذه الأرض المبسوطة ، هذه الأعضاء المطاوعة لما يريد ، هذه القدرة على الحركة ، هذه الحواس ، هذا العقل ، هذا الكلام ، هذه المطاعم والمشارب والملابس ، هذا الكون ٠

وقد أمر الله عباده المؤمنين بالأكل من طيبات مارزقهم ، وأَمرهم أن يشكروه على ذلك إن كانوا إياه يعبدون ، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة ، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة ٠

كما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً » وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم » ٠

وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم » ثم ذكر « الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأني يستجاب لذلك » رواه مسلم ٠

وقوله تعالى : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » أي من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة ٠

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن زيد بن أسلم قال : قالت

الملائكة : ياربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتنعمون ، ولم تعطنا ذلك فأعطنا الآخرة،فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجعل صالح ذرية ما خلقت بيدي كمن قلت له كن فكان » وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه وقد روي متصلا من وجه آخر ٠

وقوله : « يوم ندعو كل أناس بامامهم بعد أن ذكر جل وعلا أحوال بني آدم في الدنيا وذكر أنه كرمهم وفضلهم على كثير ممن خلقه ، فصل فيما يلي من الآيات أحوالهم في الآخرة ، فأخبر الله تعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم » ٠

وقد اختلف المفسرون في تعيين الامام الذي يدعى كل أناس به يوم القيامة فعن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إمام زمانهم إمام هدى أو إمام ضلالة ، فأهل الايمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار » ٠

وفي الصحيحين : « لِتَتَّبِعْ كلُّ أمة ماكانت تعبد ، فيتبع مَن كان يعبد الطواغيت الطواغيت » الحديث ٠

والثاني أنه كتاب كل إنسان الذي فيه عمله ، أي يدعى كل انسان بكتاب عمله ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه » الآية ٠

وقال ابن زيد : الإمام هو الكتاب المنزل عليهم ، فيدعى أهل التوراة بالتوراة ، وأهل الانجيل بالانجيل ، وأهل القرآن بالقرآن ، فيقال : يا أهل التوراة ، يا أهل الانجيل ، يا أهل القرآن ٠

وقال قتادة : إمامهم نبيهم ٠

وعن أنس مثله ، فيقال : هاتوا متبعي ابراهيم ، هاتوا متبعي موسي، هاتوا متبعي عيسي ، هاتوا متبعي محمد صلى الله عليه وسلم ٠

والقول بأن المراد بالامام كتاب الأعمال هو الذي تميل إليه النفس لقوله تعالى : « وكل شيء أحصيناه في إمـام مبين » ، وقوله تعـالى : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه » وقوله بعـدها : « فمن أوتي كتابه بيمينه » والله أعلم •

والخلاصة : أن المعـول عليه يومئذ الأعمـال والأخـلاق والآراء والعقائد النفسية التي تغرس في النفوس لا الأنساب ، لأن الأولى باقية والثانية فانية •

وقوله تعالى : « فمن أوتي كتابه بيمينه » أي فمن أعطى من أولئك المدعوين كتاب عمله بيمينه ، فأولئك يقرؤن كتابهم مبتهجين فرحين بمـا فيه من العمل الصالح ، وتخصيص اليمـين بالذكر للتشريف والتبشير ، والاشارة في قوله تعالى (فأولئك) إلى من باعتبار معناه •

قيل : ووجه الجمع الاشارة إلى أنهم مجتمعون على شان جليـل والاشعار بأن قراءتهم لكتبهم تكون على وجه الاجتماع لا على وجـه الانفراد ، ونحو هذه الآية قوله تعالى : « فأما من أوتي كتابه بيمينـه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه » ، وهذا يقوي قول من قال بامامهم بكتابهم « ولا يظلمون فتيلا » أي لا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم كما قال تعالى : « ومن يعمل من الصالحات وهـو مؤمن فلا يخـاف ظلما ولا هضما) •

الفتيل هو الخيط الذي في الحز الكائن في النواة طولا والقطمير هـو قشرة النواة والنقير هو الخيط الذي في النقرة التي في ظهر النواة •

وقوله تعالى : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » •

أي من كان من المدعوين في هذه الدنيا فاقد البصيرة أعمى القلب لا يبصر سبيل الرشد فهو في الآخرة أعمى ، وهذا يحتمل أن يراد به أعمى البصر كقوله : « ونحشره يوم القيامة أعمى » وقوله : « ونحشرهم

يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما » الآية ، ويحتمل أن يراد عمى القلب ٠

وقيل : المراد من عمي عن النعم التي أنعم الله بها عليه في الدنيا فهو عن نعم الآخرة أعمى ٠

وقيل : من كان في الدنيا التي تقبل فيها التوبة أعمى ، فهو في الآخرة التي لا توبة فيها أعمى ٠

وقيل : من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله فهو في الآخرة أعمى ، وقد قيل إن قوله : « فهو في الآخرة أعمى » أفعل تفضيل أي أشد عمى وهذا مبني على أنه من عمى القلب اذ لا يقال ذلك في عمى العين ، قال الخليل وسيبويه : لأنه خلقة بمنزلة اليد والرجل ، فلا يقال : ما أعماه، كما لا يقال : ماأيداه لأنه على أكثر من ثلاثة أحرف ٠

وقد حكى القراء عن بعض العرب أنه سمعه يقول : ماأسود شعره، ومن ذلك قول الشاعر :

ما في المعالي لكم ظل ولا ثمر — وفي المخازي لكم اشياخ اشياخ

أما الملوك فأنت اليوم ألأمهم — لؤما وأبيضهم سربال طباخ

وقوله : « وأضل سبيلا » من الأعمى لكونه لا يجد طريقا إلى الهداية بخلاف الأعمى ، فإنه قد يهتدي في بعض الأحوال ، قال ابن عباس : من كان في الدنيا أعمى عما يرى من قدرتي من خلق السموات والأرض والجبال والبحار والناس والدواب واشباه ذلك فهو عما وصفت له في الآخرة ولم يره أعمى وأبعد حجة ٠

والخلاصة أن السياق يرسمه في المشهد المزدحم الهائل أعمى ضالا يتخبط لا يجد من يهديه ولا من يهتدي به ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

ممـا يستفاد من الآيات السابقة :

(١) إثبات الربوبية العامة ٠

(٢) إثبات قدرة الله ٠

(٣) لطف الله بخلقه ٠

(٤) الحث على طلب الرزق ٠

(٥) إثبات صفة الرحمة ٠

(٦) الرد على المعطلة نفات الصفات ٠

(٧) التعليل لأفعال الله وأنه جل وعلا لايفعل شيئا إلالعلة وحكمة

(٨) أن الناس إذا مسهم الضر في البحر ذهب عن خواطرهم كل مايدعونه ويرجون نفعه ٠

(٩) أنهم في ذلك الوقت العصيب يلجئون إلى فاطر السموات لكشف ما حل بهم من الضر ٠

(١٠) أن الناس عندما تتجلى عنهم الشدة وينجيهم الله إلى البر يعرضون وينسون ، كما قال تعالى : « وإذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا إليه ثم اخوله نعمة منه نسي مايدعو إليه من قبل » ٠

(١١) أن الانسان كفور لنعم الله ، إلا من عصمه الله ٠

(١٢) أن المصائب والأخطار تجلو الفطرة،وربما كانتهداية لبعض الناس ، كما جرى لعكرمة بن أبي جهل ٠

(١٣) الخوف من عقوبات الله ٠

(١٤) إثبات علم الله ٠

(١٥) أن الله تعالى يذكر الخلق ببعض نعمه عليهم لعلهم يهتدون ٠

(١٦) إنكار الله على الخلق في سوء معاملتهم حيث يلجئون إليه في الشدائد ، ويعرضون عنه في الرخاء ٠

(١٧) أن من ظن أن الهلاك لا يكون إلا في البحر فظنه خاطيء ، فالله قادر عليهم أينما كانوا في البر أو في البحر ، أو في جو السماء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء جل وعلا ٠

(١٨) أن في قوله تعالى : « وكان الانسان كفورا » لطافة حيث أعرض سبحانه عن خطابهم بخصوصهم ، وذكر أن جنس الانسان مجبول على الكفران فلما أعرضوا أعرض الله سبحانه عنهم ٠

(١٩) أنه لا راد لما أراد الله ٠

(٢٠) في الآية إيماء إلى كمال شدة هول ما لاقوه في التارة الأولى بحيث لولا الاعادة ماعادوا ٠

(٢١) أن الكفر سبب للهلاك ٠

(٢٢) أن الخلق نواصيهم بيد الله في كل لحظة وفي كل بقعة برا او بحرا ٠

(٢٣) تكريم الله لبني آدم ٠

(٢٤) إحسان الله على بني آدم بحملهم في البر ٠

(٢٥) إحسانه بحملهم في البر ٠

(٢٦) أن الله هو الرزاق ٠

(٢٧) على بني آدم أن يشكر الله على هذه النعم التي لا تحصي ، وتقدم أنموذج منها ٠

(٢٨) على الانسان أن يحذر من كفران هذه النعم ، وأن يجتنب معاصي الله ٠

(٢٩) إثبات الأفعال الاختيارية لله •

(٣٠) إثبـات البعث •

(٣١) إثبات الحشر والحساب •

(٣٢) إثبات الجزاء على الأعمال •

(٣٣) ان المؤمن يؤتي كتابه بيمينه وأنه يقرؤه •

(٣٤) أن الله لا يظلم أحدا •

(٣٥) أن المعول على رحمة الله ثم على الأعمال •

(٣٦) تشريف اليمين لتخصصها بالذكر •

(٣٧) فيه إشارة إلى أنهم مجتمعون لأمر عظيم •

(٣٨) أن من كان في الدنيـا أعمى عن حجج الله فهـو في الآخـرة أشد عمى •

(٣٩) أنه أضل من الأعمى طريقا •

(٤٠) أن الجزاء من جنس العمل ، فكما عمى عن آيات الله يكون في الآخرة أعمى •

(٤١) الحث على اتباع الكتاب والسنة والعمل بهما ، والتفكر في آيات الله ليفوز بالسلامة من سوء العاقبة ، والله أعلم •

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم •

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

« كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا • من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا • خالدين فيه وسآء لهم يوم القيامة حملا • يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقا • يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا • نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة أن لبثتم إلا يوما • ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا • فيذرها قاعاً صفصفا • لا ترى فيها عوجا ولا أمتا • يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا • يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا • يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما • وعنت الوجوه للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلما • ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما • وكذلك أنزلنا قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا • فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل ربي زدني علما ».

المفردات :

الأنباء : الأخبار ، ذكرا : أي قرآنا ، الوزر : الحمل الثقيل ، الصور : قرن ينفخ فيه يدعى به الناس للمحشر ، زرقا : زرق العيون من شدة ماهم فيه من الأهوال ، وقيل : زرقا أبدانهم من الخوف والقلق والعطش ، يتخافتون بينهم : يخفضون أصواتهم ويخفونها ، إلا عشرا : أي عشرة أيام ، امثلهم : أعلمهم طريقة ، ينسفها : يذهبها

ويمحقها ويسيرها ، يذرها : يتركها ، القاع : الأرض التي لا نبـات فيها ، الصفصف : الأرض الملساء ، والعوج : الانخفاض ، والأمت : النتوء اليسير ، الداعي : هو داعي الله الى المحشر ، لا عوج له : لا عوج لدعوة الداعي ، خشعت : ذلت ، والهمس : الصوت الخفي ، عنت : خضعت ، خاب : خسر ، الظلم : الشرك .

بعد أن شرح جل وعلا قصص موسي عليه السلام مع فرعون أولا ، ثم مع السامري ثانيا على نمط بديع وأسلوب قويم ، بين لنبيه صلى الله عليه وسلم أن هذا القصص عن الأمم الماضية والقـرون الغابرة كعاد وثمود وأصحاب الأيكة نلقيه إليك لنثبت به قلبك واذهابالحزنك، اذ به تعرف ماحدث للرسل من قبلك من شـدائد الأهـوال ، وتذكيرا للمستبصرين في دينهم ، وتاكيدا للحجة على من عاند وكابر من غيرهم .

وقوله : « وقد آتيناك من لدنا ذكرا » أي وقد آتيناك من لدنا كتابا جديرا بالتذكر به لأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولم يعط نبي قبلك مثله ، فهو جامع للأخبار ، حاو للاحكام التي فيها صلاح أحوال البشر في دينهم ودنياهم مشتمل على مكارم الأخلاق وسامي الآداب التي بها يرتفع قدر الأمم وينبه ذكرها وبه يتذكر ما لله من الأسماء والصفات الكاملة .

وإذا كان القرآن ذكرا للرسول صلى الله عليه وسلم ولأمته فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم ، وأن يهتدى بنوره إلى الضراط المستقيم وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم .

قال العلماء : ويبدىء الصبى وليه به قبل العـلم فيقراه كله لأنه إذا قرأه أولا تعود القراءة ثم لزمها ، ومن الضروري اتقان التلاوة لأنها أصل هام يتفرع عنه فهمه وتدبره والتأثر بمعانيه ، وفهم آداب الدين

وأسرار العقيدة ، واتقان تلاوته من أعظم الوسائل لاتقان اللغة العربية والمران على أساليبها ، واختزان ثروة عظيمة منها ٠

وقوله تعالى : « من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزراً » أي من أعرض عن اتباع القرآن وابتغى الهدى من غيره ، أو تهاون بأوامره ونواهيه فإن الله يضله ويهديه إلى سواء الجحيم، وسيحمل يوم القيامة من الأوزار والآثام ما لا يقدر على حمله بل ينقض ظهره ٠

قال تعالى : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » ، وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم : أهل الكتاب وغيرهم ، كما قال: «لأنذركم به ومن بلغ» فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع له٠

وقوله : « خالدين فيه وساءلهم يوم القيامة حملا » أي مقيمين في ذلك الوزر لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابا على أصحابها بحسب صغرها وكبرها ، وبئس الحمل من الأوزار والآثام جزاء إعراضهم ، وسائر ذنوبهم ٠

وقوله : « يوم ينفخ في الصور » منصوب باضمار اذكر أو بدلا من يوم القيامة ، أو بيانا له ، وثبت في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » ٠

وقد جاء في حديث الصور من رواية أبي هريرة : « إنه قرن عظيم الدائرة منه بقدر السموات والأرض ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام »٠

وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقمه وأصغى سمعه ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر بالنفخ » فقال : يا رسول الله ، وما تأمرنا ؟ قال : «قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل» رواه الترمذي وأبو داود والدارمي٠

وعن ابن عباس قال في قوله تعالى : « فاذا نقر في الناقور » الصور، قال : والراجفة النفخة الأولى ، والرادفة الثانية ، رواه البخاري ٠

وقوله : « ونحشر المجرمين يومئذ زرقا » أي ونسوق أهل الكفر بالله يومئذ الى موقف القيامة زرقا ، قيل : زرق العيون ، والزرقة أبغض ألوان العيون إلى العرب ، لأن الروم أعداءهم زرق العيون ، ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد أصهب السربال،أزرق العينين وقال الشاعر :

وما كنت أخشي أن تكون وفاته ٭ بكفيْ سِبَنتيِ أزرقُ العين مُطرِقُ

وكانوا يهجون بالزرقة كما في قوله :

لقد زرقت عيناك يا ابنُ معكبرٍ ٭ ألا كل ضبيٍ من اللؤم أزرقُ

وقيل : أريد بذلك أنهم يحشرون عميا كالذي قال الله : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا » ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الجمع بين زرقا على ماروى عنه وعميا في آية أخرى ؟ فقال : ليوم القيامة حالات ، فحالة يكونون فيها زرقا ٠

وقوله : « يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا » أي يتهامسون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض فيقصر مدة الدنيا وسرعة زوالها وقرب الآخرة، فيقول بعضهم لبعض : مالبثتم في الدنيا إلا عشرا ، أي عشرة أيام ، ذلك والله أعلم أنهم لما عاينوا تلك الأهوال ذهلوا عن مقدار عمرهم في الدنيا ولم يذكروا إلا القليل ، فقالوا : ماعشنا إلا تلك الأيام القلائل والانسان حين الشدائد والكروب والأهوال والمزعجات تغيب عنه أظهر الأشياء وأكثرها ٠

وقوله تعالى : « نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن

لبثتم الايوما » ، يقول جل ذكره : نحن أعلم منهم عند إسرارهم وتخافتهم بينهم بقولهم إن لبثتم إلا عشر .

يقول : لا يخفى علينا مما يتسارون بينهم شيء إذ يقول أمثلهم أى أعدلهم وأقربهم الى التقدير ، وأوفاهم عقلا وأعلمهم فيهم « إن لبثتم في الدنيا الا يوما ، ذاك أن الدنيا وإن تكررت أوقاتها وتعاقبت لياليها وأيامها قصيرة المدى ، وقديما قيل :

ألا إنما الدنيا كظل سحابة أظلتك يوماً ثم عنك إضمحلت
فلا تك فرحاناً بها حين أقبلت ولا تك جزعاناً إذا هي ولت

والمقصود من هذا الندم العظيم كيف ضيعوا الأوقات القصيرة وقطعوها ساهين لاهين معرضين عما ينفعهم ، مقبلين على مايضرهم فها قد حضر الجزاء وحق الوعيد ، فلم يبق إلا الحسرة والندم ، والتلهف وطلب العودة وهيهات .

وقوله تعالى : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا » قيل في سبب نزولها إن رجالا من ثقيف أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يامحمد ، كيف تكون الجبال يوم القيامة ؟ فنزلت هذه الآية .

والنسف : القلع ، أي يقلعها من أصولها ويجعلها هباء منثورا ، وسؤالهم هذا والله أعلم سؤال تهكم واستهزاء واستبعاد ، وطعن في الحشر والنشر ، لا سؤال معرفة واسترشاد وتثبيت للحق .

وقوله تعالى : « فيذرها قاعا صفصفا » المعنى أن الله يذهبها عن أماكنها ، ويمحقها ويسيرها تسييرا ، ويدع أماكن الجبال من الأرض « قاعا صفصفا » يعنى أرضا ملساء مستوية لا نبات فيها ، لا ترى في

الأرض يومئذ واديا ولا رابية ، ولا مكانا منخفضا ولا مرتفعا ، وقال قتادة : لا ترى صدعا ولا أكمة ٠

وقوله : « يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له » ، أي يوم إذ تنسف الجبال ويرى الناس هذه الأحوال والشدائد والكروب والأهوال ، يستجيبون مسارعين حينما سمعوا صوت الداعي إلى الموقف ، فيتبعون توجيهه صامتين مستسلمين لا يلتفتون ولا يتخلفون ٠

قال تعالى : « يوم يخرجون من الأجداث سراعا كأنهم إلى نصب يوفضون ٠ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يدعون » ٠

وقال : « مهطعين إلى الداعي » وقد كانوا يدعون إلى الهدى ٠

فيتخلفون ويعرضون في الدنيا ، ثم يخيم الصمت الرهيب والسكون الغامر ٠

« وخشعت الأصوات للرحمن ، فلا تسمع إلا همسا » أي سكنت وخضعت وذلت ، وفي الهمس ثلاثة أقوال :

أولها : إنه وطيء الكلام ٠

والثاني : إنه تحريك الشفاه بغير نطق ٠

الثالث : الكلام الخفي ٠

والخلاصة ، أنه في ذلك اليوم العظيم يملك الخلق الخشوع والسكوت والذل والانكسار والانصات ، إنتظارا لحكم الرحمن فيهم، فترى في ذلك الموقف العظيم الذي جمع الله فيه الأولين والآخرين ، الأغنياء والفقراء ، والرجال والنساء ، والأحرار والأرقاء والملوك والسوقة ، ساكتين منصتين خاشعة أبصارهم خاضعة رقابهم ، جاثين

على ركبهم ، عانية وجوههم ، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به ، ولا ماذا يفعل به ، قد اشتغل كل منهم بنفسه وشأنه عن أبيه وأخيه ، وصديقه وحبيبه ، قال الله تعالى : «لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه» .

وقوله : « يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أَذِن له الرحمن ورضي له قولا» ، يقول تعالى : «يومئذ» أي يوم القيامة لا تنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع ورضي له قولا ، فلا يشفع أحد عنده من الخلق الا من أذن له في الشفاعة ، ولا يأذن الا لمن ارتضي شفاعته من الأنبياء والمرسلين وعباده المقربين فيمن ارتضي قوله وعمله ، وهو المؤمن الموحد المخلص .

فللشاعة شرطان ذكر في هذه السورة وفي سورة النجم ، قال تعالى: « وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضي » وقال تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون الا من أذن له الرحمن وقال صوابا » .

وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم وأكرم الخلق على الله عز وجل انه قال : « إني تحت العرش وأخر لله ساجدا ، ويفتح علي بمحامد لا أُحصيها الآن ، فيدعني ماشاء أن يدعني ، ثم يقول : يامحمد ، ارفع رأسك وقل تسمع، واشفع تشفع ، قال : فيحد لي حدا فيدخلهم الجنة ، ثم أعود » ، فذكر اربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

وفي الحديث أيضا يقول الله تعالى : « أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من ايمان ـ فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقول : ـ أخرجوا من النار من كان في قلبه نصف مثقال من ايمان ، أخرجوا من النار من كان في قلبه مايزن ذرة، من كان في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من ايمان»، الحديث .

وقوله تعالى : « يعلم ما بين أيديهم » ، أي مابين أيديهم من أمر الساعة وما خلفهم من أمر لدنيا ٠

قال قتادة : وقيل : يعلم مايصيرون إليه من ثواب أو عقاب ، وما خلفهم ماخلفوه ورائهم في الدنيا ٠

والمراد هنا جميع الخلق ، وقيل : المراد بهم الذين يتبعون الداعى، وقوله : « لا يحيطون به علما » كقوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » ، المعنىأنه محيط بعباده علما ولا يحيط عباده به علما٠

قال ابن القيم رحمه الله :

وهو العليم أحاط علما بالذي	في الكون من سر ومن اعلان
وبكل شيء علمه سبحانه	فهو المحيط وليس ذا نسيان
وكذلك يعلم ما يكون غدا وما	قد كان والموجود في ذا الآن

وقوله : « وعنت الوجوه للحى القيوم » قال ابن عباس : وغير واحد خضعت وذلت واستسلمت الخلائق للجبار الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام وهو قيم على كل شيء ، يدبره ويحفظه ، فهوالكامل في نفسه الذي كل شيء فقير إليه ، لا قوام إلا به ٠

وورد أن الحي القيوم هو الاسم الأعظم الذي اذا دعى الله به أجاب، واذا سئل به أعطى ، بدلالة الحي على الصفات الذاتية ، والقيوم على الصفات الفعلية والصفات كلها ترجع اليهما ٠

قال ابن القيم رحمه الله :

هذا ومن أوصافه القيوم وال	قيوم في أوصافه أمران
احداهما القيوم قام بنفسه	والكون قام به الأمران

فالأول استغناؤه عن غيره والفقر من كل اليه الثاني

« وقد خاب من حمل ظلما » ، يقول جل ذكره ، ولم يظفر بحاجته وطلبته من حمل إلى موقف القيامة شركا بالله وكفرا به وعملا بمعصيته.

وفي الصحيح : « إياكم والظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة » والخيبة كل الخيبة من لقى ربه وهو مشرك ، فإن الله تعالى يقول : « إن الشرك لظلم عظيم ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء » رواه مسلم.

وعن أبي موسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله ليملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته ــ ثم قرأ ــ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ».

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وان لم يكن له حسنات أخذ من سيآت صاحب المظلمة فحمل عليه » رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أتدرون من المفلس؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع؟ فقال : إن المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ،

ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » رواه مسلم ·

وقوله تعالى : « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » وبعد أن ذكر جل وعلا أهوال يوم القيامة بين حال المؤمنين حينئذ ، وأن من يعمل من الصالحات وهو مؤمن بربه ورسله وما أنزل عليهم من كتبه لا يخاف ظلما ولا هضما ، وفي قوله : « فلا يخاف ظلما ولا هضما »
اربعة أقوال :

أحدهما : لا يخاف أن يظلم فيزاد في سيئاته ، ولا أن يهضم من حسناته ·

والثاني : لا يخاف أن يظلم فيزاد من ذنب غيره ، ولا أن يهضم من حسناته قاله قتادة ·

والثالث : أن لا يخاف أن يؤاخذ بما لم يعمل ولا ينتقص من عمله ، قاله الضحاك ·

الرابع : لا يخاف أن لا يجزي بعمله ولا أن ينتقص من حقه ، قاله ابن زيد ·

وأصل الهضم النقص ، يقال : هضمنى فلان حقى ، ومنه : امرأة مضيم ، إذا كانت ضامرة البطن ·

قال امرىء القيس :

إذا قلت هاتى نوليني تمايلت على هضيم الكشح ريا المخلخل

وقوله تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » أي وكما أنزلنا ماذكر من الوعد والوعيد وأحوال يوم القيامةوأهوالها أنزلنا القرآن كله بأسلوبعربى مبين ليفهم ويتفقه بدراسته ويسعد بالعمل بما حواه مما فيه سعادة البشر في دنياهم وأخراهم ٠

وقوله تعالى : « وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا » أي كررنا وفصلنا القول فيه بذكر الوعيد ، ونوعنا ذلك أنواعاً كثيرة تارة بذكر أسمائه جل وعلا الدالة على العدل والانتقام ، وتارة بذكر آثار الذنوب وما تكسبه من العيوب ، وتارة بذكر المثلات التي أحلها بالأمم السابقة الظالمة ، وتارة بذكر أهوال يوم القيامة وما فيها من الشدائد والكروب ، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب ، كل ذلك رحمة بالعباد لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي مايضرهم ، أو يحدث لهم ذكرا فيعملون من الطاعات والخير ماينفعهم ، وكونه عربياً وكونه مصرفاً فيه من الوعيد أكبر سبب وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح ٠

وقوله : « فتعالى الله الملك الحق » لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عباده ، وحكمه الأمرى الديني الذي أنزل في الكتاب ، وكان هذا من آثار ملكه وعظيم نعمته نزه نفسه عن مماثلة مخلوقاته في شيء من الأشياء فقال « فتعالى الله » أي جل وتقدس وارتفع عن كل نقص وعيب وآفة ، وجل عن إلحاد الملحدين وعما يقوله المشركون والمبتدعون في صفاته ٠

فانه الملك الذي بيده الثواب والعقاب الذي لا يزول ملكه ولا يتغير، وليس بمستفاد من قبل الغير ، ولا غيره أولى به منه ، وكل ملك سواه يملك بعض الأشياء ويبيد ملكه ويفنى ٠

« الحق » أي وجوده وملكه وكماله حق ، فصفات الكمال لا تكون حقيقة إلا لذى الجلال والاكرام ومن ذلك الملك .

وقوله : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي اليك وحيه وقل ربى زدني علما » هذا كقوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه » .

وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعالج من الوحى شدة فكان مما يحرك به لسانه ، فانزل الله هذه الآية » يعنى أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا جاء جبريل بالوحى كلما قال جبريل آية قالها معه من شدة حرصه على حفظ القرآن ، فارشده الله تعالى إلى ماهو الأسهل والأخف في حقه لئلا يشق عليه فقال : «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه» . والمعنى : لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل ، واصبر حتى يفرغ منه فإذا فرغ منه فاقرأه فإن الله قد ضمن جمعه لك في صدرك وقراءتك إياه .

ولما كان عجلته صلى الله عليه وسلم بتلقف القرآن دالة على محبته التامة ورغبته في العلم وحرصه عليه أمره الله أن يساله الزيادة من العلم ، فقال : « وقل ربي زدني علما » أي زدني منك

قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة حتى توفاه الله .

وعن أبى هريرة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ماينفعني وزدني علما والحمد لله على كل حال » رواه ابن ماجه .

وعن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا

أصبح : « اللهم إنى أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا » ٠

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

مما يفهم من الآيات ٩٩ ـ ١١٤ :

(١) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ٠

(٢) تذكرة للمستبصرين في دينهم ٠

(٣) تأكيد للحجة على من عاند وكابر ٠

(٤) تسمية القرآن ذكرا ٠

(٥) أنه من عند الله ٠

(٦) الوعيد العظيم على من أعرض عن القرآن ٠

(٧) أن من أعرض عنه يحمل يوم القيامة وزرا ٠

(٨) إثبات البعث ٠ وهو اعادة الأبدان وادخال الأرواح فيها ٠

(٩) أن من أعرض عن القرآن خالدا في وزره ٠

(١٠) التحذير عن الاعراض عن القرآن ٠

(١١) أن القرآن يتذكر به ٠

(١٢) إثبات الجزاء على الأعمال ٠

(١٣) أنه بئس الحمل حمل الأوزار ٠

(١٤) الحث على التذكر ليوم القيامة والنفخ في الصور ٠

(١٥) إثبات النفخ في الصور ٠

(١٦) إثبات الحشر ٠

(١٧) أن المجرمين يحشرون زرق العيون ·

(١٨) أن الرعب والذعر يملأ القلوب ، ولهذا يتسارون في الكلام ·

(١٩) استقصارهم مدة مقامهم في الدنيا ·

(٢٠) إثبات علم الله جل وعلا ·

(٢١) الرد على من أنكر صفة العلم ·

(٢٢) أن في نسبة قول اليوم الى أمثلهم مايدل على شدة الهول ·

(٢٣) إثبات صفة الكلام لله جل وعلا ·

(٢٤) الرد على من قال ان القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم·

(٢٥) أن الله تعالى يوم القيامة ينسف الجبال ·

(٢٦) أن الأرض في ذلك الوقت تسوى وتكون قاعا صفصفا لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ·

(٢٧) أن في يوم القيامة يدعو الناس داع يحثهم إلى الموقف ·

(٢٨) أنه لا يكون لهم ميل عنه ولا انحراف ·

(٢٩) أن الأصوات في ذلك اليوم تسكن وتذل وتخضع للرحمن ·

(٣٠) إثبات صفة الرحمة لله جل وعلا ·

(٣١) أن الشفاعة لا تنفع إلا اذا جمعت شرطين : إذن الله للشافع أن يشفع ، والثاني رضاه عن المشفوع له وهو المؤمن المخلص ·

(٣٢) أن من لم يكن كذلك لا تنفعه الشفاعة ·

(٣٣) إثبات صفة الرضى لله ·

(٣٤) إحاطة علم بما بين أيديهم وما خلفهم ·

(٣٥) أن الخلق لا يحيطون بالله علما ٠

(٣٦) أن الوجوه تخشع وتذل لله في ذلك اليوم ٠

(٣٧) إثبات صفة الحياة ٠

(٣٨) إثبات القيومية لله ٠

(٣٩) التحذير من الظلم ٠

(٤٠) الوعيد الشديد لمن حمل ظلما ٠

(٤١) تخصيص الوجوه بالذكر في قوله « وعنت الوجوه » لأنها أشرف الأعضاء ولأن عليها المدار في المعرفة والحب والبغض .

(٤٢) الحث على الأعمال الصالحة ٠

(٤٣) إثبات عدل الله ٠ وأنه أعدل العادلين ٠

(٤٤) أن عامل الصالحات وهو مؤمن لا يظلمه الله فيحمل عليه سيئات غيره ولا ينقص من حسناته ٠

(٤٥) أن الايمان شرط في صحة الطاعات وقبول الحسنات ٠

(٤٦) دليل على علو الله على خلقه ٠

(٤٧) أن القرآن منزل ٠

(٤٨) الرد على من قال إنه مخلوق كالجهمية والمعتزلة ٠

(٤٩) أنه بلغة العرب ٠

(٥٠) منة الله على العرب حيث نزل بلغتهم ٠

(٥١) أن الله نوع في القرآن وفصل ٠

(٥٢) لطف الله بخلقه ٠

(٥٣) الحث على التقوى ٠

(٥٤) دليل على عظمـة الله .

(٥٥) تنزيه الله وتقديسه عن الشركاء والأمثال والأشباه .

(٥٦) إثبات الألوهية .

(٥٧) إثبات صفة الملك .

(٥٨) إثبات الأسماء لله .

(٥٩) الحث على تدبر القرآن والانصات عند قراءته .

(٦٠) إثبات الربوبية .

(٦١) مـدح العـلم .

(٦٢) الحث على طلب العـلم .

(٦٣) الحث على سؤال الله الزيادة من العلم .

(٦٤) تعليم الله لنبيه صلى الله عليه وسلم عند إلقاء الوحي عليه .

(٦٥) إثبات الأفعال الاختيارية .

(٦٦) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٦٧) عناية الله برسوله صلى الله عليه وسلم .

(٦٨) أن الله لم يهمل خلقه ولم يتركهم سدى .

(٦٩) حرصه صلى الله عليـه وسلم على حفظ القـرآن وخوفه من نسـيانه .

(٧٠) دليل على عظمة الله والمأخذ من «وخشعت الأصوات للرحمن»

(٧١) إثبات لقدرة الله والمأخذ من عدة آيات مما تقدم فتأمل .

(٧٢) الحث على التواضع والمأخذ من قوله : وقل ربي زدني علما .

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبـارك وتعـالى :

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا واذا خاطبهـم الجاهلون قالوا سلاما · والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما · والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما · انها ساءت مستقرا ومقاما · والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما · والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما · يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا · الا من تاب وآمن وعمل عمـلا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ·

ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا · والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو أمروا كراما · والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميـانا · والذين يقـولون ربنا هب لنـا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما · أولئك يجـزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما · خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما · قل مايعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » ·

المفردات :

الهون : الرفق واللين والسكينة · الجاهلون : السفهاء · قالوا سلاما : قال كلاما يسلمون فيه من مقابلة الجاهل بجهله · يبيتون :

البيتوتة هي أن يدركك الليل نمت أو لم تنم · مستقرا : موضع قرار وإقامة · الاسراف : مجاوزة الحد في النفقة · التقتير : التضييق والشح · قواما : وسطا وعدلا · لا يدعون : لا يشركون · أثاما · عقوبة وجزاء · مهانا : ذليلا مستحقرا · لا يشهدون الزور : لا يحضرون القول والفعل المحرم ولا يقيمون الشهادة الكاذبة ·

اللغو : الكلام الذي لا خير فيه · مروا كراما : مروا مكرمين لأنفسهم عن الخوض فيه · الخرور : السقوط والوقوع · قرة أعين : تقربهم أعيننا في الدنيا بالصلاح وفي الآخرة بالجنة · إماما : قدوة يقتدى بنا في الخير · الغرفة : البناء العالى · يعبأ بكم يصنع بكم · لولا دعاؤكم : لولا إيمانكم ·

وقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » هذا كلام مستأنف لبيان أوصاف صالحي عباده سبحانه وأحوالهم الدينية والدنيوية بعد أن وصف الكفار بالاعراض عن عبادته،والنفور عن طاعته والسجود له عز اسمه ·

وعباد مبتدأ ، والذين يمشون الخبر ، يقول تعالى : وعباد الرحمن الذي حق لهم الجزاء والمثوبة من ربهم هم المخلصون الذين من صفاتهم انهم يمشون في سكينة ووقار لا يضربون بأقدامهم الأرض كبرا ولا يخفقون بنعالهم أشرا وبطرا كفعل المستكبرين والمتجبرين ، قال تعالى : « ولا تمش في الأرض مرحا إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا » ·

وروى أن عمر رضي الله عنه رأى غلاما يتبختر في مشيته فقال : إن البخترة مشية تكره إلا في سبيل الله · وقد مدح الله أقواما فقال : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا » فاقصد في مشيتك، وليس المراد أن الانسان يمشي كالمريض تصنعا ورياء ، فقد كان النبي

صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم إذا مشي كانما ينحط من صبب وكانما الأرض تطوى له ٠

وری أن عمر رآی شابا یمشي رویدا فقال : مابالك أأنت مريض ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين ، فعلا الرجل بالدرة وأمره أن يمشي بقوة ، والمقصود أن المراد هنا المشي بسكينة ووقار وتواضع ، وأنشدوا :

ولا تمش فوق الأرض الا تواضعا فكم تحتها قوم هموا منك أرفع

وإن كنت في عز وحرز ومنعة فكم مات من قوم هموا منك أمنع

وقال عبد الله بن المبارك عن معمر عن عمر بن المختار عن الحسن البصري في قوله « وعباد الرحمن » الآية قال : إن المؤمنين قوم ذلل ذلت والله منهم الأسماع والأبصار والجوارح حتى يحسبهم الجاهل مرضي وما بالقوم من مرض وإنهم والله لأصحاء ، ولكنهم دخلهم من الخوف مالم يدخل غيرهم ، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة ٠

فقالوا : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ، أما والله ماأحزنهم ماأحزن الناس ، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة ، ولكن أبكاهم الخوف من النار ٠ إنه من لم يتنعز بعزاء الله تقطع نفسه على الدنيا حسرات ، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم ومشرب ، فقد قل علمه ، وحضر عذابه ٠

وقوله : « واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » أي إذا خاطبهم السفهاء وقليلوا الأدب بما يكرهونه « قالوا سلاما » أى سداد من القول يسنمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، بل يتحملون مايرد عليهم من الاذى ٠

وكان صلى الله عليه وسلم لا تزيده شدة الجاهل إلا حلما ، من ذلك مافي الصحيحين قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو

يقسم قسما إذ أتاه ذوالخويصرة ـ رجل من بني تميم ـ فقال : يارسول الله اعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك من يعدل إن لم أعدل ، لقد خبت وخسرت إذا لم أعدل فمن يعدل؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يارسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه ·

ويوم حنين إذ قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ماقسم ، قال رجل ، كما يروي البخاري : والله إن هذه لقسمة ماعدل فيها وما أريد بها وجه الله ، فقلت ـ أي عبد الله ـ : والله لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتيته فأخبرته ، فقال : من لم يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ، رحم الله موسي قد أوذى بأكثر من هذا فصبر ·

وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك أن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة فأكل منها ، فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألها عن ذلك · قالت : أردت لأقتلك · فقال : ماكان الله ليسلطك علي · أو قال على ذلك · قالوا : ألا نقتلها ؟ قال : لا ·

والخلاصة : أن قوله تعالى : «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» مدح لهم بالحلم الكثير ، ومقابلة المسيء بالاحسان والعفو عن الجاهل ، وهذه الخصلة تدل على رزانة عقل المتصف بها ·

قال الله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة » إلى قوله : « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » وقال تعالى : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين » وقال : « والذين هم عن اللغو معرضون » ·

ولما ذكر تعالى مابينهم وبين الخلق ذكر مابينهم وبينه « والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما » المعنى : أنهم يبيتون لربهم ساجدين على

وجوههم قائمين على أقدامهم ، فهم الأيقاظ والناس نيام ، المتوجهون إلى ربهم الشديدوا الحساسية برقابة ربهم ورقابتهم لأنفسهم ، كما قال في الآية الأخرى : « تتجافي جنوبهم عن المضاجع » وقال : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » .

فان من أفضل أنواع التطوعات صلاة الليل الدالة على الاخلاص وتواطىء القلب واللسان ، وأنشدوا في صفة الأولياء :

امنع جفونك أن تذوق مناما ... واذر الدموع على الخدود سجاما

واعلم بانك ميت ومحاسب ... يا من على سخط الجليل أقاما

لله قوم أخلصوا في حبه ... فرضي بهم واختصهم خداما

قوم إذا جن الظلام عليهم ... باتوا هنالك سجدا وقياما

خمص البطون من التعفف ضمرا ... لا يعرفون سوى الحلال طعاما

ثم أخبر تعالى أنهم مع حسن معاملتهم للخلق واجتهادهم في عبادة الخالق وحده لا شريك له يخافون عذابه ويدعونه ويبتهلون إليه في صرفه عنهم . ثم بين أن سبب سؤالهم هذا لوجهين .

الأول : أن عذابها كان غراما ، وفي معناه خمسة أقوال : أحدها : دائما رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني : موجعا رواه الضحاك عن ابن عباس : والثالث : ملحا قاله ابن السائب،وقال ابن جريج : لا يفارق. والرابع : هلاكا قاله أبو عبيدة. والخامس : أن الغرام في اللغة أشد العذاب .

والثاني : أنها ساءت مستقرا ومقاما . المعنى : أنها بئس المنزل مستقرا جهنم وبئس المقام مقامها ، أي أنهم يقولون عن علم ، وإذاً فهم أعرف بعظم قدر مايطلبون فيكون ذلك أقرب إلى النجح .

قال الحسن : قد علموا أن كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم ·

الخامسة من صفاتهم قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما » · اختلف العلمـاء في النفقة التي عناها في هذا الموضع ، وما الاسراف فيها والاقتار ؟ فقال بعضهم : الإسراف ماكان من نفقة في معصية الله ، والاقتار المنع من حق الله · فعن ابن عباس في قوله « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا » الآية قال : هم المؤمنون لا يسرفـون فينفقون في معصـية الله ولا يقترون فيمنعون حقوق الله ·

وقال ابن زيد : لم يسرفوا فينفقوا في معاصي الله كل من أنفق في معصية الله وان قل فهو إسراف ، ولم يقتروا فيمسكوا عن طاعة الله قال : وما أمسك عن طاعة الله وان كثر فهو اقتار ·

وقال بعضهم : الاسراف المجاوزة في النفقة الحد ، والاقتارالتقصير عن الذي لابد منه · وقيل : لا يجيعهم ولا يعريهم ولا ينفق نفقة يقول الناس : قد أسرف ·

وعن يزيد بن حبيب في هذه الآية « والذين إذا أنفقوا » الآية قال : كانوا لا يلبسون ثوبا للجمال ولا يأكلون طعاما للذة ، ولكن كانوا يريدون من اللباس مايسترون به عورتهم ويكتنون به من الحر والقر، ويريدون من الطعام ماسد عنهم الجوع وقواهم على عبادة ربهم ·

والراجح قول من قال : الاسراف في النفقة الذي عناها الله في هذا الموضع ماجاوز الحد الذي أباحه الله لعباده إلى ما فوقه ، والاقتار ماقصر عما أمر الله به ، والقوام : بين ذلك · والخلاصة أنهـم ليسوا بالمبذرين في إنفاقهم فلا ينفقون فوق الحاجة ، ولا ببخلاء على أنفسهم وأهليهم فيقصرون فيما يجب نحوهم ، بل ينفقون وسطا عدلا وخير الأمور أوساطها ، وقد قيل :

بين تبـذير وبخـل رتبـة وكلا هـاذين إن زاد قتـل

وقال الآخر :

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصـد الأمـور ذميم

وقال الآخر :

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذي دعته إليـه من حـلاوة عاجل

وقوله : « الذين لا يدعون مع الله إلهـا آخر » ماذكر في سبب نزول الآية منها : ماروى البخـاري عن مسلم من حـديث ابن مسعود قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة ان يطعم معك ، قلت : ثم أي ؟ قال : إن تزاني بحليلة جارك » ، فانزل الله تصديقها « والذين لا يدعون مع الله الها آخر » الآية ٠

والثاني : أن ناسا من أهل الشرك قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لمـا عملنا كفارة ، فنزلت هذه الآية إلى قوله: « غفور رحيما » أخرجه مسلم من حديث سعيد بن جبير ٠

المعنى : أنه تعالى لمـا فرغ من ذكر إتيانهم بالطاعات شرع في بيان اجتنابهم للمعاصي ، فقال : « والذين لا يدعون مـع الله الها آخـر » فلا يجعلون لله شريكا يوجهون عبادتهم إليه بل يوجهون عبادتهم لله وحده

وقوله : « ولا يقتلون النفس التى حـرم الله إلا بالحق » ، المـراد بالنفس هنا نفس المسلم والكافر المعاهد ، أي لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحـرمتها وعصمتها ، وهـو النفس بالنفس ، والزاني المحصن ، والكافر الذي يحل قتله ٠

لمـا ورد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا اله إلا الله وأني رسول الله إلا باحدى ثلاث ، الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » رواه الجماعة .

وقد اختلف العلماء هل لقاتل المؤمن عمداً من توبة أم لا؟ وممن ذهب إلى أنه لا توبة له من السلف أبو هريرة ، وعبد الله بن عمرو ، وأبو سلمة ، وعبيد بن عمير ، والحسن ، والضحاك بن مزاحم ، نقله عنهم بن أبي حاتم ، واستدلوا بقوله تعالى : « ومن يقتـل مؤمناً متعمـداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدله عذاباً عظيما» .
وروى البخاري عن سـعيد بن جبير قال : اختلف علمـاء الكوفة فرحلت إلى ابن عباس رضي الله عنهما فسألته عنها ، فقال : نزلت هذه الآية « ومن يقتل مؤمناً متعمداً » وهي آخر مانزل ، ومانسخها شيء ، وروى النسائي عنه نحو هذا .

ومن أدلتهم ماورد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقى ربه عز وجل مكتوب بين عينيه آيِسٌ من رحمة الله» رواه أحمد وابن ماجه.

وعن معاوية رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « كل ذنب عسي الله أن يغفره إلا الرجل يموت كافرا أو الرجل يقتل مؤمناً » رواه أحمد والنسائي ، ولأبى داود من حديث أبى الدرداء كذلك .

وروى عن البراء ابن عازب رضي الله عنـه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لزوال الدنيا وما فيها أهون عند الله مِن قتل مؤمن ، ولو أن أهل سمواته ، وأهل أرضه اشتركوا في دم مؤمن لأدخلهم الله تعالى النار » .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال : « لو أن الثقلين اجتمعوا على قتل مؤمن لأكبهم الله على مناخرهم في النار ، وأن الله تعالى حرم الجنة على القاتل والآمر به » ٠

وذهب جمهور العلماء إلى أن التوبة من القاتل عمدا مقبولة واستدلوا بمثل قوله تعالى : «إن الحسنات يذهبن السيئات» ، وقوله: « وهو الذي يقبل التوبة عن عباده » ، وقوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » ، وبقوله : « قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا»
وقالوا أيضا : والجمع ممكن بين هذه الآية وآية النساء فيكون معناه فجزاؤه جهنم إلا من تاب ، لاسيما وقد اتحد السبب وهو القتل، والموجب وهو التوعد بالعقاب ٠

واستدلوا أيضا بالحديث المذكور بالصحيحين عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ثم قال : فمن أصاب من ذلك شيئا فستره فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه » ٠

وبحديث أبى هريرة رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم في صحيحه، وغيره في الذي قتل مائة نفس ٠

وحديث « لله أشد فرحا بتوبة عبده من أحدكم براحلته » الحديث متفق عليه ٠

وذهب جماعة منهم أبو حنيفة وأصحابه والشافعي : إلى ان القاتل عمدا داخل تحت المشيئة ، تاب أو لم يتب ٠

قال ابن القيم رحمه الله : والتحقيق في المسألة أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق حق لله ، وحق المقتول ، وحق الولى،فاذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا ندما على مافعله وخوفا من الله ، وتوبة نصوحا ، سقط حق الله بالتوبة ، وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو ، وبقى حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ، ويصلح بينه وبينه ، فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هذا انتهى ·

وبتقدير دخوله فليس بمخلد في النار خلافا للخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين ، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال برة أو خردلة أو ذرة من الايمان ·

وقوله : « ولا يزنون » أي لا يستحلون الفروج المحرمة بغير نكاح أو ملك يمين ، ولا خلاف في كون الزنا من كبائر الذنوب ·

وقد ورد في تقبيحه والتنفير عنه من الأدلة ما هو معلوم قال تعالى: « ولا تقربوا الزنا » ، والزنا يشتمل على مفاسد منها ·

١ ـ اختلاط الأنساب واشتباهها ، وإذا اشتبه الولد الذي أتت به الزانية أمنه هو أم من غيره ؟ لا يقوم بتربيته ولا يستمر في تعهده ، وذلك يوجب إضاعة النسل وخراب العالم ·

٢ ـ فتح باب الهرج والقيل والقال والمرج والاضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم من حادث قتل مبعثه الاقدام على الزنا ·

٣ ـ إن المرأة اذا اشتهرت بالزنا استقذرها كل ذى طبع سليم فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها إذا كان نقي العرض بخلاف الديوث فلا يهتم بذلك ·

٤ ـ أنه لا يتم السكن والازدواج الذي جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ·

٥ ـ إنه ليس المقصود من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل في ترتيب المنزل ، واعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له قائمة بشئون الأولاد والخدم ، وهـذه المهام لا تتم على وجه الكمال إلا اذا كانت مختصة بالرجـل الواحـد الذي هو زوجها منقطعة له دون غيره من الناس ٠

ومن مضار الزنا أنه قتال للأخلاق الفاضـلة ، وناشر للأمراض الفاتكة فالسيلان والقروح الأكالة والزهري أثر من آثاره الوخيمة وشر من شروره المستطيرة ، هذا نموذج من أضراره في الدنيا ، وأما في الآخرة فاليك ماقاله الجبار جل وعلا ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما ٠ روى عن عبد الله بن عمرو إنه قال : أثام واد في جهنم ٠

وقال عكرمة يلق أثاما أودية في جهنم يعذب فيها الزناة ، وقال قتادة يلق أثاما نكالا كنا نتحـدث أنه واد في جهنم ، وقـد ذكر لنا أن لقمان كان يقول لابنه يابني إياك والزنا،فان أوله مخافة وآخره ندامة٠

وفي الحديث عن أبى أمامة الباهلي مرفوعا وموقوفا أن غيا وأثاما بئران في قعر جهنم أجارنا الله منها بمنه وكرمه ، وقال السدى : يلق أثاما جزاء ٠

وروى البخاري في حديث منام النبي صلى الله عليه وسلم عن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل وميكائيل ، قال : فانطلقنا فاتينا على مثل التنور أعلاه ضيق واسفله واسع فيه لغط وأصوات ٠

قال فاطلعنا فيه فاذا فيه رجال ونساء عراة ، فاذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم فاذا تاهم اللهـب ضَوْضَوا ، أي صاحوا من شدة حره ،

فقلت من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الزناة والزواني ، إذافهمت ذلك فاعلم أن له أسبابا : منها دخول الرجال الأجانب على النساء.

والانفراد بهن من دون محرم لهن في بيت أو سيارة أو نحو ذلك .

ومنها خروج النساء من بيوتهن متبرجات متعطرات .

ومن الأسباب تأخير زواج من بلغ من الشبان والشابات .

ومن الأسباب إعوجاج الأزواج وخيانتهم بالاتصال بالفاجرات من النساء ومن ذلك النظر الى الأجنبيه .

قال الناظم رحمه الله :

ألا من له في الدين والعلم رغبة … ليصغ بقلب حاضر مترصد

ويقبل نصحا من شفيق على الورى … حريص على زجر الأنام عن الردى

فطرف الفتى يا صاح رائد فرجه … ومتعبه فاغضضه ما استطعت تسعد

فمن مد طرفا أو زنا يزن أهله … فعف يعفوا قاله خير مرشد

فلو لم يكن فعل الزناء كبيرة … ولم يخش من عقباه ذو اللب في غد

لكان حريا أن يصون حريمه … بهجر الزنا خوف القصاص كما ابتدى

ومثل الزنا بل أعظم منه وأشد ، اللواط والعياذ بالله الذي عذب الله عليه أمة بأسرها ، واستأصلهم به حين قال نبيهم : إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين ، إإنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون في ناديكم المنكر ، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا : إئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين .

وقد اختلف العلماء في حد اللوط فقيل : إن عقوبته اغلظ من عقوبة الزنى وعقوبته القتل على كل حال محصنا كان أو غير محصن ، وإلى

هذا القول ذهب أبو بكر الصديق ، وعلى ابن أبى طالب ، وخالد بن الوليد وعبـد الله بن الزبير ، وعبـد الله بن عبـاس ، وخالد بن زيد ، بن معمر والزهرى وربيعة بن أبى عبد الرحمن ، ومالك واسحق بن راهويه ، والامام أحمد في أصح الروايتين عنه والشافعي في أحد قوليه

قال أصحاب هذا القول وهم جمهور الأمة وحكاه غير واحد إجماعا للصحابة ، قاله ابن القيم وقالوا : ليس في المعاصي مفسدة أعظم من مفسدة اللواط ، وهي تلى مفسدة الكفر ، وربما كانت أعظم من مفسدة القتل ، ولم يبتل الله تعالى بهـذه الكبيرة قبـل قوم لوط أحـدا من العالمين وعاقبهم عقوبة لم يعاقب بها أمة غيرهم ، وجمع عليهم أنواعا من العقوبات من الاهلاك ، وقلب ديارهم عليهم ، وخسف بهم ورجمهم بالحجارة من السماء ، وطمس أعينهم وعذبهم وجعل عذابهم مستمرا ، فنكل بهم نكالا لم ينكله بامة سواهم .

وذلك لعظم مفسدةهذه الجريمة التي تكاد الأرض‌تميد من جوانبها إذا عملت عليها وتهرب الملائكة إلى أقطـار السموات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم وتعج الأرض إلى ربها تبارك وتعالى ، وتكاد الجبال تزول عن أماكنها .

وقتل المفعول به خير له من وطئه ، فانه إذا وطئه الرجل قتل قتلا لا ترجى له الحياة معه بخلاف قتله ، فانه مظلوم شهيد ، وربما ينتفع به في آخـرته .

قالوا : والدليل على هذا أن الله سبحانه جعل حد القاتل إلى خيرة الولى إن شاء قتل وإن شاء عفا ، وحتم قتل اللوطى حدا ، كما أجمع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودلت عليه سنة رسول الله صلى لله عليه وسلم الصحيحة الصريحة التى لا معارض لها .

وقد ثبت عن خالد بن الوليد أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلا

ينكح كما تنكح المرأة ، فكتب إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، فاستشار أبو بكر الصديق الصحابة رضي الله عنهم ، فكان على بن أبى طالب أشدهم قولا فيه فقال : ما فعل هذا إلا أمة من الأمم واحدة ، وقد علمتم مافعل الله بها أرى أن يحرق بالنار • فكتب أبو بكر إلى خالد فحـرقه •

وقال عبد الله بن عباس : ينظر إلى أعلا ما في القرية فيرمى اللوطى منها منكسا ثم يتبع بالحجارة وأخذ ابن عباس هذا الحد من عقوبة الله للوطية من قوم لوط •

وابن عباس هو الذي روى عن النبي صلى الله عليه وسـلم « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أهل السنن ، وصححه ابن حبان وغيره •

واحتج الامام أحمد بهذا الحديث وإسناده على شرط البخاري •
قالوا : وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله من عمل عمل قوم لوط ، لعن الله من عمل عمل قوم لوط » •

وأطبق أصحاب رسول الله صلىالله عليه وسلم علىقتله لم يختلف منهم فيه رجلان ، وإنما اختلف أقوالهم في صفة قتله •

قالوا : ومن تأمل قوله سبحانه « ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا » وقوله في اللواط « أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين » تبين له تفاوت مابينهما فإنه سبحانه نكر الفاحشة في الزنى ، إي هو فاحشة من الفواحش ، وعرفها في اللواط ، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة ، أي أتأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحـد •

ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب ، وتنبو عنه الأسماع ، وتنفر منه أشد النفور ، وهو إتيان الرجل الرجل مثله ينكحه كما ينكح الأنثى ، فقال : « إنكم لتأتون الرجال » ٠

ثم نبه على استغنائهم عن ذلك ، وأن الحامل لهم عليه ليس إلا مجرد الشهوة ، لا الحاجة التى مال الذكر إلى الأنثى من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع ، وحصول المودة والرحمة التى تنسي المرأة لها أبويها وتذكر بعلها ، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات ٠

وتحصين المرأة وقضاء الوطر ، وحصول علاقة المصاهرة ، وقيام الرجل على النساء ، وخروج أحب الخلق إلى الله من جماعهن كالأنبياء والمؤمنين ، ومكاثرة النبى صلى الله عليه وسلم الأنبياء بأمته ، إلى غير ذلك من مصالح النكاح ، والمفسدة التى في اللواط تقاوم ذلك كله وتربى عليه بما لا يمكن حصره وفساده ٠

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليها الرجال وقلبوا الطبيعة التى ركبها الله في الرجال ، وهي شهوة النساء دون الذكور فقلبوا الأمر وعكسوا الفطرة والطبيعة ، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء ، ولهذا قلب الله عليهم ديارهم فجعل عاليها سافلها ، وكذلك قلبوا هم ونكسوا في العذاب على رءوسهم ٠

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بان حكم عليهم بالاسراف ، وهو مجاوزة الحد ، فقال « بل أنتم قوم مسرفون » ٠ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله « ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث » ٠

ثم أكد عليهم الذم بوصفين في غاية القبح فقال : « إنهم كانوا قوم سوء فاسقين » ٠ وسماهم مفسدين في قول نبيهم « رب انصرنى على

القوم المفسدين » . وسماهم ظالمين في قول الملائكة « إنا مهلكوا أهـل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين » . ولـما جادل فيهم خليل الرحمن الملائكة وقد أخبروه باهلاكهم ، قيل له « يا ابراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » .

وتأمل خبث اللوطية وفرط تمردهم على الله ، حيث جاءوا نبيهم لوطا لـما سمعوا بأنه قد طرقه أضياف هم من أحسن البشر صورا ، فأقبل اللوطية إليه يهرعون ، فلما رآهم قال لهم : ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفى أليس منكم رجل رشيد ؟! فردوا عليه ـ ولكن رد جبار عنيد ـ : لقد علمت مالنا في بناتك من حق وإنك لتعلم مانريد .

فنفث نبى الله نفثه مصدور خرجت من قلب مكروب ، فقال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ، فكشف له رسل الله عن حقيقة الحال ، وأعلموه أنهم ممن ليس يوصل إليهم ولا إليه بسببهم فلا تخف منهم ولا تعبأ بهم وهون عليك .

فقالوا « يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك وبشروه » بمـا جاءوا به من الوعد له ومن الوعيد المصيب لقومه فقالوا فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك أنه مصيبها ما أصابها إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » .

فوالله ماكان بين إهلاك أعداء الله ونجاة نبيه وأوليائه إلا ما بين السحر وطلوع الفجر ، وإذا بديارهم قد اقتلعت من أصولها ورفعت نحو السماء حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب ونهيق الحمير ، فبرز المرسوم الذي لا يرد من عند الرب الجليل على يدي عبده ورسوله جبرائيل بأن يقلبها عليهم ، كما أخبر به في محكم التنزيل .

فقال عز من قائل : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل » فجعلها آية للعالمين وموعظة للمتقين ونكالا وسلفا لمن شاركهم في أعمالهم من المجرمين » انتهى من كلام ابن القيم رحمه الله باختصار ·

وقال أيضا رحمه الله : وللمعاصي من الآثار المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله ، فمنها الطبع على القلب إذا تكاثرت حتى يصير صاحب الذنب من الغافلين ، كما قال بعض السلف في قوله تعالى « كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون » قال : هو الذنب بعد الذنب ·

وقال الحسن : هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب ·

وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم ·

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانا ، ثم يغلب حتى يصير طبعا وقفلا وختما فيصير القلب في غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد ·

ومنها فساد العقل فإن العقل نور ، والمعصية تطفىء نور العقل ، ولابد إذا أطفىء نوره ضعف ونقص ·

وقال بعض السلف : ما عصي الله أحد حتى يغيب عقله · وهذا ظاهر فإنه لو حضر عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى وتحت قهره ، وهو مطلع عليه ، وفي داره على بساطه ، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ، وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الايمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه والذي يفوته بالمعصية من خير

الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف مايحصل له من السرور واللذة بها، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟

ومنها : أن المعصية تورث الذل ، فإن العز كل العز في طاعة الله ، قال تعالى : « من كان يريد العـزة فلله العـزة جميعا » أي فليطلبها بطاعة الله ، فإنه لا يجدها إلا في طاعة الله تعالى ، وكان من دعاء بعض السلف : اللهم أعزني بطاعتك ، ولا تذلني بمعصيتك .

ومنها : أنها سبب لهوان العبد على ربه ، وسقوطه من عينه .

قال الحسن : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم ، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، قال تعالى : « ومن يهن الله فمـا له من مـكرم » .

ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب الذنوب حتى تهون عليه وتصغر في قلبه ، وذلك علامة الهلاك ، فإن الذنب كلما صـغر في عـين العبد عظـم عنـد الله .

وقد ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود ، قال : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها في أصل جبل ، يخاف أن يقع عليه ، وكان الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا ، فطار .

ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يكن يعلم أنه عملها ، فيقول : يافلان ، عملت كذا وكذا .

وهذا الضرب من الناس لا يعافون ، وتسد عليهم طريق التوبة ، وتغلق عنهم أبوابها في الغالب كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « كل

أمتي معافي إلا المجاهرون » ، وأن من الإجهار أن يستر الله على العبد ، ثم يصبح فيفضح نفسه ويقول : يافلان ، عملت اليوم كذا وكذا فيهتك نفسه ، وقد بات يستره ربه ٠

قيل للقمان الحكيم : أي الناس شر ؟ قال : الذي لا يبالى إذا رآه الناس مسيئا ٠

ومنها : أن المعاصي تزرع أمثالها ويولد بعضها بعضا ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف : ان من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وأن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها٠
فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى الى جنبها : اعملني أيضا ، فاذا عملها قالت الثانية كذلك ، وهلم جرا فيتضاعف الربح وتتزايد الحسنات ، وكذلك كانت السيآت أيضا حتى تصير الطاعات والمعاصي هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة ٠

فلو عطل المحسن الطاعات لضاقت عليه نفسه وضاقتعليه الأرض بما رحبت وأحس من نفسه بأنه كالحوت اذا فارق الماء حتى يعاودها فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقتَ عليه نفسه وضاق صدره وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها، حتى إن كثيرا من الفساق ليواقع المعصية مع غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها إِلا لما يجد من الألم بمفارقتها ٠

ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إِليها أزا وتحرضه عليه ، وتزعجه عن فراشه ومجلسه اليها ٠

ولا يزال الآخر يألف المعصية ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله إليه الشياطين فتؤزه إِليها أزا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد فكانوا من أعوانه ، والآخر قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه ٠

ومنها : ظلمة يجدها في قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم اذا أدلهم ، فتصير ظلمة المعصية لقلبة كالظلمة الحسية لبصره ، فان الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر كأعمى خرج في ظلمة الليل يمشي وحده وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر في العين ، ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سواد في الوجه حتى يراه كل أحد ٠

قال عبد الله بن عباس : إن للحسنة ضياء في الوجه ، ونورا في القلب ، وسعة في الرزق ، وقوة في البدن ، ومحبة في قلوب الخلق ٠

ومنها : أن المعاصي توهن القلب والبدن ، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر بل لاتزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية ، وأما وهنها للبدن فان المؤمن قوته من قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه ٠

وأما الفاجر فانه وإن كان قوى البدن فهو أضعف شيء عند الحاجة فتخونه قوته أحوج مايكون إلى نفسه ، فتأمل قوة أبدان فارس والروم وكيف خانتهم أحوج ماكانوا إليها ، وقهرهم أهل الايمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ٠

ومنها : أن المعاصي تمحق العمر ، اذ أن المعاصي كلها شرور ، وليس من شك في أن التبذير مثلا مضيعة للمال الذي هو عصب الحياة ، والبخل يحرم الشخص ماتنطلبه النفس ، وهذا وذاك يؤثر على البدن تاثيرا شديدا ٠

ومنها : حرمان العلم ، فان العلم نور يقذفه الله في القلب ، والمعصية على الضد من ذلك فتطفىء ذلك النور ٠

ومنها أيضا : شماتة الأعداء ، فإن المعاصي كلها أضرار في الدين والدنيا وهذا مما يفرح العدو ويسيء الصديق ، كما أن فيها عقوبتين في الدنيا إذا أضرت بالغير فلابد أن يثأر لنفسه ، كما قيل :

من سالم الناس يسلم من غوائلهم وعاش وهو قرير العين جذلان

وعقوبة من الله كما قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » ، وعقوبة الآخرة أعظم كما قال سبحانه : « ومن يفعل ذلك يلق آثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا » .

ومنها : قسوة الأمراء ، فقد ذكر ابن أبى الدنيا من حديث عمار بن يسار وحذيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله عز وجل إذا أراد بالعباد نقمة أمات الأطفال ، وأعقم الأرحام أرحام النساء ، فتتنزل النقمة وليس فيهم مرحوم » .

وذكر عن مالك بن دينار قال : رأيت في الحكمة وفي نسخة قرأت يقول الله عز وجل : « أنا الله مالك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا انفسكم بسبب الملوك ولكن توبوا إلي أعطفهم عليكم » .

وفي مراسيل الحسن : إذا أراد الله بقوم خيرا جعل أمرهم إلى حلمائهم وفيئهم إلى سمحائهم وإذا أراد الله بقوم شرا جعل أمرهم إلى سفهائهم وفيئهم عند بخلائهم .

ونظر بعض أنبياء بني اسرائيل الى مايصنع بهم بختنصر ، فقال : بما كسبت أيدينا سلطت علينا من لا يعرفك ولا يرحمنا ، ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها تحدث في الأرض أنواعا من الفساد في المياه والهواء والزرع والثمار والمساكن ، قال تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » .

وقوله : « يضاعف له العذاب يوم القيامة » أي يكرر عليه ويغلظ ويخلد فيه ، أي يدوم العذاب مهانا ، أي حقيرا ذليلا ٠

وقوله : « إلا من تاب وآمن وعمل صالحا » ٠ قال قتادة : إِلاَّ مَن تاب من ذنبه وآمن بربه وعمل صالحا فيما بينه وبين ربه ، وقوله : « فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات » اختلف في كيفية هذا التبديل وفي زمان كونه ٠

فعن ابن عباس في الآية قال : هم المؤمنون كانوا من قبل ايمانهم على السيآت فرغب الله بهم عنالسيآت فحولهم إلى الحسنات،فأبدلهم مكان السيآت الحسنات ٠

وقال عطاء بن أبى رباح : هذا في الدنيا يكون الرجل على صفة قبيحة ، ثم يبدله الله بها خيرا ٠

وقال سعيد بن جبير : أبدلهم الله بعبادة الأوثان عبادة الرحمن ، وأبدلهم بقتال المسلمين قتال المشركين ، وابدلهم بنكاح المشركات نكاح المؤمنات ٠

وقال الحسن البصرى : أبدلهم الله بالعمل السيء العمل الصالح ، وأبدلهم بالشرك اخلاصا ، وأبدلهم بالفجور احصانا ، وبالكفر اسلاما٠ وهذا قول أبى العالية ، وقتادة ، وجماعة آخرين ٠

وقيل : إن تلك السيآت الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات ، وما ذاك الا لأنه كلما تذكر مامضي ندم واسترجع واستغفر فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار ، فيوم القيامة وان وجده مكتوبا عليه فانه لا يضره ، وينقلب حسنة في صحيفته ، كما ثبتت بذلكالسنة وصحت به الآثار المروية عن السلف رضي الله عنهم ٠

فعن أبى ذر رضي الله عنـه ، قال : قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « إنى لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار ، وآخر أهـل الجنة دخولا إلى الجنة ، يؤتي برجل فيقول : نحوا عنه كبار ذنوبه وسلوه عن صغارها ، قال : فيقـال له : عمـلت يوم كذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا كذا وكذا ؟ فيقول : نعم · لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئا ، فيقال : فإن لك بكل سيئة حسنة ، فيقـول : يارب ، عمـلت اشياء لا أراها ها هنا ، قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه » انفرد باخراجه مسلم ·

وعن أبى مالك الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا نام ابن آدم قال الملك للشيطان : أعطني صحيفتك،فيعطيه إياها، فما وجد في صحيفته من حسنة محابها عشر سيآت من صحيفة الشيطان وكتبهن حسنات ، فإذا أراد أحدكم أن ينام فليكبر ثلاثا وثلاثين تكبيرة، ويحمد أربعا وثلاثين تحميده ، ويسبح ثلاثا وثلاثين فتلك مائة » ·

وقوله : « وكان الله غفورا رحيما » غفورا لمن تاب وأناب ، يغفـر الذنوب رحيما بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم ، ثم وفقهم لهـا ، ثم قبلها منهم ·

ثم أخبر تعالى عن عموم رحمته بعباده وأنه من تاب منهم تاب عليه من أي ذنب كان جليلا أو حقيرا ، كبيرا أو صغيرا ·

فقال : « ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا » أي فليعلم أن توبته في غاية الكمال لأنها رجوع من المعصية إلى الطاعة التي هي عين سعادة الانسان وفلاحه ، والتوبة واجبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين ربه لا تتعلق بآدمي فلها ثلاثة شروط :

الأول : الاقلاع عن المعصية بأن يفارقها فورا ·

والثاني الندم يتأسف كيف صدرت منه ويحزن على ذلك •

والثالث : العزم أن لا يعود إلى المعصية أبدا •

فإن فقد أحد الشروط الثلاثة لم تصح توبته ، وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة ، الثلاثة المتقدمة ، وأن يبرأ من حق صاحبها ، فإن كانت مالا أو نحوه رده إليه ، وإن كانت حد قذف ، ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه ، وإن كانت غيبة استحله منها إن كان عاقلا حليما يغلب على الظن أنه إذا جاءه أخوه المسلم نادما تائبا متنصلا عفا عنه وسامحه وإلا فليستغفر له •

لما ورد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنه من كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته ، تقول : اللهم اغفر لنا وله » •

وقوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما » ، أي لا يحضرون الزور القول والفعل المحرم ، فلا يشهدون المجالس المشتملة على الأقوال المحرمة أو الأفعال المحرمة ، كالخوض في آيات الله بالباطل والجدل •

قال تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم » ، وكذا يجتنبون مجالس الشراب المحرم ومجالس الغيبة والنميمة، والسبوالقذف والاستهزاء والسخريةوالغناء المحرممن إنسانأو من آلة ولا يشهدون المجالس المشتملة على الصور المحرمة وفرش الحرير، ومجالس التلفزيون مقبرة الأخلاق والفيديو معلم الفساد والكرة ، وشهادة الزور داخلة في قول الزور ، وهي الكذب متعمدا على غيره •

كما في الصحيحين عن أبي بكر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثا ، قلنا : بلى يارسول الله ، قال : إلشرك بالله ، وعقوق الوالدين ـ وكان متكئا فجلس فقال : ألا وقول ألا وشهادة الزور » فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت •

وكان عمر بن الخطاب يجلد شاهد الزور أربعين جلدة ، ويسخم وجهه ، ويطوف به في السوق ، ومن مضار شاهد الزور أنه يسيء إلى نفسه لأنه باع آخرته بدنياه وأسقط مروأته وأضاع منزلته وكرامته ، وسجل على نفسه عارا لا يزول وخـزيا لا يمحى ، وألقى نفسـه في العذاب إن لم يتب ، وأساء إلى من شهد عليه ، أهانه وأضاع حقه ٠

وقطع صلة الأخاء التي تجب بين المسلم والمسلم ، وظلمه وخذله وخالف فيه قوله صلى الله عليه وسلم : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ٠ بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم » وأساء إلى من شهد له وأضر به حيث يريد أن ينفعه ، أعانه على الظلم وأوقعه في الحرام ، وعرضه لمقت الله وغضبه وصيره ذليلا إن لم يتب بين يدى الجبار الحكيم العادل الذى يأخذ للقوى من الضعيف وينصر المظلوم من ظالمه يوم الفزع الأكبر ، والهول الأعظم ، « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » ٠

وأساء شاهد الزور إلى القاضي ، أتعبه وأضاع وقته وطمس عليه معالم الحق ، وأساء إلى الأمة بزلزلة الحقوق فيها وعـدم الاطمئنان عليها ، وبالتالى فإن كان الحامل لشاهد الزور على الوصف الذميم وذلك الموقف المخجل المعيب مالا يأخذه ممن شهد له فهو حرام لا بركة فيه بل هو وبال عليه في الدنيا وعذاب له في الآخرة وكل لحم نبت من حرام ، فالنار أولى به وإن كان الحامل له على الزور صداقة أو طلب رضاه ، فبئست هذه الصداقة التي تؤدي إلى خسرانه وإيقاعه في سخط الله وغضـبه ٠

قالت عائشة رضي الله عنهـا : سمعت رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط النـاس كفاه الله مئونة الناس ، ومن التمس سخط الله برضا الناس وكله الله إلى الناس » ،

وشاهد الزور قد أرضي صاحبه وأغضب مولاه ، نسأل الله أن يعصمنا وإخواننا المسلمين مما يغضب الجبار ، إنه القادر على ذلك .

وقوله : « وإذا مروا باللغو مروا كراما » أي مروا به على سبيل الاتفاق من غير قصد « مروا كراما » أي معرضين عنه غير ملتفتين إليه مكرمين أنفسهم عن الوقوف والخوض فيه ، ومن ذلك الكناية عما يستهجن التصريح به ، وقال الباقر : إذا ذكروا الفروج كنوا عنها .

وقيل : الشتم والأذى ، واللغو ، كل ساقط من قول أو فعل .
وقيل : لا يحضرون الزور إذا اتفق مرورهم به ، مروا ولم يتدنسوا بشيء .

وقوله : « والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا» وهذه أيضا من صفات المؤمنين ، المعنى أنهم إذا وعظوا بالقرآن والأدلة التي نصبها الله لهم نظروا فيها وتفكروا في مقتضاها ولم يقعوا عليها صما كأنهم لم يسمعوها وعميانا كأنهم لم يروها لكنهم سمعوها وأبصروها وتدبروها وانتفعوا بها،فحالهم عندسماعهم له كما قال تعالى « إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكرو بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون » .

وقال تعالى : « إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا » .

الخلاصة ، أنهم يقابلونها بالقبول والافتقار اليها والانقياد والتسليم لها وتجد عندهم آذانا سامعة وقلوبا واعية فيزداد بها إيمانهم ويتم بها إيقانهم ، وتحدث لهم نشاطا ويفرحون بها سرورا واغتباطا .

وفي هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتحولوا عما كانوا عليه بل يستمرون على كفرهم

وعصيانهم وجهلهم وضلالهم فكأنهم صم لا يسمعون وعمي لا يبصرون.
وقوله : « والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين » ، أي يسألون الله لأزواجهم وذرياتهم أن يهديهم للاسلام فيعملوا بطاعته فتقرأعينهم بهم في الدنيا والآخرة .

قال عكرمة : لم يريدوا بذلك صباحة ولا جمالا ، ولكن أرادوا أن يكونوا مطيعين لله .

وسئل الحسن البصري عن هذه الآية فقال : أن يري الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميه طاعة الله ، لا والله لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا وولد ولد أو أخا أو حميا مطيعا لله عزوجل وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم عرفناهم من هممهم وعلو مرتبتهم أن دعاءهم لذرياتهم في صلاحهم فإنه دعاء لأنفسهم لأن نفعه يعود عليهم ، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم ، فقالوا : هب لنا ، بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين لأن صلاحهم يكون سببا لصلاح كثير ممن يتعلق بهم وينتفع بهم .

وقوله : « واجعلنا للمتقين إماما » أي هداة مهتدين دعاة إلى الخير فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم وأن يكون هداهم متعديا إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثوابا وأحسن مآبا .

ولهذا ثبت في صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، ولد صالح يدعو له ، أوعلم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية»

وقيل : أئمة يقتدى بنا في الخير واقامة مراسيم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعلم ، وهذه الدرجة العالية التي سألوها هي درجة الصديقين والكمل من عباد الله الصالحين وهي درجة الامامة في الدين

وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم ، يقتدىبأفعالهم ويطمئن لأقـوالهم ٠

ويسير أهل الخير خلفهم فيهدون ويهتدون ، ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعا بما لا يتم إلا به ، وهذه الدرجة ، درجة الامامة في الدين لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهـدون بامرنا لمـا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون » ٠

فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال الصبر على طاعة الله والصبر عن معصيته ، والصبر على أقدار الله المؤلمة ، ومن العلم التام الذي يوصل إلى درجة اليقين خيرا كثيرا وعطاء جزيلا ، وأن يكونوا في أعلا مايمكن من درجة الخلق بعد الرسل عليهم الصلاة والسلام ٠

ولمـا ذكر تعالى من أوصاف عبـاده المؤمنين ماذكر من الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ذكر إحسانه إليهم بقوله : « أولئك يجزون الغرفة بما صبروا » الاشـارة إلى المتصـفين بما فصـل ، أي أولئك المتصفون بصفات الكمال الموسومون بفضـائل الأخـلاق والآداب ، يجزون المنازل الرفيعة والدرجات العالية بصبرهم على فعل الطاعات واجتناب المنكرات ٠

روى الترمذي في جامعة من حـديث عبد الرحمـن بن اسحاق عن النعمان بن سعد عن على رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة غرفا يرى ظهورها من بطونها وبطونها من ظهورها ، فقام أعرابي فقال : يا رسول الله ، لمن هي ؟ قال : لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام » ٠

وروى البيهقي من حـديث حفص بن عمـرو بن قيس الملائي عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن في الجنة لغرفا ، فاذا كان ساكنها فيها لم

يخف عليه ماخلفها وإذا كان خلفها لم يخف عليه مافيها ، قيل لمن هي يا رسول الله قال : « لمن أطاب الكلام وواصل الصيام وأفشي السلام وصلى والناس نيام » ٠

وقال ابن القيم رحمه الله في ذلك :

غرفاتها في الجو يُنظرُ بطْنُها ... مِن ظهرِها والظهرُ مِن بُطْنانِ

سكانُها أهلُ القيام مع الصيام وطِيّبِ الكلماتِ والاحسان

شيئآن خالص حقه سبحانه ... وعبيدُه أيضا لهم شيئآن

وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب ، لتفاضل مابينهم ، قال يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ، قال : بلى ، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بربهم وصدقوا المرسلين » متفق عليه ٠

وقوله تعالى : « ويلقون فيها تحية وسلاما » ، أي ويبتدرون فيها بالتحية والاكرام ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ٠

ونحو هذه الآية « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » ، وقال : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » ٠

ثم بين تعالى أن هذا النعيم دائم لهم لا ينقطع فقال : « خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما » أي مقيمين فيها لا يظعنون ولا يموتون حسنت منظرا وطابت مقيلا ، ونحو هذه الآية قوله تعالى : « فأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك » ٠

فعلى العاقل اللبيب أن يسعى بجد واجتهاد في المؤهلات ويتهيأ لمثل هذه الغرف العالية الحسنة بما سبق من الأعمال الفاضلة المستحسنة ولا يقع في مجرد الأماني التي هي كما قيل : حلم المستيقظ وسلوة المحزون ، وقديما قيل في الحث على طلب العلى :

بقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلى سهر الليالي

وقال أبو الطيب :

ذريني أنل ما لا ينال من العلى
فصعب العلى في الصعب والسهل بالسهل
تريدين لقيان المعالي رخيصة ولابد دون الشهد من إبر النحل

قال بعض العلماء : الانسان في هذه الدار مسافر ، والدار دار ممر لا دار مقر وبطن أمه مبدأ سفره ، والآخرة مقصده وزمان حياته مقدار مسافته ، وسفره منازله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله وأنفاسه خطاه ، ويسار به سير السفينة براكبها ، كما قيل :

وانا لفى الدنيا كركب سفينة تظن وقوفا والزمان بها يجرى

وقال الآخر :

رأيت أخا الدنيا وان كان ثاويا أخا سفر يسرى به وهو لا يدري

وبعد أن شرح صفات عباده المتقين وأثنى عليهم ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم قل يا محمد لهؤلاء الذين أرسلت إليهم اي شيء يعتد بكم وأي شيء يصنع بكم ربى لولا عبادة من يعبده منكم وطاعة من يطيعه منكم .

وعن ابن عباس قوله « مايعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم » يقـول لولا إيمانكم وأخبر الله الكفار أنه لا حاجة له بهم ، إذ لم يخلقهـم مؤمنين ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الايمان كما حببه إلى المؤمنين ٠

وقوله « فقدكذبتم » أيها الكافرون أيفسوف يكون تكذيبكم لزاما لكم ، يعنى مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخـرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر كما فسره بذلك عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد والضحاك وقتـادة والسدى وغيرهم وقال الحسن البصري فسوف يكون لزاما أي يوم القيـامة ولا منافاة والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

مما يفهم من الآيات الكريمات آيات الدرس آية ٦٣ ـ ٧٧ :

(١) إثبات صفة الرحمـة ٠

(٢) الاضافة إلى اسمه الرحمن تقتضي التشريف كبيت الله ٠

(٣) الحث على المشي بسكينة ووقار ٠

(٤) الحث على الحـلم ٠

(٥) الحث على حسن الأدب لأن الله وصف المذكورين بذلك ٠

(٦) الحث على التواضع ٠

(٧) النهي عن الكبر والعجب ٠

(٨) الحث على قيام الليل ٠

(٩) الحث على العفو والصفح ٠

(١٠) إثبات جهنم ٠

(١١) الحث على التعوذ منها ٠

(١٢) الحث على الجمع بين الاحسان في عبادة الخالق وخـوف عـذابه ٠

(١٣) إن عذاب جهنم ملازم دائما غير مفارق ٠

(١٤) أن جهنم بئس المستقر والمقام ٠

(١٥) الحث على التوسط في الانفاق بين الاسراف والتبذير اقتداء بمـن مدحهم الله ٠

(١٦) تحريم الشرك بالله ٠

(١٧) الوعيد الشديد لمن أشرك بالله ٠

(١٨) تحريم قتل النفس التي حرم الله ٠

(١٩) الوعيد الشديد الأكيد لقاتلها ٠

(٢٠) تحـريم الزنا ٠

(٢١) الوعيد الشديد للزانى ٠

(٢٢) الحث على التوبة ٠

(٢٣) أن التوبة إذا صحت مقبولة ٠

(٢٤) الحث على الايمان ٠

(٢٥) الحث على إصلاح العمل ٠

(٢٦) دليل على حلم الله وعفوه وكرمه حيث قبل توبة من تاب ٠

(٢٧) الحث على تكميل التوبة وتخليصها من شوائب الأغراض الفاسـدة ٠

(٢٨) الحث على البعد عن مجالس الزور ٠

(٢٩) التحذير من قول الزور وفعله ٠

(٣٠) التحذير من شهادة الزور ٠

(٣١) الحث على إكرام النفس بالابتعـــاد عن سمـــاع اللغـو وما لا خـير فيه ٠

(٣٢) التعريض بما عليه الكفار والمنافقون الذين إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتحولوا عما هم عليه ، بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم ، وجهلهم وضلالهم ٠

(٣٣) الحث على سؤال الله ماتقر به العين من الأزواج والأولاد ٠

(٣٤) الحث على سؤال الله الامامة في الدين ٠

(٣٥) العمل بالأسباب التي جعلها الله طريقا إليه ٠

(٣٦) الحث على التقوى ٠

(٣٧) الحث على مقارنة الأتقياء ٠

(٣٨) دليل على كرم الله وجوده ، يوفق للأعمال الصالحة ، ويثيب عليها الثواب الجزيل ويشكر على ذلك ٠

(٣٩) أن يجزيهم المنازل الرفيعة ٠

(٤٠) الحث على الصـبر ٠

(٤١) أنهم يلقون فيها تحية وسلاما ٠

(٤٢) أن نعيمهم دائم ٠

(٤٣) أن الله خلق الخلق لعبادته ٠

(٤٤) إن الله لا يعبأ بمن لا يوحده ولا يؤمن به ٠

(٤٥) إثبات الربوبية ٠

(٤٦) أن المدار على عبادة الله وتوحيده ٠

(٤٧) تهديد للكفار ٠

(٤٨) مدح الجنة وأنها نعم المقر والمقام ٠

(٤٩) الحث على محاسن الأعمال ٠

(٥٠) الابتعاد عن الجهال والأرذال ٠

(٥١) إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

(٥٢) الرد على من قال : إن القرآن كلام محمد صلى الله عليه وسلم

(٥٣) الحث على الاقتصاد في الأمور ٠

(٥٤) الابتعاد عن التقتير ؛

(٥٥) إثبات صفة الكلام لله ٠

(٥٦) إن من يفعل المعاصي المتقدمة يضاعف له العذاب ٠

(٥٧) أنه يخلد فيــه مهانا ٠

(٥٨) إثبات البعث بعد الموت ٠

(٥٩) إثبات الحشر والجزاء على الأعمال ٠

(٦٠) اثبــات الجنــة ٠

(٦١) أن أهلها خالدون فيها ٠

(٦٢) ان الجنة في أعلى ٠

(٦٣) إن من تاب وآمن وعمل عملا صالحا يبدل الله سيآته حسنات

(٦٤) إثبات الألوهية ·

(٦٥) إثبات صفة المغفرة لله ·

(٦٦) الرد على الجهمية ·

(٦٧) الرد على الجبرية ·

(٦٨) إن الغرف ماتنال إلا إذا وفق الله العبد للأعمال الجليلة ·

(٦٩) لطف الله بخلقه حيث بين لعباده الأسباب الموصلة إلى مايرضيه ·

(٧٠) إن أولئك الصفوة الأخيار إذا ذكروا بآيات الله يسمعون مايذكرون به فيفهمونه ويرون الحق فيتبعونه ·

(٧١) الحث على العفو عن المسيء والله أعلم ·

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ·

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبــارك وتعــالى :
« الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل • له مقاليد السموات والأرض والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون • قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون • ولقد أوحى إليك والى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخــاسرين • بل الله فاعبد وكن من الشاكرين • وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون •

ونفخ في الصور فصعق من السموات ومن في الأرض إلا من شــاء الله ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون • وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون • ووفيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون •

وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتهــا ألم يأتكم رســل منكم يتلون عليــكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هــذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العــذاب على الــكافرين • قيل ادخــلوا أبواب جهنم خالدين فيهــا فبئس مثوى المتــكبرين •

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين • وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء

فنعم أجر العاملين • وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق • وقيل الحمد لله رب العالمين .

المفـردات :

على كل شيء وكيل : على كل شيء قيم بالحفظ والكلاءة ، مقاليد : مفاتيح ليحبطن : ليبطلن ويذهب ولا يكون له أثر ، وماقدروا الله حق قدره : ماعظموه حق عظمته ، الصور : القرن الذي ينفخ فيه ، صعق : غشي عليه ، ينظرون : ينتظرون أمر الله فيهم ، أشرقت : أضـاءت ، الكتاب : كتاب الأعمال ، زمرا : أفواجا بعضها إثر بعض ، خزنتها : قوامها ، ينذرونكم : يخوفونكم ، حقت : وجبت كلمة العذاب : قوله تعالى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين المثوى : المصير ، والمأوى: السكن ، نتبوأ : ننزل ، حافين : محدقين من حول العرش •

المعنى الاجمالي

بعد أن بسط جل وعلا الوعد والوعيد يوم القيامة لأهل التوحيد وأهل الشرك عاد إلى ذكر دلائل الوحدانية والألوهية ، ثم انتقل إلى النعى على الكافرين في أمرهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعبادة الأوثان والأصنام ، ثم بين أن الأنبياء جميعا أوحى الله إليهم ألا يعبدوا إلا الله وحده ، وألا يشركوا به سواه ، وأنهم إن فعلوا غير ذلك حبطت أعمالهم ، وكانوا من الخاسرين •

ثم كرر عليهم النعى مرة أخرى بأنهم لم يعرفوا لله حق معرفته إذ لو عرفوه لمـا جعلوا هذه المخلوقات مشاركة له في العبودية قوله تعالى: « الله خالق كل شيء » يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وإنه ربهـا ومليكها والمتصرف فيها وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته لا خالق غيره ولا رب سواه • وهو على كل شيء قيم بالحفظ والكلاءة •

ثم فصل ذلك بعض التفصيل . فقال «له مقاليد السموات والأرض» يفتح على من يشاء من خلقه ويمسك عمن يشاء قال تعالى : «ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » المعنى أن أزمة الأمور بيده تبارك وتعالى ، وله الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

ولهذا قال : « والذين كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون » أي والذين كفروا بالأدلة التي وضعت في الأكوان والتي جاءت في القرآن دالة على وحدانية الله وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ، أولئك هم المغبونون حظوظهم من خيرات السموات والأرض التى بيده مفاتيحها، لأنهم حرموا ذلك كله في الآخرة بخلودهم في جهنم،وفي الدنيا بخذلانهم عن الايمان بالله عز وجل .

ثم أمر جل وعلا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يوبخ المشركين وينكر عليهم ، فقال : « قل أفغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون » أي قل يامحمد لمشركى قومك الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان، والقائلين لك هو دين آبائك أفتأمروني أيها الجاهلون أن أعبد غيره، والعبادة لا تصح إلا له جل وعلا ، وجوز أن يكون أعبد في موضع المفعول لتامروني على أن الأصل تأمروني أن أعبد ، فحذفت أن وارتفع الفعل كما في قول طرفة :

ألا أيها هذا الزاجري أحضر الوغى

ثم بين جل وعلا أنه حذر وأنذر عباده عن الشرك بلسان جميع الأنبياء ، فقال : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » أي ولقد أوحى إليك من ربك لئن أشركت بالله شيئا ليبطلن عملك ، ولا تنال جزاء إلا جزاء من أشرك بالله ، وأوحى إلى الرسل من قبلك بمثل هذا ، فاحذر أن تشرك بالله شيئا فتهلك .

ثم أمر جل وعلا نبيه بالاخلاص فقال : « بل الله فاعبد » أي أخلص العبادة له وحــده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصــدقك ، وكن من الشاكرين لأنعامه عليك بما هداكم إليه من التوحيد ، والدعاء إلى دينه، وما اختصك به من الرسالة ٠

ثم أكد ما سلف فقال : « وما قدروا الله حق قدره » أي ماعظموه حق التعظيم ، إذ عبدوا غيره معه ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، الخـالق لكل شيء ، وكل شيء تحت قهره وقدرته ، وما سواه ناقص في أوصافه وأفعاله ، فأوصافه ناقصة من كل وجه وأفعاله ، ليس عنده نفع ولا ضرر ، ولا عطاء ولا منع ٠

قال تعالى : « والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير » ، وقال: « أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون » الى قوله « إن كنتم صـادقين » ٠ وقال تعــالى : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا » ، وقال : « إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » الآية ٠

وروى البخـاري عن ابن مسعود قال : جـاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامحمد ، إنا نجد أن الله عزوجل يجعل السموات على أصبع ، والأرضين على أصــبع ، والشجر على أصبع ، والمـاء والثرى على أصبع وسائر الخلق على أصبع ٠

فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة» الآية ٠

وأخرج الشيخان والنسائي وابن ماجه في جماعة آخرين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية ذات يوم على

المنبر « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » وهو يقول هكذا بيده ، يحركها يقبل بها ويدبر ، يمجد الرب نفسه : أنا الجبار ، أنا المتكبر ، أنا الملك أنا العزيز ، أنا الكريم ، فرجف برسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر حتى قلنا ليخرن به ٠

وقوله : « والأرض جميعا قبضته » يقول تعالى والأرض كلها قبضته في يوم القيامة ، والسماوات كلها مطويات بيمينه ٠

وروى عن ابن عباس وجماعة غيره أنهم كانوا يقولون : والأرض والسموات جميعا بيمينه يوم القيامة ٠

وعن ابن عباس قوله : والأرض جميعا قبضته يوم القيامة ، يقول : قد قبض الأرضين والسموات جميعا بيمينه ، ألم تسمع أنه قال : مطويات بيمينه ، يعنى الأرض والسموات بيمينه جميعا ٠

وعن أبي أيوب الأنصارى قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم حبر من اليهود قال : أرأيت إذ يقول الله في كتابه : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » فأين الخلق عند ذلك ؟ قال : « فيها كرقم الكتاب » ٠

وقوله : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون » ، يقول تبارك وتعالى مخبرا عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة ٠

فقوله : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله » ، هذه النفخة هى النفخة الثانية ، وهي نفخة الصعق، وهي التى يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض إلا من شاء الله ، كما جاء مصرحا مفسرا في حديث الصور المشهور ٠

ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت ، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا وهو الباقى آخرا بالديمومة والبقاء ويقول : « لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ، أنا الذى كنت وحدى ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء » ثم يحي أول من يحي إسرافيل ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى ، وهي النفخة الثانية: نفخـة البعث ٠

قال الله عز وجل : « ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » أي أحياء ينظرون الى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى : « فانما هي زجرة واحدة ٠ فاذا هم بالساهرة » ، وقال « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم الا قليـلا » ، وقال : « ومن آياته أن تقـوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون »

وفي حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ٠٠٠ يخرج الدجال في أمتي فيمكث أربعـين لا أدري أربعين يوما أو أربعين شهرا ، أو اربعين عاما ٠

فيبعث الله عيسي بن مريم عليهما السلام ، كانه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال ذرة من خير أو إيمان إلا قبضته حتى لو أن أحدكم دخل في كبد جبل لدخلته عليه حتى تقبضه ٠

قال : سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فيبقى شرارة الناس في خفة الطير وأحـلام السباع ، لا يعرفـون معـروفا ولا ينكرون منكرا ، فيتمثل لهم الشيطان فيقول : ألا تستجيبون ؟ فيقولون : فما تأمرنا ؟ فيأمرهم بعبـادة الأوثان وهـم في ذلك دارة أرزاقهم ، حسن عيشهم ٠

ثم ينفخ في الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أَصغَى لِيْتاً وَرَفَعَ لِيتًا ، قال : وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله ، قال : فيصعق ويصعق الناس ، ثم يُرسِل الله ، أو قال : يُنْزِلُ اللهُ مطراً كأنه الطَّل « أو الظل » ـ نعمان الشاك ـ فينبت منه أجسادُ الناس .

ثم ينفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : أيها الناس : هلموا إلى ربكم ، وقفوهم انهم مسئولون ، قال ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : مِن كم ؟ فيقال : مِن كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين قال : فذاك يوم يجعل الولدان شيبا ، وذلك يوم يكشف عن ساق » انفرد باخراجه مسلم في صحيحه .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مابين النفحتين أربعون ، قالوا : أربعون يوما ، قال : أَبَيْتُ ، قالوا اربعون شهرا ، قال : أبيتُ،قالوا : أربعون سنة،قال : ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبتُ البَقْلُ ، ليس من الانسان شيء الا يبلى ، الا عظمٌ واحد وهو عَجْبُ الذَّنَبِ ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى :

وإذا أراد الله إخراج الورى ... بعد الممات إلى المعاد الثاني
القي على الأرض التي هم تحتها ... والله مقتدر وذو سلطان
مطرا غليظا أبيضا متتابعا ... عشرا وعشرا بعدها عشران
فتظل تنبت منه أجسام الورى ... ولحومهم كمنابت الريحان
حتى إذا ما الأم حان ولادها ... وتمخضت فنفاسها متدان
أوحى لها رب السما فتشققت ... فبدا الجنين كأكمل الشبان
وتخلت الأم الودود واخرجت ... أثقالها أنثى ومن ذكران
والله ينشيء خلقه في نشأة ... أخرى كما قد قال في القرآن

هذا الذي جاء الكتاب وسنة الهادي به فاحرص على الايمان

وقوله تعالى : « واشرقت الأرض بنور ربها » أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلق لفصل القضاء ووضع الكتاب ·

قال قتادة : كتاب الأعمال لمحاسبة الخلائق ومجازاتهم ·

قال تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » · وقال في آية أخرى : « مالهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » وقوله : « بالنبيين » ليكونوا شهداء على أممهم كما قال : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ·

وقال تعالى : « فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين »· وقوله « والشهداء » قيل : الذين يشهدون للرسل بتبليغ الرسالة ، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم قاله ابن عباس ·

قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » · وقيل : الحفظة من الملائكة الذين يقيدون أعمال العباد خيرها وشرها ، واستدل لذلك بقوله تعالى : « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » · وقيل : المراد بالشهداء الذين استشهدوا في سبيل الله ، فيشهدون لمن ذب عن دين الله · والرابع النبيون والملائكة وأمة محمد صلى الله عليه وسلم والجوارح · وهذا هو الذي يترجح عندي ، والله أعلم ·

وبعد أن بين جل وعلا أنه يحضر في محفل القيامة جميع مايحتاج اليه في فصل الحكومات وقطع الخصومات بين أنه يوصل كل أحد حقه كاملا غير منقوص ، ودل على ذلك بأربع عبارات :

(١) « وقضي بينهم بالحق » أي بالعدل التام والصدق والقسط العظيم ، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة ، كما قال تعالى « إن الله لا يظلم مثقال ذرة » وهو الذي أحاط بكل شيء علما وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ محيط بالأعمال كلها .

والحفظة الكرام الكاتبون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون قد كتبت عليهم ماعملوه ، كما قال تعالى : « وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين . يعلمون ماتفعلون ، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم العدل ، ولهذا قال .

(٢)«وهم لا يظلمون » ونحو هذه الآية ، « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفا بنا حاسبين » .

(٣) قوله : « ووفيت كل نفس ماعملت » أي وأعطى الله حينئذ كل نفس جزاء عملها جزاءا كاملا من خير أو شر .

(٤) وهو أعلم بما يفعلون في الدنيا دون حاجة إلى كاتب أو حاسب فلا يفوته شيء منأعمالهم فيحصل حكم يقر به الخلق ويعترفون لله بالحمد والعدل والعلم،ويعرفون من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته وقدرته مالم يخطر بقلوبهم ولا تعبر عنه ألسنتهم .

وقوله تعالى : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا » السوق الحث على السير بعنف وازعاج ، علامة على الاهانة والاحتقار ، أي وسيق الكافرون بربهم ، المشركون به إلى جهنم سوقا عنيفا أفواجا متفرقة بعضها في إثر بعض بحسب ترتيب طبقاتهم في الشر والضلال، بزجر وتهديد ووعيد .

كما قال عز وجل « يوم يدعون الى نار جهنم دعا » ، وقال : « خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم » هذا وهم عطاش ظماء كما قال جل وعلا في الآية الأخرى : « يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا ، ونسوق المجرمين الى جهنم ورد » وهم في تلك الحال صم بكم عمى ، منهم من يمشي على وجهه ، قال تعالى : « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا » ٠

قال القحطاني رحمه الله :

يوم القيامة لو علمت بهوله	لفررت من أهل ومن اوطان
يوم تشققت السماء لهوله	وتشيب منه مفارق الولدان
يوم عبوس قمطرير شره	في الخلق منتشر عظيم الشان
والجنة العليا ونار جهنم	داران للخصمين دائمتان
يوم يجيء المتقون لربهم	وفدا على نجب من العقيان
ويجيء فيه المجرمون الى لظى	يتلمظون تلمظ العطشان

وقوله تبارك وتعالى : « حتى إذا جاؤها فتحت أبوابها » أي بمجرد وصولهم اليها فتحت لهم أبوابها سريعا ليدخلوا كأبواب السجون لا تزال مغلقة حتى يأتي أرباب الجرائم الذين يسجنون فيها فتفتح لهم ليدخلوها ، فإذا دخلوها أغلقت عليهم ٠

ثم ذكر سؤال الخزنة من الزبانية الذين هم غلاظ شداد القوى على طريق التقريع والتوبيخ والتخجيل والتنكيل والاهانة ، فقال : « وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

وينذرونكم لقاء يومكم هذا » ، أي ألم يأتكم رسل من جنسكم تفهمون ماينبؤكم به من طاعة ربكم والاعتراف بوحدانيته وترك الشرك به ٠

ويسهل عليكم مراجعتهم حين يقيمون عليكم الحجج والبراهين مبينين صدق مادعوكم إليه وينذرونكم أهوال هذا اليوم ، فيقول الكفار مجيبين معترفين ولم يقدروا على الجدل الذي كانوا يتعللون به في الدنيا ، لوضوح السبل أمامهم ولا سبيل إذاً الى الانكار والجحود٠

ولهذا يقولون : بلى ، أي قد جاءونا وأنذرونا وأقاموا علينا الحجج والبراهين «ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين» أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال جل وعلا مخبرا عنهم في الآية الأخرى : « كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير ٠ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ماكنا في أصحاب السعير » أي إرجعوا على أنفسكم بالملامة والندامة ، « فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير » أي بعدا وخسارا ٠

وبعد أن اعترفوا هذا الاعتراف قيل : « أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها » ، أي قيل لهم على وجه الاهانة والاذلال ادخلوا أبواب جهنم السبعة كما قال تعالى « لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم » وكل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ٠

ولهذا لم يسند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ، ولهذا قال جل وعلا : « ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها » ، اي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ولا زوال لكم عنها ٠

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال الأشقياء وما يلاقونه يوم القيامة من الأهوال أردفها ذكر أحوال السعداء وما يلاقونه إذ ذاك من النعيم ، وما يقال لهم وما يقولون ، فقال : « وسيق الذين ارتقوا ربهم الى الجنة زمرا » أي وسيق المتقون إلى الجنة جماعة إثر جماعة على النجائب وفودا إلى الجنة :

المقربون ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم ويشاكلهم الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضا ٠

والمراد بالسوق هنا الإسراع بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرم من الوافدين على بعض الملوك ، الفرق بين السَّوْقَيْن أن سَوق أهلِ النار طردهم إلى العذاب بالهوان والعنف ، كما يفعل بالمجرم إذا أسر وذهب به إلى الحبس أو القتل ٠ والمراد بسَوق أهل الجنة ما تقدم قبل سطرين ٠

وقيل : المراد سَوق مراكبهم لأنهم يذهبون إليها راكبين ، فشتان مابين السَّوْقَين ، وهذا من بدائع أنواع البديع وهو أن يأتي سبحانه وتعالى بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم وعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ، فسبحان من أنزله على رسوله معجز المعاني ، عذب الموارد والمثاني٠

وقوله : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » أي حتى إذا وصلوا إلى الجنة وفي هذه الواو أقوال ، قيل : إنها للعطف : عطف على جملة، والجواب محذوف تقديره سعدوا وفتحت، وأنشد قول امرىء القيس:

فــلو أنها نفس تمــوت جميعة ولكنها نفس تســاقط أنفســا

فحذف جواب « لو » والتقدير لكان أروح .

وقيل : حتى إذا جاءوها دخلوها ، وهو قريب من الأول .

وقيل : إن الواو دليل على أن الأبواب فتحت لهم قبــل أن يأتوا إليها لكرامة الله لهم وكرامتهم عليه ، والتقدير حتى إذا جاؤها وأبوابها مفتحة بدليل قوله تعالى : « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » وجعــل قوله : « وفتحت » جملية حالية ، أي وقد فتحت أبوابها .

وناسب كونها حالا أن أبواب الأفراح تــكون مفتحــة لانتظار من يجيء إليها ، بخلاف أبواب السجون ، وحــذف الواو في قصة أهــل النــار لأنهم وقفوا على النار وفتحت بعد وقوفهم إذلالا وترويعا لهم .

وقيل : إنها واو الثمانية ، وذلك من عادة قريش أنهم يعدون من الواحد فيقولون خمسة ستة سبعة وثمانية ، فاذا بلغوا السبعة قالوا وثمانية ، قال تعالى : « سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما » وقال : « التائبون العابدون » ثم قال في الثامن : « والناهون عن المنكر »، وقال : « ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم » ، وقال : « ثيبات وأبكارا »

وقد استدل بهذا من قال : إن أبواب الجنة ثمانية ، وذكروا ماروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال : مامنكم من أحــد يتوضــأ فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشــهد أن لا اله الا الله وأن محمــدا عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنــة الثمانية يدخــل من أيها شــاء . أخرجه مسلم وغيره .

وروى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب درى في السماء إضاءة » .

قال ابن القيم رحمه الله في صفة أول زمرة تدخل الجنة :

هــذا وأول زمرة فوجوههـم كالبدر ليل الست بعد الثمان
السابقون هموا وقد كانوا هنا أيضا أولى سبق إلى الاحسان

وقال في الزمرة الثانية :

والزمرة الأخرى كأضوء كوكب في الأفق تنظـره به العينــان
أمشــاطهم ذهب ورشحهم فمســك خالص يا ذلة الحـــرمان

وأخرج الشيخان وغيرهما ، عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « في الجنة ثمانية أبواب ، منها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون » .

وعن سالم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « باب أمتى الذي يدخلون منه الجنة عرضه مسيرة الراكب الجـواد ثلاثا ، ثم إنهم ليغطون عليه حتى تكاد مناكبهم تزول » رواه الترمذى .

وعن عتبة بن غزوان قال ذكر لنا أن الحجر يلقى من مشفة جهنم فيهوى فيها سبعين خريفا لا يدرك لها قعرا ، والله لتملأن ، ولقد ذكر لنا أن مابين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة ، وليأتين عليها يوم وهو كضيظ من الزحام . رواه مسلم .

وعن أبى هريرة رضي الله عنـه قال : « أتى النبى صـلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه ، فنهس منها نهسة ، ثم قال : « أنا سيد الناس يوم القيامة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وتدنو الشمس ، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ، فيقول الناس ألا تنظرون من يشفع لكم الى ربكم ؟ فيأتون آدم » .

وذكر حديث الشفاعة وقال « فانطلق فآتى تحت العرش فاقع ساجدا لربى ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم قال يامحمد : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع راسي فأقول أمتي يارب ، أمتي ، أمتي يارب ، فيقال يامحمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال والذي نفسي بيده ان مابين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر » متفق عليه ٠

قال ابن القيم رحمه الله في أبواب الجنة :

أبوابها حق ثمانية أتت	في النص وهي لصاحب الاحسان
باب الجهاد وذاك أعلاها وباب	الصوم يدعى الباب بالريان
ولكل سعى صالح باب ورب	السعى منه داخل بامان
ولسوف يدعى المرء من أبوابها	جمعا إذا أوفي حلى الايمان
منهم أبو بكر هو الصديق ذا	ك خليفة المبعوث بالقرآن

وقوله تعالى : « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم » أي طابت أعمالكم وأقوالكم ، وطاب سعيكم وطاب جزاؤكم ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينادي بين المسلمين في الغزوات « إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة » ٠

وفي رواية ، « مؤمنة »

وقوله : « فادخلوها خالدين » أي ماكثين فيها أبدا لا زوال ولا فناء ولا تحول ، قال تعالى « لا يبغون عنها حولا » ٠

قال مقاتل إذا قطعوا جسر جهنم حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم، حتى إذا هذبوا وطيبوا قال لهم رضوان وأصحابه «سلام عليكم» الآية.

وعن أبي سعيد وأبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا دخل أهل الجنة الجنة ينادي مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه» رواه مسلم.

وقوله: «وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده» أي يقول المؤمنون إذا عاينوا في الجنة الثواب الوافر والعطاء العظيم والنعيم المقيم والملك الكبير، يقولون عند ذلك «الحمد لله الذى صدقنا وعده» أي الذى كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام كما دعونا في الدنيا «ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة انك لا تخلف الميعاد»، «وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»، «لقد جاءت رسل ربنا بالحق»، «وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور»، «الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب».

وعن على بن أبى طالب رضي الله عنه في قوله تعالى «وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا» قال سيقوا حتى انتهوا إلى باب من أبواب الجنة فوجدوا عندها شجرة يخرج من تحت ساقها عينان، فعمدوا إلى إحداهما فتطهروا منها، فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تغير

أشعارهم بعدها أبدا ، ولم تشعث أشعارهم أبدا بعدها ، كأنما دهنوا بالدهان ، ثم عمدوا إلى الأخرى كأنما أمروا بها ، فشربوا منها فأذهبت ما كان في بطونهم من أذى وقذى وتلقتهم الملائكة على أبواب الجنة « سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

وتلقى كل غلمان صاحبهم يطوفون به فعل الولدان بالحميم ، جاء من الغيبة أبشر قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قد أعد الله لك من الكرامة كذا وكذا ، قال وينطلق غلام من غلمانه إلى أزواجه من الحور العين فيقول هذا فلان باسمه في الدنيا ، فيقلن : أنت رأيته ؟ فيقول : نعم ، فيستخفهن الفرح حتى تخرج إلى أسكفة الباب ، قال فيجيء ، فاذا هو بنمارق مصفوفة وأكواب موضوعة وزرابى مبثوثة .

قال ثم ينظر إلى تأسيس بنيانه فإذا هو قد أسس على جندل اللؤلؤ بين أحمر وأخضر وأصفر وأبيض ، ومن كل لون ، ثم ترفع طرفه إلى سقفه فلولا ان الله تعالى قدر له لألم أن يذهب ببصره ، إنه لمثل البرق ، ثم ينظر إلى أزواجه من الحور العين ، ثم يتكىء على أريكة من أرائكه ، ثم يقول « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » .

وقوله : « وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء » أرض الجنة التي كانت لأهل النار لو كانوا أطاعوا الله في الدنيا فدخلوها ميراثا عنهم .

وقيل : إنها الدنيا ، وفي الكلام تقديم وتأخير ، نتبوأ نتنزل منها أي مكان شئنا ونتناول منها أي نعيم أردنا ، فنعم الأجر على عملنا وثوابنا الذي اعطيتنا « وترى الملائكة حافين من حول العرش » .

يقول تعالى ذكره وترى يا محمد الملائكة محدقين من عرش الرحمن ، والعرش السرير ، يسبحون بحمد ربهم ويمجدونه

ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائص والعيوب والجور ، وقد فصل القضية وقضي الأمر وحكم بالعدل ، ولهذا قال « وقضي بينهم » أي الخلائق « بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمه وعدله ، ولهذا لم يسند القول إلى قائل ، بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت له بالحمد ·

قال المفسرون : ابتدأ الله ذكر الخلق بالحمد فقال « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » وختم غاية الأمر وهو استقرار الفريقين في منازلهم بالحمد بهذه الآية فنبه في بداية كل أمر وخاتمته

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم ·

من ما يفهم من آيات الدرس آية ٦٢ ـ ٧٥ ·

(١) إثبات الألوهية ·

(٢) إثبات الأسماء لله ·

(٣) إثبات صفة الخلق ·

(٤) دليل على أن جميع الأشياء غير الله وأسمائه وصفاته مخلوقة

(٥) إن الله على كل شيء قيم بالحفظ والكلاءة ·

(٦) إن أزمة الأمور بيد الله ·

(٧) إن الجاحدين لآياته خاسرون ·

(٨) دليل على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ·

(٩) الرد من قال إن القرآن كلام محمد ·

(١٠) الرد على من أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

(١١) توبيخ المشركين والانكار عليهم ٠

(١٢) أن من أمر بعبادة غير الله جاهل ٠

(١٣) الانكار على من أمر بمنكر ٠

(١٤) أن الله حذر وأنذر عباده عن الشرك بلسان جميع الأنبياء

(١٥) أن الشرك محبط للأعمال ٠

(١٦) أن المشرك خاسر ٠

(١٧) لطف الله بخلقه حيث حذرهم من الشرك ونبههم على ضرره

(١٨) أن الله لم يهمل خلقه ، بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ٠

(١٩) الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له ٠

(٢٠) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بشكر الله جل وعلا ٠

(٢١) أن العباد لم يعظموا الله حق تعظيمه ٠

(٢٢) دليل على عظمة الله جل وعلا ٠

(٢٣) دليل على قوة الله تعالى ٠

(٢٤) أن الأرض جميعا في قبضة الله يوم القيامة ٠

(٢٥) أن السموات مطويات بيمينه جل وعلا ٠

(٢٦) إثبات الصور وأنه ينفخ فيه فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ٠

(٢٧) أنه ينفخ فيه مرة ثانية فيحي الخلائق ٠

(٢٨) أن الأرض تضيء وتشرق بنور ربها ٠

(٢٩) دليل على عظمة الله وعظمة نوره ٠

(٣٠) دليل على وضع كتاب الأعمال ٠

(٣١) إتيان الأنبياء ليكونوا شهداء على أممهم ٠

(٣٢) إتيان الشهداء ليشهدوا ٠

(٣٣) أنه يحظر في محفل القيامة جميع مايحتاج في فصل الحكومات

(٣٤) دليل على عدل الله التام ٠

(٣٥) إثبات علم الله ٠

(٣٦) الرد على من أنكر صفة العلم من جهمية أو قدرية أو غيرهم ٠

(٣٧) أن أعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم العدل الذي حكم به من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب ٠

(٣٨) أن الله لا يظلم مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر ، فقد حرم الظلم على نفسه ، والمأخذ من قوله : « وهم لا يظلمون » ٠

(٣٩) دليل على البعث ٠

(٤٠) دليل على الحساب ٠

(٤١) دليل على الجزاء على الأعمال ، والمأخذ من قوله : « ووفيت كل نفس ماعملت » الآية ٠

(٤٢) إثبات علم الله في كل مامضي ٠

(٤٣) ان الله لا يحتاج إلى كاتب أو حاسب فلا يفوته شيء منأعمالهم

(٤٤) الرد على الجبرية ونحوهم من منكرى أفعال العباد ٠

(٤٥) أنه في ذلك الموقف يقر الخلق ويعترفون بالحمد لله والعدل ٠

(٤٦) أنه بعـــد ذلك الحـكم يعـرف الخـــلائق من عظمـــة الله وعلمه وحكمته ورحمته مالم يخطر لهم على بال ٠

(٤٧) دليل على قدرة الله ٠

(٤٨) أن الكفار يساقون إلى جهنم ٠

(٤٩) إثبات جهنم ٠

(٥٠) أنها مثوى الكفار ٠

(٥١) أن الكفار يأتون إلى جهنم فرقا ٠

(٥٢) أنها تفتح لهم أبوابها بمجرد وصولهم إليها ٠

(٥٣) أن الخزنة يوبخون ويقرعون الكفار ٠

(٥٤) دليل على صدق الرسل ٠

(٥٥) أن الرسل قاموا بما كلفوا به من قبل الله ، فبشروا وأنذروا ولهذا إذا خرجـوا من القبور قالوا : هذا ما وعـد الرحمن وصـدق المرسلون ٠

(٥٦) عظم فضل الله عليهم ، حيث أرسل رسلا من جنسهم يفهمون مايخبرونهم به وتسهل عليهم مراجعتهم بالحجج والبراهين ٠

(٥٧) أن الكفار يعترفون بأن الرسل تلوا عليهم آيات الله وأنذروهم

(٥٨) أن كلمة الله حقت على الكافرين ٠

(٥٩) أن الكفار خالدون في جهنم ٠

(٦٠) أن جهنم بئس المنزل ٠

(٦١) التحذير عن الاستكبار عن آيات الله ٠

(٦٢) أن التكبر خلق رذيل ٠

(٦٣) أن لجهنم أبوابا ٠

(٦٤) أن كلمة ادخل تارة تكون على وجه الاهانة والاذلال ، وتارة للتشريف والتكريم والتقدير ، وكذلك السوق والتبشير.

(٦٥) أن من بدائع أنواع البديع أن يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم وعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها وهيئتها في حق المؤمنين فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ٠

(٦٦) الحث على التقوى ٠

(٦٧) أنها سبب لدخول الجنة ٠

(٦٨) الاسراع بالمتقين إلى الجنة لأجل إكرامهم ، لأن السوق الحث على السير ٠

(٦٩) أنهم ياتون جماعة إثر جماعة ٠

(٧٠) إثبات الربوبية ٠

(٧١) أنها تفتح قبل أن ياتوا إليها كما تدل على ذلك الآية الأخرى قوله : « جنات عدن مفتحة لهم الأبواب » ٠

(٧٢) أن خزنتها يسلمون على المتقين ٠

(٧٣) أن الخزنة يقولون لهم : طبتم ـ أي بطاعة الله ـ وطابت أعمالكم ٠

(٧٤) أنهم خالدون في الجنة ٠

(٧٥) أنه لا أحد أصدق وعدا من الله ٠

(٧٦) أن أهل الجنة يحمدون الله على صدق وعده وعطائه الجزيل

(٧٧) أنه يورثهم أرض الجنة ، فهذه الآية كقوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » .

(٧٨) أن أهل الجنة يحلون من الجنة أين شاءوا .

(٧٩) مدح الجنة فالمخصوص بالمدح محذوف ، أي فنعم أجر العاملين الجنة .

(٨٠) إثبات الجنة .

(٨١) وأنها دار المتقين جعلنا الله واخواننا المسلمين منهم ، انه قادر على ذلك ، اللهم صلى على محمد وآله وسلم .

(٨٢) أن العمل سبب لدخول الجنة .

(٨٣) أن في التعبير بأجر العاملين دون أجرنا تعريضا بأهل النار أنهم غير عاملين .

(٨٤) إثبات الملائكة .

(٨٥) إثبات أنهم يرون في الآخرة .

(٨٦) أنهم يحفون من حول العرش .

(٨٧) الرد على من أنكر الملائكة ممن عميت أبصارهم وبصائرهم ، وكذبوا الله ورسله .

(٨٨) إثبات العرش .

(٨٩) أن الملائكة يسبحون بحمد خالقهم .

(٩٠) الحث على التسبيح والحمد لله .

(٩١) القضاء بين الخلائق بالحق .

(٩٢) إثبات عدل الله .

(٩٣) إثبات الألوهية لله .

(٩٤) أن كلا ينطق بالحمد لله رب العالمين .

(٩٥) التنبيه على بداية كل أمر وخاتمته .

(٩٦) إثبات صفة الكلام لله .

(٩٧) أن التسبيح في ذلك اليوم تسبيح تلذذ ، لا تسبيح تعبد ، لأن التكليف قد زال ... محله الدنيا .

(٩٨) دليل على بقاء الجنة .

(٩٩) دليل على بقاء النار ، كما هو قول الجمهور .

(١٠٠) التحذير من الكفر بالله .

(١٠١) أن القرآن آيات بينات .

(١٠٢) تنزيه الله وتقديسه عما يقوله المشركون .

(١٠٣) أن الرزق بيد الله .

(١٠٤) دليل على شدة الصيحة ، لأن الخلق يغشي عليهم أو يموتون

(١٠٥) أن في قوله « فاذا هم قيام » دليل على سرعة إيجادهم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون · نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون · نزلا من غفور رحيم · ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين · ولا تستوى الحسنة ولاالسيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم · وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ·

بعد أن أسلف سبحانه وتعالى في وعيد الكفار بما لم يبق بعده في القوس منزع أعقب بهذا الوعد الشريف ، كما هي سنة القرآن من إتباع أحدهما بالآخر كما جاء في قوله تعالى : « نبىء عبادي أني انا الغفور الرحيم · وأن عذابي هو العذاب الأليم » ·

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » اي اعترفوا ونطقوا بانه واحد لا شريك له ، ورضوا بربوبيته تعالى ، ثم استقاموا على التوحيد ولم يلتفتوا إلى غيره ·

وقال جماعة من الصحابة والتابعين : معنى الاستقامة إخلاص العمل لله ·

وقال قتادة : ثم استقاموا على طاعة الله · وقال الحسن : استقاموا

على أمر الله فعلموا بطاعة الله واجتنبوا معصيته · وقال مجاهد وعكرمة : استقاموا على شهادة أن لا اله الا الله حتى ماتوا · وقال الثورى : عملوا على وفق ماقالوا · وقال الربيع : أعرضوا عما سوى الله ·

وقال الفضيل بن عياض : زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية · وقال بعض العارفين : الاستقامة توبة بلا إصرار وعمل بلا فتور ، واخلاص بلا التفات ، ويقين بلا تردد ، وتفويض بلا تدبير ، وهذا مقام لا يحكمه إلا من وفقه الله ·

وقال آخر : الاستقامة اتباع الحق والقيام بالعدل ولزوم المنهج القويم ، وهذا أيضا مقام عظيم وخطب جسيم لا يكون إلا لمن وفقه الله لذلك ·

وقال آخر : الاستقامة كمقام الشكر وهو صرف العبد في كل ذرة ونفس جميع ما أنعم الله به عليه إلى ماخلق لأجله من عبادة مولاه بما يستطيع على الوجه الأقوم والطريق الأكمل ، وهذا أيضا مقام عزيز ·

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى « فاستقم كما أمرت » : مانزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية هي أشد عليه من هذه الآية ، ولذلك قال : شيبتني هو وأخواتها وهي : الواقعة، والحاقة ، وسال سائل ، وعم يتساءلون ، وإذ الشمس كورت ، والقارعة ·

قال العلماء : ولعل ذلك لما فيهن من التخويف العظيم والوعيد الشديد باشتمالهن مع قصرهن على أحوال الآخرة وأهوالها وفظائعها وشدائدها وقلاقلها ، وبيان أحوال الهالكين والمعذبين مع ما اشتملت عليه هود من الأمر بالاستقامة كما أمره مولاه ، لأن قوله تعالى « كما أمرت » يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة ·

فمن كملت معرفته بمولاه عظم عنده أمره ونهيه ، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف فاذا سمع «كماأمرت» علم أنه مطالب باستقامة تليق بمعرفته بعظمة سيده وجلال مولاه ٠

وقال بعض العلماء : إن القول الجامع للأقوال التي فسرت فيها الاستقامة أن الاستقامة هي المتابعة للطريقة المحمدية مع التخلق بالأخلاق المرضية ٠ لا سيرا مع الهوى والابتداع ، فان السير مع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة ، ولا يفرق بين الخير والشر ، بل ينكس القلب ويعكسه ، فيرى البدعة سنة والسنة بدعة ، والضلالة هداية والهداية ضلالة ، ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين ٠

وللاستقامة مدارج : الأول التقويم ويكون من حيث تاديب النفس باصلاح الجوارح وتعديل أعمالها بميزان الخوف والرجاء حتى تعتاد الخير وتستقيم على عمل البر والطاعة ٠

والثاني إقامة تكون من جهة تهذيب النفس وتطهير القلب من الأخلاق السيئة والآفات الذميمة كالحسد والحقد والعجب والرياء والكبر والنفاق ٠

والثالث الاستقامة وذلك بأن تكون أعمال العبد كلها موزونة بميزان الشرع الشريف من غير تكلف تقويم ولا إقامة ، فالأول تمحيص ، والثاني تحقيق ، والثالث توفيق ٠

قالوا : وعلامة المستقيم الصبر على الشدائد والثبات عند البلايا ، والاعراض عن الجاهلين والصفح عمن أساء إليه ، وأن لا يكون للهوى والشهوة سلطان على نفسه ، وأن زخارف الدنيا لا تصده ولا تشغله عن طاعة مولاه ٠

قالوا : ومن آثار الاستقامة أنه إذا كان المستقيم راعيا صلحت رعيته ، وإذا كان مربيا توفقت تلاميذه وصلحت بإذن الله أعمالهم واستقاموا ، وإن كان المستقيم رب منزل استقام أهله وصلحت ذريته بإذن الله ، وإن كان زارعا كثر خيره وبورك له .

وإن كان تاجرا ربحت تجارته ، وإن كان صانعا تقدمت صناعته ، ولاشك أنه متى صلحت الأفراد وصلح حالها استقامت الأسر بإذن الله ، ومتى استقامت الأسر استقامت الأمة بأكملها .

قالوا : والحصول على الاستقامة بوجه عام ليس من الأمور الصعبة على من يطلبها ممن وفقه الله ، بل من السهل الهين والميسور القريب ، فإن المرء إذا عود نفسه أن يراقب الله تعالى في سره وعلانيته عند كل عمل يعمله موقنا أن الله تعالى مطلع على جميع أعمال العباد .

ومعتقدا أنه تعالى يجازي من أطاعه برضوانه واحسانه ، وأنه يحل غضبه على من خالف أمره وعصاه ، فاذا عود نفسه على ذلك سهل عليه أن يفعل مايأمره الله به ، ويجتنب مانهاه الله عنه فإذا سولت له نفسه أن يأتي معصية من معاصي الله ردها وزجرها وذكرها بعزة الله وجلاله وعظمته وكبريائه ، وأنه تعالى قادر على الانتقام منه ومنجميع من عصاه ، وأنه مطلع عليه لا تخفى عليه من أعماله خافية .

قال تعالى : « مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبؤهم بما عملوا إن الله بكل شيء عليم » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « الاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » فمتى لاحظ الانسان ذلك وعود نفسه عليه ووفقه الله لايقدم علىمنكر ولا يقصر في معروف،فتصير الاستقامة له عادة ، والله ولي التوفيق ومنه الهداية .

وقوله تعالى : « تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا » قال ابن عباس ومجاهد والسدى وزيد بن أسلم وابنه : عند الموت فعلى هذا في معنى « لا تخافوا » قولان :

أحدهما : لا تخافوا الموت ولا تحزنوا على أولادكم ، قاله مجاهد ·
والثاني : لا تخافوا أمامكم ولا تحزنوا على ما خلفكم ، قاله عكرمة والسدى ·

والقول الثاني : « تتنزل عليهم » إذا قاموا من القبور ، قاله قتادة · فيكون معنى لا تخافوا أنهم يبشرونهم بزوال الخوف والحزن يوم القيامة ·

وقوله : « وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون » أي وتقول لهم الملائكة : ابشروا بذهاب الشر ، وحصول الخير ، ابشروا بالجنة التي وعدتم بها على ألسنة الرسل في الدنيا فإنكم واصلون إليها،مستقرون بها خالدون في نعيمها ·

وجاء في حديث البراء رضي الله عنه قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن أخرجي أيتها الروح الطيبة من الجسد الطيب كنت تعمرينه ، أخرجي إلى روح وريحان ورب غير غضبان » ·

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا عبد السلام بن مطهر، حدثنا جعفر بن سليمان ، قال : إن ثابتا : قرأ سورة حم السجدة حتى بلغ « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » فوقف فقال : بلغنا أن العبد المؤمن حين يبعثه الله تعالى من قبره يتلقاه الملكان اللذان كانا معه في الدنيا فيقولان له : لا تخف ولا تحزن ·

ثم بشروا ببشارة أعظم من الأولى ، فتقول لهم الملائكة عند الاحتضار : نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، أي نحن

قرناؤكم وأعوانكم في الحياة ندلكم على الحق ونرشدكم إلى مافيه خيركم وصلاحكم ونحفظكم ونحثكم في الدنيا على الأعمال الصالحة ونزينها لكم ونخوفكم من الشر ونقبحه في قلوبكم ونثبتكم عند المصائب والمخاوف ·

ونكون معكم في الآخرة نبشركم عند الموت بالجنة ونثبتكم عند الاحتضار ، ونؤمنكم من الوحشة في القبر وظلمته ، وعند النفخة في الصور ويوم البعث ، وفي القيامة وأهوالها وعند الصراط ·

وفي الجنة يهنئونهم بكرامة ربهم ، قال تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب · سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » وقال : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » ·

تَراهُمْ وأملاكُ الرِضا يَقْدُمُونَهُمْ   إلى جنةٍ طابَتْ وطابَ نَعيمُهَا

يَسيرونَ في أَمْنٍ إِذَ الخَلْقُ فَزِعٌ   وقد بَرَزَتْ نارٌ وشَبَّ جَحيمُهَا

ويقولون لهم أيضا : « ولكم ماتشتهي أنفسكم » أي ولكم في الجنة من صنوف اللذات وأنواع النعم جميع ماتختارون مماتشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين وتقر به ·

قال تعالى : « وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » ·

وقال : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » ·

وقوله : « ولكم فيها ماتدعون » أي ولكم ماتطلبون وما تتمنون من كل ماتتعلق به إرادتكم وأمنيتكم ، وتطلبونه من أنواع اللذات

والمشتهيات والفرق بين الجملتين،أن الأولى باعتبار شهوات أنفسهم ، والثانية باعتبار مايطلبونه أعم من أن يكون مما تشتهيه الأنفس أولا ٠

وقوله : « نزلا من غفور رحيم » اي هذا الثواب العظيم ، والعطاء الجزيل والنعيم المقيم، نزل وضيافة من غفور غفر لكم السيئات وَوَقَاكم شرها ، رحيم حيث وفقكم لما هو سبب لسعادتكم وهو فعل الحسنات ثم قبلها منكم ، فبغفرانه للذنوب أزال عنكم المحذور ، وبرحمته ولطفه أنالكم المطلوب ، فأي نعيم بعد هذا النعيم ٠

وقد ذكر ابن أبى حاتم هاهنا حديثَ سُوْقِ الجنة عند قوله تعالى : « ولكم فيها ماتشتهي أنفسكم ولكم فيها ماتدعون ٠ نزلا من غفور رحيم » ، فقال : حدثنا هشام بن عمار حدثنا عبد الحميد بن أبى العشرين أبو سعيد حدثنا الأوزاعى حدثني حسان بن عطية عن سعيد ابن المسيب أنه لقي أبا هريرة رضي الله عنه ٠

فقال أبو هريرة : أسأل الله أن يجمع بيني وبينك في سوق الجنة فقال : أو فيها سوق ؟ فقال : نعم ، أخبرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل الجنة إذا دخلوا فيها نزلوا فيها بفضل أعمالهم ، فيؤذن لهم في مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون الله عز وجل ويبرز لهم عرشه ، ويتبدى لهم في روضة من رياض الجنة ، ويوضع لهم منابر من نور ومنابر من لؤلؤ ومنابر من ياقوت ومنابر من زبرجد ومنابر من فضة ، ويجلس أدناهم ـ وما فيهم دنى ـ على كثبان المسك والكافور، مايرون أن أصحاب الكراسي بأفضل منهم مجلسا ٠

قال أبو هريرة رضي الله عنه : قلت يا رسول الله ، وهل نرى ربنا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نعم هل تمارون في رؤية الشمس والقمر ليلة البدر ؟ قلنا : لا ، قال صلى الله عليه وسلم : فكذلك لا تتمارون في رؤية ربكم تعالى ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره ربه محاضرة

حتى إنه ليقول للرجل منهم يا فلان بن فلان أتذكر يوم أن عملت كذا وكذا يذكره ببعض غدراته في الدنيا ، فيقول : أى رب أفلم تغفر لى ؟ فيقول : بلى فبسعة مغفرتي بلغت منزلتك هذه ·

قال : فبينما هم على ذلك غشيتهم سحابة من فوقهم فأمطرت عليهم طيبا لم يجدوا مثل ريحه شيئا قط ، قال : ثم يقول ربنا عز وجل : قوموا إلى ماأعددت لكم من الكرامة وخذوا ما اشتهيتم ، قال : فنأتي سوقا قد حفت به الملائكة فيها مالم تنظر العيون إلى مثله ، ولم تسمع الآذان ، ولم يخطر على القلوب ، قال : فيحمل لنا ما اشتهينا ليس يباع فيه شيء ولا يشترى ، وفي ذلك السوق يلقى أهل الجنة بعضهم بعضاً ·

قال : فيقبل الرجل ذو المنزلة الرفيعة فيلقى من هودونه ـ ومافيهم دنى ـ فيروعه مايرى عليه من اللباس فما ينقضي آخر حديثه حتى يتمثل عليه أحسن منه ، وذلك لأنه لا ينبغى لأحد أن يحزن فيها ، ثم ننصرف إلى منازلنا فيتلقانا أزواجا فيقلن : مرحبا وأهلا بحبيبنا لقد جئت وإن بك من الجمال والطيب أفضل مما فارقتنا عليه ، فيقول لها: جالسنا اليوم ربنا الجبار تبارك وتعالى ، وبحقنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا به » ·

« ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين · ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولى حميم · وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ·

قوله : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله » في من أريد بهذا ثلاثة اقوال :

أحدها : أنه صلى الله عليه وسلم دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله قاله ابن عباس والسدى وابن يزيد ·

الثاني : أنهم المؤذنون الصلحاء ، كما ثبت في صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة » .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أذن محتسبا سبع سنين كتب له براءة من النار » رواه ابن ماجه .

وفي حديث أبى هريرة الذى رواه البخاري ومسلم : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لا استهموا » .

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه : سهام المؤذنين عند الله تعالى يوم القيامة كسهام المجاهدين ، وهو بين الآذان والاقامة كالمتشحط في سبيل الله تعالى في دمه .

قال : وقال ابن مسعود : لو كنت مؤذنا مابالبيتأن لا أحج ولا أعتمر ولا أجاهد .

قال : وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو كنت مؤذنا لكمل أمري ، وما باليت أن لا أنتصب لقيام الليل ، ولا لصيام النهار،سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم اغفر للمؤذنين ، فقلت : يارسول الله تركتنا ونحن نجتلد على الأذان بالسيوف ، قال صلى الله عليه وسلم : كلا يا عمر ، إنه سيأتي على الناس زمان يتركون الأذان على ضعفائهم ، وتلك لحوم حرمها الله عز وجل على النار لحوم المؤذنين » .

قال : وقالت عائشة رضي الله عنها : ولهم هذه الآية « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » قالت : فهو المؤذن إذا قال حى على الصلاة فقد دعا إلى الله ، وهكذا .

قال ابن عمر رضي الله عنهما وعكرمة : إنها نزلت في المؤذنين ·

وعن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصعة أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له : إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك أو باديتك فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء فانه لا يسمع مـدى صوت المؤذن جن ولا إنس إلا شهد له يوم القيامة ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم · رواه البخاري ·

الثالث : أن المؤمن أجاب الله إلى مادعاه ودعا الناس إلى ذلك وعمل صالحا في إجابته ، قاله الحسن ·

وقال ابن كثير في تفسيره : والصحيح أن الآية عامة في المؤذنين وفي غيرهم فأما حال نزول هذه الآية فانه لم يكن الأذان مشروعا بالكلية لأنها مكية ، والأذان إنما شرع بالمدينة بعد الهجرة حين أريه عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري في منامه فقصه على النبي صلى الله عليـه وسـلم فأمر أن يلقيـه على بلال رضي الله عنـه فانه أندى صـوتا ، فالصحيح إذن أنها عامة ·

كما قال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن البصري أنه تلا هـذه الآية « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين » فقال : هذا حبيب الله ، هذا ولي الله ، هذا صفوة الله ، هـذا خيرة الله ، هذا أحب أهل الأرض إلى الله · أجاب الله في دعوته ، ودعا الناس إلى ما أجاب الله من دعوته ·

ومما يدخل في الدعوة إلى الله : تعليم الجاهلين ، ووعظ الغافلين والمعرضين ، ومجادلة المبطلين ، والأمربعبادة اللهبجميع أنواعها والحث عليها وتحسينها بكل وسيلة وطريقة تؤدي إليها مهما أمكن ·

والزجر عما نهى الله عنه وتهجينه وتقبيحه بكل طريقة توجب تركه والابتعاد عنه ، ومجادلة أعداء الاسلامبالتي هي أحسن،كما قال تعالى:

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » .

ومن الحكمة أن يدعو كل أحد على حسب فهمه وقبوله وانقياده ، ومن الحكمة الدخوة بالعلم لا بالجهل والبداءة بالأهم ، وبالأقرب إلى الأذهان ، والفهم بما يكون قبوله أتم وبالرفق واللين .

فإن انقاد بالحكمة فبها ونعمت وإلا فينتقل معه إلى الدعوة بالموعظة الحسنة وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب : إما بما تشتمل عليه الأوامر الدينية من المصالح وتعدادها .

وإما بما تشتمل عليه النواهي من المضار والمفاسد وتعدادها ، وإما بذكر آلاء الله ونعمه على العباد ، وماأعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل ، وما أعد الله للعاصين من العقاب العاجل والآجل ، فإن كان المدعو يرى أن ماهو عليه حق ، أو كان داعية إلى الباطل من بدعة أو نحوها ، فيجادل بالتي هي أحسن وهي الطريقة التى تكون أدعى وأقرب لاجابته عقلا ونقلا .

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التى كان يعتقدها ، فإنه أقرب إلى نجاح الدعوة معه ، وحصول المقصود ، وأن يحرص على أن لا تؤدي المجادلة إلى الخصام والمشاتمة ، لأنها تؤدي إلى ذهاب المقصود وعدم الفائدة غالبا .

ويحرص على الاخلاص وحسن النية قاصدا بذلك هداية الخلق إلى الحق ، لا المغالبة والشهرة ونحوهما .

ومن الدعوة إلى الله تحبيبه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه وسعة جوده وكمال رحمته ونعوت جلاله ، ومن ذلك الدعوة إلى الله بالترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله والحث على حفظه وتفهمه والعمل به وسنة رسوله والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه .

ومن ذلك ذكر محاسن الاسلام وشرح مااحتوى عليه وبيان مايدعو إلى الاتصاف به من الصدق والعفاف والأمانة والجود والعدل وحفظ العهود والجد والنشاط والتحلي بمكارم الأخلاق ·

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحسان الى اليتامى والأقارب والجيران وحسن المعاملة والتعاون على البر والتقوى والجهاد في سبيل الله والادانة بالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم والنهى عن الغش في المعاملات وغيرها ·

والنهي عن الكبر والعجب والخداع والمكر والكذب والبغي والشح والبخل ويدعو الى مايعود على العالم بالسعادة والفلاح وينهى عما يجلب الشقاء والمضرة للعباد كالفيديو معلم الفساد والتلفزيون مقبرة الأخلاق والسينما والمذياع والكرةوالدخان وحلق اللحية ونحو ذلك من المنكرات والبدع التي حدثت وافسدت الأخلاق وأحدثت الشقاق وفرقت القلوب والأبدان ·

ومن الدعوة الى اللهشرح هذه الشرائع العظيمة وبيانجليل منافعها للدنيا والآخرة ، فهذه الصلاة فيها مظهر من مظاهر اجلال بديع السموات والأرض عندما يقوم العبد يؤديها بين يدى ربه خاشعا معظما له مبتدأ بالاعتراف بأنه أكبر من كل شيء « الله أكبر » ·

ثم يأخذ في الثناء على الله ويخصه بالعبادة وطلب المعونة ضارعا إليه أن يرشده ويدله ويهديه الى الصراط المستقيم وان يجعله من الذين أنعم الله عليهم بالتوفيق والهداية وأن يبعده عن طريق المغضوب عليهم وهم الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم وأن يجنبه طريق الضالين وهم الذين تركوا الحق على جهل وضلال كالنصارى ونحوهم ·

وهذه الزكاة فيها من المواساة ، والتخلق بأخلاق الكرماء من السخاء والجود ، والبعد عن أخلاق اللئام ، والشكر لله علىهذه النعمة نعمة المال ، به يحفظ الانسان كرامته ، ويستر عورته ، وكل نعمة من النعم لها شكر خاص إن قام العبد به أمده الله برحمته ، وزاده من فضله ·

قال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ومن شكره الاحسان الى الخلق وسداد المصالح المحتاج اليها ودفع حاجة المضطرين المحتاجين ، وفيها الاستعانة على الجهاد والمصالح الكلية التي لا يستغنى عنها المسلمون ، وفيها دفع صولة الفقراء وعبث العابثين ، فهذا بعض من مزايا هاتين الفريضتين ، قليل من كثير من محاسن الاسلام ·

وهذا صيام شهر رمضان فيه تمرين النفوس على ترك محبوبها الذي ألفته طاعة لله ومحبة له ، وتقربا اليه ، وفيه من تعويد النفوس وتمرينها على قوة العزيمة والصبر على طاعة الله ، وفيه تقوية داعية الاخلاص لله ، وتقديم محبته على محبة النفس ، ولذلك كان الصوم لله ، اختصه لنفسه من بين سائر الأعمال ، والصيام مهذب للنفوس ومصفي للأرواح ، ومطهر للأجسام ·

فله أثر عجيب في حفظ القوى الباطنة وحمايته من الخلط الذي يضر بالجسم ويفسد المعدة ، ومن فوائد الصيام المحسوسة احساس الصائم بحاجة الفقراء الى المساعدة والمعونة ، ولهذا أوجبه الله على جميع الأمم ·

وهذا الحج فيه يجتمع المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها في صعيد واحد يعبدون إلها واحدا قلوبهم متوجهة اليه وأرواحهم مؤتلفة وجسومهم متحملة للمشقات والتعرض للأخطار والصعوبات طلبا لرضي ربهم والوفادة عليه والتملق له في بيته والتنوع في عبوديات الله في تلك المشاعر وما فيها من التعظيم والخضوع التام لله والتذكر لأحوال الأنبياء والمرسلين والأصفياء والمخلصين ·

وفي الحج يتذكر المسلمون الرابطة الدينية وتقوى الوحدة الاسلامية باذن الله ، وفي الحج يتذكر الانسان الحشر ، وجمع الخلائق في صعيد واحد ، واشتداد الزحام ، والعرض على الملك العلام يوم لا تملك نفس

لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله ، وفي الحج من التعارف بين المسلمين ، والسعي في جمع كلمتهم واتفاقهم على المصالح التي تعود عليهم بالخير العام والنفع العظيم مما لا يمكن تعداده ، فإنه من أعظم محاسن الدين الاسلامي وأجل الفوائد الحاصلة للمؤمنين • وهذا قليل من كثير من محاسن الاسلام •

وقوله تعالى : « وعمل صالحا وقال انني من المسلمين » أي مع دعوته الخلق إلى الله بادر هو بنفسه إلى امتثال أمر الله بالعمل الصالح الذي يرضي ربه ، وقال : أي تلفظ بذلك إبتهاجا وسرورا أنه منهم وتفاخرا به مع قصد الثواب وأنه من السالكين في طريقه •

وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل انفسهم وتكميل غيرهم ، وحصلوا على الوراثة من الرسل ، كما أن من أشر الناس قولا وفعلا من كان من دعاة الضلال السالكين لسبله وبين هاتين المرتبتين المتباينتين اللتين ارتفعت إحداهما إلى أعلى عليين ، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين ، مراتب لا يعلمها إلا الله وكلها معمورة بالخلق ، قال تعالى : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون » ، وقال تعالى : « ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون » •

وبعد أن ذكر جل وعلا محاسن الأعمال التي بين العبد وربه ذكر محاسن الأعمال التي بين العباد بعضهم مع بعض ترغيبا في الصبر على مايحصل من الأذى في الله ، ومقابلة إساءتهم بالاحسان ، وعدم إمكان التسوية بينهما ، وإشارة إلى أن مثل هذه المقابلة من شأنها أن تقلب العداوة إلى صداقة وولاء شديد ، فقال : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة » أي ولا تستوى الحسنة التى يرضي بها الله ويثيب عليها ، ولا السيئة التى يكرهها الله ويعاقب عليها •

قيل : الحسنة التوحيد ، والسيئة الشرك ، وقيل : الحسنة المداراة ، والسيئة الغلظة ، وقيل : الحسنة العفو ، والسيئة الانتصار، وقيل : الحسنة العلم ، والسيئة الفحش ، وقيل غير ذلك · والذي تطمئن إليه النفس أنه لا وجه لتخصيص الحسنة بنوع من أنواع الطاعات، وتخصيص السيئة بنوع من أنواع المعاصي ، فإن اللفظ أوسع من ذلك، والله أعلم ·

ثم أمر تعالى باحسان خاص له موقع كبير ، وهو الاحسان إلى من أساء ، فقال : « ادفع بالتي هي أحسن » أي فإذا أساء إليك مسيء من الخلق فادفع سفاهته وجهله بالطريقة التى هي أحسن الطرق ، فقابل إساءته بالإحسان اليه ، والذنب بالعفو عنه ، والغضب بالصبر ، والاغضاء عن الهفوات والزلات ، واحتمال المكاره ، وكظم الغيظ ، خصوصا من له حق كبير عليك كالأقارب ، والأصحاب ، والجيران · قال بعضهم :

وان أساء مسيء فليكن لك في عروض زلته عفو وغفران

فان قطعك فصله ، وان تكلم فيك غائبا أوحاضرا فاعف عنه وعامله بالقول اللين ، وان هجرك وترك الكلام معك فابذل له السلام واطب له الكلام ، فإنك إن صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد أخرى ولم تقابل سفههم بالغضب ، ولا أذاهم بمثله ، استحيوا من ذميم أخلاقهم،وتركوا قبيح أفعالهم ، وخجلوا من مقابلتهم عملهم بعملك ، أنت تحسن وهم يسيئون ، وتحلم وهم يجهلون ·

ثم بين تعالى نتائج الدفع بالتي هي أحسن وأنها الفائدة العظيمة التي لا يستهان بها ، فقال : « فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ، هذه هي الفائدة الحاصلة من الدفع بالتي هي أحسن، والمعنى: أنك إذا فعلت ذلك الدفع صار العدو كالصديق ، والبعيد كالقريب ، فانقلبوا من العداوة إلى المحبة ، ومن البغض إلى المودة ·

قال عمر رضي الله عنه : « ماعاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه » ·

وروى أن رجلا شتم قنبرا مولى علي بن أبي طالب ، فناداه علي : ياقنبر دع شاتمك واله عنه ترضي الرحمن وتسخط الشيطان ٠

وقالوا : ماعوقب الأحمق بمثل السكوت عنه ، ولله در القائل :

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم
إن الجواب لباب الشر مفتاح
فالصمت عن جاهل أو أحمق شرف
ايضا وفيه لصون العرض اصلاح
أما ترى الأسد تخشى وهي صامتة
والكلب يخشى لعمري وهو نباح

وقال الآخر :

وللكف عن شتم اللئيم تكرما   أضر له من شتمه حين يشتم

وقال الآخر :

إن العداوة تستحيل مودة   بتدارك الهفوات بالحسنات

وقال تعالى : « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » ٠

تنبيه إلى شرف هذه الطريقة : أي وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة والوصية المفيدة ، ويعمل بها إلا الصابرون على تحمل المكاره ، وتجرع الشدائد ، وكظم الغيظ ، وترك الانتقام ، فإن ذلك يشق على النفوس ويصعب احتماله، لأن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم العفو عنه ، فكيف بالاحسان ٠

فإذا صبر الانسان نفسه وامتثل لأمر ربه ، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابلته للمسيء بجنس عمله لا تفيده شيئا ، ولا تزيد العداوة إلا شدة ، وان إحسانه إليه ليس بواضع قدره بل من تواضع لله رفعه وهان عليه الأمر ، وفعل ذلك مرتاحا متلذذا مستحليا له .

قال أنس : الرجل يشتمه أخوه ، فيقول : إن كنت صادقا غفر الله لي ، وان كنت كاذبا غفر الله لك .

ثم أخبر تعالى أنه لا يوفق لها إلا من له نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة لكونها من خصال خواص الخلق التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة وهي من أكبر خصال مكارم الأخلاق ، والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وسلم .

مما يفهم من آيات الدرس ٣٠ ـ ٣٥ :

(١) إثبات الربوبية .

(٢) الحث على الاستقامة .

(٣) الاعتراف والنطق بوحدانية الله .

(٤) الحث على الاخلاص .

(٥) إثبات الملائكة .

(٦) دليل على علو الله على خلقه .

(٧) الرد على من أنكر الملائكة من المبتدعة والدهريين ومن سلك طريقهم من المنحرفين .

(٨) بشارة لمن أخلص العمل لله واستقام

(٩) أن الملائكة في أعلا .

(١٠) أنهم يتنزلون على الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ٠

(١١) حصـول الأمن لأولئـك ٠

(١٢) نفى الحـزن عنهـم ٠

(١٣) إثبـات الجنـة ٠

(١٤) أن الله وعد المتصفين بذلك ٠

(١٥) إثبـات البعث والحشر والحساب ٠

(١٦) إثبات الجزاء على الأعمال ٠

(١٧) أن الملائكة أعوانهم وأولياؤهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ٠

(١٨) أنهم يدخلون السرور عليهم ويقولون لهم ماذكره الله جل وعلا

(١٩) أن لهم ماتشتهي أنفسهم في الجنة ٠

(٢٠) أن لهم فيها مايطلبون ٠

(٢١) أن هذا النعيم والثواب الجزيل نزل وضيافة من الله لهم ٠

(٢٢) إثبات الأسماء لله ٠

(٢٣) إثبـات صـفة المغفـرة ٠

(٢٤) إثبـات صـفة الرحمـة ٠

(٢٥) أنه لا أحد أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ٠

(٢٦) الحث على الدعوة إلى الله ٠

(٢٧) الحث على العمل الصالح ٠

(٢٨) الحث على التلفظ بذلك ابتهاجا وسرورا أنه منهم مع قصـد الثواب ٠

(٢٩) الحث على أن الانسان يسعى في تكميل نفسه وتكميل غيره .

(٣٠) أنه لا تستوى الحسنة ولا السيئة .

(٣١) الحث على مقابلة المسيء بالاحسان .

(٣٢) أن في استعمال ذلك أى مقابلة السيئة بالحسنة يصير العدو ولياً حميماً .

(٣٣) التنبيه على شرف هذه الطريقة .

(٣٤) أنه لا يوفق لهذه الخصلة الحميدة والوصية المفيدة إلا الصابرون الذين لهم حظ عظيم .

(٣٥) الحث على الصبر .

(٣٦) الحث على الحلم .

(٣٧) الحث على تعليم الجاهلين لأنه من الدعوة إلى الله .

(٣٨) الحث على وعظ الغافلين لأنه من الدعوة إلى الله .

(٣٩) الحث على الرد على المبطلين ومجادلتهم لأنه من الدعوة إلى الله

(٤٠) الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنه من الدعوة إلى الله .

(٤٢) الترغيب في طلب العلم لما سبق .

(٤٣) الحث على مكارم الأخلاق .

(٤٤) الحث على الاحسان إلى عموم الخلق عند الاخلال بشيء من أمور الدين بتنبيههم على ذلك وتوجيههم الى الحق .

(٤٥) إثبات الألوهية .

والله أعلم ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبــارك وتعــالى :

« وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براءٌ مما تعبدون ٠ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين ٠ وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون ٠ بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسوله مبين ٠ ولمــا جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ٠ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ٠ أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فــوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ٠ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمــن لبيوتهــم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ٠ ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون ٠ وزخــرفا ، وإن كل ذلك لمــا متــاع الحيــاة الدنيا والآخرة عنــد ربك للمتقين ٠ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ٠ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ٠ حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ٠ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ٠ أفأنت تسمع الصم أو تهــدي العمى ومن كان في ضلال مبين ٠ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ٠ أو نرينك الذي وعــدناهم فإنا عليهم مقتــدرون ٠ فاستمسك بالذي أوحي إليك ، إنك على صراط مستقيم ٠ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ٠ واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » ٠

المفــــردات :

أبيه : آزر ، براء : كلمة لا تثنى ولا تجمع ، يقولون : أنا منك براء ،

ونحن منك براء فإن قلت : برىء ثنيت ، وجمعت ، فطرنى : أي خلقنى، والكلمة هي كلمة التوحيد في عقبه في ذريته • مبين : ظاهر الرسالة بما له من المعجـزات البـاهرة ، من القريتين ، من إحـدى القـريتين مكة والطائف •

والرجل الذي من مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومى ، والذى من الطائف هو عروة بن مسعود الثقفى •

ورحمة ربك : قيل : الجنة ، وقيل : النبوة ، والسخرى • الذى يستخدم في السخرة ، معـارج : مراق عليها يصـعدون ، الزخـرف : الذهب ، يعش : يتعامى ويتغافل ، المشرقين : المشرق والمغرب ، غلب المشرق على المغرب •

بعد أن ذكر سبحانه في الآية السابقة أن الذي دعا الكفار إلى اعتناق العقائد الزائفة هو تقليدهم لآبائهم ، وبين أن طريقهم باطل ونهجهـم فاسد ، أردف هذا بأن ذكر لهم أن أشرف أبائهم وهو إبراهيم عليه السلام ترك دين أبيه واتبع الملة الاسلامية •

قال تعالى : « وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون • إلا الذى فطرني فإنه سيهدين » أي واذكر يامحمد لقومك المكبين على تقليد آبائهم كيف تبرأ إبراهيم من أبيه وقومه حين رآهم عاكفين على عبادة الأصنام قال لهم : إننى براء مما تعبدون ، إلا الذي فطرنى فإنى أتولاه وأرجو أن يهدينى للعلم بالحق والعمل به ، فكما فطرنى ودبرنى بما يصلح بدنى فانه سيهديني لمـا يصلح دينى وآخرتى ، وقد جزم بذلك لثقته بربه ولقوة يقينه :

وقوله : « وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون» أي وجعل كلمة التوحيد وهي « لا إله إلا الله » كلمة باقية في ذريته يقتدى به فيها من هداه الله منهم لعلهم يرجعون عما هم عليه إلى الذى فطرهم فيعرفوه

ويعبدوه حق عبادته إذا سمعوا أن أباهم تبرأ من الأصنام ووحد الله عز وجـل ٠

قال قتادة : لا يزال من عقبه من يعبد الله إلى يوم القيامة ٠
وقال ابن العربى : إنما كانت لابراهيم في الأعقاب موصولة بالأحقاب بدعوتيه المجابتين :

إحداهما قوله : « إني جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتي ، قال: لا ينال عهدى الظالمين » فقد قال : إلا من ظلم فلا عهد له ٠

ثانيهما قوله : « واجنبني وبني أن نعبد الأصنام » ثم ذكر جل وعلا نعمته على قريش ، ومن وافقهم من الكفار المعاصرين لهم فقال : « بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين » أي إني متعت هؤلاء المشركين فمددت لهم في الأعمار وأكثرت نعمهم ، فاغتروا بالمهلة وانهمكوا في الشهوات وشغلوا بها عن كلمة التوحيد وأصبحت فيهم غريبـة منـكرة ٠

واستقبلوا صاحبها أسوأ استقبال حتى جاءهم الحق ، وهو القرآن الذى لاشك فيه ولا مرية ولا اشتباه ، ورسول مبين ، أي بين الرسالة، رسالته قامت أدلتها قياما باهرا بأخلاقه ومعجزاته ، وبما جاء به وبما صدق به المرسلين وبنفس دعوته ، وعرض عليهم هذا الحق في وضوح وتبيين ٠

ثم بين جل وعلا ماصنعوا عند مجيء الحق ، أي ولما جاء القـرآن والرسول الصادق المصـدوق ، كابروه وعاندوه وعارضوه ، ودفعوا بالصدور والراح وقالوا إن ماجاء به سحر وليس بوحى من عند الله وانا به جاحدون ، فضموا الى شركهم وكفرهم معاندة الحق والاستخفاف به ، على أنه لا يختلط الحق بالسحر فهو واضح بين ، وإنما هي دعوى كانوا هم أول من يعرف بطلانها ٠

فمـا كان كبراء قريش ليغيب عنهم أنه الحق ، قال تعالى : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » ولكن قصدهم يخدعون الجماهير من خلفهم ، فيقولون إنه سحر ويعلنون كفرهم به على سبيل التوكيد يقولون وإنا به كافرون ليلقوا في روع الجماهير أنهم واثقون مما يقولون ، فيتبعوهم عن طريق الانقياد شـأن الملأ من كل قـوم في التغرير بالجماهير خيفـة أن يفلتوا من نفـوذهم ويهتـدوا إلى كلمة التوحيد التى يسقط معها كل كبير ، ولا يعبد ويتقى إلا العلى الـكبير جـل وعـلا ٠

ثم ذكر ضربا آخر من كفرهم وهـو : اعتراضـهم على الذى أنزله تعالى وتقدس فقـال : « وقالوا لولا نزل هـذا القرآن على رجـل من القريتين عظيم » معناه أنهم قالوا : منصب النبوة منصب عظيم شريف لا يليق إلا برجل شريف عظيم كثير المال والجاه في أعينهم ، ومحمـد صلى الله عليه وسلم ليس بذلك فمن الحق عندهم أن يسند هذا المنصب إما إلى الوليد بن المغيرة بمكة أو إلى عروة بن مسعود الثقفى بالطائف، أحـد هـذين ٠

وقيل : إن المراد بعظيم مكة عتبة بن ربيعة ، قاله مجاهد ٠

وقيل في عظيم الطائف : إنه حبيب بن عروة بن عمير الثقفى ، رواه العوفي عن ابن عباس ٠

وقيل : مسعود بن عمرو بن عبيد الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس

وقيل : إنه ابن عبد ياليل ، رواه ابن نجيح عن مجاهد ٠

وقيل : كنانة بن عمرو بن عمير الطائفى ، قاله السدى ٠

قال الله تبارك وتعالى ردا عليهم في هذا الاعتراض : « أهم يقسمون رحمة ربك » أي ليس الأمر مردودا إليهم ، بل إلى الله عز وجل « الله

أعلم حيث يجعل رسالته ، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ، وأطيبهم نفسا ، وأشرفهم بيتا ، وأطهرهم أصلا ، وأحسنهم خلقا ، ففيه الانكار الدال على تجهيلهم ، والتعجب من اعتراضهم وتحكمهم وأن يكونوا هم المدبرين لأمر الرسالة ·

ثم ضرب لهذا مثلا يتبين به خطؤهم في طلب الاصطفاء بحسب مايقترحون ويهوون لمن يشاءون ، فقال مبينا ذلك وأنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق ، والعقول والفهوم ، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » ·

ثم ذكر الحكمة في رفع درجات بعضهم بعضا فقال : « ليتخذ بعضهم بعضا سخريا» أي ليستعمل بعضهم بعضا في مصالحهم، ويستخدموهم في مهنهم ، ويسخروهم في أشغالهم ، فإن كل صناعة دنيوية يحسنها قوم دون آخرين ، فجعل البعض محتاجا إلى البعض لتحصل المواساة بينهم في متاع الدنيا ويحتاج هذا إلى هذا وبالعكس ، ويصنع هذا لهذا ، ويعطى هذا لهذا حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم· قال الشاعر :

الناس للناس من بدو وحاضرة   بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وكل عضو لأمر ما يمارسه   لا مشي الكف بل تمشي القدم

وقال الآخر :

إذا ماتبينا الأمور تكشفت   لنا وأمير القوم للقوم خادم

وإذا كان الله سبحانه هو الذي قسم بينهم أرزاقهم ورفع درجات بعضهم على بعض فكيف لا يقنعون بقسمته في أمر النبوة وتفويضها إلى من يشاء من خلقه ·

ثم علل ماسلف بقوله : « ورحمة ربك خير مما يجمعون » وفي قوله « رحمة ربك » قولان :

أحدهما : النبوة خير من أموالهم التي يجمعونها ، قاله ابن عباس ·

والثاني : الجنة خير مما يجمعون في الدنيا ·

ثم بين تعالى خسة الدنيا وحقارتها فقال : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون · ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون · وزخرفا » أي ولولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ويرغبوا فيه إذا رأوا الرزق عندهم لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة عليها يظهرو أي يصعدون ويرتقون ·

يقال : ظهرت البيت أي علوت بسطحه ، وهذا لأن من علا شيئا وارتفع عليه ظهر للناظرين ·

ويقال : ظهرت على الشيء أي علوته ، وظهرت على العدو ، أي غلبته ، وأنشد النابغة الجعدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله :

علونا السماء عزة ومهابة وانا لنرجوا فوق ذلك مظهرا

أي مصعدا ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إلى أين ؟ قال : إلى الجنة ، قال : أجل ، إن شاء الله » ·

قال الحسن : والله لقد مالت الدنيا بأكثر أهلها ، وما فعل ذلك ، فكيف لو فعل ؟

وقوله : « ولبيوتهم أبوابا » أي وجعلنا لبيوتهم أبوابا من فضة وسررا من فضة عليها ـ أي السرور ـ يتكئون وهو جمع سرير ·

ثم بين جل وعلا أن هذه الأمتعة من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة قصيرة المدى سريعة الزوال ، فقال : « وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا » يقول تعالى ذكره : وما كل هذه الأشياء التى ذكرت من السقف من الفضة والمعارج والأبواب والسرر من الفضة والزخرف إلا متاع يستمتع به أهل الدنيا ، ويزول ويذهب .

وفي صحيح الترمذي عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » . وأنشدوا :

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن ... إذاً لم يكن فيها معاش لظالم
لقد جاع فيها الأنبياء كرامة ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقال الآخر :

تمتع من الأيام إن كنت حازماً ... فإنك فيها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منه فليس بضائر
فلا تزن الدنيا جناح بعوضة ... ولا وزن رق من جناح لطائر
فلم يرض بالدنيا ثواباً لمحسن ... ولا رضي الدنيا عقاباً لكافر

وقال ابن القيم رحمه الله :

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة ... لم يسق منها الرب ذا الكفران
لكنها والله أحقر عنده ... من ذا الجناح القاصر الطيران
ولقد تولت بعد عن أصحابها ... فالسعد منها حل بالدبران

لا يرتجى منهـا الوفاء لغـادر   أين الوفاء من غـادر خـوان ؟
طبعت على كدر فكيف ينالها   صـفو أهـذا قط في الامـكان
يا عاشق الدنيـا تأهب للذي   قد ناله العشـاق كل زمـان

وقوله : « والآخرة عند ربك للمتقين » أي لهم خاصة لا يشـاركهم فيها أحد غيرهم ، ولهذا لما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صعد إليه في تلك المشربة لما آلى صلى الله عليه وسلم من نسائه على حصير قد أثر بجنبه ، فابتدرت عينـاه بالبـكاء ٠

وقال : يارسول الله هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت صفوة الله من خلقه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكأ ، فجلس وقال : أوفي شك ياابن الخطاب !؟ ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أولئك قوم عجلت لهم طيباتهـم في حياتهم الدنيـا » ٠ وفي رواية : « أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة » ٠

وفي الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها فإنها لهـم في الدنيا ولنـا في الآخرة وإنما خولهم الله تعالى في الدنيا لحقارتها » ٠

وقوله تعالى : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » يقول تعالى : ومن يعش أي يتعامى ويتغافل ويعرض عن ذكر الله ، وأصل العشو تثبت النظر بغير علة في العين ، يقال منه : عشـا فلان يعشو عشوا وعشوا إذا ضعف بصره وأظلمت عينه كأن عليه غشاوة ، كما قال الشاعر :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره   تجد خير نار عندها خـير موقد

وأما إذا ذهب البصر ولم يبصر فإنه يقال فيه : عشي فلان يعشيعشي منقوص ، ومنه قول الأعشى :

إن رأت رجـلا أعشى أضربه   ريب المنون ودهر مفند خبـل

المعنى : أن من يعرض عن القـرآن الـكريم يقيض الله له شيطانا يقارنه ويعده ويمنيه ويوسوس له ، ويزين له السوء ، وهـذه الآية كقوله تعالى : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى» وكقوله : «فلمازاغوا أزاغ الله قلوبهم» وكقوله جل وعلا : « وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم مابين أيديهم وما خلفهـم » الآية ·

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن عثمان المخزومى « أن قريشا قالت قيضوا لكل رجل من أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلا يأخذه فقيضوا لأبى بكر طلحة بن عبيد الله فأتاه وهو في القوم ، فقال أبو بكر : إلام تدعونى ؟ قال : أدعوك إلى عبادة اللات والعزى ، قال أبو بكر : وما اللات ؟ قال : أولاد الله ، قال : وما العزى ؟ قال · بنات الله ، قال أبو بكر : فمن أمهم ؟ فسكت طلحة فلم يجبه ، فقال لأصحابه : أجيبوا الرجل ، فسكت القوم ، فقال طلحة : قم يا أبا بكر : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأنزل هذه الآية : فوظيفة قرناء السوء من الشياطين أنهم يصدوا قرناءهم عن سبيل الله ·

وقوله : « ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » أي يحسب الكفار أن الشياطينمهتدون ، أو ويحسب العاشون أنأنفسهم مهتدون ، فإن اعتقاد كون الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتحاد مسلكهما ·

ثم ذكر حال الكافر مع القرين يوم القيامة ، فقال : « حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » أي حتى إذا جاءنا

هذا العاشي عن ذكر الرحمن قال لقرينه وددت أن بينى وبينك بعد المشرقين ، أى بعد مابين المشرق والمغرب ، فغلب اسم أحدهما على الآخر ، كما يقال : القمران للشمس والقمر ، والعمران لأبى بكروعمر، والبصرتان للكوفة والبصرة ، والعصران للغداة والعصر ، قال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع

وقال جرير :

ما كان يرضي رسول الله فعلهم والعمران أبو بكر ولا عمر

وقول : فبئس القرين المخصوص بالذم محذوف ، أى أنت أيها الشيطان .

وقول أبى سعيد الخدري : إذا بعث الكافر زوج بقرينه الشيطان ، فلا يفارقه حتى يصيرا إلى النار .

ثم ذكر تعالى ماسيقال لهم يوم القيامة توبيخا وتانيبا ، «ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون » ، يقول جل ذكره : ولن ينفعكم في هذا اليوم اشتراككم في العذاب أنتم وقرناؤكم ، كما كان ينفع في الدنيا الاشتراك في المهام الدنيوية ، إذ يتعاونون في تحمل أعبائها ويتقاسمون شدتها وعناءها ، فان لكل منهم من العذاب ما لا تبلغه طاقته ، ولا قدرة له على احتماله .

وقد يكون المعنى : ولن ينفعكم ذلك من حيث التاسي ، فإن المكروب في الدنيا يتاسي الانسان به ويستروح بوجدان المشارك له في البلوى ، فيقول أحدهم لي في البلاء والمصيبة أسوة ، فيسكن ذلك من حزنه ، كما قالت الخنساء ترثى أخاها :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره بكل مغيب شمس

فلولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن أعزى النفس عنه بالتأسي

وقصارى ذلك أنه لا يخفف عنهم العذاب بسبب الاشتراك ، إذ لكل منهم الحظ الأوفر منه ٠

ثم قال جل ذكره مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له ، وأنهم لا خير فيهم ولا فيهم ذكاء يدعوهم إلى الهدى فقال : « أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى ومن كان في ضلال مبين » أي ليس ذلك إليك ، فلا يضيق صدرك إن كفروا فإنما عليك البلاغ ، وليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ٠

وقد كان صلى الله عليه وسلم يبالغ في دعاء قومه إلى الايمان وهم لا يزيدون إلا غيا وتعاميا عما يشاهدون من دلائل نبوته وتصامما عما يسمعون من بينات القرآن ، المعنى أن هؤلاء الكفار بمنزلة الذين لا يعقلون ماجئت به ، وبمنزلة العمي الذين لا يبصرونه لافراطهم في الضلالة ولتمكنهم من الجهالة ٠

فهؤلاء قد فسدت فطرهم وعقولهم باعراضهم عن الذكر واستحدثوا عقائد فاسدة وصفات خبيثة تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى ، ولم يبق إلا عذابهم ونكالهم ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ٠

ولهذا قال مسليا له : « فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون » أي فإن قبضناك قبل أن نبصرك عذابهم ونشفى بذلك صدرك وصدور المؤمنين فانا منهم منتقمون لا محالة « أو نرينك الذي وعدناهم » أي أو نرينك في حياتك الذي وعدناهم من العذاب ، « فإنا عليهم مقتدرون » أي قادرون على هذا وهذا ٠

قال قتادة : إن الله أكرم نبيه بأن لم يريه تلك النقمة ، ولم يريه في أمته شيئا يكرهه ، ولم يكن نبى قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم صلى الله عليه وسلم ·

قال : وذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرى مايصيب أمته من بعده ، فما رئى ضاحكا متبسطا حتى قبضه الله عز وجل ·

وقيل : إن النبى صلى الله عليه وسلم أرى الانتقام منهم ، وهو ما كان من نقمة الله من المشركين يوم بدر ، فقد قتل من صناديد قريش سبعون رجلا ، وأسر من أشرافهم سبعون أسيرا ، فقر الله عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم مع قلة أصحابه صلى الله عليه وسلم وكثرة أعدائه ·

ثم أمر جل وعلا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستمسك بما أوحى إليه فعلا واتصافا بما يأمر بالاتصاف به ويدعو إليه ، وحرصا على تنفيذه بنفسه وفي غيره ، ففيه تسلية له صلى الله عليه وسلم وأمر له ولأمته بالدوام على التمسك بالآيات ، فإن القرآن هو الحق ، وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم ·

ثم ذكر جل ذكره مايستحث نبيه صلى الله عليه وسلم على التمسك بالقرآن فقال : « وإنه لذكر لك ولقومك » أي وإن القرآن لشرف عظيم لك أيها الرسول ولقومك لأنه بلغتهم ، قال تعالى : « بلسان عربى مبين » وعلى رجل منهم ، فهم أفهم الناس له ، فينبغي أن يكونوا أسبق الناس إلى تلقيه بالقبول والفرح والسرور ، والعمل به ·

عن عدى بن حاتم قال : كنت قاعدا عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « ألا إن الله تعالى علم ما في قلبى من حبى لقومك ، فبشرنى فيهم، فقال سبحانه : وإنه لذكر لك ولقومك الآية ، فجعل الذكر والشرف

لقومي ــ إلى أن قال ــ : فالحمد لله الذي جعل الصديق من قومي وإن الله قلب العباد ظهرا وبطنا فكان خير العرب قريش وهي الشجرة المباركة » .

ثم قال عدى : مارأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرت عنده قريش بخير إلا سره حتى يتبين ذلك السرور في وجهه للناس كلهم اهـ .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايزال هـذا الأمر في قريش ما بقى منهم اثنان » أخرجه الشيخان .

وعن معاوية قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا كبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين » أخرجه البخاري .

وفي الآية إيماء الى أن الذكر الجميل والثناء الحسن أمر مرغوب فيه ، ولولا ذلك مامتن الله على نبيه صلى الله عليه وسلم به ، ولما طلبه ابراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » .

قال أبو الطيب :

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته ما قاته وفضول العيش أشغال

وقال الآخر :

ما مات قوم إذا أبقوا لنا أدبا وعلم دين ولا فاتوا ولا ذهبوا

وقوله : « وسوف تسألون » أى وسوف يسألك ربك وإياهم عما عملتم فيه ، وهل عملتم بما أمركم ربكم فيه ، وانتهيتم عما نهاكم عنه فيه .

وقوله : « واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون » في قوله تعالى « واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا » أقوال :

أحدها : قيل : جمعوا له ليلة أسرى به في بيت المقدس فأمهم وصلى بهم ، فقال الله له : سلهم ، قال : فكان أشد إيمانا ويقينا بالله وبما جاء من الله من أن يسألهم ، وقرأ « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك » ٠

قال : فلم يكن في شك ولم يسأل الأنبياء ولا الذين يقرءون الكتاب ، قال : ونادى جبريل صلى الله عليه وسلم فقلت في نفسي الآن يؤمنا أبونا إبراهيم ، قال : فدفع جبريل في ظهرى ، قال : تقدم يامحمد فصل وقرأ « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام » حتى بلغ « لنريه من آياتنا » ، وفي ذلك يقول شوقي :

أسرى بك الله ليلا إذ ملائكه والرسل في المسجد الأقصى على قدم

لما خطرت به التفوا بسيدهم كالشهب بالبدر أو كالجند بالعلم

صلى وراءك منهم كل ذى خطر ومن يفز بحبيب الله يأتمم

والثاني : أن المراد اسأل مؤمني أهل الكتاب من الذين أرسلت إليهم الأنبياء ، قيل : والمعنى سل اتباع من أرسلنا من قبلك ٠

والثالث : أن المراد بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم خطاب أمته، فيكون المعنى : سلوا ٠

والخلاصة : أن كل الرسل ــ من أولهم إلى آخرهم ــ يدعون الى عبادة الله وحده لا شريك له ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس ببدع

من بين الرسل في الأمر به حتى يكذب ويعادى له ، قال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » ٠

والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

ممـا يفهم من آيات الدرس آية ٢٧ ـ ٤٥ :

(١) التبرى من عبادة غير الله ٠

(٢) إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ٠

(٣) إثبات صفة الفطر وأنه الذى فطر الخلق جل ذكره ٠

(٤) ثقة إبراهيم ويقينه بربه ٠

(٥) تبرى إبراهيم من قومه حين رآهم يعبدون الأصنام ٠

(٦) بقاء كلمة التوحيد في عقب إبراهيم ٠

(٧) التذكير بطريقة الآباء المخلصين وبمـا يكون سببا لرجـوع الأولاد المنحـرفين ٠

(٨) أن توفر النعم ودخول الترف والانهماك في الملاذ والشهوات يشغل وينسي طاعة الله إلا من عصمه الله ٠

(٩) توبيخهم على إعراضهم عما جاء به صلى الله عليه وسلم ٠

(١٠) أن المشركين ضموا إلى شركهم معاندة الحق والاستخفاف به

(١١) أن القرآن حق ٠

(١٢) دليل على رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ٠

(١٣) أنه صلى الله عليه وسلم بين الرسالة لا ينكر رسالته إلا مكابر معـانـد ٠

(١٤) الرد على من أنكر رسالته ٠

(١٥) أن القرآن منزل غير مخلوق ٠

(١٦) دليل على سخافة عقولهم حيث اقترحوا على الله جل وعلا ·

(١٧) الانكار عليهم في هذا الاقتراح ·

(١٨) إثبات الربوبية ·

(١٩) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد لأنه المخاطب بذلك ·

(٢٠) أن قسمة الأرزاق بيد الله ·

(٢١) إثبات علم الله جل وعلا ·

(٢٢) أن الله حكيم حيث فاوت بين خلقه لينتظم معاشهم ويصل كل منهم إلى مطلبه وتتم مصالحهم ·

(٢٣) أن ما أعده الله لعباده في الدار الآخرة خير من حطام الدنيا ، لأن الدنيا على شرف الزوال والانقراض ، وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآبدين ·

(٢٤) بيان خسة الدنيا وحقارتها ، فالعاقل من جعلها مطية للآخرة·

(٢٥) لولا أن الناس يجتمعون على الكفر لجعل الله لمن يكفر لبيوتهم سقفا من فضة ·

(٢٦) أن زين الدار الآخرة عند الله للمتقين خصوصا ·

(٢٧) التحذير من الاعراض عن القرآن ·

(٢٨) أن من أعرض عن القرآن يقيض له شيطانا يغويه ·

(٢٩) إثبات صفة الرحمة ·

(٣٠) أن القرين السوء يحول بين قرينه وبين سبيل الحق ·

(٣١) أن هذا القرين السوء يوهم قرينه أنه على الصراط المستقيم حتى يصطدم بالعذاب الأليم وهو لا يشعر ·

(٣٢) أن هذه المقارنة آخر الأمر تكون عداوة ، قال تعالى في الآية الأخرى « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

(٣٣) أن اشتراك الكفار في العذاب لا ينفعهم فلا تخفيف ولا تعاون ولا دفـــع .

(٣٤) دليل على شدة العذاب .

(٣٥) توبيخ الكفار في ذلك اليوم العظيم .

(٣٦) إثبات جهنم وأنها لأعداء الله معدة .

(٣٧) التحذير من الظلم لسوء عاقبته .

(٣٨) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم عن امتناع المـكذبين عن الاستجـابة .

(٣٩) أن من قد سلبه الله استماع حججه التي احتج بها في كتابه لا يقــدر أحــد على إسماعه .

(٤٠) أن من أعمى الله قلبه عن طريق الهدى لا يقدر أحد على هدايته

(٤١) أن من كان في ضلال مبين لا يقدر على هدايته إلا الله .

(٤٢) تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم من قــوله « فاما نذهــبن بك » الآية .

(٤٣) أن في التعبير بالوعد وهو سبحانه لا يخلف الميعاد إشارة إلى أنه هو الواقــع ، وهكذا كان إذ لم يفلت أحد من صناديدهم في بدر وغيرها إلا من تحصن بالايمــان .

(٤٤) أن القرآن شرف للرسول صلى الله عليه وسلم ولقومه .

(٤٥) أنهم لابد أن يسألوا يوم القيامة عنه وعن قيامهم بحقوقه .

(٤٦) أن الرسل لم يأمروا لا بتوحيد الله .

(٤٧) إثبات صفة الكلام لله .

(٤٨) إثبات قدرة الله .

(٤٩) الأمر بالتمسك بالقرآن .

(٥٠) إن من تمسك به فهو على صراط مستقيم .

(٥١) أن الذكر الجميل والثناء الحسن أمر مرغوب فيه .

(٥٢) إثبات البعث .

(٥٣) إثبات الحشر والحساب والجزاء على الأعمال ، والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تبارك وتعالى :

« إن المتقين في جنات وعيون · آخذين ماآتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين · كانوا قليلا من الليل مايهجعون · وبالأسحار هم يستغفرون · وفي أموالهم حق للسائل والمحروم · وفي الأرض آيات للموقنين · وفي أنفسكم أفلا تبصرون·وفي السماء رزقكم وماتوعدون فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » ·

المعنى الإجمالي للآية

بعد أن ذكر جل وعلا المغترين الذين أنكروا يوم الدين وكذبوا بالبعث والنشور ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عايه وسلم ، وعبدوا مع الله غيره من وثن أو صنم ، أردف ذلك ذكر حال المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم في جنات النعيم التي تجرى من تحتها الأنهار جزاء إحسانهم في أعمالهم وقيامهم بالليل للصلاة والاستغفار بالأسحار ، وانفاقهم أموالهم للسائل والمحروم ونظرهم في دلائل التوحيد التي في الأرض والتي في الأنفس ·

« إن المتقين في جنات وعيون » أى إن الذين اتقوا الله واطاعوه واجتنبوا معاصيه في جنات مشتملات على جميع أصناف الأشجار والفواكه التي لا يوجد لها مثيل في الدنيا ، والتى لا يوجد لها نظير ، قال تعالى : « فلا تعلم ما أخفي لهم من قرة أعين » الآية وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ·

وقوله : « وعيون » أي لهم فيها عيون فوارة بالماء تجرى خلال الجنة فلا ينالهم عطش كما أنهم لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا : وقوله تعالى : « آخذين ماآتاهم ربهم » يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم من جميع أصناف النعيم فأخذوا ذلك راضين به قد قرت به أعينهم وفرحت به نفوسهم ولم يطلبوا منه بدلا ولا يبغون عنه حولا وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه مزيد .

ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا وأنهم آخذين ماآتاهم ربهم من الأوامر والنواهي أي تلقوها بالانشراح والارتياح والاشتياق والانقياد لِما أمر الله به بالامتثال على أكمل الوجوه .

ولِما نهى عنه بالانزجار على أكمل الوجوه ، والمعنى الأول أرجح لأنه أليق بالسياق ، لأنه ذكر أعمالهم في الدنيا بقوله : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » ، أي إنهم كانوا في دارالدنيا يفعلون صالح الأعمال من الاحسان في عبادة الله والاحسان إلى عباد الله ، فالاحسان في عبادة الله فسره صلى الله عليه وسلم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وأما الاحسان إلى عباد الله فهو إما أن يكون بايصال النفع الدينى والدنيوي ويدخل فيه إنفاق العلم بأن يشتغل بتعليم الجاهلين وهداية الضالين ويدخل فيه إنفاق المال في وجوه البر والمشاريع الخيرية والعبادات ، وإما أن يكون بدفع الضر عنهم حسب الاستطاعة أو بهما جميعا حتى أنه يدخل في ذلك الاحسان بالقول والكلام اللين والاحسان إلى الممالك والبهائم المملوكة وغير المملوكة .

ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل ، فقال جل وعلا : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون» فهم الأيقاظ في جنح الظلام والناس نيام المتوجهون

الى ربهم الشديدي الحساسية برقابة ربهم ورقابتهم لأنفسهم فلا يهجعون في ليلهم إلا يسيرا ولا يطعمون الكرى إلا قليلا كما قال تعالى في الآية الأخرى « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » الآية فإن من أفضل أنواع الاحسان في عبادة الخالق صلاة الليل الدالة على الاخلاص وتواطىء القلب واللسان ٠

قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذو منها ولو شيئا ٠

وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله : كل ليلة تأتي عليهم إلا يصلون فيها لله عز وجل اما من أولها وإما من أوسطها ٠

وقال مجاهد : قل مايرقدون من ليلة حتى الصباح لا يتهجدون ٠ وكذا قاله قتادة ٠

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه وأبو العالية : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء ٠

وقال أبو جعفر الباقر : كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة ٠

والقول الثانى أن ما مصدرية تقديره كانوا قليلا من الليل هجوعهم ونومهم واختاره ابن جرير وقال الحسن البصري « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » كابدوا قيام الليل فلا ينامون من الليل إلا أقله ونشطوا فمدوا إلى السحر حتى كان الاستغفار بسحر ، وقال الأحنف بن قيس « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » كانوا لا ينامون إلا قليلا ، ثم يقول لست من أهل هذه الآية ٠

وقال الحسن البصري كان الأحنف بن قيس يقول : عرضت عملي على عمل أهل الجنة فإذا قوم قد باينونا بونا بعيدا ، إذا قوم لا نبلغ

أعمالهم « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » وعرضت عملي على عمل أهل النار فإذا قوم لا خير فيهم مكذبون بكتاب الله وبرسل الله ، مكذبون بالبعث بعد الموت ، فقد وجدت من خيرنا منزلة قوما خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال رجل من بني تميم لأبى : يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا : ذكر الله تعالى قوما فقال « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » ونحن والله قليلا من الليل مانقوم ، فقال أبى رضي الله عنه طوبى لمن رقد إذا نعس واتقى الله إذا استيقظ .

وقال عبدالله بن سلام رضي الله عنه : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أنجفل الناس إليه ، فكنت فيمن أنجفل ، فلما رأيت وجهه صلى الله عليه وسلم عرفت أن وجهه ليس بوجهه رجل كذاب ، فكان أول ماسمعته صلى الله عليه وسلم يقول « يا أيها الناس أطعموا الطعام وصلوا الأرحام وأفشوا السلام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

وقال الامام أحمد حدثنا حسن بن موسى حدثنا ابن لهيعة حدثنى يحيى بن عبد الله عن أبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها » .

فقال أبو موسي الأشعرى رضي الله عنه لمن هي يارسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم « لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وبات لله قائما والناس نيام » .

وقال معمر في قوله تعالى : « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » كان الزهري والحسن يقولان كانوا كثيرا من الليل ما يصلون وقال ابن

عباس رضي الله عنهما وابراهيم الخنعي « كانوا قليلا من الليل مايهجعون » ماينامون وقال الضحاك « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا » ثم ابتدأ فقال « من الليل مايهجعون » وبالأسحار هم يستغفرون ، وللزاهد الورع إبراهيم ابن أَدْهَم في قيام الليل :

إلى كَمْ تَنَامُ الليلَ والعُمْرُ يَنْفدُ ... قُمِ الليلَ يا هـذا لَعلَّكَ ترْشُـدُ
وغـيرُك في مِحْـرَابِهِ يَتَهَجَّـدُ ... أراكَ بطُولِ اللَّيلِ ويْحـكَ نائِمً
مِن الأجْرِ والإحْسَانِ ماكانَ يرقدُ ... ولو عـلمَ البطالُ ما نالَ زاهـدٌ
إذا مـا دَنَا مِن عَبْـدِهِ المُتَفَـرِّدُ ... لصَامَ وقامَ اللَّيـلَ والناسُ نُوَّمٌ
ويعْـلَمُ أنَّ اللهَ ذُو العَرْشِ يُعْبَـدُ ... بِحزْمٍ وعـزْمٍ واجْتهادٍ ورَغْبَـةٍ
لـكانَ رَسُولُ اللهِ فِيهْـا يخَـلَّدُ ... ولو كانتِ الدُّنْيَـا تَدُوْمُ لأهـلِها
فلا حرُّها يطفَى ولا الجمرُ يخمَـدُ ... أترقُدُ يا مَغْرُوْرُ والنـارُ توُقَـدُ
فتَخْبُو أحْيَـانًا وأحْيانًا توقـدُ ... ألا إنهـا نارٌ يقَـالُ لهـا لظَى
ستحْشُرُ عطشَانًا ووَجْهُكَ أسْوَدُ ... فيا راكبَ العِصْيَانِ ويْحكَ خَلِّهَا
وآخَرُ بالذنبِ الثَّقِيْلِ مُقَيَّـدُ ... فـكَمْ بينَ مَسْرُوْرٍ بطَـاعَةِ رَبِه
وهـذَا شَـقِيٌ في الجَحِيمِ مُخَـلَّدُ ... فهذا سَعِيْدٌ في الجِنَـانِ مُنعَّـمُ
وقَـدْ قامَ خَـيرُ العالَمِينَ مُحمَّـدُ ... إذا نُصِبَ المِيْزَانُ لِلفَصْلِ والقَضَا
معَ الآلِ والأصْحَابِ مادارَ فرقَدُ ... عليه صـلاةُ اللهِ في كُلِّ ليْـلةٍ

وروى عن رجل من الأزد أنه قال كنت لا أنام الليل فنمت في آخر الليل فاذا أنا بشابين أحسن مارأيت ، ومعهما حلل فوقفا على كل مصل وكسواه حلة ثم انتهيا إلى النيام فلم يكسوهم ، فقلت لهمـا

اكسونى من حللكما هـذه ؟ فقالا لى إنها ليست حلة لباس إنمـا رضـوان الله على كل مُصلٍ ٠

ويروى عن أبي خلاد أنه قال حدثنى صاحب لي قال : فبينما أنا نائم ذات ليلة إذ مُثّلت لِيَ القيامة فنظرت إلى أقوام من إخوانى قـد أضاءت وجوههم وأشرقت ألوانهم وعليهم الحلل من دون الخلائق فقلت ما بال هؤلاء مكتسون والناس عـراة ووجوههم مشرقة ووجـوه هـؤلاء مُغْبَرَّة ٠

فقال لي قائل : الذين رأيتهم مكتسون فهم المصلون بين الأذان والاقامة والذين وجوههم مشرقة فأصحاب السهر والتهجـد ، قال ورأيت أقواما على نجائب فقلت ما بال هؤلاء ركبانا والناس مشـاة حفاة فقال لى هؤلاء الذين قاموا على أقـدامهم تقربا إلى الله تعـالى فأعطاهم الله بذلك خير الثواب قال فصحت في منامى واها للعابدين ما أشرف مقامهم ، ثم استيقضت من منامى وأنا خائف ٠

وروى عن بعض المتهجدين أنه أتاه آت في منامه فأنشده :

وكَيْفَ تَنَامُ العيْنُ وهْيَ قَرِيْرَةٌ ولَمْ تدْرِ فِي أيّ المَكَانيْنِ تنْزِلُ

ثم مدحهم ثانيا فقال « وبالأسحار هم يستغفرون » فيه إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك وأخلص منه ويستغفرون الله استغفار المذنب لذنبه وهذه سيرة الكرماء يأتون بما يقدرون عليه من وجوه الكرم ويستقلونه ويعتذرون من التقصير ، وعكسهم اللئام ياتون بالقليل ويستكثرونه ويمنون به٠

وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغـيره كما قال تعالى : في وصف أهل الايمان والطاعة والمستغفرين بالأسحار ، وقد ثبت في الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الله تعالى ينزل كل ليـلة إلى سماء

الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله حتى يطلع الفجر وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارا عن يعقوب أنه قال لبنيه : « سوف استغفر لكم » قالوا « أخرهم إلى وقت السحر » .

ولما ذكر حالهم مع ربهم بوصفهم بالصلاة وبذكر حالهم مع الناس وحالهم مع المال وأن صفتهم من الصفات اللائقة بالمحسنين من أداء الزكاة والبر والصلة فقال « وفي أموالهم حق للسائل والمحروم » أى فهم يجعلون جزءا مقسوما قد أفرزوه للسائل . ونصيبا للمحروم فالسائل هو يتقدم فيبتدىء بالسؤال وله حق . كما ورد عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها الحسين بن على رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « للسائل حق وإن جاء على فرس » رواه أبو داود من حديث سفيان الثورى به .

وأما المحروم فهو الذى يسكت ويستحى فيحرم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد هو المحارف الذى ليس له في الاسلام سهم يعنى لا سهم له في بيت المال ولا كسب له ولا حرفة يتقوت منها .

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هو المحارف الذى لا يكاد يتيسر له مكسبه .

وقال الضحاك : هو الذى لا يكون له مال إلا ذهب أي تلف قضى الله تعالى ذلك :

وقال أبو قلابة : جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل فقال رجل من الصحابة رضي الله عنهم هذا المحروم .

وقال قتادة والزهري : المحروم الذي لا يسأل الناس شيئا .

قال الزهري : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » واختار ابن جرير أن المحروم الذي لا مال له .

وقوله تعالى : « وفي الأرض آيات للموقنين » المراد في الأرض دلائل واضحة وعلامات باهرة إنك إذا نظرت إليها وكيف خلقت رأيتها من أعظم الأدلة الدالة على وجود خالقها وقوته الباهرة وعلمه المحيط وحكمته التي وضعت كل شيء في موضعه وقوته التي لا يعجزها شيء .

خلقها سبحانه وتعالى : فراشا ومهادا وذللها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعاشهم وجعل فيها الطرق لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم ، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها وطحاها فوسعها من جميع جوانبها وجعلها كفاتا للأحياء تسعهم على ظهرها ماداموا أحياء وكفاتا للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات . قال تعالى « ألم نجعل الأرض كفاتا . أحياء وأمواتا » .

ثم هذه الأقوات المدخرة في الأرض للأحياء التي تسكنها تسكن سطحها أو تسبح في أجوائها أو تمخر ماءها أو تختبيء في مغاورها وكهوفها أو تختفي في مساربها وأجوافها هذه الأقوات الجاهزة المركبة والبسيطة والقابلة للوجود في شتى الأشكال والأنواع سخرها وهناها العزيز الحكيم لتلبي حاجة هؤلاء الأحياء التي لا يحصي عددها إلا الله جل وعلا ولا يحصي أنواع غذائها إلا هو جل وعلا .

ثم انظر إلى تنوع مشاهد هذه الأرض ومناظرها حينما يمتد الطرف وتنتقل القدم وإلى عجائب هذه المشاهد التي لا تنفد من وهاد

وبطاح ووديان وجبال وبحار وبحيرات وأنهار وغدران وما عليها من زروع وثمار وقطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل ٠

وما فيها من حدائق وبساتين وأشجار وكل من هذه المشاهد تارة تكون مجدبة فلها حال وتارة خضراء ممرعة ولها مشهد آخر ويراه وقت الحصاد وهو مصفر فاذا له حال أخرى وهوفي مكان واحد ومافيها من ماء عذب فرات وماء ملح أجاج وما فيه من زيوت ومعادن وغازات وأبخـــرة ٠

وما فيها من آثار الأمم الماضية وآثار إهلاكهم حيث كفروا وكذبوا الرسل لمـا دعتهم إلى توحيد الله وما فيها من الخلائق التى تعمرها والدواب المنبثة المختلفة الألوان والصور المتباينة الهيئات والأفعال من بهائم وطيور ووحوش وأسماك وزواحف وحشرات وزرافة ونعام إ هـ ٠

هذه الخلائق لايعلم عددها وعدد أجناسها إلا الله الذى خلقها جل وعلا وقد أكثر الله جل وعلا من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى النظر اليها والتفكر في خلقها فقال تعالى : « والأرض مددناها وألقينا فيهـا رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ٠ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب» وقال : « والأرض فرشناها فنعم الماهدون » وقال : « الذى جعل لكم الأرض قــرارا » ٠

وقال « هو الذي جعل لكم ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور » . وقال : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشــعة فإذا أنزلنا عليها المـاء اهــتزت وربت » وقال : « وآية لهـم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون ٠ وجعلنـا فيها جنـات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون » ٠

وخص سبحانه الموقنين لأنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر

باليقين فالموقنون هم الموحدون الذين سلكوا الطريق السوى البرهانى الموصل إلى المعرفة التامة فهم نظارون بعيون باصرة وافهام نافذة كلما رأوا آية فكروا فيها وفي المقصود منهـا فازدادوا إيقانا على إيقـانهم فحققوا وحدانية ربهم وصدقوا برسله وانتفعوا بالآيات بخلاف أكثر النـاس فهم في غفـلة عن التفـكر في الآيات الدالة على الله وقـدرته ووحدانيته ، الذين قال الله عنهم : « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وقوله : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » أى في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال آيات تدل على توحيد الله وصدق ماجاءت به الرسل هذا المخلوق الانسانى وهذه المخلوقات العجيبة الأخرى التي تدب على الأرض لكن يغفل عن قيمته وعن أسراره الكامنة في كيانه حين يغفـل قلبه عن الايمان وحين يحرم نعمة اليقين إنه عجيب في تكوينه .

قال ابن القيم رحمه الله : وإذا تأملت مادعى الله سبحانه في كتابه عباده إلى التفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عمـوم قدرته وعلمـه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه .

فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته ونذكر لذلك أمثلة مما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها فمن ذلك خلق الانسان وقد ندب سبحانه إلى التفكر فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق » .

وقوله : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » ، ثم ساق آيات أخر قال بعد فلم يكرر سبحانه على أسماعنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقة والمضغة والتراب ولا لنتكلم بها فقط ولا لمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب وإليه جرى ذلك الحديث.

فانظر الآن إلى النطفة بعين البصيرة وهى قطرة من ماء مهين أي ضعيف مستقذر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم القدير من بين الصلب والترائب منقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذللة الانقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها ومجمعها .

وكيف جمع سبحانه بين الذكر والأنثى وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذى هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعد كل منهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضعواحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه .

ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشرقة علقة حمراء تضرب إلى السواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة فيشكلها وهيآتها وقدرها وملمسها ولونها انتهى كلامه .

ثم أنظر إلى تدبيره في الرحم وهو محجوب في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة ، حيث لا حيلة عنده في طلب غذاء ولا دفع أذى ولا استجلاب منفعة ولا دفع مضرة فإنه يجرى إليه من دم أمه مايغذيه كما يغذي الماء النبات فلا يزال ذلك غذاءه حتى إذا كمل خلقه واستحكم بدنه وقوى أديمه على مباشرة الهواء وبصره على ملاقاة الضياء هاج الطلق بأمه فأزعجه أشد ازعاج وأعنفه حتى يولد .

فاذا ولد صرف ذلك الدم الذي كان يغذيه من دم أمه إلى تدييها وانقطع الطعم واللون إلى ضرب آخر من الغذاء « اللبن » وهو أشد

موافقة للمولود من الدم فيوافيه في وقت حاجته إليه فحين يولد قد تلمظ وحرك شفتيه طلبا للرضاع فهو يجد ثديى أمه كالأداوتين المعلقتين بصدرها لحاجته فلايزال يغتذي باللبن مادام رطب البدن رقيق الأمعاء لين الأعضاء ٠

وقال ابن القيم أيضا رحمه الله : في كتابه مفتاح السعادة :

وانظر كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى : الأعصاب، والعظام ، والعروق ، والأوتار ، واليابس ، واللين وبين ذلك ، ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشده وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحما ركبه عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظا وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهى محفوظة به ٠

وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والفم والأنف وسائر المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رءوسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالانامل وركب الاعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والامعاء كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه ٠

ثم أنظر الحكمة البالغة في تركيب العظام قواما للبدن وعمادا له وكيف قدرها ربها وخالقها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة ، فمنها الصغير والكبير والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف ، وكيف ركب بعضها في بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى ومنها ماتركيبه اتصال فقط ٠

وكيف اختلف أشكالها باختلاف منافعها كالأضراس فانها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة ، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الانسان محتاجا إلى الحركة بجملة بدنه

وببعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظما واحدا بل عظاما متعددة وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة منه ٠

وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار وربطات أنبتها من أحد طرفي العظم وألصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط ثم جعل في أحد طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر نقرا غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل فيها وينطبق عليها فاذا أراد العبد أن يحرك جزءا من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر عليه ٠

وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة مافيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وخمسون عظما مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبه سبحانه وتعالى على البدن وجعله عاليا علو الراكب على مركوبه ولما كان عاليا على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الادراك كلها من السمع والبصر والشم والذوق واللمس ٠

وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أو زالت عن هيئتها وموضعها لتعطلت العين عن الابصار ٠

ثم ركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقا عجيبا وهو انسان العين بقدر العدسة يبصر به مابين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة القلب من الأعضاء فهو ملكها وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس ، فتبارك الله احسن الخالقين ٠

فانظر كيف شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما ثم جملهما بالأجفان غطاء لهما وسترا وحفظا وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار ويقيانها من البارد المؤذى والحار المؤذى ثم غرس في أطراف تلك الأجفان والأهداب جمالا وزينة ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة.

ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر الذي يخرق ما بين السماء والأرض يخرق السماء مجاوزا الرؤية ما فوقها من الكواكب، وقد أودع سبحانه هذا السر العجيب في هـذا المقدار الصغير بحيث ينطبع فيه صورة السماوات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها .

وشق له السمع وخـلق الأذن أحسن خلقـه وأبلغها في حصـول المقصود منها فجعلها مجوفة كالصدفة لتجمع الصـوت فتؤديه إلى الصماخ وليحس بدبيب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجه وجعل فيها غضونا وتجاويف وأعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حـدته إلى الصماخ .

ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصـل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو ينتبه لامساكه وفيه أيضا حكم غير ذلك .

ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين ملحا ليحفظهما فانها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظا .

وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعوم الأشياء على ماهي عليه إذ لو كان على غير هذه الصفة لأحالها إلى طبيعته كما أن من عـرض لقمة المرار استمر طعم الأشياء التى ليست بمر كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض ... يجد مرا به المـاء الزلالا

ونصب سبحانه قصبة الأنف في الوجه فأحسن شكله وهيأته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيها حاسة الشم التى تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به .

ثم لم يجعل في داخله من الأعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتتجمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يتصاعد في مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه .

ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فإنه لما كان قصبة ومجرى سائرا لما ينحدر فيه من فضلات الرأس ومجرى النفس الصاعد منه جعل في وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس ، بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب ، فيبقى الآخر للتنفس ، وإما أن يجرى فيهما فينقسم فلا يفسد الأنف جملة ، بل يبقى فيه مدخل للتنفس .

وأيضا فإنه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة،ولم يكن عضوين أو حاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فانه ربما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة ، وكان وجود أنفين في الوجه شينا ظاهرا فنصب فيه أنفا واحدا ، وجعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله أحسن الخالقين .

وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه ، وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع مايبهر العقول عجائبه .

فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه ، وجعله ترجمانا لملك الأعضاء مبينا مؤديا عنه ، كما جعل الأذن رسولا مؤديا مبلغا إليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار،واللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه مايريد ٠

واقتضت حكمته سبحانه أن جعل هذا الرسول مصـونا محفوظا مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الاعضـاء لمـا كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ٠

ولما كان اللسان مؤديا منه إلى الخارج جعل له سترا مصونا لعدم الفائدة في إبرازه لأنه لا يأخذ من الخارج الى القلب ٠ وأيضا فلأنه لمـا كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق يستره ويصونه ، وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصـدر ٠

وأيضا فإنه من ألطف الأعضاء وألينها وأشـدها رطوبة ، وهـو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به ، فلو كان بارزا صار عرضة للحرارة واليبوسة والنشاف المانع له من التصرف ولغـير ذلك من الحـكم والفوائد ٠

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان التى هن جمال له وزينة ، وبها قوام العبد وغذاؤه ، وجعل بعضها رحاء للطحن ، وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها ، وبيض لونها ، ورتب صفوفـها متساوية الرءوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضا وصفاء وحسـنا ٠

وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحـكم ما أودعهما ، وهما الشـفتان فحسن لونهـما وشكلهما ووضـعهما

وهيأتهما ، وجعلهما غطاء للفم وطبقا له،وجعلهما إتماما لمخارج حروف الكلام ونهاية له ، كما جعل أقصى الحلق بداية له واللسان وما جاوره وسطا ٠

ولهذا كان أكثر العمل فيها له ، إذ هو الواسطة ، اقتضت حكمته أن جعل الشفتين لحما صرفا لا عظم فيه ولا عصب ليتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما،وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخف أحسن ولأنه يشتمل على الاعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة ٠

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملامسة والصلابة واللين والطول والقصر ، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشتبه صوتان إلا نادرا ، ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم ، كما يميز البصير بينهم بصورهم ، والاشتباه العارض بين الاصوات كالاشتباه العارض بين الصور ٠

وزين سبحانه الرأس بالشعر وجعله لباسا له لاحتياجه إليه ، وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير ، فزينه بالحاجبين وجعلهما وقاية لما ينحدر من بشرة الرأس إلى العينين ، وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب ، وزين الوجه أيضا باللحية وجعلها كمالا ووقارا ومهابة للرجل ، وزين الشفتين فوقهما من الشارب وتحتها من العنفقة ٠

وكذا خلقه سبحانه لليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس مال معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه ، وعرض الكف ليتمكن به من القبض والبسط ، وقسم فيه الأصابع الخمس ، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ، والابهام باثنين ٠

وجعل الإصابع الأربعة في جانب والابهام في جانب لتدور الابهام على الجميع ، فجاءت على أحسن وضع صلحت به للقبض والبسط ، ومباشرة الأعمال ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق أفكارهم وضعا آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا ٠

فتبارك من لو شاءلسواها وجعلهاطبقا واحدا كالصحيفة فلايتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع تصرفاته ودقيق الصنائع والحط وغير ذلك ، فإن بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه مايريد ، وإن ضمها وقبضها كانتدبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بينالضم والبسط كانت مغرفة له يتناول بها ويمسك فيها ما يتناوله ٠

وركب الأظفار على رؤسهما زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا ينالها جسم الأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير ، وآلة لمعاشه وليحك الانسان بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذى هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه الانسان ثم ظهرت به حكة لاشتدت حاجته اليه ، ولم يقم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد اليد ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة ٠

ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن غليظة قوية لأنها أساسله ، وعظامأعاليه دونها في الثخانة والصلابة لأنها محمولة٠

ثم أنظر كيف جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ، ثم طبق بعضها على بعض وركب كل خرزه تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ، ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر ، ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة مركبة بعضها في بعض هى مجمع أضلاعه والتى

تمسكها أن تنحل وتنفصل ، ثم وصل تلك العظام بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين ، والعضدين بالذراعين ، والذراعين بالكف والأصابع .

وانظر كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع ، والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين .

فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظم مائتان وثمانية وأربعين مفاصل ، وباقيها صغار حشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الانسان يحتاج الى قلعة ولو نقصت عظما : واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره .

فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها ، والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه ، وكم بين النظرين .

ثم إنه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى بلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهى مختلفة في الغلظ والدقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومحالها .

فجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وفتحها وضمها وابصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كالآلات التى بها يتحرك ويتصرف ويفعل ، كل ذلك صنع الرب الحكيم ، وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين ، فويل للمكذبين ، وبعدا للجاحدين .

ومن عجائب خلقه أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن نافذا بعضهما إلى بعض خزانة في مقدمه ، وخزانة في وسطه،وخزانة في آخره ، وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعهما من الذكر والفكر والتعقل ٠

ومن عجائب خلقه مافيه من الأمور الباطنة التى لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمثانة ، وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة ، والقوى المتعددة المختلفة المنافع ، فأما القلب فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانى ، والحرارة الغريزة وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب ، وسائر صفات الكمال ٠

فجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب ، فان العين طليعته ورائده الذى يكشف له المرئيات ، فإن رأت شيئا أدته إليه ، ولشدة الارتباط الذى بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها ٠

فهى مرآته المترجمة للناظر ما فيه ، كما أن اللسان ترجمانه المؤدى للسمع مافيه ، ولهذا كثيرا مايقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث ، كقوله : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، وقوله : « وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة » ، وقوله : «صم بكم عمى» وقد تقدم ذلك ، وكذلك يقرن بين القلب والبصر ، كقوله : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم » ، وقوله في حق الرسول صلى الله عليه وسلم : « ماكذب الفؤاد ما رأى » ، ثم قال : « ما زاغ البصر وما طغى » ٠ وكذلك الأذن هى رسوله المؤدي إليه ٠ وكذلك اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده ٠

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب » ٠

وقال أبو هريرة : القلب ملك والأعضاء جنوده ، فإن طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبث الملك خبثت جنوده ٠

وجعلت الرئة كالمروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء حرارة، بل هو منبع الحرارة ، وأما الدماغ وهو المخ فإنه جعل باردا ٠ واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة : إنما كان الدماغ باردا لتبريد الحرارة التى في القلب ليردها عن الافراط إلى الاعتدال ٠

وردت طائفة هذا وقالت : لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيدا عن القلب ، بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة ،أو يكون قريبا منه في الصدر ليكسر حرارته ٠ قالت الفرقة الأولى : بعد الدماغ من القلب لا يمنع ماذكرناه من الحكمة ، لأنه لو قرب منه لغلبته حرارة القلب بقوتها فجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر ، وهذا بخلاف الرئة فإنها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته ٠

وتوسطت فرقة أخرى وقالت : بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة ، وفيه تبريد الخاصية فانه مبدأ للذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الأقذار ، والكدر خال من الأجلبة والزجل ، ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر ، واستخراج الصواب عند سكون البدن ، وفتور حركاته ، وقلة شواغله ومزعجاته ، ولذلك لم يصلح لها القلب ٠

وكان الدماغ معتدلا في ذلك صالحا له ، ولذلك تجود هذه الأفعال في الليل ، وفي المواضع الخالية ، وتفسد عند إلتهاب نار الغضب والشهوة ، وعند الهم الشديد ، ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية ، اهـ باختصار ٠

وقوله : « وفي السماء رزقكم » قيل : المطر الذى هو سبب الأرزاق، وقيل : مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار الرزق الدينى والدنيوي ٠

وقوله : « وما توعدون » أي أن ما وعد به جل وعلا من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه فلا تشكوا فيه ، كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون ، والله أعلم ٠

وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ٠

ما يستفاد من الآيات :

(١) إثبات صفة الكلام لله ٠

(٢) الرد على من أنكر صفة الكلام ٠

(٣) الحث على تقوى الله ٠

(٤) الثواب العظيم لمن اتقى الله ٠

(٥) إثبات البعث والحساب

(٦) إثبات الجزاء على الأعمال ٠

(٧) إثبات الجنة وأنها لمن أطاع الله واتقاه ٠

(٨) أن في الجنة عيونا جارية تشرب منها تلك البساتين ويشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا ٠

(٩) أن الله قد أعطاهم منَاهم من النعيم والسرور والغبطة ٠

(١٠) أنهم أخذوا ذلك راضين قد قرت به أعينهم وفرحت به نفوسهم ، إذ فيه ما يغنيهم ويفوق ما يؤملون ٠

(١١) أن أخذهم ذلك إعطاء من الله وتفضل منه ٠

(١٢) إثبات صفة الربوبية لله وتربيته تعالى لعباده نوعان : عامة ، وخاصة ، فالعامة هي خلقه للمخلوقين ورزقهم وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤها ، قال تعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ٠ والتربية الخاصة تربيته جل وعلا لأوليائه وأصفيائه فيربيهم بالايمان ويوفقهم له ويكملهم ، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير ، والعصمة من كل شر ٠

(١٣) أن العمل سبب لثواب الله للعبد ٠

(١٤) الحث على الأعمال الصالحة ٠

(١٥) الحث على الاحسان في عبادة الله ٠

(١٦) الحث على الاحسان إلى عباد الله ٠

(١٧) أن الجزاء من جنس العمل ، فكما أحسنوا في عبادة الله والى عباد الله حصلوا على حسن المثوبة من الله ، كما قال تعالى : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » ٠

(١٨) الحث على مراقبة الله ٠

(١٩) الحث على التيقظ ومراقبة النفس ٠

(٢٠) الحث على حفظ الوقت وإنفاقه في طاعة الله، والحذر من الغفلة

(٢١) الحث على قيام الليل وقطعه في صلاة وقراءة وذكر واستغفار وتضرع ودعاء ٠

(٢٢) أن الله يختص بفضله من يشاء فيوفق من شاء إلى قيام الليل، اللهم وفقنا لما وفقتهم له ٠

(٢٣) الحث على الاستغفار في السحر .

(٢٤) الحث على أداء الزكاة والتنسخ منها بطيب نفس .

(٢٥) الحث على البر والأعمال الخيرية .

(٢٦) الحث على الصلة .

(٢٧) اعطاء السائل ولو قليلا .

(٢٨) إعطاء المحروم كذلك .

(٢٩) لطف الله بخلقه حيث حثهم وبين لهم ودلهم على ما فيه صلاح دنياهم وأخراهم .

(٣٠) أن العباد ليسوا مهملين .

(٣١) سعة جود الله وكرمه .

(٣٢) إثبات قدرة الله .

(٣٣) أن الله جل وعلا شكور .

(٣٤) العمل على تخليص القلب من الشح والبخل .

(٣٥) التحذير من الاساءة .

(٣٦) أن هذا الوصف هو وصف المؤمن التقى دائما يخشى الله ، ويعمل له ، ويحاسب نفسه ، ثم يستغفر الله بالأسحار بعد ذلك .

(٣٧) إثبات صفة العلم لله ، فكما أنه عالم بما يمضي فهو عالم بما سيقع ، ومن ذلك ما أخبر به .

(٣٨) إثبات صفة الحكمة لله حيث أحل المتقين فيما جعلهم مستحقين له فضلا منه وكرما .

(٣٩) أنه ينبغي للانسان أن يشغل وقته إن لم يكن في صلاة ففى استغفار ، ولا يخفى ما ورد من الحث عليه .

(٤٠) الشفقة على الخلق .

(٤١) تقديم حاجة السائل قبل اندفاع حاجة المحروم ، لأنه يعرف حاله غالبا بمقاله ويطلب لقلة ماله غالبا فيقدم بدفع حاجته ، والمحروم غير معلوم فلا تندفع إلا بعد الاطلاع عليه .

(٤٢) أن في نفس الانسان آيات تدل على وحدانية الله .

(٤٣) الحث على التفكر والتدبر .

(٤٤) أن رزق العباد في السماء .

(٤٥) إثبات البعث والحساب .

(٤٦) إثبات الحساب والجزاء على الأعمال .

(٤٧) إثبـات الجنـة .

(٤٨) دليل على علو الله على خلقه .

(٤٩) إثبات الربوبية .

(٥٠) أن وعد الله حق ، والله أعلم .

وصلى الله على محمد وآله وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قال الله تبارك وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون • ولاتكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون • لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون • لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون • هو الله الذي لا إله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم • هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون • هوالله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » •

يقول تعالى ذكره : يا أيها الذين صدقوا الله ووحدوه اتقوه باداء الفرائض ، واجتناب النواهي ، والتقوى ، كما هو معلوم في وصية الله للأولين والآخرين،قال الله تعالى: «ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله » فمامن خيرعاجل ولا آجل إلا والتقوى سبيل موصل إليه ، وما من شر عاجل ولا آجل ظاهر ولا باطن إلا والتقوى حرز حصين للسلامة منه والنجاة من ضرره •

وقوله تعالى : « ولتنظر نفس ماقدمت لغد » أي لينظر احدكم ماقدم ليوم القيامة أمن الأعمال الصالحات إذا نظر إليها يوم ينظر المرء ماقدمت يداه سرته وفرح بها ، وتمنى الزيادة منها ، أم من السيئات المهلكات التى يود يوم القيامة لو أن بينه وبينها أمدا بعيدا !؟ فإن

الانسان إذا استحضر وقوفه بين يدى الله اهتم للمقام واجتهد في كثرة الأعمال الموصلة إلى مرضاة الله وقلل من العوائق والقواطع التى تضعف سيره إلى الآخرة ٠

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » ، رواه الترمذي وأحمد والحاكم وابن ماجه ٠

وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوها قبل أن توزنوا ٠

وعن جابر رضي الله عنه قال : كنا في صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء قوم عراة مجتابى النمار أو العباء ، متقلدى السيوف عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة فدخل ٠

ثم خرج فأمر بلال فأذن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال : « يا أيها الناس ، اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » إلى قوله : « ان الله كان عليكم رقيبا » ، والآية التي في الحشر : « يا أيها اللذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد » ، تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة ، قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجزعنها بل قد عجزت٠

ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء » رواه مسلم ٠

وقوله : « واتقوا الله » هذا تكرير للتوكيد كقولك : اعجل اعجل ، إلزم الزم لما يستدعيه الحال من التنبيه والحث على التقوى التي هي الزاد في المعاد ·

قال الأعشي :

أجدك لم تسمع وصاة محمد   نبي الاله حين أوصي وأشهدا
إذا أنتَ لم ترحل بزاد من التقى   وأبصرت بعد الموت من قد تزودا
ندمتَ على ألا تكون كمثله   وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقيل في تكرير ذكر التقوى : أن الأولى التوبة فيما مضى من الذنوب، والثانية : اتقاء المعاصي في المستقبل ، والمعنى خافوا الله بأداء فرائضه واجتناب معاصيه ·

وقوله : « إن الله خبير بما تعملون » من أسمائه تعالى الخبير ، وهو من الخبرة بمعنى كمال العلم ووثوقه والاحاطة بالأشياء على وجه الدقة والتفصيل ، وهو العلم بكل ما خفى ودق ، فالعلم عندما يضاف إلى الخفايا الباطنة يسمى خبرة ويسمى صاحبها خبيرا ·

والله جل وعلا لا يجرى في الملك والملكوت شيء ولا تتحرك ذرة فما فوقها وما دونها ، ولا تسكن ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا وعنده منها خبرة ، وهو يقرب من معنى اسمه تعالى اللطيف ·

ولهذا تجد في القرآن في بعض الآيات يقرن الله بينهما كما في قوله تعالى : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير » ، المعنى أنه تعالى ذو خبرة وعلم بأحوالكم ، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم وشئونكم فراقبوه في جليل أعمالكم وحقيرها ، واعلموا أنه سيجازيكم ويحاسبكم على

جميعها : النقير والفتيل والقطمير ، ولا يفوته شيء من ذلك ، قال تعالى: « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .
ثم ضرب جل وعلا الأمثال تحذيرا وانذارا فقال : « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » أي ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التى أوجبها عليهم فران على قلوبهم وأنساهم العمل الصالح الذى ينجيهم من عقابه .

وفي خطبة أبى بكر الصديق رضي الله عنه : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ، فمن استطاع أن يقضي الأجل وهو في عمل الله عز وجل فليفعل ، ولن تنالوا ذلك إلا بالله عز وجل ، إن قوما جعلوا آجالهم لغير الله فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم ، « ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم » ، أين من تعرفون من إخوانكم قدموا على ماقدموا في أيام سلفهم ، وحلوا بالشقاوة أو السعادة .

أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط قد صاروا تحت الصخروالآبار ، هذا كتاب الله لا يفنىعجائبه فاستضيئوا منه ليوم الظلمة ، واستضيئوا بسناه وبيانه ، إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته ، فقال تعالى : « إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين » لا خير في قول لا يراد به وجه الله ولا خير في مال لا ينفق في سبيل الله ولا خير في من يغلب جهله حلمه ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم .

وقوله : « أولئك هم الفاسقون » أي أولئك الناسون المخذولون بالانساء ، أصل الفسق الخروج أى الذين خرجوا عن طاعة الله ، ولما أرشد المؤمنين إلى مايصلحهم بقوله : « ولتنظر نفس ماقدمت لغد » وعدد الكافرين بقوله : « نسوا الله فانساهم أنفسهم » ثم وازن بين الفريقين ، من يعمل من الحسنات ، ومن يعمل السيئات ، فقال :

لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة » أى لا يستوى في حكم الله تعالى يوم القيامة الذين نسوا الله فاستحقوا الخلود في النار ، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود في الجنة ، كما قال تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم : ساء مايحكمون » .

وقال تعالى : « وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون » .

وقال تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ، وقال : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون » .

ثم بين عدم استوائهما فقال : « أصحاب الجنة هم الفائزون » أي الفائزون بكل مطلوب الناجون من كل مرهوب ، ففى هذا تنبيه إلى أن الناس لفرط غفلتهم وقلة تفكرهم في العاقبة وتهالكهم على إيثار العاجلة واتباعهم للشهوات الفانية كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، وشاسع البون بين أصحابهما وأن الفوز لأصحاب الجنة .

فمن حقهم أن يعلموا ذلك بعد أن نبهوا له ، كما تقول لمن عق أباه : هذا أبوك ، تجعله كأنه لا يعرف ذلك فنبه إلى حق الأبوة الذى يقتضي البر والعطف .

وبعد أن ذكر جل وعلا فرق المضلين من المنافقين والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى استعدادا لذلك اليوم ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن العظيم ، فقال : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله»

اى لو أنزل على جبل وهو حجر لرأيته يامحمد خاشعا متذللا متصدعا من خشية الله ·

فينبغي أن تخشع له القلوب وتتصدع عند سماعه ولو كانت في القسوة والصلابة كالجبال الرواسي ، لما فيه من وعد ووعيد وبشارة وإنذار ، وحكم وأحكام ·

فمواعظه أعظم المواعظ وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها ، وهي من أسهل شيء على النفوس وأيسرها على الأبدان ، خالية من التكلف لا انتقاض فيه ، ولا اختلاف ولا صعوبة ولا اعتساف يصلح لكل زمان ومكان ويليق لكل أحد ·

وقوله : « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » أي وهذه الأمثال التى أودعناها القرآن وذكرناها في مواضعها التى ضربت لأجلها واقتضاها الحال من نحو قوله تعالى : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وان منها لما يهبط من خشية الله » ·

وقوله : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة » وقوله : « ولو قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى » الآية جعلناها تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ·

فمن الناس من وفقه الله فاهتدى بها إلى سواء السبيل وفاز بما برضي ربه عنه وفاز بجنة عرضها السموات والأرض ومنهم من أعرض عنها وأبعد « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » وأدخله سقر « وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر » ·

وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عمل له المنبر وقد كان يوم الجمعة يخطب يقف إلى جانب جذع سمع هو ومن بالمسجد حنين الجذع . وهكذا تمضي الآية الكريمة ثم وصف سبحانه نفسه بجليل الصفات التى هى سر العظمة والجلال لخالق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما من مخلوقات ، فقال : « هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة » يقول جل ذكره إن الذى يتصدع الجبل من خشيته هو الاله المعبود الذى لا تنبغى العبادة والألوهية إلا له عالم الغيب والشهادة أى يعلم جميع الكائنات المشاهدات والغائبات فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ولامابينهما من جليل أو حقير أو كبير أو صغير يسمع دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء ويرى سريان القوت في الأعضاء وإن كانت الحيوانات في غاية الصغر وأعضاؤها في غاية الدقة كالبعوضة ونحوها وأصغر منها بكثير هو خالقها يعلمها ويراها لا إله إلا هو ولا رب سواه ، ثم وصف نفسه بعموم رحمته التى وسعت كل شيء ووصلت إلى كل حى فهو رحمن الدنيا والآخرة رحيم بأهل الايمان ثم أعاد جل وعلا ذكر الألوهية وانفراده بها فقال : « هو الله الذى لا اله الا هو الملك » أي هو المعبود الذي لا تصلح العبادة إلا له الملك الذى له الملك فهو الموصوف بصفة الملك وهي صفات العظمة والكبرياء والقهر والتدبير الذى له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء وله جميع العالم العلوي والسفلى كلهم عبيد ومماليك وفقراء ومضطرون إليه القدوس : الطاهر من كل عيب ونقص المنزه عما لا يليق بجلاله ، وعن قتادة القدوس المبارك : السلام أى السالم من جميع النقائص والعيوب لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله ، قال ابن القيم رحمه الله :

هذا ومن أوصافه القدوس ذو   التنزيل بالتعظيم للرحمن

وهو السلام على الحقيقة سالم   من كل تمثيل ومن نقصان

وقوله تعالى : « المؤمن » قال الضحاك عن ابن عباس : أمن خلقه من أن يظلمهم ، وقيل أمن بقوله إنه حق ، وقال ابن زيد : صدق عباده المؤمنين في إيمانهم به ٠

وقوله : « المهيمن » اي الشهيد على عباده بأعمالهم وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى ومقاتل يقال هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيبا على الشيء ، وقال الخليل هو الرقيب الحافظ ، كما قال تعالى : « والله على كل شيء شهيد » ، وقال : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الآية ، وقوله « والله شهيد على مايفعلون » ، وقوله العزيز الذى قد عز على كل شيء وقهر جميع الموجودات ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه فله أنواع العزة : عزة القوة وعزة الغلبة وعزة الامتناع ، قال ابن القيم رحمه الله :

وهو العزيز فلن يرام جنابه ... أنى يرام جناب ذو السلطان

وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان

وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذ ثلاث معان

وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

وقوله : « الجبار » هو بمعنى العلي الأعلى وبمعنى القهار وبمعنى الرءوف الجابر للقلوب المنكسرة وللضعيف العاجز ولمن لاذ به ولجأ إليه ، قال ابن القيم رحمه الله :

وكذلك الجبار من أوصافه ... والجبر في أوصافه قسمان

جبر الضعيف وكل قلب قد غدا ... ذا كسرة فالجبر منه دان

والثاني جبر القهر بالعز الذى ... لا ينبغي لسواه من انسان

وله مسمى ثالث وهو العلو فليس يدنو منه من إنسان

من قولهم جبارة للنخلة العليا التي فاتت لكل بنان

وقوله : « المتكبر » أى المتكبر عن السوء والنقص والعيوب ، الذى لا يليق التكبر إلا لعظمته ، كما في الصحيح : العظمة إزارى والكبرياء ردائي فمن نازعني واحدا منهما عذبته • ثم نزه سبحانه وتعالى نفسه عما يقول المشركون من الصاحبة والولد والشريك والمثيل ، فقال : « سبحان الله عما يشركون » ، وقوله : «هو الله الخالق البارىء المصور» أي هو الله المألوه والمعبود ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين الخالق لجميع الأشياء فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه البارىء الذى برأ الخلق فأوجدهم بقدرته المصور خلقه كيف شاء على الصفة التى يريدها والصورة التى يختارها كقوله تعالى : « في أى صورة ماشاء ركبك » ، وقوله : « له الأسماء الحسنى » أي له تعالى الأسماء الحسنى التى هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول •

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر » •

ولا يفيد هذا الحديث حصرها وإنما غايته أن هذه الأسماء موصوفة بأن من أحصاها دخل الجنة بدليل ماورد عن عبد الله بن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال ماأصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : « اللهم إني عبدك ابن عبدك وأمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها ، فقال : بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » •

ومراتب إحصاء الأسماء الحسنى ثلاث حفظها وفهمها ودعاء الله بها

دعاء مسألة ودعاء عبادة ، فدعاء المسألة يكون بلسان المقال ، ودعاء العبادة يكون بلسـان الحـال .

قال ابن القيم رحمه الله والدعاء ثلاثة أقسام :

احدها : أن تسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته .

والثاني : أن تسأله بحاجتك وفقرك وذلك فتقول أنا العبد الفقير المسكين البائس الذليل المستجير ونحو ذلك .

الثالث : أن تسأل حاجتك ولا تذكر واحداً من الأمرين ، فالأول أكمل وهذه عامة أدعية النبى صلى الله عليه وسلم ، وهذا القول قـد جاء عن غير واحد من السلف .

قال الحسن البصرى اللهم مجمع الدعاء .

وقال أبو رجاء العطاردى إن الميم في قوله اللهم فيها تسعة وتسعون اسمـا من أسمـاء الله تعـالى .

وقال النضر بن شميل من قال اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه اهـ وينبغي لمن سأل الله تعالى أن يسـأله بالاسم المقتضي لذلك المطـلوب المناسب لحصوله فطالب المغفرة يقول ياغفار اغفر لي وطالب التوبة يقول ياتواب تب علي وطالب الرزق يقـول يارزاق ارزقني ، وطالب العلم يقول ياعليم علمني ، وطالب العفو يقول ياعفو اعف عني ، وطالب الهداية يقول يا هادى اهـدني الخ .

وأسماء الله وصفاته توقيفية ، ومعنى ذلك أنه لا يتجاوز بها الوارد في الكتاب والسنة فهي تتلقى عن طريق السمع لا بالاراء فلا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يسمى إلا بمـا سمى به نفسـه أو سماه به رسول الله صـلى الله عليه وسـلم .

وقوله تعالى يسبح له ما في السموات والأرض : هذا إخبار منه جل وعلا أنه يسبح له جميع المخلوقات التى في السموات والتى في الأرض أى تنزهه وتقدسه عما لا يليق بجلاله وعظمته ·

وقد اختلف في كيفية هذا التسبيح فقيل هو على حقيقته بلسان المقال وإن كان البشر لا يفقهون هذا التسبيح ويدل على ذلك قوله تعالى في آية سورة الاسراء « ولكن لا تفقهون تسبيحهم » فإنه لو كان المراد تسبيح الدلالة لكان أمرا مفهوما لكل أحد ويؤيده أيضا قوله تعالى : « وسخرنا مع داود الجبال يسبحن » فلو كان هذا التسبيح من الجبال تسبيح دلالة لم يكن لتخصيص داود فائدة ·

وقد ثبت في الصحيح أنهم كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث الجذع الذى كان يخطب عليه النبى صلى الله عليه وسلم وحديث أن حجرا بمكة كان يسلم على النبى صلى الله عليه وسلم كلها في الصحيح ومن ذلك تسبيح الحصي في كفه صلى الله عليه وسلم ·

ومن ذلك ما في الحديث الذي رواه أبو هريرة بينما رجل يسوق بقرة اذ عيي فركبها فضربها فقالت إنا لم نخلق لهذا إنما خلقنا لحراثة الأرض فقال الناس سبحان الله : بقرة تتكلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنى أومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر ·

ومن ذلك ماورد عن على بن أبى طالب رضي الله عنه قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فخرجنا في نواحيها خارج مكة بين الجبال والشجر فلم يمر بشجرة ولا جبل إلا قال سلام عليك يا رسول الله · وفي الحديث الآخر بينما رجل في غنم له إذا عدا الذئب على الشاة فادركها صاحبها فاستنقذها ، فقال الذئب فمن لها يوم السبع يوم لا راعي لها غيري ·

وذكر ابن المبارك في دقائقه أخبرنا مسعر عن عبد الله بن واصل عن عوف ابن عبد الله قال : قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إن الجبل يقول للجبل يافلان هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل فإن قال نعم سر به ثم قرأ عبد الله وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدأ » قال أفتراهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير .

وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال ما من صباح ولا رواح إلا تنادي بقاع الأرض بعضها بعضا ياجارة هل مر بك اليوم عبد فصلى لله أو ذكر الله عليك ؟ فمن قائلة لا ٠ ومن قائلة نعم ٠ فإذا قالت نعم رأت لها فضلا عليها ٠

وقال صلى الله عليه وسلم لا يسمع صوت المؤذن جن ولا أنس ولا شجر ولا حجر ولا مدر ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ٠

وفي الحديث الآخر أنه صلى الله عليه وسلم دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل ، فقال لهم « اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذِكْراً لِلهِ منه » ٠

وقال قتادة عن عبد الله بن أبى عن عبد الله بن عمرو أن الرجل إذا قال لا إله إلا الله فهى كلمة الاخلاص التى لا يقبل الله من أحد عملا حتى يقولها وإذا قال الحمد لله فهي كلمة الشكر التي لم يشكر الله عبد قط حتى يقولها وإذا قال الله أكبر فهى تملأ ما بين السماء والأرض وإذا قال سبحان الله فهي صلاة الخلائق التى لم يدع الله أحدا من خلقه إلا قرره بالصلاة والتسبيح وإذ قال لا حول ولا قوة إلا بالله قال أسلم عبدى واستسلم ٠

وفي سنن النسائي عن عبد الله بن عمرو قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الضفدع وقال إن نقيقها تسبيح :

وقيل : ان المراد به تسبيح الدلالة بلسان الحال ، أي بما تدل عليه صنعتها من قدرة وحكمة ، فهى تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجود الله وتفـرده بالربوبية والوحدانية ، كما قيل :

تأمل في نبات الأرض وانظـر ... إلى آثار مـا صـنع المليـك

عيـون من لجـين شـاخصات ... باحداق هي الذهب السبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بـأن الله ليس له شريـك

وقال الآخـر :

تأمل سطور الـكائنات فإنهـا ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد كان فيهـا لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطـل

وقوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » تقدم اسمه تعالى العزيز ، وأما الحكيم فمأخوذ من الحكمة وله معنيان : أحدهما بمعنى القاضي العدل الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري ، وله الحكم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : « وله الحكم في الأولى والآخرة وإليه ترجعون » ، والثاني : أنه محكم للأمر كى لا يتطرق إليه الفساد ، والله أعلم وصلى الله على محمد وآله وسلم ٠

ما يفهـم من آيات الدرس :

(١) الأمر بالتقوى ٠

(٢) إثبات الألوهية ٠

(٣) التنبيه على قرب الساعة من قوله لغد ٠

(٤) إثبات البعث ٠

(٥) إثبات الحساب ٠

(٦) إثبات الجزاء على الأعمال ٠

(٧) الحث على محاسبة النفس وتفقدها ٠

(٨) تكرير الأمر بالتقوى والاهتمام بها ٠

(٩) الحث على الاستحضار للوقوف بين يدى الله ٠

(١٠) الحث على الاكثار من الأعمال الصالحة لأنها الزاد لذلك اليوم

(١١) إثبات الأسماء لله ٠

(١٢) إثبات صفة الخبرة ٠

(١٣) دليل على سعة علم الله ٠

(١٤) الحث على مراقبة الله الذى يرى أعمال العباد ظهرت أوخفيت

(١٥) لطف الله بخلقه حيث حثهم إلى ما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة ٠

(١٦) ضرب الأمثال تحذيرا وإنذارا ٠

(١٧) أن من نسي الله أنساه نفسه ٠

(١٨) أن الجزاء من جنس العمل ٠

(١٩) إنه حكم عدل ٠

(٢٠) أن العباد هم الذين يظلمون أنفسهم فيقعوا في العقوبات ٠

(٢١) إن أولئك هم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله ٠

(٢٢) الموازنة بين من يعمل الحسنات ومن يجترح السيئات ٠

(٢٣) أنه لا يستوى الذين نسوا الله والذين اتقوا الله ، وأن بينهما فرقا واضحا لكن عمى البصائر لا يبين لها الهدى ٠

(٢٤) فوز حزب الله أصحاب الجنة بالفوز المطلوب والنجاة من المرهوب ٠

(٢٥) دليل علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب ٠

(٢٦) دليل على علو الله ٠

(٢٧) دليل على أن القرآن منزل ٠

(٢٨) الرد على من قال إنه مخلوق ٠

(٢٩) الرد على من قال إن هذا عبارة أو حكاية عما في نفس الله ٠

(٣٠) أن الجمادات تخشع لعظمة الله ٠

(٣١) توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر مافيه مِن الزواجر والمواعظ التى تذل لها الجبال الراسيات ٠

(٣٢) إثبات الألوهية ٠

(٣٣) إثبات الوحدانية ، اثبات صفة الملك ٠

(٣٤) إثبات صفة التقديس ٠

(٣٥) إثبات الأسماء لله ٠

(٣٦) إثبات صفة السلامة ٠

(٣٧) إثبات صفة الايمان ٠

(٣٨) إثبـات صـفة الهيمنـة .

(٣٩) إثبـات صـفة العـزة .

(٤٠) إثبـات صـفة الجـبر .

(٤١) أن الـكبرياء لله .

(٤٢) الحث على تنزيه الله .

(٤٣) النهي عن الشرك .

(٤٤) إثبـات صفة العـلم .

(٤٥) إثبـات صـفة الرحمـة .

(٤٦) أن الله يعلم الغائب والشاهد .

(٤٧) ضرب الأمثال في القرآن .

(٤٨) الحث على التفـكر .

(٤٩) دليل على أن لله الحجة البالغة .

(٥٠) دليل على أن الخلق لم يقدروا الله حق قدره وإلا لمـا عصوه وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

(٥١) إثبـات صـفة الخلق .

(٥٢) اثبـات صـفة البرء .

(٥٣) إثبـات صـفة التصـوير .

(٥٤) أن لله الأسماء الحسنى .

(٥٥) أن ما في السموات وما في الأرض يسبحون لله .

(٥٦) إثبـات صـفة الحـكمة .

(٥٧) ثبات قدرة الله ٠

(٥٨) الحث على تلاوة القرآن ٠

(٥٩) أن القرآن يلين القلوب القاسية ٠

(٦٠) اثبات صفة الكلام ٠

(٦١) الرد على من أنكر صفة الكلام ٠

(٦٢) الرد على من أنكر صلة العلم كالجهمية والقدرية ٠

(٦٣) الرد على من أنكر علو الله على خلقه ٠

(٦٤) إن أسماءه حسنى ٠

(٦٥) الرد على من قال إن القرآن كلام محمد أو جبريل أو غيرهما ، بل هو كلام الله العلى العظيم ٠

وكان الفراغ من هذا الكتاب في ليلة الثلاثين من صفر بعد صلاة العشاء سنة ١٤٠٢ ٠

هذا وأسأل الله الحي القيوم العلى العظيم، القوي العزيز القريب المجيب أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به من قرأه ومن سمعه ، وأن يأجر من طبعه وقفاً أو أعان على طبعه أو تسبب لطبعه ونوزيعه على إخوانه المسلمين آمين.

اللهم صل وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه اجمعين ٠

عبد العزيز بن محمد بن سلمان
غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

فهرس الأنوار الساطعات

الموضـــــوع	صفحـة
الحث على التفكر في خلق السموات والأرض	من ١٣٦/ إلى ١٤٨
مما يفهم من الآيات من الأحكام	من ١٤٩/ إلى ١٥٤
في الحقوق العشرة	من ١٥٤/ إلى ١٧٥
مما يؤخذ من الآية	من ١٧٥/ إلى ١٧٨
في العدل وأداء الأمانة	من ١٧٨/ إلى ١٨٩
مما يؤخذ من الآيات	من ١٨٩/ إلى ١٩٣
في الحث على طاعة الله وطاعة رسوله	من ١٩٣/ إلى ٢٠١
مما يؤخذ من الآيات	من ٢٠١/ إلى ٢٠٥
الحث على الصدقة والمعروف والاصلاح بين الناس	من ٢٠٥/ إلى ٢٢٩
مما يؤخذ من الآيات	من ٢٢٨/ إلى ٢٣٣
الوضوء والتيمم	من ٢٣٣/ إلى ٢٤٨
مما يفهم من الآية	من ٢٤٨/ إلى ٢٥٥
الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	من ٢٥٥/ إلى ٢٦٦
مما يؤخذ من الآيات	من ٢٦٦/ إلى ٢٧٠
عاقبة من افترى على الله الكذب	من ٢٧٠/ إلى ٢٨٤
مما يفهم من الآيات	من ٢٨٣/ إلى ٢٨٧
التحذير من فتنة الشيطان	من ٢٨٧/ إلى ٣١١
مما يؤخذ من قوله تعالى يا بني آدم الآيات	من ٢١٠/ إلى ٣١٨

الموضـــوع	صفحـــة